الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العددان ٤٣ ـ ٤٤ ربيع وصيف ١٩٨٥ ـ السنة الثانية عشرة



عدد خاص بالأدب الصيني

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

ربيع - صيف ١٩٨٥ العدد ٤٣ - ٤٤

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الاجنبية »

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي.

* توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير .

* يرجى من الاساتذة الذين يرسلون مواد مترجمة بغية النشر في المجلة ان يرفقوها بالاصل الاجنبي وان يذكروا المرجع بوضوح .

* يرجى من الاساتذة المترجمين عدم التصرف في النصوص والعناية بصحة العبارة العربية .

* المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :

- للافراد والدوائر الرسمية ٢٤ ل . س

في البلاد العربية :

- البريد العادي ٣٦ ل .س

في البلاد الاجنبية :

- البريد العادي ١٢٥ ل .س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي .

المراسلات

باسم رئيس التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

دمشق - اوتستراد المزة

ص . ب ٣٢٢

هـ ٢٤٤٣٢٩

٢٤٤٢٩٩

تصميم الغلاف : سليم عماري

إخراج : سمير حطاب

المحتوى

المحتوى

كلمة التحرير

بقلم : رئيس التحرير

كنت أعتقد دائماً أن جمال الطبيعة جمالان بوجه عام : ذلك الجمال الناعم الغافي الرقراق الصافي الهادىء الذي يخور الإحساس لأول وهلة اتصال به ، وذلك الجمال الباهر المشع المتوهج الذي يفرض نفسه عليك ويكاد يستل النفس ويوقف النبض .

وكان يؤيد هذا التصنيف عندي ما كنت أقرأه من أوصاف فائقة للطبيعة عند الشاعرين الإنكليزيين شلي وكيتس بوجه خاص .

وكنت دائماً أتوقع وجود صنف ثالث من جمال الطبيعة من خلال ما أراه من صور ورسوم لطبيعة الصين الفريدة من نوعها ، وكنت أتهيب تلك اللحظة التي تصافح فيها عيناي الأصل بدلاً من صورة ـ المحاكاة ـ .

أخيراً في يوم من أيام نيسان ١٩٨٥ ربيعي ، مشرق ، تضيئه ملايين الشموع الشمسية ، وجدتني وجهاً لوجه أمام جبال وتضاريس وأزهار وأشجار وألوان وأشكال وشيات ، تؤلف لوحاتها المتعاقبة المتداخلة أكبر تحد للأديب أو الفنان المتذوق أو الفتاة العاشقة أو عابر السبيل ، ليس من ناحية المقدرة على وصفها أو رسمها أو اختزانها في الذاكرة بأية صيغة من صيغ الاختزان ، بل قبل ذلك كله من ناحية ملامستها وإدراكها وتذوقها والتفاعل معها .

إنها طبيعة آسرة ، نعم ، وجميلة ، نعم ، وأخاذة ، نعم ، ومؤثرة ، نعم ، ولكن ماذا بعد ؟

في ضاحية من ضواحي بكـين ـ أو على الأصح بيجـين ـ اسمها ـ تلة الشذى ـ ، تغفو بقعة فردوسية ، لا هي جنة أرضية ولا هي جنة سماوية ، قدر لي أن أمضي في كنفهـا سبعـة أيام بلياليها ، لم تقع فيها العين إلا على مفاجأة مدهشة . مجموعة تلال ومرتفعات تقبع في حضن تل كبير ، كلما سرحت فيها البصر ازددت عجباً وإعجاباً . هناك أولاً على طول خط العمود الفقري للتل سلسلة من الأشجـار المـورقة التي تشكل علامات حدود بين طبيعة وطبيعة ، والتي تعتـز دون سواها من ظاهرات الطبيعة ، بأنها تستطيع هي نفسها ، بما تمتاز به من موقع مشرف مطل على جانبي سنام الجبل ، أن تتمتع بالطبيعة عن يمين وشمال ، وأن تعبّ من التركيب البصري الزاخر لمئات الألوان المتداخلة ، وأن تستنشق العطر الفواح لمئات الأصناف من مسام الأزهار والأشجار التي هي في حالة ـ ساونا ـ طبيعية دائمة تنضح بالمسك والعنبر والياسمين وما يسمى وما لا يسمى من أنـواع الأريج . . . هذا الخط الشجـري الشـامـخ على خطوط القمم دائماً كان يثير حسدي . إنه فوق الأفق ، وفوق الحدود والسدود ، إنه يد الأرض الممتـدة إلى السـماء ، إنـه رسـالة المحدود إلى اللامحدود ، والمقيد إلى المنفلت من القيد .

ومن تحت هذا الصف اللامتناهي من الأشجار هناك أنواع لا تحصى من الأشجـار والشجـيرات والنبـاتـات والأعشـاب والأغصـان والأحجـار والصخور . . . عجيب تشابكها ، غريب تآلفها وتضادها ، مثير تنوعها . . . وأعجب من ذلك كله أنها تشبه سجادة صينية محبوكة بدقة أسطورية وذلك في تفحصهـا لكـل خيط ولكـل ـ قطبـة ـ ولكل مزاوجة بين لون ولون . في هذا الـوسط الـزاخـر السندسي تتبرقع بعض شجرات اللوز البري غير الداجن ، وتتبرج بمدرج له أول وليس له آخر من تموجات اللون الأبيض وتشع وتشع ، وفي كل لحظة من لحظات النهار تعطي المنظر بمجمله تلويناً خاصاً وطابعاً مختلفاً

وتزيده سحراً على سحر . . وكلما دققت في المنظر اكتشفت من ألوان الزركشة والـزخـرفـة والنمنمـة ، وتـدخيل اللون في اللون والشكل في الشكل ، ومن التلاعب بالأشكال وطيها ونشرها ، ما لا يمكن أن يكون مجرد تجل عفوي وإنما هو عملية حوك متعمـدة مثلما تحاك سجـادة أو يطرز برد صيني من الحـرير الطبيعي ، أو ترسم لوحة :

يقول الشاعر العربي في ذلك :

أضحت تصوغ بطونها لظهورها نـوراً تكـاد له القلـو تنـور

ويقول الشاعر الصيني زهانغ زهيمين :

وحين يهطل (المطر)
فإنه يأتي ناعماً رشيقاً
وحين يخف بالتدريج
يكون لطيفاً وعذب الوقع
لا يكاد هذا يكون مطراً
إنه أشبه بعملية رسم
تقوم به الغادة السماوية
وهي تدلق ألوانها المائية

مرة قال لي أحـد أصدقائي الرسامين أنه أمضى سبعة أعوام يحاول أن يتعلم طريقة الرسم الصيني فما أفلح .

واليوم أقول له أن سر الرسم الصيني والتطريز الصيني والخط الصيني في الطبيعة الصينية ، في ذلك الصنف الثالث من الجمال الطبيعي الذي قد تدركه

المعرفة ولكن لن تحيط به الصفة .

هذه الطبيعة المعجزة ، عاش في رحابها على مدى آلاف السنين التاريخية المعروفة ـ وربما على مدى آلاف السنين الضوئية غير المعروفة ـ شعب عظيم مقبل على الحياة ، حفل تاريخه بالأمجاد والبطولات ، وبالإنتاج والبناء ، وبروائع العمارة والنحت والموسيقى والتصوير ، وبأرفع أشكال الإبداع الأدبي ، وبأصفى بدائع الحكمة الإنسانية .

كل ما في الصين عظيم مترامي الأبعاد ، من سكانها حتى طبيعتها حتى إبداعها ، والمعجزة الصينية على مدى التاريخ تتلخص ـ استناداً إلى ما تنطق به طبيعة الصين وحضارتها وتاريخها ـ في أنها جمعت بين صحافة (الماكرو) ودقة (الميكرو) ، فكان من ذلك تركيب متفرِّد لا نظير له .

وفي هذا العدد المتواضع ، الذي نضعه بين يدي القارىء العربي الذي لا تتاح له دائماً فرصة التماس مع الإبداع الصيني ، نأمل أن نقدم مجرد مدخل لأدب الصين ، لا يزعم لنفسه ادعاء الإحاطة أو الاستقصاء أو حتى الاكتفاء ، وإنما يرجو أن يحمل إلى القارىء (تحريضاً) قوياً يدفعه إلى الغوص في تلك الكنوز السندسية الثرّة .

فإذا قام عددنا هذا ببعض هذه الرسالة ، نكون قد أبرأنا ذمتنا وهيّأنا الجو لمرحلة قابلة من التخصص والتعمق .

دمشق ، أيار ١٩٨٥

د . حسام الخطيب

دراسات

المسيرة الطويلة للفكر والأدب في تاريخ الصّين

د. محمد حرب فرزات

* ١ ـ مدخل

المجال الجغرافي للحضارة الصينية :

تشكل آسية الشرقية الواقعة تحت تأثير الحضارة الصينية مجموعاً بشرياً وجغرافياً واسعاً ومعقداً ومتنوعاً سواء في تكوينه البشري أم في تركيبه البيئي . ويمتد هذا العالم من خط الاستواء إلى سيبريا ، ومن المحيط الهادي إلى قلب القارة الآسيوية . وقد تكونت جاليات صينية كبيرة خارج الصين كما في جاوة وماليزيا وفي حوض نهر آمور . لكن تأثير الصين على غيرها وتأثر الصين بغيرها يجعلان محيط دائرة التأثير المتبادل أكبر وأكثر اتساعاً .

وللصين مكانة خاصة في هذا العالم ، فعندما كان يتحدث المرء عن الشرق الأقصى ظلّ يعني إلى فترة قريبة الصين على وجه التحديد . فقد كانت الصين الأولى بين بلدان الشرق الأقصى في تفتحها على الحضارة بمفاهيم موازية للمفاهيم التي أدّت إلى ظهور حضارات مصر وبلاد الرافدين وسورية وبلاد اليونان والرومان . وقامت علاقات مبكرة مع المراكز الأولى للحضارات

القديمة في العالم . فمنذ العصر الحجري الحديث وعصر البرونز انعقدت الصلات بين مجتمعات وادي النهر الأصفر هوانغ هو في الصين وبين مجتمعات الشرق الأدنى القديم وأوربا الشرقية وسيبريا وحوض بحيرة بايكال ، وتحركت مراكب الصينيين القدماء إلى المحيط الهندي والسواحل الغربية لأمريكا الشمالية . أمّا الأقطار المجاورة المحيطة بالصين وهي كوريا واليابان وفيتنام فقد دخلت إليها الحضارة عن طريق الصين .

لقد استطاعت الصين بفضل الفراغ الكبير الذي يحيط بها براً أن تبقى في معزل عن الحضارات الكلاسيكية في الغرب وهي تحتمي بالصحارى والسهوب الواسعة والهضاب العالية الحارّة أو المتجمدة . ولكن على الرغم من هذا الجدار الطبيعي المحيط بأرض الصين فإن الصلات لم تنقطع خلال التاريخ بين الصين والحضارات العظيمة في قارة أوراسيا (أوربا وآسيا) .

لقد توصلت الصين إلى قيم إنسانية ليست بالضرورة القيم الإنسانية التي توصلت إليها حضارات حوض البحر المتوسط ، ولذا فإن **دراسة الإنسانية الصينية** تمثل أهمية خاصة بما تقدمه لنا من تجربة حضارية مميزة منذ انتشار الزراعة واختراع التقنيات الأولى حتى عصرنا الحاضر .

فبعد أن شقت الصين لنفسها طريقاً لتجربة حضارية خاصة أخذت تحتك بحضارات الشرق الأدنى منذ القرن الأول ق . م . عن طريق الهند التي دخل شماليُّها في إطار الحضارة الهلنستية وقد مهّدت الصين لهذا الاحتكاك بسفارة قادها جانغ جيانغ إلى بلاد آسية الغربية مارّاً بآسية الوسطى ثم بارثيا (إيران القديمة) ، سعياً وراء تمتين العلاقات التجارية ، وقد نجح في فتح طريق التجار إلى بلاد الشرق العربي القديم وأخذت القوافل تفد حتى مدينة سلوقية على نهر دجلة . وفي الربع الأخير من القرن الأول (٧٤ ـ ١٠٢) تمكن القائد الصيني بان تشاو (بانجو) من إصلاح طريق تجارة الحرير من الصين

وهضبة بامير ومن فتح طريق يؤدي مباشرة إلى العالم الهندي ـ الإيراني حيث كانت تكونت في البلاد التي دعيت بعدئذ ، وفي أيامنا هذه باكستان وأفغانستان ، ثقافة هي حصيلة لقاء حضارات الشرق بحضارة اليونان التي حملتها جيوش الاسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م . ثم جيوش الامبراطورية السورية السلوقية في القرن الثالث ق . م التي كانت تتحرك من عاصمتها أنطاكية الوفود والبعوث وتنطلق القوافل إلى الشرق ، حيث ترك التجار السوريون بصماتهم منقوشة بالآرامية على صخور وجرف الجبال في ممرات أفغانستان عند تاكسيلا وقندهار لكي تدلّ المسافرين وعابري السبيل على الطريق إلى تدمر وأنطاكية ، بينما كانت البوذية تتغلغل بدورها حاملة ثقافة الهند وتعاليمها إلى الصين عن طريق التجار والمتعبدين .

وقد وصف المؤرخ الصيني شي ماجيان الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد واحتل مكانة بين المؤرخين الصينيين تقابل ما لابن خلدون عند العرب حركة التجارة قائلاً : « كان التجار من بلاد الغرب (يقصد غربي آسية) يزورون عاصمة الصين ويصلون أحياناً بالعشرات وأحياناً يبلغون المئات يحملون البضائع ومنها خيول كان يحبها الملك أكثر من البضائع الأخرى . . . » .

وقد أضحى التنافس شديداً بين الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية الشرقية من أجل توثيق العلاقات التجارية المباشرة مع الصين ، فقامت بعثة رومانية بزيارة للصين انطلقت بحراً من الخليج العربي . كما أن المراكب الهندية والصينية كانت تتقدم إلى فم الفرات متّجرة مع بلاد الحيرة كما ذكر المسعودي ، بينما تحدث ابن عبد ربه في العقد الفريد عن اتصالات دبلوماسية بين الصين ومملكة الحيرة العربية والتقى الحكيم العربي أكثم بن صيفي بحكماء من الصين في بلاط ملك الفرس فلا عجب إذن أن يكون لحكمة الصين من الشهرة

ولعلمها من الرفعة ما هو معروف في صدر الدعوة الإسلامية .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الاحتكاك يزداد بين الشرق الأقصى والغرب عن طريق شعوب السهوب التي كانت تنطلق من وسط آسية متجهة إلى الشرق وإلى الغـرب ، وهي شعوب الهون والمغول والترك التي انطلقت على خيولها في أيام أتيلا وجنكيز خان وتيمورلنك ؛ ففي تلك المراحل الرهيبة من التحرك البشري وما حمله معه من أهوال التغيير اندمج مصير الصين بمصير التارخ الإنساني كله .

لقـد عرفت الصـين الـوحـدة السياسية في عصور طويلة من تاريخها ، ونشأت هذه الوحدات في أعقاب أدوار طويلة من الصراع كان من نتائجه إنشاء أنظمة إدارية وتقاليد تاريخية متداولة ، لكن التقاليد المروية عن تاريخ الصين لا توضح لنا إلاّ صورة تطور النظام السياسي الذي رسخت فيه تقاليد جعلت للصين صورة مزيفة ووحيدة الإطار ، لا تكشف عما في المجتمع من تعدد في الأنـماط الاجتماعية والأنظمة الاقتصادية والخبرات التقنية وتخفي هذه الوحدة الخادعة وراءها التنوع في الأعراق والثقافات والبنيات الجغرافية . وهكذا فإن اصـطلاح (**الصـين**) يمثـل حقيقـة جغرافية سياسية وحضارية ، إنها أرض متغـيرة الحدود خلال التاريخ خضعت لسلطات أصلها أجنبي لكنها أضحت صينية الثقـافـة والتـاريخ والهوية . أما لغوياً فالصين تتجاوز حدودها كثيراً إذ يتضح من الدراسات اللغوية الحديثة ، وخلافاً للمرويات التقليدية إن اللغات الأقـرب إلى الصينية أي لغة الهان هي لغات تاي Thai وهي المتداولة في بلاد الهند الصينية ويتكلمها التايلانديون (السياميون) واللاوسيون وشعوب يون ـ نان في جنوبي الصين وهي ذات صلة وثيقة بلغات بورما والتبت .

ولقـد كان التعدد في العروق والثقافات في الصين أكبر بكثير عند نهاية الألف الأول ق . م . مما هو عليه الحال في عصرنا الحاضر . فالمناطق الواقعة

جنوبي يانغ تسي كانت مأهولة بعروق غير موجودة في أيامنا هذه إلاّ بأعداد تنتمي إلى أصول تاي وتتكلم لغات تنتسب إلى لغة تاي (سيام) ولاوس .

وتعيش جاليات صينية كبيرة خارج الصين لها نفوذ كبير في مناطق ليست صينية مثل سنغافورة وبينانغ في ماليزيا وفي شولون في فيتنام . حيث تقوم هذه الجاليات بدور هام في العلاقات بين بلاد إقامتها وبين الصين . ولقد دخلت بلاد غير صينية في إطار الصين عصوراً طويلة فبقيت كوريا تحت حكم الصين أربعة قرون كما بقيت فيتنام كذلك ألف عام . وامتد تأثير الصين الحضاري في عصور سالفة إلى اليابان التي اكتسبت من الصين نظام كتابتها . وكما أن التاريخ السياسي للصين لا يمكن فصله عن تطور التاريخ السياسي للبلاد المجاورة وهي كوريا واليابان ومنغوليا والتبت وفيتنام وكذلك بلاد أبعد مثل الهند وإيران وجنوب شرقي آسية حيث قامت علاقات وعقدت صلات كانت لها نتائجها الهامة في مسيرة التاريخ ، فإن الحضارة الصينية مثل غيرها من الحضارات الرئيسية والكبيرة هي محصلة لثقافات وحضارات وشعوب متعددة هي شعوب السهوب (الترك والمغول) وشعوب الجبال والهضاب (التبت) ومجتمعات حوض يانغ تسي في جنوبي البلاد وشعوب أخرى غير صينية من الجنوب والجنوب الغربي وأخيراً شعوب مستقرة من واحات آسية الوسطى . ويمكن أن نقرر بأنه يوجد مجال جغرافي للحضارة الصينية تمّت الاتصالات والمبادلات منذ عصور مبكرة عبر طرقه في البر والبحر بين الناس والنبات والحيوان والمنتجات والتقنيات والأفكار والنظم وبدون ذلك لم يكن من الممكن أن يكون التاريخ كما هو .

إن الصين في تاريخنا المعاصر قوة عظمى كما كانت في مراحل طويلة من التاريخ ، وعدد سكانها يبلغ مليار نسمة ، وهو ربع عدد سكان العالم . والصين في أيامنا جمهورية شعبية ، تتألف من عدة قوميات تضم صينيين

أكثريتهم من الهان وشعوباً تركية ومغولية وأقواماً من التاي والتبت والبورميين . لكن هذه الجمهورية تقوم على أرض هي أرض الصين القديمة التي تقلبت عليها أدوار التاريخ الصيني العريق الطويل ؛ وتتألف من اثنين وعشرين إقليم تمتد من وادي نهر آمور شمالاً حتى جبال هملايا (سقف العالم) جنوباً بما فيها الجزر الواقعة على مقربة من الساحل الصيني . إلاّ أن أهم هذه الجزر هي فورموزا ، تاي - واي التي تقوم فيها حكومة صينية منفصلة هي جمهورية الصين الوطنية .

٢ - ملامح خاصة بالحضارة الصينية :

لآسية المطبوعة بالحضارة الصينية ملامح خاصة بها تميزها عن الحضارات الأخرى . فقد حبتها الطبيعة بنباتات خاصة أهمها البامبو الذي يتوافر بغزارة ويستخدم لأغراض كثيرة جداً لا يمكن حصرها . أما نظام الرياح الموسمية فقد هيأ الظروف المناخية المناسبة للملاحة مسافات طويلة من اليابان إلى المحيط الهندي . وللإنسان الصيني بصفة عامة ملامح مميزة يُعرف بها كما يعرف بثقافته ولغته وأسلوبه في العمل . فللحضارة الصينية خصائصها التقنية كما في طرق الحمل والنقل والبناء فالصينيون أنجزوا بناء أعظم السدود وشادوا أعظم الأسوار . وقد بقوا زماناً طويلاً لا يستعملون البرغي ويستعيضون عنه بأدوات أخرى . وكانوا يتميزون باستخدام الآلة التي تدار بالدواسة لتحريك الدولاب بواسطة سير أو قشاط .

وإذا كان العالم الصيني قريباً من العالم الهندي جغرافياً فإنه يختلف عنه بعمق . فحب الملموس والحالة الخاصة وحس التاريخ وتفضيل الوضوح والإيجاز هي خصائص في الثقافة الصينية يقابلها دقة التحليل النظري وحب التصنيف والأعمال الأدبية الطويلة والميول الصوفية والتأمل الميتافيزيقي في الثقافة الهندية . ففي مجال اللغة مثلاً أقام الصينيون منطقاً مبنياً على التصرف

بالرموز الصورية (الجرافية) بدلاً من المنطق المؤسس على آلية اللغة كما هو الأمر عند الهنود والإغريق ثم العرب . فالرموز في الكتابة الصينية بقيت من حيث الأساس (كما اخترعت حوالي ١١٠٠ ق . م) وإن اختلفت أشكال رسمها وخطوطها مثل الأصولي ، ونصف المتصل والدارج وبقيت علامات الكتابة تستخدم كما هي طوال التاريخ الصيني ولم تتعرض للتغيير منذ القرن الرابع ق . م حتى إصلاح الكتابة الأخير حين تم اختصار هذه العلامات إلى بضع مئات بعد نجاح الثورة الصينية . وقد تطورت في تاريخ الصين حرفة الكتابة حتى أضحت فناً لا يحسنه إلّا المختصون الذين يقضون سنوات في تعلّمه وإتقانه ، له تاريخه ومدارسه وله معلموه ومنظّروه ونقاده وجماعوه ، حتى كان من الكتّاب والخطاطين والنسّاخين من قضى والقلم بيده . وكانت الكتابة والخط من أبرز علامات العلم والثقافة في الصين ، اشتهر بهما أباطرة وأمراء ورجال دولة وحكماء وشعراء وكهنة ورهبان .

ومن ناحية أخرى يتميز العالم الصيني بصورة خاصة بالصيغ السياسية والاجتماعية الخاصة به . ومما كان له دور أساسي في تطوره إنشاء نظام إدارة مركزية منذ القرن الرابع ق . م . (كان المشرق القديم يعيش آنذاك في ظل الدول الهلنستية) وقد عمل هذا النظام المركزي على الإبقاء على التجمعات البشرية في مستوى وحدات قروية لم ترتق إلى مستوى المدن الكبيرة كما حدث في أوربا وأدّى ذلك إلى غياب الاستقلال الذاتي للمدن من تاريخ الصين القديم وإلى وضوح سيطرة الدولة على المجتمع خلال التاريخ رغم ضعفها المرحلي . وقد انعكس هذا كله بعمق على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلى كل ما يتصل بالحياة الدينية والفلسفية والفنون والصناعات والعلوم والآداب . فقامت إلى جانب مركزية الدولة مركزية الثقافة يعززها جهاز بيروقراطي يخضع للقصر والدواوين الامبراطورية التي فرضت أساليبها في الكتابة والخط . وكان بناء الدولة المركزية من المتانة والرسوخ ما مكّنها من

التكيّف مع مرّ الزمن وفق التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، وهذا أمر يفسر بآن واحد قدرة النظام الامبراطوري على الاستمرار لتحقيق استقرار نسبي مكّن من التوحيد التدريجي للعالم الصيني . إن عمق جذور الصين في التاريخ توضح لنا بالتأكد عظمة التغيير الكبير الذي حدث هناك في العصر الحاضر .

٣ ـ جولة في أعماق الفكر الصيني : التاوية

تنظم المعتقدات القديمة المفاهيم الأساسية للتصور الديني للكون والمجتمع وهي ترتبط بالبيئة ارتباطاً شديداً ، فهدف الديانة الصينية القديمة هو أن تؤمن نجاح الأعمال الزراعية والبذار والحصاد وذلك بتنفيذ الأعمال الزراعية في الأوقات المحددة لها ، أي العمل على توفيق الدورة الزراعية مع الدورة الفصلية ، أو بصورة أخرى التوفيق بين السماء والأرض . هكذا أضحت السماء إلهاً ممجداً يمثل بعاهل عظيم يدعى رب السموات العُلى ، ومقره في الدب الأكبر . أما النظام على الأرض فيكون على نفس النسق ويتولاه بتوكيل سماوي ابن السماء . وهكذا نشأ الحكم الإلهي المقدس في الصين وقامت الملكية المطلقة على أساس تيوقراطي يجعل تدبير أمور الناس بيد سلطة تدعي الانتساب إلى رب السماء . ولهذا الغرض يصدر التقويم الزمني للصين لتنظيم الأعمال الزراعية عن السلطة الملكية وبرعايتها .

ولقد اهتم الفكر الصيني كما اهتم الفكر في المشرق القديم وفي حضارات البحر المتوسط بالبحث عن العناصر الأولى فميز منذ زمن مبكر العناصر الخمس التالية وأرْجَع إليها كل شيء وهي : الماء والنار والخشب والمعدن والتراب كما أنه حدّد خمس جهات مقابلة لها . وهكذا نجد اختلافاً أساسياً بين الغرب والشرق . فزيادة على الجهات الأربع في الصين توجد جهة خامسة هي **المركز أو الوسط** ، وهي تتمثل بأرض الصين ، **الأرض الصفراء** ، وهكذا أضحت الدولة في عين الصيني وفي ذهنه هي القلب والمركز واللون المميز له هو الأصفر

الذي كان اللون الرسمي طوال العهد الامبراطوري . وحول هذا المركز تتعين الجهات : فمن الشمال يأتي الشتاء ولونه هو الأسود ورمزه الحيواني السلحفاة السوداء وعنصره الماء . ومن الجنوب يأتي الصيف ولونه هو الأحمر ورمزه الطير الأحمر وعنصره النار . والأحمر هو لون علم الثورة التي اندلعت من الجنوب . أما من الشرق فيأتي الربيع ولونه هو الأخضر وحيوانه التنين الأخضر وعنصره الخشب . ومن الغرب يأتي الخريف ولونه هو الأبيض ورمزه الحيواني هو النمر الأبيض وعنصره المعدن . تمثل هذه الرموز حتى اليوم في الأعياد الشعبية والمناسبات الفولكلورية وبخاصة في أعياد رأس السنة الصينية .

وقد أدت مراقبة الواقع على الطبيعة إلى إدراك تداخل الجهات عندما وجد أن الشتاء عبر الربيع يصبح صيفاً والصيف عبر الخريف يضحي شتاءً .

وهذا المبدأ جرى تطويره في كتاب (التحوّلات) الذي يعود إلى القرن الثامن أو بدايات القرن السابع ق . م والذي بقي زمناً طويلاً يعتمد للكهانة ولمعرفة مصائر الناس والأشياء وفق قواعد مفصلة . وفي تعديل جديد لهذا الكتاب (في القرن الخامس) استخلصت من النظام القديم مبادىء نظام كوني أكثر تطوراً يقوم على ثلاثة مفاهيم هي ين ، ويانغ ، وتاو ، ويمكن أن يعتبر فلسفة حقيقية لما وراء الطبيعة ، معاصرة زمنياً للفلسفة اليونانية الكلاسيكية .

لقد تطورت هذه المفاهيم في الذهن الصيني بانتقالها من المحسوس إلى المجرد . فبعد أن كان مصطلح (ين) يرمز إلى السفح المظلل من الجبال و (يانغ) يرمز إلى السفح المشمس أضيفت معانٍ أخرى إلى هذين المصطلحين ، فمفهوم (ين) لم يعد يعني البرد والرطوبة ولكن أيضاً التراجع أو الانكماش ويدل أيضاً على الأرض وعلى الأنثى . أما مصطلح (يانغ) فلا يعني الحرارة وحسب ولكنه يعني أيضاً التوسع والانتشار وهو الرجل ورمز السماء .

ولا تقتصر المصطلحات على المعاني المجردة لأنها تدل على مفاهيم

اجتماعية تتصل أيضاً بالحياة اليومية ، ففي الدورة الزراعية تمتد تحت تأثير مناخ الصين الشمالية ، فترة انحباس المرأة في المنزل حيث تقوم بالأعمال المنزلية ، هذا هو (ين) أما فصل الربيع الذي ينتشر فيه الرجال في الحقول للقيام بالأعمال الزراعية ، فهذا هو يانغ . وترد هذه المعاني في كتاب قانون التحولات الذي ألمعنا إليه سابقاً . وفي فصلي الربيع والصيف ينقلب ين إلى يانغ في الخريف . أما في الشتاء فيتحول يانغ إلى ين . والمهم أن هذا التناوب الخالد بين المبدأين الأساسيين لصيغة الكون يخلق التناغم الكوني ويخلق الحياة ويحافظ عليها . إن قابلية التحول والانقلاب الدائمين في هذه الصيغة وتحرك كل مبدأ في الاتجاه المضاد وأن الحتمية اللازمة لتداخل كل منهما بالآخر تؤمنه قوة أعلى لها فعل داخلي في كليهما تدعى في المصطلح الصيني تاو Tao أي الطريق . تاو هي إذن القوة الكونية التي تتبدى على التوالي بصيغتي ين ويانغ اللتين ليستا سوى صورتين لهذه القوة العليا .

ولقد صيغت تعاليم المدرسة التاوية بصفة نهائية في القرنين الخامس والرابع ق . م فأضحى الطريق تاو ، تعبيراً عن الانطلاق الكوني أو الانطلاق الحيوي ، فيه تتناوب الأضداد وتتطابق وهو بهذا التناغم المهيمن يحرك الإنسان وما في الكون أو يقضي عليهما . وهكذا ينتقل الفكر الصيني بالتاوية من المرحلة البدائية إلى الميتافيزيقا ويخلق فلسفة لما وراء الطبيعة متطورة ومترابطة العناصر .

وفي هذا النظام ، باستثناء السماء والأرض اللتين تمثل أولاهما يانغ والأخرى ين ، كل شيء مركب من هذين المبدأين ولكن بنسب غير متساوية . والنظام الكوني قائم على التوازن بين هذين المبدأين المتكاملين أو بالأحرى بين تحولاتهما ، كل منهما يتحول دورياً إلى الآخر : تعاقب الفصول ودخول النهار في الليل والليل في النهار والتحولات الحيوانية ، وهنا لا نجد تصنيفاً عقلياً للأشياء ولكن فلسفة كاملة للكون والحياة ، يستطيع بها الفكر الصيني أن يقبض روح الأشياء .

إنه نظام متكامل لتناول المثل التي اهتمت بها الفلسفة الأفلاطونية ولكن بطريقة أخرى نبعت من السحر وتطورت نحو الميتافيزيقا . وفي تفسير الأمور على هذه الصورة تتكشف النماذج الأولية والدائمة التي تشكلت منها الأشياء المحسوسة التي ليست سوى انعكاساً لها . وبموجب هذا النمط من التفكير يكون بإمكان من يملك هذه الصيغ المثالية لكل كائن ولكل شيء أن يمتلك بنفس الوقت سر الأشياء والكائنات ويستطيع فوق ذلك أن يستبق تصرفاتها بل أن يتحكم بها . وهكذا فإن قدرة فكر المدرسة التاوية يكوّن أول مفاتيح الفكر الصيني القديم .

وأول آباء الفكر التاوي ، والمؤسس التقليدي لهذه الفلسفة هو **لاوتسو** الذي يعتقد حسب افتراضات تسلسل التاريخ الصيني أنه عاش في المدة الواقعة بين **٥٧٠ ـ ٤٩٠** ق . م . وينسب إليه كتاب (الطريق والفضيلة) (تاو ـ تو ـ كينغ) الذي ربما لم تستكمل صياغته وكتابته إلاّ في خلال القرنين الرابع أو الثالث ق . م . ويأتي تشوانغ تسو في الدرجة الثانية من الأهمية وربما مات في **٣٢٠** ق . م .

ومهما يكن فإن تعاليم التاوية تتطلب من المتعلِّم أن يتدرج إلى القداسة عن طريق النشوة ، بالتاو وهي الطريق ، القوة الكونية المحركة . ولا يكون الوصول إلى القداسة عن طريق العقل لأنه لا يمكن لنا أن نتحرر من الأنا ولا أن نحول دون سطوع شخصيتنا العابرة .

فلا يمكن الوصول إلى الطريق إلاّ عن طريق النشوة ، وقد يكون ذلك بخطبة أو بفعل ضربة ميتافيزيقية يكون فيها للسحرة دور حاسم . ولكن يجب القول أنه يوجد عالم واسع بين الامتلاك العنيف للقوى السحرية في الفكر البدائي وبين نظرية الآباء التاويين التي حلت فيها النشوة الفكرية العليا والتأمل محل الممارسات السحرية البدائية ... لم تكتسب التاوية من الإرث البعيد كل

التمرن على التنفس بوصفه رياضة لتنقية النفس من كل ما قد يشوب الروح الخالصة للوصول إلى حالة من النشوة الدائمة أو من اللطف السحري هي بنفس الوقت حالة الطبيعة ذاتها . ومما نقرأه مثلاً في الأدب الصوفي لثاني آباء التاوية لي تسو :

« قلبي يلتئم وجسمي يتفرق وكل أحاسيسي متشابهة ؛ أمضي كورقة الخريف في مهب الريح ، وفي نهاية المطاف لست أدري إن كنت محمولاً على جناح الريح أم أنني أنا نفسي أدفع الريح معي » .

أما تشوانغ تسو فقد خاطب أحد تلامذته قائلاً :

« تعلمت منكم أن أعرف دخيلة نفسي لكنني لم أعد أعلم بعد إن كنت ميتاً أم حياً » .

٤ ـ سمات الأدب في الصين القديمة :

ترقى أصول الأدب الصيني إلى ما قبل الميلاد بألفي سنة على الأقل وهي تعاصر آداب الهند ومصر والرافدين وحضارات حوض البحر المتوسط . ويحتل اسم كونفوشيوس (حوالي ٥٠٠ ق . م) موقعاً علماً في تاريخ الصين وآدابها وهو يمثل مرحلة أولى وحاسمة في الوجدان النقدي يوازي في الهند بوذا وفي أوربة الكلاسيكية سقراط .

وتوازي الصين أوربة (الإغريقية واللاتينية) في إدراك مفهوم التأريخ وفي الحسّ اللغوي مما لا نجده في الهند القديمة ولا في سائر آسية إلّا عند العرب إبان ازدهار حضارتهم ، بعد ذلك بقرون . وكان لهذين الميدانين من ميادين المعرفة والأدب ، وأعني بهما التاريخ واللغة ، تأثير على الفكر في الصين أكبر مما كان لهما من تأثير في حياة أوربة الثقافية . فلقد بكّر الصينيون في البحث الأدبي فأخذوا يمارسون نقد النصوص منذ عشرين قرناً في مكتبات توازي في الأهمية

مكتبة الاسكندرية . وتكونت عندهم تقاليد تاريخية لكتابة التاريخ وفق منهج يستند إلى التوثيق . ولكن ينبغي أن نعترف أيضاً أن هذا التقليد الثقافي أضحى بيروقـراطياً وبخاصة على عهد أسرة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧) حين سقط التاريخ الرسمي بين أيدي المؤرخين الرسميين الموظفين الذين أهملوا الاستخدام الحي للوثائق . وهم إن استطاعوا أن يفيدوا من هذه الوثائق فإنهم لم يتمكنوا من أن يتحرروا من المعطيات التي يملكونها مسبقاً أو من مسلماتهم التي يتأثرون بها في عصرهم أو بحسب طبقتهم . وليس الأمر متعلقاً بالتاريخ وحده ، لأن الأدب كله بقي في الصين غير ذاتي أكثر بعداً عن الذاتية منه في الغرب .

أمـا نمـو حسّ النقـد اللغـوي فقد كان له وجه آخر هو ازدهار الرؤى والفذلكات الأدبية إلى جانب الجنوح إلى تقليد الآثار الكلاسيكية القديمة في التراث الصيني . وكان الاستشهاد بنص قديم يشكل الحجة القاطعة فيما كان يدفع أحياناً إلى الاصطناع والتزييف .

إن تقديس القديم وتمجيد الماضي والدعوة الدائمة إلى العودة إلى العصور الذهبية ، هي ملامح تاريخ الأدب في الصين القديمة الذي يبدو في حلقات متتابعة من النهضة والعودة إلى النصوص والتراث القديم . كانت التاوية تدعو إلى الـطبيعـة التي سبقت كل حضـارة . ثم جاءت الكـونفـوشيوسية لتبشر بالتمسك بالنظم والمؤسسات التي تمثل أسس حضارة الصين . وأبرز ما غرسته الكـونفـوشيوسية في الـتربية الصينية عبـادة الكتاب الذي تناقلت به الأجيال الثقـافة ، وهو ما يوازي في حضارة الغرب والعرب الاهتمام بالكتابة والكتّاب والكتب والمكتبات .

فعلى العكس مما جرى في الهند مثلاً ، حيث أدّت الثورة على البوذية إلى إتلاف الكثير من كتبها وتراثها ، فإنه عندما حلّت الكونفوشيوسية محل التاوية في عصر أسرة تسين Tsin أول أباطرة الصين الذين وحدوا البلاد لأول مرة (في

القرن الثالث للميلاد ، كانت زنوبيا امبراطورة الشرق العربي) ، احتفظ بالنصوص التاوية القديمة . كذلك حفظت النصوص الكونفوشيوسية عندما حلت البوذية محل الكونفوشيوسية زمن أسرة تانغ (بداية القرن السابع إلى بداية القرن العاشر) . وكذلك كان موقف المصلحين الكونفوشيوسيين عندما عادوا إلى مركز الصدارة من منتصف القرن العاشر إلى أواخر القرن الثالث عشر .

لكن الأمر لم يكن كذلك عندما حكم آباء الكنيسة في أوربا وقبضوا على زمام الأمور في العصور الوسطى . ومع هذا فقد شهدت الصين من تقلبات التاريخ ما حمل إلى مدنها الخراب وإلى قصورها ومكتباتها الدمار والنار فالتهمت النيران الكثير من آثار الأدب والفكر في الصين القديمة .

وتبدو السمة الأكثر وضوحاً في الفكر الصيني ألا وهي **الاتصال** . فلم يحدث أي انقطاع في الفكر الصيني كما حدث في أوربا أو في الشرق بسبب اختلاف اللغات عبر العصور ففي أوربا كانت اليونانية حاملة الفكر والثقافة ثم اللاتينية إلى أن تكونت اللغات الأوربية الحديثة . أما في الشرق العربي فقد اتصل الفكر العربي بالثقافات القديمة عن طريق اليونانية والسريانية مثلاً لكن الاتصال لم يكن مباشراً مع لغات المشرق العربي القديم وتراثها . أما في الصين فقد بقي الفكر الصيني متصل الانسياب ينتقل من عصر إلى عصر دون انقطاع تحمله لغة صينية وكتابة صينية ما تزالان حتى أيامنا هذه . ولا يوجد في الغرب ما يمكن أن يماثل هذا الاستمرار إلّا في العالم البيزنطي الذي يبدو فيه الاتصال الحضاري منذ العصور القديمة وحتى اليوم وأداة هذا الاتصال الباقية فيه هي اللغة الإغريقية .

ولا بد مع ذلك من الإقرار بوقوع أحداث استثنائية منها إحراق الكتب بإيحاء من حكماء التاوية وبأمر مؤسس الامبراطورية الصينية تشي هوانغ تي (٢١٠ ـ ٢٢١) ق . م الذي تم في عهده تشييد سور الصين الكبير ، وكان

معاصراً للامبراطور الهندي العظيم أشوكا في آخر أيامه .

أخذت تتعرض الصين منذ القرن الميلادي الأول إلى مؤثرات ثقافية خارجية قوية لأول مرة في تاريخها عندما أخذت **البوذية** تغزو الصين بشكل يشابه كثيراً دخول المسيحية عن طريق المبشرين فيما بعد . وكان من أثر ذلك وقوع تأثير كبير على الفكر والأدب في خلق توجهات جديدة للتأمل وفي طرح موضوعات وأساليب جديدة لكن العقيدة الجديدة لم تمح السابقة وكانت عبقرية الصين القديمة هي في **تعايش الأفكار والفلسفات الكبرى معاً** : الطاوية والكونفوشيوسية والبوذية بصورة لم تعرفها أوربا مطلقاً . وكانت ثمرة هذا التسامح الديني والتفاعل الثقافي والاندماج الحضاري أن بقيت الصين عظيمة جبارة خلال التاريخ حتى التهمت الفاتحين والمتدخلين في شؤونها وحتى أضحى تاريخهم جزءاً من تاريخها كما حدث للمغول والمانشو .

ولم يحدث في التاريخ ما حدث لحضارة الصين القديمة من الاستمرار إلاّ في مصر على عهد الفراعنة الذين حكموا أيضاً ألفي عاماً واحتوت أرض وادي النيل الفاتحين . فقد بقي الصينيون يحكمون من قبل أباطرة تدير أمورهم إدارة مركزية ولهم لغة واحدة للإدارة والتعليم . كما كانت اللاتينية لغة الغرب منذ عصر الرومان إلى عصر النهضة وكما هي اللغة العربية منذ خمسة عشر قرناً وحتى اليوم .

٥ ـ المعلّمون الكتّاب : كونفوشيوس وموتسو

أبرز معلمي الصين وأشهر حكمائها هو (**كونغ تسو**) ، **كونفوشيوس** ، عاش في القرنين السادس والخامس ق . م (٥٥١ ـ ٤٧٩) في زمن كانت تعيش فيه اليونان عصرها الكلاسيكي . تخرج كونفوشيوس في مدرسة كانت تهتم بإعداد النبلاء . وكان يهتم بالبحث عن تحديد مثل أعلى للأرستقراطي النبيل الشريف في الفترة التي كان فيها النبلاء يفقدون دورهم السياسي

ومكانتهم في المجتمع . وقد اضطلع كونغ تسو بدور استثنائي في تنظيم الفكر الصيني الكلاسيكي حتى احتل في تاريخ الصين مكاناً مميزاً جعله ممثل الثقافة الروحية التقليدية وحكمة الصين القديمة . وقد خضعت تعاليمه إلى تحليلات وتفسيرات وشروح متلاحقة خلال تاريخ الصين كانت المادة الأولى للتعليم في عصور الامبراطورية . وكان التأكيد مُلحّاً بما أضيف إلى الكونفوشيوسية ، على دور الأخلاق في السياسة والإيمان بالإنسان ، فيما كانت فضائل التربية ودور العوامل الاجتماعية محل اهتمام مفكرين آخرين مثل مونغ تسو (القرن الرابع ق . م) وسيون تسو (من القرن الثالث ق . م) .

وهناك حكيم آخر جدير بالوقوف عنده لخصوصية فكره واتصاله الوثيق بروح العصر وهو موتسو الذي عاش فيما بين (٤٧٩ - ٣٨١ ق . م) في عصر الممالك المتحاربة في الصين . كان لهذا الحكيم الذي ينحدر من أسرة نبيلة صغيرة بدأ دورها ينحدر في القرن الرابع أكبر الأثر على عصره . وكانت تعاليمه تقوم على رفض روح العصبة والنزاع من أجل التفوق والمكانة العالية أو من أجل الثروة والرفاه والكماليات وهي الأمور التي تنزع إليها الطبقة النبيلة . فقد كان يسعى للتخفيف من حدة الأنانية التي تتميز بها الأرستقراطية إلى نشر مثل أعلى يتمثل بالمساواة والغيرية ، لكنه سياسياً كان يؤمن بالسلطة الفردية المستبدة إلى الطبقة التي ينتمي هو إليها .

ويبدو هذا الحكيم وكأنه مؤسس لطائفة منظمة نذرت نفسها في سبيل الفقر ووضعت نفسها تحت تصرف المضطهدين للعمل في سبيل الأمن لإيقاف الحروب والهجوم على المدن الآمنة لإيذاء سكانها وترويعهم . وفي سبيل نشر هذه الأفكار كان وعّاظ هذه المدرسة يلجأون إلى الخطابة فنما فن الحديث والخطابة على أيديهم وظهر في صفوفهم نوع من التصوف والزهد وأسلوب في المنطق ومنهج في الجدل .

وظهر في القرن الثالث ق . م تيار فكري آخر تمثله مدرسة المشرِّعين ، الذين كانوا يستندون إلى القانون وإلى القصاص والجزاء أو إلى الثواب . وهؤلاء هم منظِّرو الحكومة المركزية التي تستوعب بطبيعتها التيارات المحلية والإقليمية . وكان لهم يد في توجيه سلطة الدولة نحو الاهتمام بالزراعة والدفاع والقوة المسلحة . وأهم هؤلاء هو الكاتب هان في تسو (٢٨٠ - ٢٣٣ ق . م) الذي كان له تأثير أساسي في كل مراحل التاريخ الصيني .

وينبغي ألاّ يخطر على البال أن الفكر الصيني بقي طوال مراحل تطوره مصبوباً في قوالب جعلت منه نماذج وأنماطاً من التفكير بقيت دائماً متماثلة ومتشابهة . فقد وجد إلى جانب التيارات الكبيرة تيار آخر يضم من كانوا يدعون بالتاويين الفرديين والفوضويين ، وهم يمثلون التيار الأكثر أصالة والأشد حيوية في الفكر الصيني وأصحابه جدليون محبون للمتناقضات والمعارضات يتباهون بفضائل الغموض ، باللاانتهاء وبالبساطة . وهم يرون من وجهة نظرهم أن كل تقدم تقني ، وكل قانون جديد ما هو إلاّ قيد يقيد به الإنسان نفسه ويستعبدها ، وهو ليس إلا وسيلة لإفساد الفضائل الطبيعية في الوجود وتشويهها . وتتجلى في مثل هذه الأفكار عبقرية الفكر الصيني وإبداعه الذي سبق أفكاراً طرحت في الأدب الغربي بعد ذلك بزمن طويل .

كان عدد سكان الصين في تلك المرحلة في القرن الثاني ق . م يقرب من خمسين مليوناً ، وكانت سورية حوالي خمسة عشر مليوناً في ذلك العصر الذي كانت تعيش فيه البلاد فترة من أزهى فترات تاريخها ، وقد شهد الأدب الصيني فترة إبداع عظيم حتى ليمكن القول أن أعظم آثار الفكر الصيني القديم كتبت في هذه الفترة يوازيها بالمقابل الفكر الكلاسيكي اليوناني الروماني في الوقت الذي كانت فيه روما تعمل على نشر سلامها على حوض البحر المتوسط .

٦ ـ الصين تحت حكم أسرة هان (من القرن الثاني ق . م ـ إلى القرن الثاني م) :

تميزت هذه المرحلة من تاريخ الصين بتطور هائل في الحياة الفكرية تمثل في التقدم الكبير في الزراعة والصناعات وفي إنشاء المؤسسات الثقافية ، وفي نمو حركة التبادل الثقافي التي كان أبرز مظاهرها دخول البوذية إلى البلاد في القرن الأول وتسلّم الأدباء والكتاب لمقدّرات الحكم في الصين خلال فترة طويلة من هذا العهد .

كان القصر الامبراطوري ، وقصور الأمراء والنبلاء مراكز الحياة الفكرية والثقافية والعلمية والأدبية وفيها ازدهرت الحياة الفنية في بدء عصر أسرة هان في القرن الثاني ق . م . وقد احتشدت في هذه القصور مجموعة من الأدباء والعلماء والفنانين ، وفي مثل هذا الجو تطورت القصائد المعروفة باسم شوسي ، وهي التي تتضمن وصفاً شعرياً يدعى فو . وتعود أصول هذه القصائد إلى جنوبي الصين في القرن الثالث وتستقي مادتها من التقاليد المحلية والإقليمية .

ومن أبرز مظاهر اهتمام الدولة بالآداب والفنون إنشاء ديوان للموسيقى على عهد الامبراطور فو ، التقت فيه المؤثرات الثقافية والموسيقية الأجنبية والمحلية مما أدّى إلى تحديد الصيغ الشعرية الموروثة من كتاب الأغاني القديم المسمى شي كينغ . ومن هذا الديوان الذي كان بمثابة أكاديمية للموسيقى نشأت فيما بعد القصيدة الكلاسيكية التي قدّمها شعراء عباقرة ما بين القرنين الثالث والتاسع . وتقابل هذه المرحلة مرحلة الازدهار في الحضارة العربية الإسلامية .

وقد تلقت الصين في عصر هان مختلف المؤثرات الأجنبية : في الموسيقى والشعر والألعاب والملاهي . . وقد أدخلت إلى حدائق القصور الإمبراطورية أنواع من الحيوان وأجناس من النبات والألوان وجمعت خيول فرغانة النبيلة إلى

سلالات من خيول منغولية الصغيرة ، فتحسن نسل الخيل وأثر ذلك كثيراً على حياة الفروسية في العصور التالية .

وقد احتفظت المدرسة التاوية بتأثيرها في هذا العصر فنشرت أفكارها حول إطالة عمر الإنسان بالوسائل السيميائية السحرية بالإضافة إلى خلق تقاليد امبراطورية أخذت تشجع جمع التراث القديم وكتابته وتفسيره وشرحه وبقيت فكرة العناصر الأربعة التي أساسها ين ويانغ وهما الرطوبة والجفاف . أما المدرسة الكونفوشيوسية فقد صيغت أفكارها في تعاليم يسهل حفظها وتناقلها . وتوجه الاهتمام إلى جمع النصوص القديمة وقد يكتشف في بعض الأحيان أنها قد تكون منحولة . ودعت ضرورة التحقق من النصوص والحاجة إلى تفسيرها ودراستها إلى وضع أقدم قاموس للغة الصينية (شو وين) في حوالي ١٠٠ م .

وقد ترسخت هذه التقاليد الثقافية القومية في الصين بما قام به عدد من الحكماء أبرزهم : فانغ تشونغ (٢٧ ـ ١٠٠) الذي عرف بنقده اللاذع للآراء ولمظاهر العصر . وسوماتسيان (١٤٥ ـ ٨٦) وهو أكبر مؤرخي الصين القديمة الذي قدّم خلاصة عما كتب من تاريخ في الماضي منذ البدء إلى عصره . وكتابه شي ـ كي هو مذكرات تاريخية ، ويعتبر عملاً كبيراً وإنجازاً عظيماً وقد ألّفه على طريقة الحوليات ويضم دراسات وترجمات ، وقد عدّ لزمن طويل ، نموذجاً لتاريخ الصين الرسمي لمدة بلغت ألفي عاماً . وقد تم الجزء الثاني من هذا الكتاب بان كو في القرن الأول م وعنوانه هان شو أي تاريخ هان .

وفي ميدان العلوم علينا أن نذكر اسم تشانغ هينغ (٧٨ ـ ١٣٩) ، الذي اهتم برصد النجوم والفلك وصنع صورة لقبة السماء وكان أول من درس الزلازل في التاريخ . ومن أكبر التغييرات التقنية في هذا العصر إحلال الورق محل صحائف الحرير وأطباق البامبو للكتابة اعتباراً من القرن الثاني ، مما أدى

إلى تغيير جذري في جهاز الإدارة في الصين وإلى انقلاب حقيقي في الحياة الثقافية لم يقتصر على الصين وحدها بل انتقل إلى ما حولها وإلى بلاد العالم العربي الإسلامي لكنه لم يصل إلى أوربة إلاّ بعد ذلك بألف عام أي خلال الحروب الصليبية .

وبقيت المدارس الفلسفية ممثلة في الحياة الثقافية في الصين في هذا العصر لكن التاوية تطورت حتى أضحت تنظيمًا دينياً هدّد الجهاز الامبراطوري . واحتشد الأدباء والمعلمون والكتاب والمتعلمون في جماعات كثيرة في العاصمة الصينية لويانغ وانكبوا على دراسة الكتب القديمة وشروحها ، وأبرز هؤلاء الشراح والمفسرين تشينغ هيو آن (١٢٧ ـ ٢٠٠) .

٧ ـ العصر الذهبي الأول للثقافة الصينية :

(أسرة تانغ ٦١٨ ـ ٩٠٧)

مرت الصين قبل هذا العصر بمرحلة انتقالية تميزت بانقسام سياسي وبفقدان السلطة المركزية مدة تقرب من أربعة قرون (٢٢٠ ـ ٥٨٩) ولكنها تميزت من الناحية الثقافية بخصب الإنتاج الفكري والفني . وأبرز كاتب في هذه الفترة هو الحكيم فانغ بي (٢٢٦ ـ ٢٨٤) . أما في ميدان الأدب فقد نما النقد الذي لم يعد يهتم إلاّ بالقيم الجمالية للعمل الأدبي والفني . وقد جمعت منتخبات أدبية تعبر عن ذوق العصر . وظهرت فنون أدبية مثل الأغنية الخرافة .

ولم تعد البوذية عاملاً ثقافياً في هذا العصر لأنها أضحت مشكلة اجتماعية واقتصادية نجمت عن موقف الرهبان البوذيين من الأرستقراطية الصينية في بدايات القرن السادس ومن دفع الضرائب . وكان من أثر التبدلات الاقتصادية إدخال البيع بالمزاد إلى الصين واللجوء إلى الإقراض بالرهن .

وازدادت المؤثرات الثقافية الخارجية على الصين بتزايد القادمين من الهند والعالم الإيراني والهلنستي وبدأت تظهر انعكاسات هذا التأثير على أعمال النحت والأدب والعلوم والمؤسسات . ويبدو ذلك في أساليب النحت البوذي الواقع تحت تأثير مؤثرات هلنستية من شمال الهند ووصل هذا التأثير حتى إلى كوريا واليابان .

وكان تأثير الهند على الصين قوياً في الحساب وعلم الأصوات مثل تأثيرها في ذلك على العالم العربي الإسلامي . وإننا عند تقدير العلاقات الحضارية بين الصين وغيرها يمكن أن نجد ملاحظة بعض الباحثين الغربيين صحيحة عندما يقولون إن التأثير البوذي على الصين بما حمله معه من حكمة الهند وعلومها على مدى ثمانية قرون كان شديداً إلى حد طبع الصين بطابعه وبدرجة تفوق بكثير تأثير الغرب الأوربي على الصين منذ مطلع العصور الحديثة حتى اليوم .

وقد قامت علاقات اقتصادية ومبادلات حضارية واسعة ما بين الصين وسائر الشرق الأقصى وبين بقية بلاد آسية في القرنين السابع والثامن . وكانت مدينة **شانغان** في وسط الصين مدينة متعددة الأجناس عاش فيها السريان النسطوريون والعرب والإيرانيون والصفديون والترك والكوريون الذين جاؤوا من مناطق بعيدة . وفي مدينة أخرى تقع إلى شماليها ، وهي **لو ويانغ** التقت العقائد السريانية النسطورية والإيرانية المزدكية والمانوية . أما المسلمون فقد كانوا يتمتعون بمركز ممتاز في كانتون . لقد حمل السوريون والعرب ثقافة الشرق العربي القديم إلى الصين مع عقائدهم . ودخلت المسيحية إلى الصين مع النساطرة السريان الذين كانوا يعيشون تحت حكم الامبراطورية الفارسية الساسانية وتحرك كثير منهم نحو الشرق عند تقدم جيوش الفتح العربي الإسلامي . وترسخت المسيحية في الصين على أيدي هؤلاء السريان منذ القرن السابع كما تشهد بذلك المسلّة النسطورية الشهيرة في كسي ـ آن إلى جانب

البوذية ثم الإسلام كما يتضح من دراسة حديثة للأب العالم في الصينيات البلجيكي جوزيف سباي . (J. Spay) .

وقد كان للرهبان البوذيين دور ثقافي كبير شمل أعمال الترجمة والتفسير والتأليف وكتابة التراجم والرسم وسائر الأعمال الفنية . وأسست في هذه الفترة أديرة هامة ، كانت بمثابة مدارس ومراكز ثقافية وكان أعظم المترجمين البوذيين **هيو آن ـ تسانغ** .

وعلى الرغم من التسامح الديني فإن ذلك لم يمنع من ظهور ردود فعل معارضة للأديان في آخر الفترة وبخاصة ضد البوذية التي برزت قوة اقتصادية مناهضة للامبراطور .

وعني أباطرة تانغ **بالتاريخ** فقد كان من نتائج توحيد البلاد وإنشاء جهاز بيروقراطي على عهد تانغ العناية بتأليف تاريخ رسمي حول فترة الانقسام بين الشمال والجنوب من نهاية القرن الثالث إلى نهاية القرن السادس . وقد قام بهذه المهمة مجموعة من المؤرخين وازداد الاهتمام بالفكر التاريخي وبفلسفة التاريخ ، ونجد ذلك عند ليوشي كي (٦٦١ ـ ٧٢١) وعند ابنه ليوشي الذي ألّف كتاباً عن النظم السياسية (عام ٧٤٠) . ووضعت قواعد لاختيار الموظفين بعد اجتياز امتحانات ومسابقات دقيقة ووضعت المؤلفات الموسوعية التي تساعد على إعداد الكتاب والموظفين للمهام التي يتولونها . وهي مؤلفات تشبه في الأدب العربي أدب الكاتب لابن قتيبة وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي .

وتعتبر القرون الواقعة ما بين القرنين السابع والحادي عشر العصر الذهبي للشعر الكلاسيكي في الصين كما أنها كذلك العصر الكلاسيكي في تاريخ الأدب العربي . وظهر عند الصينيين شعراء عظام آنذاك مثل لي بو (٧٠١ ـ ٧٦٢) ومعاصره فانغ في الذي كان رساماً مشهوراً . بينما كان توفو (٧١٢ ـ ٧٧٠) متأملاً وحكيماً ذا ميول كونفوشيوسية اهتم بالدولة ومصيرها

مثل ابن خلدون عند العرب ، كما اهتم بآلام الإنسان العادي ومشكلاته . تميزت أعماله بالواقعية بالإضافة إلى وطنيته مما يجعل له مكانة خاصة يتمتع بها في الصين المعاصرة بالإضافة إلى كمال الشكل الفني في أعماله الأدبية . **أما بو كيو يي (٧٧٢ ـ ٨٤٦)** فقد اهتم بتوجيه نقد لاذع للحياة في القصر الامبراطوري تميز بسخرية تذكر بفولتير الذي جاء بعده بألف عام . وقد أفاد الشاعر من لغة التراث الشعبي البسيطة والمفهومة في عصره لإغناء لغته وتلوينها دون الخروج عن قواعد الكلاسيكية وما اختصت به من متانة وتماسك وتوازن .

وكان التقيد دقيقاً بأوزان الشعر وبنية القصيدة التي تتألف من رباعيات أو ثمانيات أي رباعيات مضاعفة . والجدير بالذكر أنه في هذا العصر وضعت الصيغ النهائية للشعر الصيني وذلك في العصر الذي استنبط فيه الخليل بن أحمد الفراهيدي أوزان الشعر العربي وبحوره . ورسمت قواعد هندسية دقيقة لبنية القصيدة الصينية شملت كلماتها وأبياتها وأجزاءها بصورة تعبر عن معايير الجمال وتشف عن انطباعية رقيقة مرهفة الإحساس . بعكس ما نجده من الروح الملحمية في الشعر الهندي والخطابية في الشعر العربي . ويمكن أن يعتبر الشعر في الأدب الصيني أهم معبرٍ عن روح الثقافة الصينية وهو لعمق تأثيره في النفس له تأثير مباشر على الجملة العصبية يحرك فيها ردوداً قوية تمس أعماق مراكز الإحساس بالجمال .

٨ ـ الصين والحضارة العربية الإسلامية :

تردد التقاليد المتواترة في الصين ، وربما كان في ذلك خطأ تاريخي ، أن الإسلام وصل إلى الصين في حياة الرسول محمد بن عبد الله أي قبل ٦٠٢ م ، ومعنى ذلك أن الإسلام وصل إلى الصين قبل أن يعم الجزيرة العربية نفسها !

ومن التقاليد المنقولة عن دخول الإسلام إلى الصين أن الامبراطور تاي تسونغ (لي ـ شن ـ مين) رأى النبي ﷺ فيما يرى النائم بملابس

كونفوشيوسية . ومما تردده الأخبار عن هذا الأمر أن الرسول ﷺ بعث من قبله (وان ـ فو ـ صو) الذي يربط اسمه باسم الصحابي القائد العربي سعد بن أبي وقاص ، في حوالي العام ٦٢٨ أو ٦٢٩ .

ويعزى إلى ابن أبي وقاص ضريح في كانتون يعتبر أهم أثر إسلامي ويقال أنه شيد في ٦٢٩ أو ٦٣٣ . وتذكر وثيقة صينية إسلامية يعود تاريخها إلى العام ٧٤٢ النبي العربي محمد ﷺ ، وكيف وافق الامبراطور مينغ هوانغ على بناء مسجد بعدما وجد في حكمة الإسلام ما يتفق مع حكمة كونفوشيوس . وترد معلومات عن الإسلام في التاريخ الرسمي لملوك تانغ . ومهما يكن فقد أضحى العرب عاملاً مهمًا في سياسية الصين وعلاقاتها منذ القرن السابع وبعد انهيار الامبراطورية الفارسية وتقابل الجيوش العربية بجيوش الصين وجهاً لوجه في مناطق ما وراء النهر وبلاد التركستان الصينية عندما تقدم القائد قتيبة بن مسلم الباهلي إلى كاشغر وفرض على امبراطور الصين قبول الصلح ، ولكن تراجع قتيبة وعودته بسبب وفاة الخليفة الوليد وصعود سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة ، مكن الصينيين من العودة إلى آسية الوسطى ولكن القوات العربية كانت على درجة من القوة ما مكنها من إحراز انتصار جديد على الجيوش الصينية في معركة شهيرة عند تالاس في فرغانة عام ٧٥١ وقبيل سقوط الأسرة الأموية نهائياً بفترة وجيزة وكان من نتيجة هذا الانتصار إيقاف التقدم الصيني مدة نصف قرن .

ومن أبرز أحداث هذه العلاقات الصينية ـ العربية في العصر العباسي استنجاد امبراطور الصين بالخليفة أبي جعفر المنصور لقمع ثورة خطيرة قامت ضده وهددت بقاءه على العرش فأرسل المنصور جيشاً من تسعة آلاف جندي مقاتل من العرب والأتراك ، ساعد في القضاء على الثورة واسترداد العاصمة للإمبراطور الصيني . ولا شك أن عدداً من الجنود العرب قتل في ميدان القتال

وأن منهم من عاد إلى مواقعه ولكن أكثرهم بقي في الصين واندمج في أهلها وكان له أثر وتأثير في حياتها وعقائدها وثقافتها .

وتتحدث الوثائق الصينية عن السفارات العربية إلى الصين فتذكر خمسة عشر وفداً أموياً وسبعة عشر وفداً عباسياً . وقد ورد اسم الأمويين في هذه الوثائق هكذا : « العرب ذوو الملابس البيضاء » أما العباسيون فلقبوا : « العرب ذوو الملابس السوداء » .

وخير من تحدث من المؤرخين والجغرافيين العرب عن الصين المسعودي (القرن التاسع) الذي قام برحلات متعددة إلى الصين وأقام في مدنها وخبر حياتها عن كثب فكتب عن طرق التجارة وعادات الناس . وقد بلغ من نفوذ العرب في خانفو (كانتون) ، أن الامبراطور قبل أن يكون لهم قاض يحكم بينهم وفق شريعتهم .

٩ ـ بدء العصور الحديثة في تاريخ الأدب الصيني :

عصر سونغ (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) : ضعف سياسي وازدهار حضاري :

مع وصول أسرة سونغ إلى حكم الصين يمكن القول أن العصور الحديثة قد ابتدأت في تاريخ الصين . فبدأت ترتسم الخطوط الكبرى للتطور الاجتماعي والثقافي والأدبي التي وضعت الصين على طريق العصر الحاضر . فتطور التجارة أتاح لطبقات أخرى من المجتمع أن تتفتح على الثقافة ورافق ذلك توسع في شق طرق المواصلات وفي بناء السفن ، وتقدم علمي جعل الصين في مقدمة مجتمعات العالم في التقدم التقني . فقرابة خمسمائة مشروع للمواصلات النهرية ولتنظيم السدود للحد من الفيضانات جرى تنفيذها في هذا العصر . أما استخدام البارود في الحرب وإطلاق القنابل بواسطة المدافع فقد عرف لأول مرة في الصين على الأرجح قبل أن يستخدم في سورية ومصر

وأوربة في فترات متقاربة من القرن الرابع عشر [انظر مقال الأستاذ بروديل في مجلة Historia :

F. Braudel, Historia 458, Fev. 1985 :] .

وتطورت صناعة الفخار والخزف ونظم تصديره على نطاق واسع براً وبحراً . فهذه الظروف المادية كلها ساعدت على نمو الحركة الثقافية والفكرية في البلاد وبخاصة بعد اختراع تقنية خاصة للطباعة . مما أوجد شروطاً جديدة لنشر الأدب ولتجارة الكتاب وزيادة عدد القرّاء .

أما الشعر فقد حافظ على أوزانه الموروثة من عصر تانغ ولكن ظهرت إلى جانب الرباعيات الخماسيات والسباعيات ويعرف هذا النوع من القصائد باسم شي . ونمت مدرسة شعرية جديدة لا تتقيد إلّا ببنى موسيقية من أصل شعبي وتدعى هذه القصائد تسو .

أما النثر الأدبي فقد أضحى أكثر ليونة بينما أخذت تتكون نظريات في الجمال والفن والأدب . أما الأدب المكتوب باللغة الشعبية فقد تطور إلى حد أدّى إلى نمو حركة المسرح في العصر المغولي وإلى نمو الرواية في عصر أسرة مينغ .

وقد شغلت الدراسات التاريخية في عصر سونغ حيزاً كبيراً في الإنتاج الأدبي في الصين . وبدأ الاهتمام بالآثار والفنون في ذلك العصر . وتطور النقد الأدبي كثيراً وازدادت المجموعات الشعرية والدواوين وبدأت تتكون نظريات في الجمال . لكن أهم ميادين الكتابة في هذا العصر هو التاريخ .

وأهم الكتاب المؤرخين **أو يانغ سيو** (١٠١٩ - ١٠٧٢) الذي ألف كتاباً في تاريخ الصين حتى زمانه . ويعاصره **سيما كوانغ** (١٠١٩ - ١٠٨٦) الذي أنجز كتابه الضخم المرآة العامة لخدمة الحكومة ، (تسو تشي تونغ

كيان) ، وهو تاريخ عام للصين في مائتين وأربعة وتسعين مجلداً يسرد فيه تاريخ الصين منذ القرن الخامس ق . م إلى نهاية عصر تانغ . وهو عمل عظيم يتسم بالوضوح والدقة ويعتبر من أعظم ما كتب في آداب العالم القديم . وقد اهتم المؤلف بتوثيق كتابه بالمصادر المنتخبة والمحققة . ولكن عيب هذا الكتاب كمعظم مؤلفات التاريخ في الصين هو أسلوب الحوليات وسرد أحداث السنة بعد الأخرى مما يؤدي إلى انقطاع الخبر وصعوبة فهم الظاهرة التاريخية . وقد حاول المؤلف التغلب على هذه الصعوبات بترتيب الأحداث وتبويبها عند عرضها وفق اعتبارات منطقية أو جغرافية أو باتباع طريقة التراجم لتقديم الأحداث التي تدور حول الأبطال والرجال . وهكذا بقي تاريخ الصين المجموع منثوراً ومبعثراً إلى أن جاء مؤرخ آخر هو يو آن شو (١١٣٥ - ١٢٠٥) فعمل على جمع وضم الموضوعات الواردة في المرآة وتوحيدها فظهر عندئذ منهج جديد في الكتابة التاريخية يشبه ما حدث في حضارة العرب عندما عمل المسعودي على تجاوز طريقة الطبري في الحوليات ، باتباع طريقة الموضوعات في كتابة الفذ مروج الذهب ومعادن الجوهر (القرن التاسع) .

لقد كانت أسرة سونغ قليلة الأهمية من الناحية السياسية فهي لم تستطع أن تواجه غزو (البرابرة) وكان عليها أن تنسحب إلى الجنوب أمام هجمات المغول . ورغم ذلك فقد ظهر في هذا العصر واحد من أعظم مفكري الصين هو تشوهي (١١٣٠ - ١٢٠٠) الذي عمل على تطوير الفكر الصيني الكونفوشيوسي وإغنائه بما تسرب إلى الصين من مؤثرات بوذية أصبحت من جملة تراثها الفكري ، ونما الفكر الميتافيزيقي الذي وضعت له قواعد منهج مدرسي كان له في تاريخ الفكر الصيني ما لدور توما الأكويني في الغرب الأوروبي . وإن الدارس ليجد نفسه أمام فكر ضخم وعمل موسوعي وأسلوب سلس مدرسي واضح متنوع في المقالات والمراسلات والمحاورات بلغة رفيعة وساخرة تشبه في نفاذها لغة رواد النهضة الغربية مثل رابليه وإيراسموس . وهكذا فإن

الصراعات التي واجهتها الصين في هذا العصر الذي انتهى بالاجتياح المغولي يمنع من اعتباره واحداً من أعظم عصور الازدهار والخصب الفكري في تاريخ الصين وضعها على طريق العصور الحديثة قبل أوربا بقرون .

مراجع :

مادة الصين في Encyelopaedia Universalis

فصول عن الصين وحضارتها في :

Encyclopedie de la pleiade, (Histoire Universelle 1 et 2) .

فصول عن الصين وحضارتها في :

Fischer Weltgeschichte, 14, 15 .

ستّون عامًا من الشعر الجديد في الصّين

• دراسة للشاعر الصيني: أي كينغ • تعريب: عبد المعين الملوحي

- ١ -

الشعر الصيني الجديد ثمرة من ثمرات العصر الحديث . ولد عبر تغيرات المجتمع الجديد ، وعانى تبدلات كبيرة في المضمون وفي الشكل .

لماذا نكتم الواقع ؟ لقد كان الشعر الحر ، والوزن والإيقاع في الشعر الجديد مثل القطن والعنب والبندورة تماماً مستوردة من الخارج ، وخاصة من أوربا وأمريكا .

قال الشاعر زوزيكنغ :

« كان الشعر القديم في مرحلة انحداره ، وحل محله الشعر الحديث ، ولد الأدب الجديد تحت تأثير العالم الخارجي وكذلك الشعر الجديد » .

قبل مائة عام ، كانت القراءة ونظم الشعر عندنا يعتبران وقفاً على حفنة من المثقفين . وأشعارهم المؤلفة من كلمات وتعابير بالية ، ضمن عروض صارم كانت مما لا يفهمه الناس العاديون . وكان في ذلك العهد نوعان دارجان :

(١) مجلة « الأدب الصيني » بالفرنسية عدد نيسان ١٩٨١

الأبيات ذات الكلمات الخمس (المقاطع) والأبيات ذات الكلمات السبع . وكانت كل قصيدة تتضمن أربعة أبيات أو ثمانية ، دون العودة إلى السطر ولا التنقيط . وفي نمط آخر من الشعر يدعى (س) كانت القصيدة تنظم حسب قواعد محددة من مقاطع وأبيات تتراوح بين كلمة واحدة وإحدى عشرة كلمة .

هذه القصائد من النمط القديم ، المكتوبة باللغة الكلاسيكية كانت تناسب المجتمع الإقطاعي بطريقته في الإنتاج وباقتصاده قليل التطور .

في ذلك العصر كان الإبداع الشعري في الجماهير الواسعة ما يزال شفوياً . القصائد وهي تغنى ، تدور من فم إلى فم ، وقل أن يصيبها حظ في الطباعة .

في السنوات الأربعين من القرن الماضي كانت الرأسماليات القادرة تقتحم أبواب الصين ، وهي تطلق مدافعها المدوية . وفي مواجهة غزو الجيوش الإمبريالية بدت السلالة الملكية الإقطاعية العجوز عاجزة عجزاً تاماً منهوكة القوى ، متفسخة .

كان الشعب الصيني يعيش في الذل والمهانة ، حاول عدد كبير من الرجال الوطنيين إصلاح الصين في جميع المجالات ومنها مجال الأدب .

المثقفون من الفئة العليا من أمثال (تان سيتونغ) و (كسبا زانغ يو) و (هوان زونكسيان) تأثروا بثقافة البلدان الرأسمالية أطروا (ثورة الشعر) ونظموا قصائد في موضوعات جديدة واستعملوا كلمات الشعب وتعابيره .

ومع ذلك تبقى قصائدهم التي لم تبلغ مرحلة تحرير مضمونها وشكلها من ضرورات (الرتابة) عرجاء غير سوية ، تشبه نساء الصين القديمة اللواتي يحاولن الركض بأقدام مضغوطة معصوبة .

وأخيراً في عام ١٩١٩ وخلال الحركة الواسعة المعارضة للإمبريالية وللإقطاعية في ٤ أيار رأت حركة الشعر الجديد النور في الصين .

إن الحرب العالمية الأولى ، وعلى الخصوص ثورة أكتوبر الروسية عام ١٩١٧ هزتا الصين العتيقة هزة عنيفة . في عام ١٩١٩ أثارت المعاهدة الظالمة التي أقرتها مؤتمرات باريس غضب الشعب الصيني . وفي الرابع من هذه السنة انفجرت ، على نطاق واسع حركة مناهضة للإمبريالية والإقطاعية وكانت هذه الحركة أيضاً هامة في مجال تطور الأفكار في تاريخنا الحديث ، حادثاً خطط في وضوح خط السير بين الثقافات القديمة والحديثة ، بين فكريات الماضي والحاضر ، وتحت راية (هجوم) التيارات الأيديولوجية الجديدة : (العلم والديمقراطية) ولكي نستطيع التعبير في حرية عن مشاعرنا وتطلعاتنا إلى الاستقلال والحرية قامت ثورة أدبية .

دشنت حركة تحرير الأشكال الشعرية هذه الثورة مجلة ـ الشباب الجديد ـ نشرت أول القصائد باللغة المنطوقة ثم مجلة ـ المجرى الجديد ـ والصين المراهقة ، والتعليقات الأسبوعية ، وصاحبت خطواتها .

في البدء كانت هذه القصائد تشبه على الغالب أغاني شعبية أو أغاني أطفال ولكنها كانت مقطعة في أبيات ومنقطة ، دون تحديد في عدد الأبيات أو الكلمات . لقد استطاعت أن تكسر كل قيود الأسلوب القديم وأن تتبنى لغة الشعب في الحديث . وعلى الرغم من معارضة المحافظين عرف هذا الشعر عبر البلاد شعبية واسعة في سرعة كبيرة .

إن حركة ٤ أيار ١٩١٩ في الصين افتتحت عهد الشعر الجديد الذي بلغ الآن ستين سنة من عمره . ورغم التجارب المرة والآلام التي ذقناها خلال هذا العهد الطويل فإن الشعر الحديث يتقدم خطوة خطوة ، ودائماً في ثقة وعزيمة .

- ٢ -

السنوات الستون في عمر الشعر الجديد كان لها تاريخ مجيد . أولئك الذين شهدوا حركة ٤ أيار الأدبية كانوا جميعاً أفراداً مختلفين منوعين . وكان من المستحيل أن تكون لهم وجهات نظر واحدة في الأدب والشعر . بعضهم ألح على وظيفة الشعر الجديد الاجتماعية الثورية . واكتفى الآخرون أعلنوا أن (الأدب والفن للحياة) وآخرون اهتموا بالشكل ، وفئة رابعة كانت غايتها أداء الشعر الشعبي . وهنالك أيضاً الذين يرون دائماً أن (الشعر هو الصيد المعدود للأرستقراطية) .

كان (هو شي) - ١٨٩١ - ١٩٦٢ - أحد المبشرين النشيطين بالشعر الحديث ، وعنده أن ثورة ٤ أيار ١٩١٩ الأدبية يجب أن تكون قبل كل شيء (تحريراً للغة وللأسلوب) .

إن كسر قيود الأشكال القديمة يعني عملياً السماح لطريقة في التعبير عن الموضوعات أرقى وأفضل . هنالك عدد كبير من الشعراء تمرسوا في أمواج النضال الحقيقي وتأثروا بتيار الأيديولوجية الثورية ، وكانوا من العناصر الجديدة لم يستطيعوا إلا أن يأخذوا بعين الاعتبار المجتمع والحياة ، وأن يعالجوا في الوقت نفسه عدداً من القضايا اليومية . وهكذا عبر الفكر المناهض للإمبريالية والمناهض للإقطاعية عن نفسه في كل النواحي وكان هذا الفكر منتمياً إلى الديمقراطية الثورية في ذلك العهد . في هذا الجو السياسي والفني وهو أكثر حرية وتفتحاً تولت القصائد الجديدة المفعمة بالجدة والطراوة القيام بعملية الهجوم واحتلال الموقع الذي كان يحتله من قبل الشعر ذو الأسلوب القديم .

خلال السنوات الأولى التي تلت حركة ٤ أيار ازدهرت للمرة الأولى حركة الشعر الحديث في بلادنا .

قصيدة (تحية إلى دوكسيو الخارج من السجن) لـ (لي رازهاو) وهو من أوائل المناضلين الشيوعيين في بلادنا ، وقصيدة (الفراق والموت) لـ (زوانلي) وقصيدة (أغنية الفلاح في الصين) لـ (دانغ زونجكسي) وقصيدة (موشح المد الأحمر) لـ (كوكيوبي) و (أغنية الثورة) لـ (بانغ بي) وقصيدة (زيارة كوخ عامل) لـ (دانغ زونجكسيا) كانت كل هذه القصائد مفعمة بقوة كبرى في الإيحاء والتحريض .

إن أوائل الشعراء من النوع الجديد ، وهم يراعون مبدأ (الفن للحياة) استطاعوا أن ينقلوا صوت الواقعية . وفضل أكثرهم التعبير عن مشاعرهم بالشعر الحر .

في عام ١٩١٧ ، أي قبل حركة أيار (١٩١٩ بسنتين نشر (ليو بانونغ) - ١٨٨٩ - ١٩٢٤ - في مجلة (الشباب الجديد) مقالاً عنوانه (الإصلاح الروحي للقصة والشعر) ، وكانت قصيدة (صفحة من الورق تفصلها) ، التي نشرت في تشرين الأول ١٩١٧ هي أول قصيدة من النمط الجديد :

في الغربة تشخر مدفأة
أمر السيد بفتح النافذة وبشراء فواكه
قال : « ليس في هذا اليوم برد
أنا أموت من الحر مع هذه النار » .

* * *

في الخارج كان متسول يتمدد على الأرض
تصطك أسنانه ويصرخ بالريح : « أوه ، أكاد أتجمد »
وأسفاه : بين داخل البيت وخارجه

لا توجد إلا صفحة بسيطة من الورق !

إن قصائد ديوانه (السوط) تصف في أكثرها حياة العمال البائسة في ذلك العهد .

أما معاصره الشاعر (ليو دابي) ١٨٨٠ ـ ١٩٣٢ ـ فقد استهدف هو أيضاً إبداع شعر جديد . وفي ديوانه (بائع النجوم) يعالج ألم الفلاحين .

الشعـراء الـذين كانـوا في ذلـك العهـد هم : (زوزوران) و (يو بانجبـو) ، و (زوزيكنـج) و (كسي بانجسكـان) و (لو زيوي) و (كانـغ بيكانغ) و (فانغ زي) و (وانغ تونجزاو) و (كسو يونوو) . . . إلخ .

في (هانغشـو) بدأ الشعراء الأربعة من حلقة (على شاطىء البحيرة) وهم (يانغ كسوران) و (بان موهوا) و (وانغ جانجزي) و (فانغ كسو فانغ) إنتاجهم بسلسلة من قصائد الحب النقية ، المفعمة ببراءتهم الفتية وبتطلعاتهم إلى حرية الزواج وإلى الحب .

وكان من بين الشعراء شاعر عكس على أفضل صورة روح ذلك العصر المضطرب العاصف وهو (جو وموردو) ـ ١٨٩٢ ـ ١٩٧٨ . أنهى دراسته في اليابـان وكـان أكثر أعضاء حلقة (إبداع) أهمية . ونشر ديوان (الربة) عام ١٩٢١ . وكان متأثراً بـ (ويتمان) وقد هز في جرأة أركان الحلقات القديمة ومجد الطبيعة والأرض والبحر والشمس والقوة والمدن والوطن في حماسة .

هذه أبيات قصيدته (صباح الخير) التي نظمها في كانون الثاني عام ١٩٢٠ :

صباح الخير أيها البحر المتحرك على الدوام
صباح الخير أيها الفجر المنير الباهر

صباح الخير أيتها السحب المتراكمة كالشياه أو كآبيات قصيدة
صباح الخير أيها المطر الناعم المنير الساقط كثيفاً مثل تمتمته شعرية
صباح الخير لكن جميعاً أرجوكن حيثما كنتن نقل كلماتي ؛
صباح الخير يا وطني الفتي
صباح الخير يا مواطني الذين بعثوا
صباح الخير يا نهر اليانغسي الجارف في الجنوب

صباح الخير أيها النهر الأصفر المتجمد في الشمال
أيها النهر الأصفر ليت الجليد يذوب في صدرك سريعاً
صباح الخير أيها السور العظيم الجليل
آه : يا لك من سهل ثلجي واسع
آه : يا روسيا التي أحترمها وأجلها
صباح الخير يا رائدتنا المحترمة

* * *

صباح الخير أيها المحيط الأطلسي
صباح الخير أيتها القارة الجديدة
صباح الخير يا قبر واشنطون ، يا قبر لنكولن يا قبر ويتمان
آه ! يا ويتمان ، يا ويتمان ذا الفكر الذي هو أكثر سعة من المحيط
الهادىء
آه ! أيها المحيط الهادىء
صباح الخير أيها المحيط الهادىء ، يا جزر المحيط الهادىء ، يا جزيرة
المحيط الهادىء الصوفية
يا يابان ، يا يابان يا يابان الملفعة بالأحلام

استيقظي (ميسام)[1]
تعالي سريعاً واعجبي بالصبح الثمين

كان (جيو موروو) يحتقر التراث فخط طريقاً جديدة في شجاعة ، وأبياته العنيفة تفيض عاطفة . وفتح أبواباً واسعة لموضوعات جديدة في الشعر الجديد كما أبدع أشكالاً جديدة . إنه أكثر ممثلي الشعر الثوري في ذلك العصر مكانة وخطراً .

منذ عام ١٩٢٣ قامت مدرستان شعريتان مدرسة (الهلال) ومدرسة (الرمزيين) في عالم الأدب .

مدرسة (الهلال) أسست عام ١٩٢٢ ولم تستطع إصدار مجلة باسمها إلا في آذار عام ١٩٢٨ .

أهم شعراء هذه المدرسة و (وان وديو) ١٨٨٩ ـ ١٩٤٦ ـ بدأ عمله الأدبي مع حركة ٤ أيار . وأكثر أعماله الشعرية تمثيلاً لاتجاهه هما (الشمعدانات الحمر) و (المستنقع الراكد) . وفي بداية إبداعه نظم قصائد من الشعر الحر ، ثم سرعان ما تاب وأناب وأصبح نصيراً فدائياً مغالياً للشعر المنظوم وجمالياً يدعو إلى (الفن للفن) . ولكي يسخر من نفسه استعمل تعبير (الرقص بالسلاسل) . في قصيدته (المستنقع الراكد) التي نظمها عام ١٩٢٥ ، غنى قائلاً :

هو ذا مستنقع راكد لا مستقبل له
الريح لا تستطيع أن تحرك فيه أقل موجة
وأسفاه له . ألقوا فيه ما لديكم من حثالة
ولا تعبأوا به وألقوا فضلات طعامكم

* * *

(١) كلمة يابانية تعني « استيقظ » .

هكذا يمثل هذا المستنقع الراكد الذي لا مستقبل له
شيئاً ما خاصاً
عندما لا تحتمل الصفادع الصمت
يخيل إلينا أن الماء يغني
هو ذا مستنقع راكد لا مستقبل له
عاجز عن إيواء الجمال
خير لنا أن ندعه للقبح
لنرى أي عالم يمكن أن يخلق فيه !

الشاعر الممتاز الثاني في مدرسة (الهلال) هو (كسو زيمو) ١٨٩٦ - ١٩٣١ . أكبر سناً من (وان) بقليل بدأ نتاجه بعده . ومارس تأثيراً كبيراً . إنه شاعر متأنق يمكن أن يمثل بيت من أبياته كل حياته :

أجهل من أين تهب الريح

حاول أولاً أن يعرض الحياة في قصيدته (المارشال) مثلاً أو في (من يعرف ؟) و (كالفاري) رغم أن علاقته بالواقع ظلت ضعيفة .

كان شاعر الحب - يبدو فصيحاً جداً أمام النساء - وترك لنا غير قليل من القصائد حول هذا الموضوع : أغنية ورقة تسقط / ليلة في فلورنسا / بناء جدار / أستمع إليك . . .

كان ماهراً في المستوى التقني فامتاز في نظم قصائد فارغة من المحتوى . في تشرين الثاني عام ١٩٣١ لقي مصرعه في حادث طائرة ، خلال طيرانها من نانكين إلى بكين . وكانت فترة إبداعه الشعري قصيرة لم تدم غير عشر سنين .

شاعر آخر من حلقة (الهلال) هو (زوكيانغ) ١٩٠٤ - ١٩٣٣ - كان مبغضاً للبشر غير قابل للإصلاح . أشعاره مشبعة بالتشاؤم كقصيدته (جبل

التقوى) مثلاً :

أدار الجمال جبل التقوى
ليمتلك قلوباً إنسانية
وفي نهاية الرهان عندما جاؤوا لاستعادتها
وجدوا الباب مغلقاً

في ٢ شباط عام ١٩٢٥ نظم قصيدة عنوانها (لكي يدفنوني) ، ثم انتحر بإلقائه نفسه في نهر عام ١٩٣٣ .

لم تفقد مدرسة (الهلال) الأنصار والأشياع ، ونشاطات شعرائها استمرت طويلاً إلى حد ما . وإذا كان (كسو زيمو) كما وصف نفسه :

أرحل في صمت
كما جئت في صمت
أنفض كمي
لكيلا أحمل مزعة من غيمة

فإن (شان مانجيا) فقد سلك في حياته السلوك الذي ذكره في قصيدته (الأوز البري) :

لا أسأل على أية غيمة
تقف أغنيتي
ولكن مدرسة (الهلال) كانت تحتضر

بعد موت (كسو زيمو) في عام ١٩٣١ السنة التي نظم فيها (وان ميديو) آخر قصائده (أعجوبة) لم ننتظر قط من هذه المدرسة الأعاجيب .

التيار الثاني في ذلك العهد كان تيار (الرمزيين) ويمثله (لي جانفا) -

١٩٠١ ـ ١٩٧٦ ـ عدد كبير من قصائده التي نظمها في الخارج لا تمت إلى الصين بصلة . وأكثر من ذلك أن (لي) كان مأخوذاً بهوس نظم الشعر الحر بلغة كلاسيكية ، وذلك ما جعلها أكثر إبهاماً وانغلاقاً من الشعر الكلاسيكي .

وهكذا كان هذان البيتان في قصيدته (المرأة المهجورة) :

ليكن ، أسرعت مع نبع الجبل قرب الشاطىء
ثم ذهبت مع الأوراق الحمر

هذان البيتان وهما دون معنى منطقي لا يمثلان إلا متاهة من الكلمات التي ليس لها معنى عند الناس العاديين . . وأنهى القصيدة أيضاً بهذه الزفرة :

واأسفاه يا نور القمر ألوف السنين مثل يوم واحد
أنت الذي لا تفهم فكرتي
أترك نفسي في طرف العالم .
يجب عليك إطلاقاً أن تطبع ظلي على رمل الشاطىء عديم الطعم
لأن من الصعب جداً أن نجد قارئاً في العالم الإنساني

ومدرسة (الرمزيين) كان لها غير قليل من الأنصار ولكن أكثر آثارهم تتورط في التشاؤم .

ذهب (يوجانغبو) أحد هؤلاء الشعراء إلى حد عنونة مختارات من شعره باسم (الوردة على هيكل عظمي) ومن هنا يمكن أن نقيس انحداره .

رعا (دي وانغ شو) ـ ١٩٠٥ ـ ١٩٥٠ ـ ربات الفن منذ عام ١٩٢٣ . تأثر بادىء بدء بالشعر الكلاسيكي ثم مال إلى الرمزية . قصيدته (الدرب تحت المطر) أحدثت أثراً موسيقياً يقرب من أثر قصيدة (فرلين) ـ أغنية الخريف ـ وعن طريق التكرار أحدث في القراء شعوراً بالكآبة . كان ينبش

الماضي غالباً لكي ينسى أكدار الحاضر . وفي مستوى التعبير عرف كيف يستخدم لغة الكلام التي جعلت قصائده أكثر وضوحاً وأكثر تقدماً من قصائد معاصريه .

أما الشاعر الآخر فهو (في مينغ) ١٩٠١ ـ ؟ ـ الذي تشرد بين مدرسة (الهلال) ومدرسة (الرمز) فقد أضفى على آثاره نغمة وتعمية أكثر غموضاً . لنذكر بعض أبيات من قصيدته (إلى زيلين) :

أريد أن أنظم قصيدة
تشبه الشمس ـ والقمر
تشبه ظل الظهيرة
تشبه السقوط الدائم للأوراق الميتة التي لا تحصى
ولكن شعري مجرد من أوراق الأشجار

ثم ذابت مدرسة (الهلال) ومدرسة (الرمز) في المدرسة الحديثة .

لم يكن للمحدثين هدف في الفن . كانوا مجموعة من الشعراء من اتجاهات مختلفة ينشرون آثارهم في (المجلة الحديثة) .

وكان بعضهم من أنصار (الهلال) القدماء وآخرون من أنصار (الرمزيين) .

وكان أكثرهم تأثيراً (دي وانغ شو) .

- ٤ -

رغم هذه المدارس المختلفة التي كانت تنحدر قليلاً أو كثيراً فقد ظلت المدرسة الواقعية تؤلف التيار الأساسي . كانت تتطور في عناد في وضع صعب .

تألفت عصبة كتاب الجناح اليساري في آذار عام ١٩٣٠ وكانت منظمة تمتلك نظرية وتخوض معركة وتضع هدفاً . وشرع (الكومنتانغ) فوراً باضطهادها وملاحقتها في شكل رهيب .

الشاب الشاعر (يان فو) حمل إلينا صدى الأزمنة الحديثة ، كان يناضل وهو يغني قصائده الوداع ، أخي / رسائل مخطوطة بالدم / كانت قصائد مؤمنة بالنصر . صرح في رسائل مكتوبة بالدم بصوت هادر :

أنا بدء ثورة
أنا بكر التاريخ
أنا عصفور في عرض السماء
أنا سنان رمح العصر

وفي ١ أيار ١٩٢٩ قذف الشاعر هذا التحذير الجدي :

مستقبل العالم لنا
لا يستطيع الجلادون ولا المشانق خنق تطور التاريخ

في ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٣١ تم توقيف شاعرنا الشاب مع (لي ويسان) و (رو شي) و (هويبان) و (فانغ كانغ) . وبعد عشرة أيام ، وفي ليلة ٧ كانون الثاني تم إعدامهم سراً . كان (يان فو) شاعرنا في الثانية والعشرين من عمره .

في مقدمة ديوان (يان فو) ـ معبد الأطفال ، تحدث (لو كسوان) عنه بهذه العبارات : « كان نور الفجر الذي بزغ في الشرق . صوت السهم الرنان في الغابة ، النبتة التي تطل برأسها في نهاية الشتاء . أول خطوة في حملة » .

إن الإرهاب الأبيض ، بدلاً من أن يخمد لهب الأدب الثوري الجديد لم يفعل شيئاً غير أن زاد النار ضراماً . وأصبح الكتاب والشعراء الذين انخرطوا في الثورة أكثر عدداً .

يوم ١٨ أيلول ١٩٣١ ، هاجم الإمبرياليون اليابانيون شمالي شرقي بلادنا وتعرضت الأمة الصينية للهلاك . ومع ذلك فقد عرف الشعر الصيني الجديد دفقة جديدة في الوقت نفسه الذي تتطور فيه مقاومة الإمبريالية اليابانية . في عام ١٩٣٢ نشرت جمعية (الشعر الصيني) في شنغهاي مجلة (الشعر الجديد) التي دعت الشعراء إلى (الإمساك بالواقع والتغني بالنضال ضد الإمبريالية اليابانية والكتابة للجماهير» .

وهكذا اتسعت الموضوعات : القرى المدمرة ، الأوبئة ، المجاعات ، التشرد ، النضال ضد الضرائب وأجور الأرض ، النضال في المعامل ، البطالة ، الإضرابات ، العصيان والثورات ، العيش في السجون . . إلخ . . تقاليد الواقعية نمت وتتابعت ، وانبثقت نشرات (الجناح اليساري) الأدبية مثل الفطريات بعد المطر : مجلات / إصلاح الأرض / السيل ـ الدب الأكبر / جير مينال / كانت تنشر دون انقطاع القصائد الثورية من الطراز الجديد .

وبالمقابل كان الاضطهاد يتضاعف عنفاً . قتل (يانغ كسوران) عام ١٩٣٣ ، وتم توقيف (بان موهوا) في السنة نفسها في (تيانجان) ومات في سجنه في السنة التالية . والتحق (فانغ كسو فانغ) سراً بالقاعدة الحمراء في جبل (جيان جانغ) .

من أكثر الشعراء نجاحاً من ذوي النزعة الواقعية في مطلع الثلاثينات (غداة حرب المقاومة لليابان) ، يجب أن نذكر أولاً (بو فانغ) ١٩١١ ـ ١٩٤٢ ـ الذي كان يثير حماسه قرائه بعنفه وحميته المعادية للإمبريالية ، وبخصوبته وأسلوبه البسيط الذي لا يجارى . في قصيدته (الرصاصة الأولى) يعلن :

في القرى اشتعلت نار واسعة
واللهيب لا يعد ولا يحصى
يزداد ضراماً
في كل ريف الصين
يتداعى الناس ويجيب بعضهم بعضاً
وتئز الرصاصات الأولى
أوه ، الصين كلها تلتهب

(زانغ كيجيا) ١٩٠٥ ـ . . . ـ وهو تلميذ (وان ييديو) اشتهر بوصفه لبعض المشاهد في الريف الصيني وصفاً دقيقاً . وهكذا قال في قصيدته : الحصان العجوز :

العجلة دائماً ملأى حتى الحفافي
الحصان لا يستطيع أن يحتج على كل حال
تحت الأثقال كانت أوتاد العجلة تغوص في لحمه
فيخفض رأسه تحتها

* * *

دون أن يعرف ما سوف يحدث
كان يبتلع دموعه ويغرزها في قلبه

كانت ذؤابة السوط تتراءى أمام عينيه
فيرفع رأسه قليلاً وينظر إلى أمام

كان (تيان جبـان) ـ ١٩١٦ ـ . . . ـ في حوالي العشرين في ذلـك العهد . ولكنه نشر عدة دواوين : قبل الفجر حكايا الريف الصيني / تمجيد الصين / وتفعم كل هذه الدواوين أنفاس الحياة وترن فيها النبرات التي تشبه نبرات (مياكوفسكي) .

وفي قصيدتـه : (ربيع الصـين يوجه نداء إلى الإنسانية جمعاء) يطلق الشاعر صرخة المحارب مدوية :

كتف
الشعب
ترتكز
على الخندق
يد
الشعب
تمسك
بالبندقية
ضد الفاشية العسكرية
عدوة الشعوب
يحارب الشعب في إصرار وصمود
في قلب المعركة ولد ربيع الصين
في قلب المعركة يوجه نداء إلى الإنسانية جمعاء . .

- ٥ -

في مواجهـة الغزو الكاسح للإمبريالية اليابانية نشبت حرب المقاومة في تموز ١٩٣٧ ، وذلـك ما كان الشعب الصيني يطالب به منذ أمد طويل . إن غضب أمتنا الذي ظل مكبوتاً منذ مائة عام قد انفجر أخيراً انفجاراً بركانياً .

لن نتحدث عن الحب تحت القنابل ولا عن الإعجاب بالمناظر الطبيعية في دخان البارود . كان هنالك عدد كبير من الشعراء ينشطون في قواعد المقاومة وفي مراكـز الأنصار وفي المناطق الكبيرة المتأخرة في الجنوب الغربي وفي الشمال الغربي . حتى الشعراء الذين كانوا ينتمون سابقاً إلى جمعية (الهلال) وجمعية (الرمز) استيقظوا في هذه الفترة الحرجة للدفاع عن الأمة وشرعوا يتغنون بالمقاومة .

كانوا ينظمون الشعر تحت قصف القنابل ، دون ملجأ ولا مأوى خلال المسيرة وتحت أزيز الـرصـاص ، يكتبـون في الأدغال وعلى الجبال ويلصقون أشعارهم منشورات في آلقرى وعلى جدران بيوت الطين لكي ينشروا ويعززوا مقاومة اليابان .

في الخـروج والأكياس حُفـظت دواوين ، وفي الـدفاتر نسخت قصائد محبوبة ، يمكن أن نتخلى عن كل شيء إلا عن هذه القصائد الحديثة .

وكـان كل واحد يحفظ عن ظهر قلب مجموعة من الأبيات المثيرة يلقيها خلال الاجتماعات والمؤتمرات .

كان ذلك عهداً جديداً للشعر الجديد لحق بحركة ٤ أيار . أكثر شعرائنا المشهورين اليوم كانوا جميعاً من الذين خاضوا حرب التحرير الوطني الكبرى .

كانـوا يفكرون كما يفكر الشعب ويحاربون إلى جانبه وفي صفوفه . لقد

ربطوا مصيرهم بمصير أمتهم .

منـذ بدء الحـرب غادر (تيان جيان) المنـطقة الشرقية والتحق بالمنطقة الـوسـطى من البـلاد ونـظم عدداً من القصائد المفعمة بحماسة المعارك . إن قصيدته (إلى المحاربين) دوت كأنها تام ـ تام طبول الحرب :

النصر
أو الموت
في النضال . . .
في صفحات القصائد
مقبرة المحاربين
خير وأحلى
وأكثر نوراً
من بلد العبيد

كانت قصيدة (إلى المحـاربـين) بوقـاً حربياً ، كما دعت قصائد كثيرة أخرى الشعب إلى المعركة .

انخرط (واغ يابينغ) ـ ١٩٠٥ ـ . . . . ـ في فرقة خدمة الجبهة ، وجاب المقاطعات الخمس : جيانغسو ، وزيجيانغ وهوبي وهونان وجيانغسي ، وفي تلك الفترة كتب عدداً غير قليل من الأبيات .

(بيان زيلان) ـ ١٩١٠ ـ . . . . ـ الذي كتب فيما مضى هذه الأبيات :

على الجسر كنت تعجب بمنظر الطبيعة
والناس ، وهم يعجبون بمناظر الطبيعة ينظرون إليك من أعالي قصورهم
ظهر الناس في نطاق نافذتك

الفترة بين معركتين قصائد ألهمتهم إياها لا الغيوم ولا الأحلام وإنما كان إلهامها من نداوة العشب في الصباح وبين الأزهار التي يبلها الندى .

وهذا (شان هوى) ـ ١٩٢٠ ـ ١٩٤٤ ، يعمل وهو في التاسعة عشرة من عمره في منطقة الحدود بين شانغسي شاهاير ـ هوبي . ومات وهو يناضل على رأس فصيل من الرواد الشباب . في ساحة الشرف . إن آثار هذا الشاب الشهيد تشع بنور مثله الأعلى ؛ وصفائه :

يا مناطق شانغسي ـ شاهاير ـ هوبي
واأســــفاه
يمكن أن تخرس أغنيتي ذات يوم
مع حياتي
إذا مزقها الأعداء
ولكن
لحمي ودمي
وقد تحولا إلى أزهار فواحه
ستتفتح على دروبكم
وستكون هذه الأزهار من كل الألوان
حمراء كالوفاء
صفراء كالصفاء
بيضاء كالحب
خضراء كالسعادة
قرمزية كرمز المعاناة

(قصيدة مهداة إلى عدن)

وظهرت أنت بدورك في أحلامهم

هذا الشاعر نفسه هو الذي كتب بعد أن حارب في الجبهة الشمالية الغربية قصيدته (إلى الشباب الذين يصلحون الأرض في الشمال الغربي) :

تضربون المواعيد في الشمس
على قمة الجبل على بعد عشرة فراسخ من هذا المكان
المجرفة على الكتف في الظلمات التي تسبق الفجر
لكي تقطفوا النور تتسلقون الجبل سريعاً

* * *

رغم الأدوات البدائية
تفتحون أبواب المستقبل بضربات المجارف
تجابهون الحقيقة وجهاً لوجه
و (الأمل) يعرض عليكم كثيراً من الوجوه الضاحكة !

جمعت قصائده في المقاومة في ديوان (رسالة تعاطف) .

وأيقظت الحرب كذلك مؤلف ديوان (لوحات حلم) وهو (هي كيفانغ) - ١٩١٢ - ١٩٧٧ . فغاص في محيط الحياة وغنى ملء صوته للمعركة الكبيرة :

كل واحد منا ينسى مظالمه وأفراحه الشخصية
البلاد كلها تتحد في سلسلة من الفولاذ . . .
وبعد قليل هاجر إلى (يانان)

في ذلك العهد حارب عدد كبير من الشعراء الشباب في ساحات المعارك . وانضموا إلى صفوف الأنصار وتغلغلوا في المناطق المحتلة وألفوا في

أما (وي وي) - ١٩٢٠ - . . . - الذي قضى أمداً طويلاً من حياته يحارب في (هوبي) و (شانغسي) و (منغوليا الداخلية) فقد عبر على الخصوص عن مشاعر الشاعر المناضل . في قصيدته (أيها الجدجد أيقظهم) يشرح عبر وصف حياة المحارب نبل الجنود الثوريين :

. . . .

هل رأيت ، في حلمهم
ما أجمل انفجار القنابل
ما أحلى عودة الفرسان إلى البلد المتحرر
على الأرض المحروقة تعود الفراشات كلها لترفرف مرة أخرى بين الأزهار
آه ! أيها الجدجد أيقظهم
هناك حيث يتصاعد دخان أزرق عالياً
ينتظرهم فطور خفيف .

وكان (لولي) ١٩٢٠ - . . . - مؤلف قصيدة (أغاني نهر يان) أما قصيدته (هكذا قطعنا المراحل) فمشبعة بصمود المحارب وتصميمه :

اصبغ رايتك بدمك
أشعل مثلك العليا بحياتك

. . . .

يا شرارات النار
نحن نتحدى الظلمات

وهنالك أيضاً شعراء حاربوا في شمالي الصين ومنهم : (شاوزينان) و (مان كينغ) و(يوان بو) و (فانغ بانغ) و (شي لون) و (كي كيجياو) وغيرهم . .

سأحدثك عن كل ما عشته
سأكون لك قلبك
ولن أركع ولن أنحني أبداً .

خلال حرب المقاومة بلغ الشعر الجديد أعلى مراحل ازدهاره . وكان معظم الشعراء يخوضون غمار الحرب في سبيل التحرر الوطني . وأكثر الذين نالوا النصيب الأوفى من النجاح كانوا : (تيان جيان) و (بوفانغ) و (زانغ كيجيا) و (كوانغ ويران) و (كي زونغ بينغ) ، و (كسا وسان) و (هي كيفانغ) و (بيان زيلين) و (يان شان) و (زوديفان) و (لوجيان) و (جونغ مو) و (وانغ يابينغ) و (تيان لان) و (لويوان) وفي الجنوب نجد (لان لان) و (هوويزهو) و (هان بيبينغ) و (هوانغ نين جيينغ) و (شان لودي) و (شان كاينان) .

في أيار عام ١٩٤٢ أصدر الرفيق الرئيس (ماوتسي تونغ) : (أحاديث في ندوة الأدب والفن في ينان) ودعا كتابنا وشعراءنا إلى التمرس بين الجماهير حتى يبدعوا آثاراً ومؤلفات يحبها الشعب . وتابع شعراء المناطق المحررة تقاليدهم الجميلة في إحياء الأغاني الشعبية وأبدعوا كثيراً من المؤلفات التي تفيض نضارة . ونذكر منهم على سبيل المثال : (لي جي) - ١٩٢٢ - ١٩٨٠ - مؤلف (وانغ جي) و (لي كيانغ كسياتنغ) و (روان زانغ جينغ) (١٩١٤ - . . .) و (مياه نهرزانغ) و (زانغ زيمين) - ١٩٢٦ - . . . . - وذلك الذي لا يموت أبداً ، و (وانغ كسي جيان) غابة المزارعين .

ديوان (قصائد موزونة) لـ (بي جيفي) - ١٩١٩ - ١٩٦٢ - مثال طيب لشعر المعركة في زمن الحرب .

بعد استسلام اليابان في المنطقة التي يشرف عليها (الكومنتانغ) نشر

(لي يانـغ) الـذي كان رساماً كان أحد أعضاء عصبة الفنانين في الجناح اليسـاري . أوقف في تموز ١٩٣٢ وخـرج من السجن في خريف عام ١٩٣٥ . نشر ديوان (القيثار) . قصيدته الطويلة (صياد النمور وأسرته) التي أنهاها في أيار ١٩٤٢ توضح في شكل عميق التناقضات المختلفة في المجتمع الإقطاعي .

أمـا أهم شاعـر في (المـدرسة الحديثة) فكان الشاعر المشهور (دي وانغ شو) خرج من (دربه تحت المطـر) وغـاص في زوبعة المقاومة . وشرع في نظم قصائد جديدة . بعد سقوط (هونغ كونغ) ألقى به الجيش الياباني في السجن وهنـاك نظم قصـائـد وطنيـة مؤثـرة مثل (أبيات مخطوطة على جدار السجن) و (كفي الجريحة) وفي قصيدته (انتظار) يفضح التعذيب الذي يمارسه الأعداء :

. . . .

أقصى الهوان وأقصى الآلام

. . . .

شريك أخرق في لعبة (الجودو) دريئة للاعبين بالسيوف
نبلع الماء الذي يصبونه في أفواهنا وآذاننا
ثم إنهم يضغطون على البطون
الركب منصوبة على رؤوس المسامير
الأعقاب مسحوقة بمدقات الآجر . . .
نسمع أزيز السياط ، نشنق على العوارض
ما أكثر من ذهبوا ولم يعودوا .

دعني أنتظر هنا
عودتك في صبر
سأكون لك آذاناً وعيوناً

(يوان شويبو) هجاء سياسياً له رنة جديدة : أغنية جبلية لـ (ما فانتيو) وفي شنغهاي حول جمعيتي (الإبداع الشعري) و (شعر الصين الجديد) تجمع بعض الشعراء الذين تهمهم قضايا الظرف الراهن : ومنهم (وانغ كساندي) و (وهانغ يوشي) الملقب (كاو كوانشي) و (دو يانغسي) و (تانغ كي) و (تانغ شي) و (يوان كيجيا) والشاعرات من أمثال (شان جان جرونغ) و (شانغ مين) وأخريات .

وكل هؤلاء الشعراء والشاعرات اتبعوا تقاليد الواقعية ضمن أبيات جديدة وحاولوا السيطرة على التقنية على مستوى المدارس الحديثة الأدبية في أوروبا وأمريكا لكي يصفوا ويسجلوا الوقائع الاجتماعية بعد الحرب .

- ٦ -

بعد ثماني سنوات من حرب المقاومة هزمنا الإمبريالية اليابانية . وبعد أربع سنوات قلبنا حكومة (جيانغ جييشي) وفي تشرين الأول من عام ١٩٤٩ دوت طلقات المدافع المجيدة معلنة قيام جمهورية الصين الشعبية .

جاء شعراؤنا من كل مكان ليجتمعوا في بكين ، لقد خلفنا وراءنا سنوات العذاب وقلنا لها وداعاً إلى الأبد وشرعنا في حملة جديدة . إن الأزمنة الحديثة في حاجة إلى أناشيد حديثة .

الشعراء الذين كانوا في الماضي يحتجون ويغضبون أصبحوا يتغنون بملء قلوبهم ، ببلادنا الجديدة وحياتنا الجديدة وبشعبنا في انتصاره الباهر ، استقبلت الأوساط الأدبية استقبالاً حاراً (شي فانغيو) ١٩٢٥ - . . . - وقصيدته : صوت السلام الأقوى .

وألف (جيو كسيا شووان) - ١٩١٩ - ١٩٧٦ - كثيراً من القصائد المثيرة

مثل (السير نحو الصعاب) و (أغنية الخريف) وذلك لتشجيع الناس على بناء عالم جديد .

و (هي جيانغـزي) ١٩٢٤ - . . . . - مؤلف أوبرا (الفتاة ذات الشعر الأبيض) بدأ منـذ نعومة أظفاره بنظم القصائد . وتمثل ما هو هام في الأغاني الشعبية والشعر الكلاسيكي ، وشعراء الغرب ، وأصدر ديواناً عنوانه (لنغن بأعلى أصواتنا) وهو نموذج طيب لهذا النوع من الشعر . كما أبدع في قصيدة (أغنية لي فانغ) صورة رائعة لجندي يخدم الشعب بكل ما فيه من روح .

استقـر (وان جي) ١٩٢٣ - ١٩٧١ - في (كسانغ جيانغ) في المنطقة الشمالية الغربية بعد تسريحه من الجندية ، وكانت قصيدته (أغنية الرعاة على جبل تيانشان) وقصائد أخرى رائعة تصويراً لسهب مزدهر وللحب في الأزمنة الحديثة . كانت نغمته رشيقة وكانت لغته منيرة واضحة .

انبثقت أعداد كبيرة من المواهب في أوساط مختلفة .

قصيدة (دي يانغ) - ١٩٣٠ - . . . . - وعنوانها (أعود إليك يا وطني) تعـبر عما يفكـر فيه المتـطوعـون في رد العدوان الأمريكي ومد يد المساعدة إلى كوريا . قصيدة (المدينة عند الفجر) وقصيدة (جونغ ليو) ١٩٢٧ - . . . . - وعنوانها (في الشمال - تضمان محتوى واقعياً ونمطاً غنائياً . ووصف (بي هوا) ١٩٣٠ - . . . . - الحياة الجديدة في أقاليم الأقليات القومية وصفاً ناجحاً . كما نظم (لي يانغ) قصائد كثيرة عن الجندي في فلم غنائي ودقيق لغة وصورة نضرة في آن واحـد . وقصيدة (نحـو الأبعـاد) لـ (شاو يانغ كسيانغ) - ١٩٣٣ - تفيض بالعواطف الكريمة في الجبل الجديد .

وفي الخمسينات برز الشعراء الشباب من أمثال (زو ليانغ بي) و (يان يي) و (سون جانـغ كسـوان) و (فو شو) و (كاو يانـغ) و (جو جونـغ)

و (يان زان) و (ليانغ شانغ كوان) و (لوكي) وآخرون . .

ومن أهم المنجـزات في الشعر ، هذه المنجزات التي استلهمت الأغاني الشعبية ، القصص الطويلة الشعرية مثل (السحلبية ـ الأوركيدة ـ البيضاء) لـ (كياولان) و (انحدار أشجار الجوز) لـ (وانغ زي يوان) ـ ١٩٢٥ ـ . . . . ـ

واعتماداً على العلاقات الوثقى التي تربط الشعب والشعر اليوم نشأ شعراء من طبقـة العـمال والفـلاحين وكبروا ونشروا هم أيضاً مؤلفاتهم الشعرية مثل (هوانغ شانغ كسياو) وهو عامل و (وانغ العجوز التاسع) وهو فلاح . وهما يعيشان في صفوف الشعب ويغنيان .

في العهـد السـابق لم تكن قصـائـد قومياتنا تستطيع الدخول إلى معبد الحوريات التسع ، ولكننا بعد قيام الجمهورية حثثنا الخطى في سبيل البحث عنها وتصنيفها ونبشها وهكذا ظهرت قصة (أشما) من قومية (ساني) و (جادا ميلان) من قومية منغـوليا و (جيسر) من التبت ، وثـوب الـريش للعصافير المائة ، وغيرها وتمت طباعتها خلال هذا العهد .

ونحن سعـداء حين نرى هذا العدد الوافر من شعراء الأقليات القومية ينضمون إلينا بما لهم من أغان غنية بالألوان . ولنذكر في عداد القصائد المنغولية (السعادة والصداقة) لـ (ن ـ سيانشولس) والقصائد الطويلة (أغنية العيد) و (الـنـار الـصـنـاعية في الحياة) لـ (ب . بورنـدية) و (ديوان السهب) لـ (راجي بازانـغ) الشـاعـر التيبتي ، ومن القصـائـد الـديغـورية : (حب الـوطن) لـ (نيم شبيت) و (روبـابي) لـ (تيي تيمان) . ويجب أن نسجل أسـماء الشعـراء (كريم خجـا) من (الـديغـور) و (كانـغ لانشـوي) من الـ (دبي) و (كانغ لان يانغ) من الـ (دي) و (باو يوتانغ) من (مولاو)

نان) قد انتشر هذا الخزف في (شان ـ سي ، وشين ـ سي) ، وعرف في (كان ـ سو) خاصة تطورات جميلة . وأبدى خزف (يانغ ـ شاو) من مقاطعة (كان ـ سو) والأثمن قيمة من (هو ـ نان) ، أشكالاً تزيينية أكثر تعقيداً . لقد وصلنا على شكل جرار (أعناقها متطاولة ، محلاة بآذان) أو على شكل أقداح ، وقصاع إلخ . . . وهي مصنوعة من التراب الأصفر ، وتحمل زينة حمراء وسوداء ، في أعلى الوسط وعند العنق : زينة تمثل تموجات وأشكالاً حلزونية ، ومربعات منسقة ، وخطوطاً متشابكة ، وموضوعات تجسد الآلهة والبشر مصورة ومنمنمة بإفراط . ولقد زودتنا مواقع وادي (تاو) بأغنى المواسم الأثرية التي يظهر أنها ـ حسب دراسات الأستاذ أندرسون وتصنيفاته ، قد تطورت ببطء من (يان ـ شان : ٢٢٠٠ ـ ١٧٠٠ ق . م) حتى (كيا ـ تسنغ : في الأزمنة التاريخية القريبة) حيث نجد أواخر أنواع الخزف الطيني المصوَّرة ، والمنحدرة بفنها ، إذا ما قيست باللقى البرونزية . وسمحت تنقيبات منهجية في منطقة (هو ـ نان) ، ومحاولات في منطقة (نفان ـ يانغ) ، باكتشاف عدة مراحل متتابعة من الحضارة الصينية ، ولقد عثر في (هيو ـ كانغ) ، فوق خزف (يانغ ـ شاو) ، على خزف أسود ، رقيق ، لماع ، مشغول على دولاب يدور ، تعلن أشكاله المتطورة جداً عن برونزيات المرحلة التاريخية ؛ كان بعضها محمولاً على ثلاث أرجل ، وبعضها الآخر على أرجل مقعَّرة . اكتشف هذا الخزف أولاً في (شان ـ تونغ) ، مع بقايا مدينة محاطة بسور مبني بقرميد طيني . ولقد كشف في (نغان ـ يانغ) ، في أثناء تنقيبات هامة (١٩٢٧ ـ ١٩٣٧) على قطع خزف أبيض ، أقل نعومة من الخزف السابق ، إلا أنه محلّى بزينة ، والقطع مصبوبة في قالب ، أو مطبوع عليها تعرجات وانحناءات ، قريبة جداً من زينة البرونزيات التي وجدت معها . وهكذا فإن فن نهاية سلالة (شانغ) أو سلالة (ين السلالة الصينية الثانية) قد عادت إلينا . ولقد كانت (نغان ـ يانغ : ١٣٠٠ ـ ١٠٢٨ ق . م) آخر

لقد كان في ذلك مجد الشعر الجديد وشرفه في بلادنا .

ومنذئذ ظهر عدد كبير من القصائد في ذكرى رئيس مجلس الوزراء (شو إن لاي) : أحزان كانون الثاني لـ (لي يانغ) أين أنت يا رئيس الوزراء شو ؟ لـ (كي يان) ١٩٢٩ - . . . . - وتتابعت قصائد كثيرة تفضح جرائم عصابة الأربعة .

واليوم ينبعث شعرنا الجديد . وفي مواجهة المستقبل الزاهر في البناء الاجتماعي نعود مرة أخرى لنغني بأعلى أصواتنا .

ومن الملاحظ في السنوات الأخيرة أن الشعر أصبح أكثر انتقالاً إلى الجماهير للتعبير عن عواطفها ومشاعرها .

والآن . ينصرف شعراؤنا ونقادنا إلى وضع قائمة الحساب التاريخية لتطور الشعر الصيني . ويناقشون من جديد القضايا الكبرى التي تبرز دون انقطاع في طريق مسيرتنا إلى أمام . ينبغي أن نستعيد التراث الشعري الجميل وأن نتمثل صفات كل ألوان الشعر التقدمي الأجنبي لكي نستطيع أن نطور ونزيد في عدد أنواع شعرنا وأشكاله وأساليبه .

إن الشعر الثوري الجديد حل محل الشعر الكلاسيكي وتوطدت دعائمه في الميدان الأدبي للصين .

وخلال السنوات الستين الأخيرة ناضل هذا الشعر من جهة ضد مذهب الفن للفن وناضل من جهة أخرى ضد الشعر المنحط من كل شاكلة ، كما عارض من جهة ثالثة في الأدب الثوري نفسه النزعات نحو الأوهام وإطلاق الشعارات . وهنا في هذه النقطة يتم تطور أكثر تعرجاً وأخطر انعطافاً وأشد مصاعباً .

ومـع ذلـك نقول : إذا كان الشعر الجديد في بداياته لا يكوِّن إلا أجمة صغيرة من الأشجار فيمكننا اليوم أن ندعي أن هذا الشعر أصبح غابة خضراء كثيفة وارفة الظلال .

آب ١٩٨٠

بكين - إي كينغ

ترجمة : عبد المعين الملوحي

التراث الصّيني في ميدان الفنون التشكيليّة

• ترجمة : فريد جحا ـ عن الفرنسية

كانت قصص ماركو بولو ، منذ القرن الثالث عشر ، قد كشفت لأوربا وجود عالم الشرق الأقصى ، وثرواته الأسطورية ؛ إلا أن أحداً لم يستطع إثارة الاهتمام في الغرب تجاه هذه المناطق التي كانت مجهولة حتى ذلك الوقت ، إلا بدءاً من القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وذلك عندما بدأ المبشرون الكاثوليك في الوصول إلى الصين واليابان بغية تنصيرهما . ومنذ ذلك الوقت لم يَخِلَّ هذا الاهتمام بوعوده : فلقد أسهم علماء وفنانون في نشر ذوق هذه التقنيات الجديدة في أوربا (كفنِّ صناعة الخزف والبرنيق الصينيين وغيرهما . . .) ، وفي إشاعة هذه الأشكال غير المألوفة لدينا ، والتي أغنت ذخيرة فنانينا المبدعين .

عالم الشرق الأقصى هذا يمكن تلخيصه في كلمة واحدة : الصين . فلقد تطورت في هذا البلد الشاسع هذه الطُّرُز من الحياة والفكر ، التي سيطرت بعد قرون طويلة من الوجود ، لا على عقل الصينيين فحسب ، ولكنها فرضت نفسها أيضاً على جيرانها في سيتكيانغ ، والتيبت ، وأنام ، وكوريا ، واليابان ، ومنشوريا ومنغوليا . فالصين ، منذ زمن طويل ، قارة حقيقية مؤلفة من مناطق متنوعة جداً في مناخها وجغرافيتها . وكان سهل (هوانغ ـ هو) الكبير في الشمال ، المكوَّن من الطمي ، وذو المناخ القارّي ، نوعاً من السهوب المجاورة

التي ينفتح عليها في سعة ، مستمراً ، بفضل الشعوب البدوية المتنقلة التي تجوب هذه السهوب منذ آلاف السنين ، في صلاته مع آسيا الشمالية كلها : أي منشوريا ، ومنغوليا ، وسيبيريا . ويجمع حوض نهر (يانغ ـ تسو) العملاق ، ثروات مقاطعات ذات مناخ فوق الاستوائي ، حيث تسود زراعة الأرز ، وهي منطقة بلَغتها مؤخراً الحضارة الصينية التي كانت قد تطورت من قبل على شواطىء (هوانغ ـ هو) إلا أنها ستبقى ، وهي المنطقة المحمية جيداً من الاجتياحات الشمالية ، نوعاً من معهد يحفظ الفكر والفن الصينيين ، وملجأ للفنانين والمفكرين الفارين أمام العشائر الرحَّل الهمجية . وهناك أخيراً ، الصين الجنوبية التي تحفل بالجبال والغابات أكثر من المنطقتين السابقتين ، والتي تسكَنها اليوم تجمعات غير صينية ، والتي تتصل في جنوبها الشرقي بالهند الصينية الأنامية ، والتي ظلت ، طوال عدة قرون ، تدور في فلكها . ولقد بقيت الوحدة السياسية لهذه المناطق اسمية ، في عدة مناسبات ، إلا أنها ظلت ، مع ذلك ، مرتبطة بصِلات فيما بينها ، بوساطة بعض الروابط الثقافية (كالخط ، والتراث الأدبي) . كانت هذه الصلات قوية إلى حد أنه لم يوفق ، أي انفصال عارض ، أو سيطرة خارجية ، كانا يفرضان بصورة خاصة في الشمال ، حيث حلَّت ، على التوالي ، قبائل الهون والترك والتونغو والمغول ، ثم المانشو . . . لم يوفق أي انفصال أو سيطرة في فصم عرى هذه الصلات البتة .

وتبدو مصادر الفكر الصيني ماتحة من منبعين متناقضين ، هما قطبا العقلية الصينية . إنهما يصدران ، كلاهما ، عن ضرورات حياة زراعية تخضع بقوة لقوانين الطبيعة ، في تعاقب الفصول : الصيف : فترة امتلاء ، وشبع ، ونور ، وعمل في الهواء الطلق ، حيث يسيطر عامل الذكورة في المجتمع ، والشتاء : زمن العَتمة والرطوبة ، واللجوء إلى المنزل والمرأة . ووجب أن يتولد عن التناغم الفصلي المفهوم المزدوج لـ (ين Yin ويانغ Yang) وهما مفهومان

غنيان كل الغنى ، ومعقـدان كل التعقيد ، غنيان بالظل والنور ، وبعنصري الأنـوثـة والـذكورة ، بالرطوبة والحرارة ، التي تعطي بتتابعهما واتحادهما ميلاد الكون . ويجد هذا التناغم ، الذي يسيطر على تسلسل فكر الصينيين صدى عميقاً في فنهم . ويعـطيهم امتثالهم الحميم للطبيعة ، التي يعيشون معها في اتصال دائم ، فكرة عالم متجانس للغاية ، على الرغم من ازدواجيتها الظاهرة . فالإنسان يحيا فيها بين السماء والأرض ، ولقد نتج عن هذين المفهومين الأوليين موقفان متعارضان : أحدهما ، وهو موقف (التادسيتين) يدعي بخضوعه لأمر (تاد) ، مبدأ جميع الأشياء ، وخالق (الين ، واليانغ) ، تأمين سيرورة العالم الجيدة ، عن طريق التأمل ، وذوبان الإنسان في الجوهر الكلي الشامل ، وهي عقيدة روحية ومنفعلة ، تـتـطلب من الإنســان ، في تأمله : ضبط نفسـه ، واختراق الطبيعة ، للوصول إلى السيطرة عليها ؛ ولقد قامت هذه العقيدة بدور راجـح في الفن ، وفي التصـوير خاصـة ، دور يذكر بحالات الروح ، وبآثار الغنائية . أما الجانب الآخر من الفكر الصينب الذي يمثله (الكونفوشيون) وهـو شكل من فكر فعال وأخلاقي ، فيؤكد أن الإنسان يؤمن بوساطة مراقبة الشعـائـر التنـاغم السعيد بين الأرض والسماء ، التي يقوم لديها أجدادهم ، أصـولاً ، وعن طريق القـرابـين ، بدور الوسطاء . ويمتزج عشق الطبيعة ، والميل للتنـاغم ، في الفن الصيني ، بطلب المـواد النبيلة الكـريمـة وإتقـان التقنية . يتجلى التناغم ، بصورة خاصة ، في هذه الرؤية المنمنمة ، التي تحول الحقيقي الـواقعي إلى تلاعب خطوط ، يحتفظ فيها فقط بالملامح الرئيسة التي تغـطي بتركيبهـا فكـرة صحيحـة عن المـوضوع المعروض . ويلاحظ تلاعب الخطوط كذلك في الكتابة الصينية ، وهي طريقة الكتابة التي يعتبرها كل صيني أكمل تعبير عن الإنسان ، فصفته ، وهي الرمز إلى الفكرة المشتقة من تصوير الفكـرة ، مجموعة متجانسة من الخطوط ، التي يلخص رسمها بالريشة ، في الوقت نفسه ، فن التصوير كله .

وتبقى الصفات المميزة ، التي انتهينا من التعريف بها ، وعلى الرغم من التغييرات المعزوّة إلى التأثيرات الخارجية ، وإلى تدخل الديانة البوذية . . . تبقى تلكم الصفات هي المسيطرة على الفن الصيني عبر تاريخه الطويل . وهذا التاريخ ، مع ذلك ، يجب أن يكتب . فإذا كانت تطورات الفن الصيني في القرن السابع عشر والثامن عشر معروفة ، بمجملها ، بصورة جيدة ، فإن آثار العصور السابقة لم تُدرس في أوربا إلا منذ خمسين سنة . ذلك أن الآثار المكتشفة بالصدفة أو بنتيجة حفريات أثرية ، كثيراً ما كانت تتوقف بسبب الاضطرابات الأخيرة . . . إن هذه الآثار ، الكافية بجمالها وماضيها المجيد ، تفرض دائمًا مشاكل جديدة لا يمكن حلها إلا بعد إنجاز برنامج واسع من التنقيبات المنهجية ، التي تبدو الظروف الحالية غير ملائمة للقيام به . فالصين لا تزال تحتفظ في مهادها بسرٍّ ماضيها البعيد[1] ، إلا أن البواكير ، التي قدمها لنا أوائل الباحثين ، تَعِد بآمالٍ رائعة .

كشفت ، في السنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ، مساحة من الستار بفضل جماعة من علماء الآثار الصينيين والأجانب ، الذين أعادوا إلى الصين فترة ما قبل التاريخ الخاصة بها . كان اكتشاف (إنسان بكين) في مغارة (شوكو تيان) في شمالي بيكين (٥٠٠,٠٠٠ سنة قبل تاريخنا حسب تقديرات العلماء) ، وبقايا العصر الباليوباتيكي في مقاطعة (أوردوس ، في منعطف هوانغ هو) وفي الحدود المنغولية . وأخيراً اكتشاف الصيني النيولنيكي ، في المقاطعات الشمالية ، . . . كان ذلك كله مراحل هذه الاكتشافات . وفي حوض نهر (هوانغ هو) مهد الحضارة الصينية عثر على اللقى الثمينة من الخزف المصوَّر ، تلك اللقى التي دعيت باسم أول مكانٍ وجدت فيه (أسلوب يانغ ـ شاو ـ في مقاطعة هو ـ نان) . كانت أقدم النماذج أقداحاً وقِصاعاً من التراب المصفى والمنقوش باليد ، والتي أكسبها إحراقها في حرارة تتراوح بين (٨٠٠ ـ ٩٠٠°) لوناً أحمر ، ثم زُينت بخطوط بسيطة حمر وسود . ويظهر أنه من (هو ـ

و (لانـغ شانـغ دونغ) من الـ (توجيا) و (وي كيلين) من الـ (زو وانغ) و (كسيا وكسـو) من الدـ (بي) و (كيم شول) من الكوريين و (وجيلادا) من الـ (بي) إلخ . . . مثل الطاووس الذي يفرد جناحيه متباهياً ظهرت هذه الآثار الأدبية ذات الألوان العديدة القومية وكأنها كنوز من شعر بلادنا الجديد .

لا شك أننـا خلال الأعـوام الثلاثـين من تطور شعـرنا الجديد أصبنا بنكسات كثيرة خطيرة . لقد أعلنا مبدأ (لتتفتح مائة زهرة) ولكننا لم نطبق هذا المبدأ تماماً . بل إننا أحياناً وصلنا إلى وقائع تناقض هذا المبدأ ، وخاصة في عهد (لين بياو) ، و (عصابة الأربعة) . لقد عارض هؤلاء منذ زمن بعيد الشعر الجديد وأرادوا وضـع أيديهم على الأوساط الأدبية ومارسوا دكتاتورية إقطاعية فاشية . كان ذلك أطول ليل في تاريخ الشعر الجديد في بلادنا .

ـ ٧ ـ

إن بلادنا ذات تراث شعري جميل وعريق . وشعبنا لا يستطيع أن يلتزم الصمت الطويل .

خلال عيد الأموات في عام ١٩٧٦ انفجرت الحركة الشعرية لـ ٥ نيسان في ساحـة (تيان آن مين) . ألـوف وألـوف من الشعـراء المغنين المجهولين ، بلحمهم ودمهم وأشعـارهم وغضبهم خاضـوا نضالاً حتى الموت ضد عصابة الأربعة وأتباعهم .

هذه الحركة الشعرية كانت مقدمة النصر على عصابة الأربعة الذي تم في شهر تشرين الأول من السنة نفسها .

عواصمها . ولقد عُثر على آثار المدينة ، وعلى بقايا معامل الصنّاع المَهَرة ، وقوالب الصبّ ، وأفران حرق الخزف . ولقد احتوت المقابر الكبرى (المسماة الملكية) على برونزيات رائعة مخصصة بشعيرة عبادة الأجداد ، وعلى أسلحة ، وتماثيل من المرمر الأبيض ، وعلى حلي من الحجارة الكريمة ، ومن الجاد . ويكشف فن (الشانغيين) ، من خلال تقنياته العديدة ، عن وحدة كاملة تتأكد زينتها وأشكالها بقوة في البرونزيات القربانية . فهذه الآنية ، التي اكتست خلال عهد طويل من القِدم بأكسيد البرونز الأخضر أو المائل إلى الزرقة ، والتي كان بالنسبة إليها حلية إضافية . . . إن هذه الآنية هي أقدم ما عثر عليه حتى الآن من المكتشفات الصينية ، إنها تشهد على كمالٍ في التقنية بحيث تجعلنا نظن أنها مرَّت بعهدٍ طويل من التطور . إن أصلها مجهول بالنسبة إلينا ، وإذا كانت أشكالها قد تحدرت ، بصورة مباشرة ، من أشكال الخزف الأسود ، فإن زينتها ، الأكثر تعقيداً ، لم يشاهد ما يَشِي بها في عهودٍ سابقة ، ذلك أن هذه تجعلنا نقع في الخطأ . فهذه البرونزيات القربانية ذات الأشكال المتناسقة مكيفة ، بصورة تامة ، من أجل استعمالها . إننا نجد وصفها في أقدم الطقوس الصينية : فثلاثيات الأرجل بطبخ اللحوم والحبوب المخصصة للمآدب العامة المقدمة قرابين للأسلاف ؛ أما الآنية من طراز (تسو وين وهو) في شكل زجاجة (وكو) في شكل كأس فتخصص للسوائل .

تمثل هذه الكؤوس حيوانات : الفيل ، والبوم ، والنمر . إن أوائل التماثيل المفخمة الصينية المعالجة بطريقة التكوُّر الدائري ، قريبة من بعض التماثيل المنحوتة في المرمر الأبيض ، وفيها ما يدل على معنى تشكيلي لن يختفي لعدة قرون .

إن المرمريات والبرونزيات تحمل زينة وعناصر محفورة ومنشورة ، وتتخذ أشكالاً متنوعة جداً : اتحاد المحفور البارز وأرق أنواع فنون الحفر ، ذلك الذي

يعطي للآنية مظهراً (باروكياً) يتناوب مع عناصر مكونة من ضفائر يُحتفظ بها للأجزاء الأكثر دلالة : عُرى الآنية ، وأعناقها ، وقوائمها ، وكل ما تبقّى منها يظل بدون زينة ، وطلاءات بلون الفيروزج أو بمادة مسودّة بفعل مرور الزمن ، والتي لم تُحدد هويتها بعد ، تأتي أحياناً لتنضم إلى ما سبق أن ذكرنا . ويظهر أن جميع هذه الأساليب التقنية قد استعملت في الوقت نفسه ، دون أن يتمكن من تمييز تتابعها .

إن قواعد فن الزخرفة التي نُسيت معانيها منذ زمن ، تعبر عن نفسها في تغييرات عديدة ، أو موضوعات بسيطة : قناع حيواني ، سمي ، خلافاً للأصول (تاو - تي - ي) أي الفلطون(*) بعينيه الكرويتين أو اللوزيتين ، ويعلوه قرنا خروف أو بقرة ، وغالباً ما يكون مجرداً من الفك العلوي ، وقد يكون هذا الحيوان (كووي Kouei) أو التنين بقائمتين ، ممثلاً من جانب عصفوراً ، أو أفعى ، أو سلحفاة ، أو صرصاراً ، أو تزيينات هندسية : حلزونية دائرية أو مربعة (لي - وين : أي موضوع الرعد) . وتحمل الأسلحة كالفؤوس أو الطبرات(*) ، موضوعات مماثلة . وانتهت حضارة الشانغيين الرائعة ، التي كان مركزها مقاطعة (هو - نان) حوالي العام ١١٢٢ أو ١٠٥٠ ق . م ، مع غزوة قبيلة أتت من الغرب ، هي قبيلة (تشيوو) ، التي أصلها من (شين - سي) ، والتي ستفرض سيطرتها على جميع الوطن الصيني في ذلك العهد . كان هؤلاء التشاويون أنفسهم على درجة من الحضارة أقل تقدماً من الشانغيين الذين استخدموا مظاهر حضارتهم ، ووزعوا ، لتأكيد سيطرتهم ، قسماً من الأراضي ، إلى إقطاعات يحكمها مندوبون . وبقيت طلائع فن التشاويين غير محددة بسبب قلة التنقيبات . لكن دراسات البروفسور (كارل غرين) المستندة إلى تطور الزينة والأشكال ، وإلى التغييرات في كتاباتهم الإهدائية ، سمحت باكتشاف فن انتقالي ، التجديدات فيه قليلة الأهمية ،

والتقنية فيه تبدو آخذة بالانحطاط على مهل ، فلقد اختفت المنحوتات من الطراز الدائري ـ المحدَّب .

ولقد ظهر ، حوالي القرن التاسع قبل عصرنا ، أسلوب جديد سماه البروفسور (كارل غرين) : (الأسلوب التشاوي المتوسط) الذي يعود إلى نهاية عصر التشاويين الغربيين ، وإلى بدء التشاويين الشرقيين (التاسع ـ والثامن) . فلقد نقلت العاصمة في هذا العهد من (تشين ـ سي) المقاطعة البعيدة عن المركز ، والمعرّضة غالباً لغزوات المتوحشين ، إلى (هو ـ نان) . كانت تقنية البرونزيات آنئذٍ أقل رقة ، فاختفت عدة نماذج ، واستعيض عنها بإبريق ذي عروة على شكل سفينة بأربعة أرجل ، أو حوض (بآن) غدا استعماله مألوفاً . وتجزأت عناصر من التشانغيين ؛ فالأشكال الحلزونية الناعمة المحفورة ، وعناصر الحفر البارز قد أخلت مكانها إلى زينة مستوية تتصف باختفاء يكاد يكون تاماً لفن (التاو ـ تي ـ ي) ، وبتمدد فن (الكاويين) في أشرطة مضفورة تلتفُّ حول الأرجل والأعناق ، تاركةً للفراغ ، أغلب الأواني ، وبقية لسطح مزين ببعض الأشكال المضلَّعة .

وشهدت الصين القديمة ، حوالي القرن السادس قبل الميلاد ، وهي فترة من أكثر فتراتها اضطراباً ، ميلادَ فنٍ جديد ، فنٍ ذي صلة بزوال التشاويين الشرقيين سياسياً (بين القرنين السادس والثالث) ، وهو الفن الذي يسمى غالباً في فرنسا (فن الممالك المحاربة) . فلقد تخاصم الإقطاعيون الكبار الراغبون في إزاحة دولة (التشاويين) المترنحة والحلول محلها ، في نزاع طويل على الاعتبار والنفوذ . ولقد تقدم بعضهم حتى الشمال ، ووصلوا حتى السهوب حيث اصطدموا بالعشائر الرحَّل التي ضايقتهم بغزواتها المستمرة . وظهرت قبائل (الهون) على مسرح التاريخ في القرن الرابع قبل الميلاد . فتوضعوا في منطقة (اوردوس) و (سوى ـ يوان) و (تشاهار) ، وتكشفوا

سريعاً عن أشرس أعداء الاستقرار الصيني . واستدعى سادة الإقطاع الصينيون ، لتأكيد تفوقهم ، كل ما كان بإمكانهم أن يستدعوه ، والذي يسمح لهم بتنمية قواهم . وظهر ، في هذه الفترة ، التياران الكبيران اللذان كانا نصف ـ فلسفة ، ونصف ـ دين وهما قاعدة كل الحياة الروحية والعقلية لدى الصينيين التي تحدثنا عنها من قبل (التاوية) التي يعزى إنشاؤها إلى الأسطوريّ (لاوتسو) ، والكونفوشيوسية ، ونقحت ، وحفظت حتى أيامنا ، وبقيت أساس ثقافة المثقفين المتنفذين . وتغير الفن ولطف . وتنافس الإقطاعيون في الحصول على الترف ، ونما ذوق التزيين . . ووجدت البرونزيات كل كمالها التقني ؛ وتحلت ، وهي الرقيقة ، المصنوعة من خليط ممزوج بالقصدير ، بزينة تتفجر بالحياة ، حيث ضفائر التنين المتخذة شكل الأفاعي ، والمتحدرة مباشرة من فن (الكوائيين) المحلى بالأشرطة عن العصور السابقة ، تلك الضفائر التي تغطيها الأرقام ، والخطوط الحلزونية ، والتي تتجاوز مع عناصر عديدة من فن (شانغ) مجددة بحيث تماشي ذوق العصر . وتشير تنزيلات بالذهب والفضة والفيروز واليشب إلى هذه الأشكال المتحركة . وتضاف إلى الآنية التي يزين غطاؤها بحيوانات حقيقية بارزة ، الأجراس التي تعلوها التنينات المضفورة ، والمرايا المزينة بالحيوانات ، والعناصر الهندسية التي تبرز عن خلفية من الخطوط الحلزونية المحفورة . . . يضاف إلى ذلك كله المشابك المنحنية المزينة رؤوسها بعصافير . وتظهر تأثيرات خارجية تركت بصماتها على هذا الفن المركب جداً ، على الرغم من وحدة المعالجة ، فناً كشف لنا حديثاً في مناطق مختلفة من وادي (هو آي) . فعلى المشابك ، وعلى جوانب المزهريات ، تظهر مشاهد صيد ، ومعارك وحوش ، مستعارة من فن (الهون) البدوي في الشمال ، الذي تأثر نفسه ببرونزيات سيبيريا ، الجزء الشرقي من فن (السكيتو ـ سارمات) . ولقد تأكدت هذه الاستعارات تاريخياً باقتباس الصين ، في القرن الرابع قبل الميلاد للجياد ، وللأسلحة اليدوية ، وباستعمال تكنيكي عال لعربات الحرب الثقيلة

الموروثة من العصر السابق .

وركز سيد مقاطعات (شين ـ سي ، وتسين شي ، وهوانغ ـ تي) الحالية ، في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، بقية الأمراء الإقطاعيين التشاويين نهائياً في إقطاعاتهم ، واتخذ لنفسه لقباً امبراطورياً هو (السيد المعظم) . فلقد ملك الصين موحدة حتى (يانغ ـ تسو) ، ثم مدَّ فتوحاته الشخصية ، من ثم ، إلى ما بعد النهر الكبير هذا . ولقد خلدت ذكراه مع السور العظيم ، المقام للوقوف في وجه هجمات الهون المستمرة ، وعلى البناء المخروطي المشاد في وسط حصنه المورث في (شين ـ سي) ، والذي أقامه ليضم رفاته بعد موته .

واتخذ مغامر لامع ، هو (ليو ـ بانغ) ، بعد سقوط ابن (تسين شي هوانغ ـ تي) لقب الامبراطور وأسس سلاسة (الهان) التي حكمت الصين من (٢٠٢ ق . م إلى ٢٢٠ ب . م) . وهكذا توسعت الامبراطورية ، وغدت (وطن ثماني عشرة مقاطعة) ، واستمرت حتى أيامنا هذه . ولقد شملت سيطرتها حتى جنوبي (أنام ـ تونكين) ، وإلى شرقي (لاو ـ تونغ) ، وكوريا الشمالية ، وكانت الصين في الغرب ، على علاقة بإيران ، ومع الهند بعد احتلال حوض (تاريم) التي تشق منذئذ دروب (طريق الحرير) : فدرب الشمال يقطع واحات (تورفان كاراشار وكوتشا) ، ودرب الجنوب يمر (بميران وكهوتان ويارهاند) . وهكذا يسير الحرير الخام والمنسوج ، عن طريق دائرة الواحات هذه ، حتى ما وراء النهر ، إلى المملكة الهندية ـ السيتية في أفغانستان ، ونحو إيران البارتيني ، ليصل أخيراً إلى شواطىء المتوسط ، حتى أنطاكية ، والاسكندرية وروما .

وتتركز زينة (الممالك المحارية) في البرونزيات واليشب ، إلا أنها أخذت ، فيما يبدو ، بالتصلب والجمود والبساطة . فآنيتها تخلو من أية زينة ،

باستثناء عروة على شكل قناع (التاوتي) الحامل لخاتم ؛ وتزين عناصر محفورة سطحها المذهب . . ويتجلى الترف في تنزيلات الذهب والفضة : أربطة ، وعلب ، بتزيينات دائرية محمولة على ثلاثة من الدببة ، وأوان مزينة باليشب أو الفيروز . وظهر ، بشكل مواز لهذا الميل إلى التصلب والافتقار إلى العناصر ، واقعية جديدة : وتتحول الزخارف الحلزونية والنباتية المنزلة على البرونزيات من العهد السابق إلى سحب متموجة تتحرك فيها مجموعة من الحيوانات (كالدببة ، والعصافير ، والسنانير ، والتنينات) والجنيات المتحررة من الميثولوجيا التاوستية . وتتوزع هذه الزينات الجديدة على الصينيات ، وعلب اللك ، التي عثر عليها في (لاونغ ـ بكوريا) ، التي كانت مصنعاً لتأمين طلبات (الولا ـ لغنين) ، وفي (دنوان ، أو في منغوليا العليا) حيث عثر على قبر رئيس هونيّ من القرن الأول الميلادي ، يضم قطعة من اللك المؤرخة . واتخذ عصر اللك اندفاعاً كبيراً . فلقد قدمت هذه المادة الغنية والدائمة ، منذ عصر الممالك المحاربة ، خدمة كبيرة . إننا نحتفظ ، بفضلها ، بصدى الصور التي تتكلم عنها النصوص التي تجري حوادثها الأخلاقية على جدران القصور . ونجدها كذلك على بلاطات غرف الأموات المنحوتة ، التي قام بدراستها عالم الصينيات المشهور (ادوار شافان) . وتسجل هذه اللوحات مشاهد تاريخية أسطورية ، ومعارك ، ومآدب ، ورقص حواة ، ومراكب عربات . وتَعْبُر الواقعية المنغمة ، إلى تجديد في البحث التشكيلي ، بوساطة الحيوانات المنحوتة التي تحرس مدخل قبور أباطرة (الهانيين) ومساعديهم . ولقد نشر هذه المجموعات المأتمية الكبرى (فيكتور سيغالان وجان لارتيغ) اللذان اكتشفا ، قرب قبر العائد (هووكيو ـ بينغ) بطل فتح (تاريم) في عام (١١٧ ق . م) جواداً وحشياً يدحرج بقدميه محارباً متوحشاً . ويسمو في النحت هذا ، عدو التفاصيل ، والمهتم بالخطوط العامة للكتل والأشكال الأساسية . . يسمو في تماثيل الأسود الفخمة ، مثلما يسمو في تماثيل الدببة الصغيرة المصنوعة من البرونز

المذهب .

ولقد اختفت عمارة ذلك العهد منذ مدة طويلة ، إلا أننا نجد صداها في غرف القبور الصغيرة ، وفي القبور المكسوة بالقرميد المزين ، التي تعيد بأمانة مساكن الأحياء . ويعيد (المينغ ـ كي) ، وهو أثاث الأموات ، في الطين المشوي ، بيوتاً ومزارع . والمسكن الصيني فيها في عناصره الأولية ، مشابه للمسكن الصيني اليوم : فهو مؤلف من هيكل من الخشب ، وجدران من القرميد ؛ وتتابع باحات مغلقة ببوابات كبيرة ، ينتصب في نهايتها جناح من طابق أو طابقين ، وسقفه متطور ، ومدخله المقوّى بعمودين ، ينفتح ، في وسط واجهة من الواجهات الطويلة . وأثاث الأموات غنيّ أيضاً بالخزفيات ، مزهريات تقلد أشكال البرونزيات ، وتغطي بدهان بلون الصلب أخضر أو مصفر ، ويحمل زينة مصبوبة أو مطبوعة ، وممثلة لمشاهد صيد أو أقنعة من طراز (تاو ـ تي) .

وانهار حكم (الهاويين) في عام (٢٢٠ ب . م) ، وسط الحرب الأهلية وتجزأت الصين إلى ثلاث ممالك . ثم بدأت ، في مفتتح القرن الرابع ، الغزوات الكبرى . فالهوريون ، والهون ، أو قبائل أخرى من عرق تركي ـ مغولي غطت حوض نهر (هوانغ ـ هو) كله . إننا لا نعرف إلا القليل عن فن هذه الحقبة المضطربة . بقيت ، فقط ، بضعة أسماء مصورين بينهم اسم (سي هو ـ القرن الخامس) ، أول نظريي التصوير الصيني ، ومؤلف المبادىء الستة ، توراة جميع الفنانين اللاحقين ؛ واسم (كو ـ كاي ـ تشي . نهاية القرن الرابع) الذي تصور لفافته (نصائح لسيدات البلاط) ، وهي ممثلة في المتحف البريطاني بنسخة مقلدة من عصر (تانغ ـ القرن السابع حتى العاشر) . إن الشخصيات التي تطوّق بالحبر الصيني ، ممثلة فيها جانبياً ، أو إلى ثلاثة أرباعها ، ليس فيها أية محاولة للبحث عن المنظور أو الحجم ، إلا أن محاولة

لتصوير المنظر الطبيعي تظهر فيها في شكل غير متقن .

في مفتتح القرن الخامس ، وبينما كانت السلالات الوطنية تحكم في مقاطعة (تانغ ـ تسو) ، شغل (التاوبيون) ، وهم من أصل تركي ، الصين الشمالية كلها ، وأسسوا سلالة (وي Wei) ، بينما استمرت تقاليد نحت (الهانيو) ، في مقاطعة نانكين ، في مجموعات جنائزية مزينة بأسماك أو أسود ضخمة تتمثل في حركة جميلة . ولقد اعتنق (اليو ويون) ، المتمركزون في (تا ـ تونغ) ، قرب السور الكبير ، البوذية ، وأدخلوا إلى الصين فناً جديداً . لقد التقى الصينيون منذ عصر (الهاويين) ، الديانة البوذية في واحات (تاريم) . وكانت القبور الدينية البوذية ، في منتصف القرن الخامس ، المتمركزة في أبواب الصين منذ القرن الثالث أو الرابع ، قد نشرت الدين الجديد . وهكذا ظهر في الصين البانتيون الذي يضم (الماها يانيست) ، وتماثيل بوذا الكثيرة وغيرهم . وهكذا سار الفن البوذي ، الذي أسسه في (غاندهارا) ، المصورون اليونانيون حاملو الألوان المختلفة ، والذي اغتنى في أفغانستان بعناصر إيرانية (فالبارتيون والساسانيون أنفسهم قد تأثروا بالفن الإغريقي ـ الروماني) . . . سار هذا الفن البوذي إلى الصين عبر آسيا الوسطى . وكانت مغارة (تسي ين ـ فو ـ تونغ ، المحلاة بمائة تمثال لبوذا) نقطة التقاء الفن البوذي ، القادم من آسيا الوسطى بالتصوير الصيني . أما لوحات مغارات (توانغ ـ هوانغ) التي ترجع إلى عهد (الوي) ـ وهي مزيج من التصوير والنحت النافر ، والأيقونات ، وتشكيل المشاهد ، ونموذج الشخصيات ـ فهي في خطوطها الكبرى ، لوحات آسيا الوسطى . إلا أن اهتماماً بإعداد الفضاء وطلب المنظر الطبيعي الذي لا يزال جافاً ، يبعدانها عن التأثير الصيني .

وقام النحت في الصين نفسها بالدور الرئيسي في معابد (يون ـ كانغ

وشانسي) المنحوتة في الصخور ، وهي التي أنشأتها تقوى ملوك سلالة (وي ـ ٤٥٥ ـ ٤٩٤) . ولقد ظهرت فيها أوائل تماثيل بوذا ، الصينية حقيقة ثابتة ، محققة في حجر (يون كانغ) الزهري ، وبسعة ، وعود الطين المشوي ، أو المجفف في الشمس ، والقادم من تركستان . وجسدت تماثيل (وي) البوذية ، المحاطة رقابها بأثواب تنحدر عن الأكتاف ، لتتكسر على الأقدام ، وبنسبها المتطاولة ، ومواجهتها الدقيقة ، والمنطلقة في نحت نافر على الجدار الذي نحتت منه . . . جسدت بابتسامتها الغامضة ، وعيونها المغمضة على رؤية فائقة الوصف ، جميع الألق الصوفي لمحدثي الإيمان . وتعبر تماثيل صغيرة مصنوعة من البرونز عن هذا السمو الروحي . ونقل (الوويون) في عام ٤٩٤ عاصمتهم إلى (لو ـ يانغ ـ في هو ـ نان) وأنشؤوا هناك ، في (لونغ ـ مين) ، مزاراً جديداً . كانت الرسوم الأولى في (لونغ ـ مين) قريبة جداً من رسوم (يون ـ كانغ) : صور كثيرة لبوذا في تأملها ، وأخرى جالسة ، تختفي سوقها تحت رسم الثياب المعقد الذي يمتد في ثنايا مضطربة كأنها اللهب . وانتشرت تماثيل بوذا ، أثناء القرن السادس ، في كل الصين الشمالية ، وانتقلت تماثيل بوذا من الصعيد فوق الطبيعي إلى الصعيد الإنساني . ولقد أوجزت النسب وضغطت ، وغدت أكثر الملامح أكثر ثقلاً . أما في النصف الثاني من القرن السادس ، وفي ظل (تشاويي الشمال ، والتسيين) فإن النحاتين جهدوا في (تيين ـ لونغ شان) وفي (هو ـ بي ، وشان ـ تونغ) في إعطاء الجسم الإنساني حجمه الطبيعي ، مهيئين بذلك لازدهار فن (التانغيين) . ولقد وفقت سلالة (السووبين ٥٨٩ ـ ٦١٨) إلى إعادة توحيد الصين بعد قرنين من التمزق ، ثم أوصلت سلالة (التانغيين) التي خلفتها ، قوة الصين إلى ذروتها (٦١٨ ـ ٩٠٦) : فأعيد تقسيم آسيا الوسطى إلى إقطاعات ، وأخضعت كوريا فقدمت الجزية ، وإلى بلاط (تشانغ ـ غان) المختلط ، كان يمر كل عام السفراء مقدمين التبجيل لابن السماء وتبع مجد الامبراطورية ، وفنها ، وثقافتها ،

وشعرها جميع الشعوب المجاورة ؛ كما ازدادت قوة البوذية ونمت ، وأقيمت معابد ، مزينة بالرسوم الجدارية والتماثيل ، في كل مكان . لقد اختفت هذه المعابد كلها ، باستثناء ، بعضها المبني بالحجارة أو القرميد ، وهي ترجمة صينية (للستوبا) الهندية . تشهد أعمال النحاتين بمعرفة بعلم تشريح الجسم الإنساني ، وبالميل إلى نموذج غير معروف حتى ذلك الوقت . فلقد بدأت التماثيل باتخاذ مظهر الحياة معبرة عن فن عظيم قوي يجد تعبيره الواضح في تمثال بوذا الكبير (المسمى بوذا الفيروتشانا) في (لونغ - مين ٦٧٥) . فلقد ظهر تأثير الهند في توركُ التماثيل المزينة بغنى ، وفي نعومة الأقمشة التي تظهر استدارات جسم التمثال . إلا أن ذلك التوازن الجميل سهل الكسر : فإظهار العضلات المبالغ فيها ، والإفراط في الحركة يعلنان عن بدء الانحدار الفني .

وتصور التماثيل الصغيرة الجنائزية من الطين المشوي ، المصورة ، أو المطلية بالميناء ، جماعة مبرقشة من سيدات البلاط ، والفرسان ، والراقصين ، أو تمثل جياداً جميلة ، شبيهة بجياد قبر الامبراطور (تاي - تسونغ ٦٢٦ - ٦٤٩) المنحوتة نحتاً نافراً . كذلك عرف التصوير تقدماً ، إلاّ أن أعمال (و- تاو - تسو) والد التصوير الصيني و (وانغ وي ٦٩٩ - ٧٥٩) المصور والشاعر ، ومبدع المنظر الطبيعي ذي اللون الواحد . . إن تلكم الأعمال لم يبق منها ما يعرف بها إلا نصوص أدبية تصفها . كذلك لم نعرف عن (لي - سو- هيون) مصوّر المناظر الطبيعية الجامعة ، ذات الألوان المتفجرة ، حيث تسود الألوان الزرق والخضر والذهبية ، ولا عن (ين لي - بنّ - المتوفى سنة ٦٧٣) باستثناء ملف في متحف بوسطن ، لا نعرف عن أعمال هذين المصورين إلا من خلال نسخ متأخر لها . وتسمح لنا لوحة صغيرة مصورة بالغواش على ورق ، وصلتنا في (تونين - هوانغ) بدراسة تطور تصوير المنظر الطبيعي : فالجياد تتقدم على خلفية مزروعة بالزهور ، وخط الأفق ، وهو أعلى من المخطط الأول ، يعطي الوهم بالعمق . وقد استعمل هذا المبدأ في صور (تونين -

هوانـغ) الجدارية ، حيث المناظـر الـطبيعية والعمارة تستخدم إطاراً لمشاهد بوذية . وتشير نعـومـة الفنـون الصغرى إلى نفسها بتنوع إطار الزينة وإتقان التقنية . وتتميز تأثـيرات إيرانية في المـرايا بعنـاقيد من العنب ، تلهـو بينها عنـاصر ، وفي عنـاصر من حلي أقمشة اكتشفت من (توين ـ هوانغ) ، وفي أشكـال الخـزفيات والفضيات ، المستوحاة من طرز ساسانية . إن الخزفيات البيض التي عثـر عليهـا في سامـراء وفي الفسـطاط تؤكـد ، بدءاً من القـرن التاسع ، وجود الخزف الصيني . فمع اختراع أنواع جديدة من المينا (الزرقاء ، والخضراء ، والصفـراء) بالتـماعهـا الـواضح ، تعلن تلك الألوان عن تطور العصور اللاحقة الرائع . ثم انهارت أسرة (التانغ) واقتسم عدد من الحكام الصين التي تناقصت أرضها تدريجياً ، فمقاطعة بكين ، التي احتلها منذ عام ٩٣٦ (الكاتانيون) ، وهم من عرق مغولي ، شغلها بعدهم في عام ١١٢٢ (التونغيون) الذين سيشمل حكمهم الصين الشمالية كلها . ثم تلا ذلك في عام ٩٦٠ أسرة امبراطورية صينية جديدة ، هي أسرة (صونغ) ، التي اتخذت من (كاي ـ فونغ) عاصمة لها . أما في المجال الثقافي ، فقد انكفأت الصين على نفسها ، لقد لجأ الشعراء والمصورون إلى فنهم . واهتم أباطرة (الصونغ) في بلاطهم المرفه ، المكتظ بالأدباء والفنانين الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الانتقـال من (كاي ـ فونغ) إلى (هاي ـ تشو في عام ١١٣٢) . . . اهتموا بالشعـر والتصـوير أكثـر من اهتمامهم بالسياسـة ـ الخارجية . وهكذا التقى التصوير والشعر ليجدا أكمل تعبير عنهما في المناظر الطبيعية المستعارة من غنائية وروحـانية لا مثيل لهما . فلقـد أخذ المنظر الطبيعي ، ذون اللون الأحادي ، يستعمـل جميع مهـارات الـريشة المتحررة بعد اختراع الخط السريع ، وجميع دقائق الحبر الصيني المحلول كثيراً أو قليلاً في الماء . وترك الخط ، الذي كان في تصـوير (التـانـغ) يحدد بوضوح إطارات اللوحات ، ترك مكانه للطخات ، وللخـطوط الاصطلاحية التي توحي أكثر مما ترسم أو تسود قيم الظلال والنور

اللطيفة في هذه الجبال المغطاة بالثلوج ، أو الغارقة في الضباب . وهكذا تشكل فن التصوير المائي ، الذي طوّره أثناء القرن العاشر كل من (كينغ هو) و (لي تشانغ) و (تونغ يوان) . . . تشكل على يد (كوو - هي) و (تشاوتا - نين) و (سو تونغ بو) مصور أشجار الخيزران و (مي في - ١٠٥١ - ١١٠٧) الذي خلد نوعاً من المذهب التنقيطي .

ولقد أثرت مذاهب الدين البوذي في (تشان) ، الدين الذي ظهر في الصين في ظل حكم (التانغيين) ، على هذه اللوحات التي تمثل مناظر طبيعية ، والتي كانت ذاتية أكثر منها مادية .

وبما أن هذا الدين من أصل هندي ، فإنه يفضي عن الكتب الدينية المقدسة ، ويهيء الإنسان إلى الإشراق عن طريق التأمل الذي يسمح له بأن يجد في نفسه جوهر بوذا . وغدا التصوير من ثم ، وسيلة للتعبير عن رؤية داخلية يوحي بها منظر طبيعي ، رؤية تجد من بعد ، صدى ، في روح المشاهدين . أما وأنه فن استحضار ، فإنه قد قدم فناً رائعاً مع القرن الثاني عشر ، والفنانين (مايو ان ، ومالين ، وهياكوي الذين تركوا أمثلة رائعة) والذي يطبع أثره ، بقوة ، على التصوير الياباني . ومثل في العصر نفسه ، (لينغ كاي وموكي) ، سيادة مذهب (تشان) ، أو صورا المناظر الطبيعية المتخيلة بإتقان مدهش في بساطته الظاهرة .

واكتفى فنانو المدرسة التقليدية ، في الوقت نفسه ، بإطار دقيق من الزهور والحيوانات ومشاهد مشاحنات . وكان أشهرهم (لي لونغ - مين - ١٠٤٠ - ١١٠٦) و (لي تانغ) ، وفنانو البلاط الذين جمعهم ، في أكاديمية ، الامبراطور (هوي - تسونغ - ١١٠١ - ١١٢٥) . ولقد استسلم هؤلاء الأدباء إلى المناقشات الجمالية ، وغدا الفن ، بذلك عقلياً .

وعرف النحت آنذاك الانحدار . إلا أن بضعة تماثيل من (كوان ـ ين) مدهـونـة باللك أو مرسوم عليها ، كانت تحمل في أشكالها المستديرة ، لطافة ذابلة لا تخلو من حلاوة .

غير أن الخزّاف ارتفع منزلة بالمقارنة من المصور . فلقد ولّد الخزفُ والصلصال العديد من أنواع الطلاء السميك العميق : أخضر فاتح أو مزرق ، مقلّد في الشمال في ألوان أكثر صفرة ، ومتحوّل في كوريا إلى الرمادي ، ومنسوخ بنفسه في أنّام وسيام ، وأبيض مذيّل بزخارف محفورة من الزهور والعصافير بلون أزرق فاتح ؛ وألوان امبراطورية بنفسجية ، أو أرجوانية ؛ وألوان أخرى عرفت في أوربا باسمها الياباني (تيموكو) ، وكانت تغلف بطلاء سميك ذي بريق معدني . كانت أشكالها البسيطة المستوحاة من البرونزيات القديمة ، تظهر غناها في الإيقاع اللوني . وهناك أخيراً مزهريات (تسو ـ تشو) ، المزينة بزخارف قوية زهرية مرسومة باللون الأسود على أرضية من اللون الأصفر معلنة عن خزف (مينغ) الشهير .

واختفى لطف بلاط (السونغيين) مع غياب الأسرة التي أبعدها في عام ١٢٧٦ المغول ، أتباع جنكيز خان . فلقد ساد هؤلاء على الصين بعد ملحمة قادتهم عبر آسيا الوسطى حتى إيران وروسيا . وهكذا ركز (قوبلاي) حفيد جنكيز خان ، منذ عام ١٢٦٤ ، عاصمته في بكين ، وأسس منذ سنة ١٢٧٦ أسرة سميت (يو آن) . وامتدت سيطرته حتى كوريا . وهكذا وجدت آسيا الشرقية نفسها للمرة الأولى تحمل النير نفسه ، باستثناء اليابان ، والهند الصينية والهند . وظهرت موضوعات جديدة في بلاط بكين المغولي ، حيث ساد ذوق الألوان ، وترف وحشي إلى حد ما . فلقد صوّر الرسامون الرسميون ، الذين كان (تشاو مونغ ـ نو ـ ١٢٥٤ ـ ١٣٢٢) أشهرهم ، جياداً ، وفرساناً مغولاً . إلا أن معظم الفنانين الملتجئين إلى داخلية البلاد ، قد تابعوا في عزلتهم

التصوير بالحبر ، وأوجدوا مستوحين تراث معلمي القرن العاشر ، طرازَ منظر طبيعيّ بطوليّ ، كان تشكيلاً ملبّداً اهتم بالعنصر العمودي ، وكان مصورو العصر الأربعة (كاوكو ـ كونغ ، وهوانغ كونغ وان ، وو ـ تشين ، ووانغ مونغ) أصل الأشكال التي قلدتها ، بدون تعب ، الأجيال القادمة .

واستمرت تقاليد خزّافي (سونغ) في الخزف ، دون تجديد يستحق الذكر . وصدّر منها ما كان بلون أخضر إلى جميع أقطار آسيا ، وحتى إلى تركيا ومصر . وأنشأ الأباطرة المغول أوائل محترفات صنع السجاد في بكين .

استمرت سيطرة المغول أقل من مائة عام (١٢٧٦ ـ ١٣٣٨) ، ثم استولت على السلطة أسرة (مينغ) التي طردتهم منها . ولازمت ذكرى روعة (التانغيين) عقول الحكام الجدد . وغدت بكين في ظل (يونغ ـ ١٤٠٣ ـ ١٤٢٤) عاصمة كبرى ، إذ تزينت (المدينة الممنوعة) بقصور فسيحة السقوف ، محاطة بالساحات والحدائق . أما سور الصين العظيم ، الذي رمم ، فقد اتخذ مظهره الذي احتفظ به إلى أيامنا هذه .

ولقد أعيد افتتاح أكاديمية الفنون الجميلة التي احتضنت (السانغيين) ، وأظهر الحكام اهتماماً خاصاً بها ، وكثر بذلك النتاج التصويري وغذا غزيراً ، وتمثل فيه جميع أنواعه ، التي كان بينها أعمال كثيرة رديئة ، وأخرى جميلة ، ولكنها معروفة قليلاً في أوربا . كان الفنانون في غالبيتهم ، هواة ، أدباء وشعراء ، كانوا يعطون من ذواتهم ، للتسلية ، اهتماماً كبيراً (بألعاب الجر) ، ويعنون عناية تامة بعلم الجمال . كانوا يدرسون سادة فن الماضي ، ويدعون جمع العناصر المتوفرة لديهم في تناغم تام ، وكانوا يمتدحون كل فنان بجعله أفضل الجميع . أكمل مثلاً (وانغ ميبن ١٣٥٥ ـ ١٤٠٧) و (وانغ فو ١٣٦٢ ـ ١٤٤٦) تقاليد مصوري المناظر الطبيعية من (اليوان) ، وما في تلك التقاليد من تشكيلات كثيفة ، بينما استوحى (تاي

تشين) و (وو ـ وي) معلمي الفن من (السانغيين) وكان (وين تشان ـ ومينغ ـ ١٤٧٠ ـ ١٥٧٦) رساماً ماهراً في فن الريشة .

وكانت الفنون الصغرى غزيرة : برونزيات صغيرة ، وعاجيات منحوتة من (فوكيان) ، ولك منحوت من بكين ، ولك بالذهب ، وديباجيات ومخمليات ، وسجاجيد ، وكانت تقنية بعضها قد أُدخلت من إيران في العهد المغولي .

وكان الخزف في هذا العهد في أوج ازدهاره . فأفران (لونغ ـ تسويا) ، كانت تتابع صنع نماذج ذات لون أخضر فاتح ، ومعامل (تو ـ هوا) اخترعت (اللون الأبيض الصيني) . وتوسع المعمل الامبراطوري في (كينغ ـ تو ـ تشن) ، الذي كان نشيطاً في ظل حكم (السونغيين) ، وكان البلاط يقدّر ، عالياً الألوان الحيّة : ألواناً متنوعة (الباذنجاني ، والأزرق الفيروزجي ، والأصفر ، والأحمر المتنوع) وثلاثة ألوان أخرى هي (الأخضر ، والأصفر ، والبنفسجي) ، التي أضيف إليها ، أثناء القرن التاسع عشر الأزرق الفيروزجي ، وكان بعضها يحلى بالذهب ، وهناك أخيراً الألوان الزرق والبيض ، التي ترسم زينتها على مينا محروقة بنار عالية ، على أرضية من اللون الأزرق الكوبالتي (المجلوب من فارس) . . . ترسم موضوعات زهور وتنينات .

وتدفق الغزو المانشوي على الصين في منتصف القرن السابع عشر . واحتلت بكين في عام ١٦٤٤ ، واتخذت الامبراطورية التي سيطرت على الصين كلها ، في عام ١٦٥٠ وفي ظل سادتها الجدد اسم (أسرة تسينغ) ، وغدت الصين من جديد (امبراطورية الوسط) . وبسط الأباطرة الكبار المانشويون سيطرتهم ، وفرضوا ذوقهم الموحد على منغوليا ، والتركستان ، والتيبت ، دون أن نتحدث عن سيطرتهم النظرية على (تونكين وبورما) . وبما أنهم كانوا

يحترمون الحضارة الصينية ، فإنهم حموا الأدباء والفنانين ، إلا أنهم لم يستطيعوا تجديد استيحاء هؤلاء الذين حشروا أنفسهم في كونفوشيوسية ضيقة . وسيطرت روما الأكاديمية والانتقائية على الفن الرسمي . وكرر المصورون أشكالاً تلقوها عن الماضي . كان التصوير الأحادي اللون هو المفضل في مدرسة المثقفين حيث تميز أربعة باسم (وانغ : وانغ ـ شوين ١٥٩٢ ـ ١٦٨٠ ؛ ووانغ كين ١٥٩٨ ـ ١٦٧٧ ؛ ووانغ هوي ١٦٣٢ ـ ١٧٢٠ ؛ ووانغ ـ يوان كي ١٦٤٢ ـ ١٧١٥) . وحمى (كين ـ لونغ) اليسوعي (كاستيلوني) الذي عمل مع المصورين إلا أن تأثيره لم يستمر طويلاً .

ولقد تأكد ذوق الرفاه والمواد الثمينة في اصطناع (اللك) والحجارة القاسية ، والجار ، والأقمشة الفخمة ، ولكن الزخرفة الفنية لم تتجدد البتة . إلا أن الخيال ، انطلق حراً في صناعة الخزف ، التي بلغ فيها الإتقان حداً كبيراً ، وذلك باستعمال مزيج من مينا موحدة اللون (دم البقرة ، واللون المخملي) ، وغيرهما أو في درجات متنوعة جداً في (أسرة اللون الأخضر) .

وتولدت في ظل حكم (تونغ ـ تشينغ ١٧٢٣ ـ ١٧٣٦) الأسرة الوردية ، حين انتصرت المينا القادمة من أوربا ، فزينت موضوعات ثمينة تمثل أزهاراً وعصافير خزف ناعم مخصص لاستعمالات البلاط . ولقد تزايدت الطلبات الأوروبية في عهد (كين ـ لونغ) ؛ وأثرت الأشكال والزخارف الأوروبية على النتاج الأصيل ، وأساءت إليه . وخضع التقدم التقني أمام تجديدات ذوق مشكوك فيه : تخريبات ، وتقليد في فن الخشبيات والبرونزيات والجار .

وانهار كل من التقنية والزخارف في القرن التاسع عشر بسرعة ، وغدا الفن الصيني ، باستثناء قليل ، نائماً . إلا أن ثورة عام ١٩١١ أعلنت عن عهد جديد ، فالفن التقليدي ، الذي خمل منذ قرنين ، قد استرجع انطلاقته ،

والتأثيرات الغربية انتشرت ، واهتم الفنانون بالتصوير الزيتي ، وخضعوا لقواعد المنظور . وأتى كثير من الفنانين ليدرسوا في باريس . أما في الصين نفسها ، فقد أخذت مبادىء الفنون الغربية تدرّس في معاهد الفنون الجميلة ، كما جهد المصورون في إحداث تناغم بين التراث القديم والتقنية الحديثة . وإذا ما كان التطور متمهلاً في سيره ، فإن نجاحات جد هامة قد سمحت بالتنبؤ بمستقبل ملائم .

(*) عن موسوعة تاريخ الفن العام ، نشر فلاماريون بباريس ، المجلَّد الثاني ص٣٣٨ وما بعد .

Histoire Generale de l'art. Flammarion, Paris, V. 2. P. 338.

(١) كتب هذا النص قبل قيام الثورة الصينية العظيمة بأعمال التنقيب وكتابة تاريخ الفن الصيني ، وهي أعمال لا نملك عنها مصادر كافية مع الأسف .

(*) حيوان لاحم .

(*) الطبر (لطة طويلة المقبض)

مخطوطات دونخوان
حول قضية العلاقات بين الآداب*

● ن. ت. فيديرينكو ● ترجمة: د. نوفل نيوف

(...) تحتل مخطوطات دونخوان ، ولا سيما الجنس الأدبي بيانغين ، مكاناً بارزاً في التراث الأدبي العظيم للشعب الصيني . على أن هذا الجنس الأدبي ظل حتى فترة قريبة شبه مجهول في علم الأدب . ولم يمض على اكتشاف بيانغين إلا نصف قرن حتى غدا هذا الجنس الأدبي مركز اهتمام ودراسة بوصفه ظاهرة فنية هامة . ولهذه المشكلة أهميتها الكبيرة لعدد من الاعتبارات التاريخية والأدبية والفلسفية والجمالية . ففي بيانغين ينعكس عالم بعيد وأصيل ، وصورة للزمن لا تتكرر . ثم إن بيانغين هو شهادة ملموسة على وجود علاقات عميقة بين ثقافتي الهند والصين العريقتين .

إن دائرة الآراء والتصورات والأفكار والمشاعر التي تكوّن الجو الحي المحيط بنا ، أي نمط التفكير ورؤيتنا العالم والإنسان ، أعني ما نكتسبه بفضل استيعاب القيم الذهنية الفلسفية ، كل ذلك أصبح في متناول أيدينا بفعل إبداعات الماضي الفنية وتراث الإنسانية الجمالي ، بما في ذلك تراث الشعب الصيني الذي هو أحد أركان الثقافة العالمية . وبكلام آخر ، نحن نتحدث عن تركيب الثقافات الفنية لدى الإنسانينة ، القائم على أساس الإغناء المتبادل حتماً بين الأفكار والإنجازات الإبداعية لمختلف الشعوب والبلدان . (...) .

إن ظهـور الـروايـة الصينية ، والقصة ذات الحدث ، والدراما والإبداع الغنائي السردي أمر مرتبط بالجنس الأدبي بيانغين ، الذي يعود في جذوره إلى ترجمات النصوص البوذية الهندية إلى اللغة الصينية . وقد كان يجري نقل تلك النصـوص إلى لغـة الحـديث الصينية لجعل قراءتها بصوت عال ممكنة ، ولجعل سمعهـا وفهمهـا أمـراً ممكنـاً أيضـاً . لقـد كان بيـانغين (أواسط القرن الثامن الميلادي) أول المـؤلفـات التي امتزج فيها النثر بالشعر امتزاجاً عضوياً ، والتي تطورت فيها قصص كثيرة مشهورة بين صفوف الشعب .

وتكاد أبرز قيمة لجنس بيانغين في تاريخ الأدب الصيني تكمن تحديداً في أن مؤلفـات هذا الجنس تنطـوي على علاقـات متبـادلـة بين الأدبـين الصيني والهنـدي . وتـزداد أهميـة هذه الظـاهـرة وضوحاً لدى مقارنة الأدب الصيني مع آداب البلدان الأخرى . فالعلاقات ، مثلاً ، بين آداب الصين ودول أخرى ، ولا سيـما تأثـير الأدب الصيني على آداب كل من اليـابـان وكوريا وفيتنام ، أمر معـروف جيـداً ، وإن لم يكن مدروسـاً بالقـدر الكافي . هذه الظاهرة واسعة ، ولكنها ، من حيث الجوهر ، أحادية الجانب ؛ لأن التأثير خلال زمن معين كان يأتي ، في الأرجح ، من جانب الصـين وحـدهـا ، دون وجود تأثير مقابل من جهة الآداب اليابانية أو الكورية أو الفيتنامية على الأدب الصيني . لم يكن ذلك تبادلاً في ميدان فن الكلمة وإنجازات الإبداع الفني . إننا نصطدم هنا بظاهرة تغلغل الأدب الصيني في آداب بلدان أخرى ، الأمر الذي أثراً إيجابياً على تطور تلك الآداب وبالتالي ، فإن مهمتنا هي أن ندرس ولو أطر الأدب البوذي الهندي الذي لاقى انتشاراً واسعاً وله تأثير محسوس على مجمل الحياة الروحية في صين القرون الوسطى .

بالإضـافـة إلى ذلـك ، نجد وكأن بيانغين يجمع بين النثر ذي الحدث ، وبشكـل رئيسي القصـة القصـيرة (سيـاوشـو) خلال الفترة الممتدة من القرن

الثالث إلى القرن السادس الميلادي ، والتطور الذي عرفه النثر السردي الصيني في مرحلة متأخـرة . ويصعب تثمـين هذا كله من وجهة نظر التحليل الموضوعي للعملية الأدبية في الصين وعلاقاتها مع تطور فن الكلمة في العالم الخارجي ، أي مع أدب الهند في حالتنا هذه .

إن عمليـة تبـادل العلاقات والتأثير والاغتناء بين الآداب قد ظهرت منذ أزمنـة بعيـدة جداً . تلك هي سنّـة التطـور العامة لفن الكلمة إقليمياً وعالمياً . وتتمتـع مسألـة الـترجمـة بأهميـة فائقـة في هذا المجال . فمن المعروف أن قدماء الرومان كانوا يترجمون وينشرون مؤلفات الإغريق القدماء . (. . .) .

هكـذا كان الأمـر دائـماً ، منـذ أقـدم العصـور ، بدءاً من زمن إبـداع الأسـاطير والتقليـد الشعـري الشفـاهي . وينطبق هذا على التطور التاريخي والثقـافي لكـل شعب . ففي الـواقـع لا يوجـد عالم قومي مغلق تمامـاً ، مثلما لا يوجـد ما يسمى بالاستثنـائية . وهذا القول ينسحب أيضاً على تطور الأدب الصيني الذي هو واحد من أقدم آداب العالم ويتمتع بتعاقبية متينة وتقاليد عريقة في التطور المستمر . (. . .) .

إن المـؤلفـات الأدبيـة من جنس بيـانغين ، التي يعود تاريخها إلى مرحلة ما بين القـرنـين الثـامن والحـادي عشر ، تحتل مكانها إلى جانب صفوة الـتراث الثقـافي الصيني وثـروتـه الـروحيـة النفيسـة . ولاشـك ـ برأينا ـ في أن الدراسة الشاملة لفن الكلمة الصيني تمثل غاية علمية لها أهميتها الاجتماعية .

فمن وراء سور الصـين بالـذات انطلقت قبـل مدة قريبة ، إبان « الثورة الثقافية » ، آراء وأحكام تقول بعدم الحاجة إلى ثقافة الماضي ، وبضرورة نبذ الـتراث الأدبي الذي خلقه الشعب الصيني ، وما تزال ثمة دعوات إلى تحطيم الـتركـة الثقـافيـة القيمـة تحت ستـار تصفيـة « السمـوم الإقطـاعية » ، وإلى

استئصال التقاليد العريقة التي حافظ عليها الشعب منذ غابر الأزمنة . لكن تدمير منابع الجمال هو تدمير أيضاً لفن الكلمة الإنساني بوجه عام . (. . .) . ثم إن قتل التقاليد تلك لا يعني قتل الماضي والحاضر وحسب . بل يعني أيضاً تدمير أفق المستقبل . فهل ما تركته الأجيال من إبداعات العقل والقلب ، التي أنجزها عدد لا يحصى من الأدباء ، هي جثة القرون الميتة ؟ كلا ، بل هي جزء لا يتجزأ من ثقافة عظيمة ، وهي واقع حي لفن الكلمة الصيني . (. . .) .

من المعروف أن أعمالاً أدبية كثيرة قد فات زمانها ولم تعد تناسب عصرنا ، إلا أننا نحافظ عليها ونستمر في تقديرها عالياً . ونحن نرى في هذا شهادة على أن أهمية الإبداع الأصيل والتراث الإنساني العظيم ليست أهمية عرضية عابرة . فعندما يستمر إعجابنا بآثار الثقافة الروحية والمادية الخالدة ، كالعمارة والنحت والتصوير ، بل والخزفيات عند مختلف الشعوب والحضارات ، إنما نحاول استيعاب خصوصيات وتميُّز تلك القيم العظيمة . إن آثار العمارة والنحت المصريين تنقلنا بالتأكيد إلى عصر غابر بلغ مستوى رفيعاً على أيدي مثّاليه ومعماريه ، غير أن هذه الآثار ، بالرغم من كل أصالتها الفريدة ، لا تتمتع بتلك الغنائية التي ينطوي عليها ، مثلاً ، الشعر العظيم عند قدماء الإغريق أو في الصين القديمة . ويمكن أن نقول بثقة إنه ما من أحد استطاع أن يستنفذ حتى النهاية هوميروس أو تسيوي يوان أو شكسبير أو دانتي أو بوشكين أو لي بو ، أو تولستوي أو دوستويفسكي ، أو لوسين ، لأنهم لا حدود لهم ، وليس لهم معيار نهائي . ففي فنهم تكمن قيم إنسانية أزلية .

يمكن القول إنه بفضل آثار الماضي ، آثار التاريخ والأدب ، ولا سيما مخطوطات بيانغين في دونخوان ، كانت العصور السالفة متوجهة دائماً إلى الأجيال المقبلة . فتلك الآثار تنتصب أمام عيوننا وفكرنا فتذكرنا بعمق الأزمنة وبجذور شجرة بني البشر . ولا يجوز إلا أن نرى في هذا دليلاً على العلاقة بين

الأزمنة وعلى حتمية العملية التاريخية ، وكذلك على لا نهائية الإبداع الفني ، والفن الكلامي الشفاهي عامة .

إن الإنسان المعاصر يلجأ إلى الاستعانة بمجمل الثقافة ، وذلك طموحاً لتوسيع حدود العالم الروحي وجعل وعيه يستوعب هذا السيل العارم من المعلومات وأحدث الأخبار ، ولكنه في الوقت نفسه يسعى للصمود أمام زوبعة الأفكار المتصاعدة ، التي تجاوز الجنون ، وأمام الإحساس الصاعق بلا نهائية الكون . إن سيل الزمن لا يتوقف كما أن جزءاً من الماضي وجزءاً آخر من المستقبل يدخلان حتماً في تركيب حاضرنا . أفليس التأثير المتبادل والتناقض بين هذه الأجزاء هو ما نسميه بالعصر ؟ ولكن ما المقصود بمفهوم الزمن بالنسبة للأدب ؟ إن الزمن هو ، قبل كل شيء ، الإنسان والنماذج وأنماط الناس . فالإنسان في جوهره هو التجسيد الحي للزمن ، للتاريخ . إن أشياء كثيرة ، وعدداً لا يحصى من المقدمات إنما تنبع من الماضي . ولذا يتعذر استيعاب الحاضر دون معرفة الماضي وتراث الماضي . كذلك تتعذّر رؤ ية المستقبل . لا بد في هذه الحالة من استيعاب العلاقة الحية بين الأزمنة . (. . .) .

فحركة الأزمنة ، أي الحياة ، في الأدب تتحدد عبر ما يظهر في الأدب من الشخصيات والنماذج والأنماط التي تجسد في ذاتها - من حيث الجوهر - سمات الزمن وملامح العصر وعلامات أخرى كثيرة . وكثيراً ما تحمل هذه الشخصيات النموذجية ما يشبه صبغة المستقبل .

إن أجيالاً من الناس تتربى ، مثلنا ، على الأدب الكلاسيكي ، وعلى ذلك التراث الضخم الذي أبدعته نبوغات بشرية مضيئة . لقد تربينا وما زلنا نحيا في جوّ إنسانية الأدب الفعّالة . ونحن لا نرى أسباباً تدعونا للتخلي عن الأدب قبل الأوان . إن الواجب المقدس لدى الأجيال الجديدة هو صيانة التراث وتثمين أرفع إبداعات الروح الإنسانية والثقافة القومية والنتاجات الفنية

العالمية بوجه عام . وهذا هو طريق معرفة الإنسان ، الإنسان في العالم والعالم في الإنسان .

مصير ملفات دونخوان

(. . .) إن مصير مخطوطات دونخوان ، أي مؤلفات بيانغين ، ذو دلالات كثيرة ، وهو بالتأكيد جدير بالانتباه لأسباب متعددة . فتاريخ ملفات المخطوطات مرتبط بدونخوان ، حيث بلغ تأثير الأدب البوذي مستوى رفيعاً جداً ما بين القرنين العاشر والثاني عشر .

فإذا ما تطرقنا إلى بعض قضايا دراسة بيانغين ، وجدنا أن الباحث المتخصص الشهير ، ل . ن . مينيشكيوف ، يشير إلى أنه ، بالرغم من غزارة نشر مخطوطات بيانغين خلال السنوات الأخيرة ، يبقى مستحيلاً القول بأن عملية النشر تلك قد أصبحت كاملة وناجزة ، أو حتى القول بأن معرفتنا ببيانغين وتاريخه وأهميته بالنسبة لتطور الأدب الصيني قد اكتملت أيضاً . إن مخطوطات بيانغين قد اكتشفت في مكتبة دونخوان التي تم الاهتداء إليها في عام ١٩٠٠ في مغارات موغاو من إقليم هانسو . ويلفت مينشيكوف النظر إلى أن السبب الأساسي في نقص معلوماتنا حول المخطوطات المعنية يعود إلى « كون مجموعة مخطوطات دونخوان قد توزعتها مكتبات كثيرة في العالم »[1] . إذ أنه لا يوجد في مكتبة بكين إلا عشرة آلاف من تلك المخطوطات ، التي بلغ عددها في السجلات الصينية ٣٦ ألف مخطوطة . أي أن ٢٦ ألف مخطوطة هي الآن في فرنسا وبريطانيا واليابان وغيرها . فضلاً عن ذلك . فإن ١٢ ألف عدد من مجموعة مخطوطات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية في لينينغراد لم يدخل (الدليل العام) . وهنا نذكر بأننا مدينون بخصوص هذه

المخطوطات في معهد الاستشراق للأكاديمي س . ف . أولدنبورغ الذي اكتشفها بواسطة أساليب علمية حديثة أثناء التنقيب في مغارات موغاو ، وذلك عام ١٩١٤ ، في المستودع الذي عُدَّ فارغاً ، ثم نقلها علناً من البعثة الروسية التركستانية لعامي ١٩١٤ ـ ١٩١٥[٢] . (. . .) .

ما من ضرورة لإثبات أن مؤلفات الشرق الفنية ، التي يجري عرضها في المتاحف وصالات العرض الغربية ، هي بحد ذاتها شهادة دامغة على عمق أصالة وتفرّد ثقافة الشرق ، كما أنها تلاقي إعجاباً جمالياً تلقائياً لدى الشعوب الأوروبية التي تقدرها عالياً جداً . غير أن المفارقة تكمن في أن أنصار المعتقدات العنصرية والعدمية المنتشرة في الغرب يتجاهلون ذلك كله ، ويسمحون لأنفسهم بالتنكر للخدمة الجلّى التي أسدتها شعوب الشرق للفن العالمي عامة . على أن تنقيبات العقود الأخيرة من السنين التي أسفرت عن لقى أثرية واكتشافات علمية جديدة تشهد بأن الإبداعات القديمة للثقافات الشرقية كانت تتميز بعمق عجيب ، وبكمال فني ، وأحياناً بمهارة خارقة وأسرار خاصة في ميدان الفن . وثمة أمور كثيرة لم تعرف بعد ، ولم تستخرج من باطن الأرض ، حيث يرقد تراث القرون الوسطى الروحي وعالم ضخم من حضارة الشعوب الشرقية وثرواتها الأدبية ـ الجمالية وكنوز الفن . أما فيما يخص الصين ، فإن الاكتشافات الأثرية الحقيقية بالنسبة لها ما تزال في معظمها كامنة .

العودة إلى المنابع

إنه لجوهري جداً بالنسبة لنا تحديد زمن وطرق تغلغل البوذية وأدبها في الصين . فمعرفة عصر ظهور العلاقات والتأثير المتبادل بين الأدبين الهندي والصيني لا بد أن يساعدنا في الوصول إلى تحليل موضوعي لتاريخ التطور

اللاحق لفن الكلمة عند الصينيين (يهمنا في الدرجة الأولى هنا موضوع تأثير الأدب الهندي على الأدب الصيني وليس العكس ، على الرغم من أهمية الجانب المقابل لدى دراسة هذه المشكلة) .

تشير المصادر المكتوبة إلى أن تغلغل البوذية في الصين يعود إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين ، وإن كان عدد من الباحثين أكثر ميلاً إلى تاريخ أبكر من ذلك[1] . غير أن العثور على التاريخ الدقيق لهذه العملية أمر عسير جداً الآن . فذلك على ما يبدو ، منطقة خالية من البصمات .

ترجع بداية ترجمات المؤلفات الأدبية الأجنبية إلى اللغة الصينية إلى زمن مغرق في البعد . ومن الصعب تماماً الآن أن نحدد بدقة تاريخ ظهور أولى الترجمات في الصين . والاحتمالات الشائعة في المصادر الصينية حول هذه المسألة هي على درجة كبير من التناقض ، وليست مقنعة بالقدر الكافي . (. . .) .

ولعل أصدق المعلومات هي تلك التي تتحدث عن أبكر مترجمي النصوص البوذية في أواخر أيام سلالة خان (بعد عام ١٤٧ ميلادي) ، وهم آن شي ـ هاو ، تجي تشان ، آن سيوان ، كان تسوي ، يان فو ـ دياو وغيرهم[2] . لقد وصل هؤلاء إلى عاصمة الصين في ذلك الزمن ، وهي مدينة لويان الواقعة بالقرب من طريق الحرير العظيمة والتي أصبحت في القرن الثاني الميلادي مركزاً ضخماً للبوذية في الصين . فإلى هذه المدينة بالذات كانت تتوجه أنظار الكهنة والمبشرين البوذيين من الهند وأواسط آسيا ، حيث لاقت البوذية انتشاراً واسعاً . وهنا أيضاً ، بالقرب من لويان ، أقيم واحد من أقدم المعابد البوذية (وليس في حوزة العلم معلومات أبكر من هذه) هو معبد بايماصي ، أي معبد الفرس البيضاء ، الذي يقال إنه أُعطي هذه التسمية تكريماً للنصوص الأولى التي نقلها الكهنة البوذيون على فرس بيضاء اللون . وتربط التقاليد بين

معبـد بايـماصي ومصـير كاهنـين بوذيـين هنـديـين ، هما كاشيابا ماتانغا ودخار ماراتنا ، اللذين أحضرا إلى لويان النصوص البوذية وأيقونات لبوذا ، ثم أمضيا في بايـماصي حيـاتهـما كلهـا ونـذرا نفسيهـما لترجمـة تعـاليم البـوذيـة إلى اللغة الصينيـة . وإليهـما بالذات تنسب ترجمة أبكر مؤلفات الأدب البوذي ، ولاسيما « نص من ٤٢ فقرة » الشهير .

يلاحـظ تشجـان تشجـان ـ دو أن ذلـك لم يكن ترجمـة بالمعنى الـدقيق للكلمة ، وإنما مجرد تجميع أو عرض للمسائل الأساسية في التعاليم البوذية ، أو لمختلف المـواضيـع السنسكـريتيـة . وأمـا بخصـوص جنس وأسلوب النص الأصـلي ، فإنـه لم يبق منهـما إلا النـذر اليسـير . لقـد ضحّى المفسـرون بكـل الخصـوصيـة الفنيـة للأصـل الأجنبي ، مكتفـين بنقـل مضمـونه إلى المفاهيم والتصورات الصينية المحلية ومفترضين أنه لا يوجد ما هو أفضل وأكثر كمالاً من ترجمتهم .

لقد كانت تواجه المترجم صعوبات جمة ، انطلاقاً من أن الصين القديمة ظلت زمنـاً طويـلاً معـزولـة أو عازلة نفسها . فمن المعروف جيداً أن ثمة موقفاً متحفظاً ، إن لم نقـل احتقـاريـاً ، كان سائـداً منذ غابر الأزمنة في الصين ضد العلوم الأجنبية وكل ما هو غريب ، لسبب واحد فقط هو أنه ليس صينياً ، ولم يعترف به حكماء الصين القديمة . كان الصينيون منذ الأزل يعتبرون بلادهم مركـز الكون ويعتبرون الآخرين برابرة ومتوحشين جهلة . إن غياب العلاقات بين الصـين وثقـافات البلدان الأخرى ، اللهم باستثناء لمحات متفرقة ، وذلك النوع الخاص من الاغتراب عن العالم الخارجي إنما أدّيا ، في جملة ما أدّيا إليه ، إلى أنه لم يكن في الصين أشخاص لهم أي قدر من المعرفة باللغات الأجنبية . فلا مجال للحديث عن صينيين يعرفون أبجديات أو آداب شعوب أخرى .

وقـد نتج عن ذلـك أنـه بمجـرد الاحتكاك باللغة السنسكريتية والأدب

البـوذي اكتشف الصينيـون عجـزهم الكـامل . فقد تبين لهم أنهم غير قادرين على التعامل بقواهم الذاتية مع قراءة المؤلفات البوذية ، ولا سيما مع ترجمتها . إن تجاوز عقبـة اللغـة قد تطلّب من الصينيـين بذل جهـود على امتـداد أكثر من قرن . وقـد كان يقـوم بمهمـة ترجمـة الأدب البـوذي غرباء هم مبشرون وكهنة بوذيـون . غير أن إتقـان اللغـة الصينيـة ، وخـاصة أبجديتها الهير وغليفية قد تطلب بدوره من المترجمين الغرباء جهوداً مضنية خلال عشرات السنين .

وهذا بالضبط ما يفسر كون الترجمات الأولى للنصوص البوذية إلى اللغة الصينيـة قليلة الشبـه بالأصـل ، إذ كانت نقـلاً للمضمـون تقـريبـاً ، شديـد السذاجة والارتجالية . أي أن الترجمة في الواقع قد تحولت إلى ارتجال حر زادت في رداءتـه القـواميس المشـوّهـة ، بالإضـافة إلى أن الترجمة لم تعتمد لغة النص الفصحى بل لجأت إلى لغة الحديث اليومية الأقرب إلى إدراك الغرباء .

غير أن الحـاجـز اللغوي لم يكن العقبة الوحيدة والرئيسية . فالتصورات والمقـولات الفلسفيـة ، والنظـرات الأخـلاقيـة ومعـايير البوذية ـ كل ذلك كان جديداً تماماً ، بل وفي معظمه غريباً على الصينين وفهمهم للعالم ولمجمل نمط تفكيرهم وتقاليدهم وبنيان حياتهم .

لقد أخذت البوذية وأدب تعاليمها بالتغلغل في الصين يوم كان للصينيين منظومة متكونة من النظرات الفلسفية . والتقاليد الأدبية التي ظهرت بشكل عام على أسـاس الكـونفـوشـوسيـة والـداوسيـة . فقد اصطدمت ـ وكان لا بد أن تصطـدم ـ النظـرات والمبـادىء التي حملتهـا الثقافة الغريبة مع تلك التي للثقافة القـوميـة المخـالفـة لها ، بل والمتنـاقضـة معهـا عمـوديـاً في كثير من الأحيان . فالتناقضات كانت عميقة وراسخة بين الفهم الديني ـ الفلسفي المثالي للعالم من قبـل البـوذيـة بتعـاليمهـا عن سانسار وكارم ، الجنة والنار ، ومعبد الآلهة ، من جهـة ، وبـين التعـاليم الأخلاقية وعبادات السماء والطبيعة والأجداد والأبطال

طبقاً للعقيدة الكونفوشوسية ، من جهة ثانية .

فالصينيون الذين تربوا على التقاليد الكونفوشوسية القائلة بأن « الولادة والموت أمران من شأن السماء ، والغنى والرزق من السماء » ، والذين اصطدموا لأول مرة بدين غريب يدعو إلى الزهد بكل ما هو دنيوي طلباً لبلوغ الحقيقة والإشراق ، وإلى التخلي عن الحياة نفسها وعن الذرية (أي عن احترام الأبناء للوالدين ، وعن تقديس الأجداد) من أجل التقمّص والنرفانا ، أولئك الصينيون ، المؤمنون منهم بالكونفوشوسية على الأقل ، كان لا بد أن يجدوا ذلك شيئاً غريباً ومرعباً .

إن البوذية والكونفوشوسية ذات المبادىء العقلانية في التعامل مع الكلام ، تنظران إلى الأدب والفن بطرق مختلفة . لقد تم استخدام وسائل كثيرة ضد نزعة الكونفوشوسية الرامية إلى الانتقاص من الأدب ، وخاصة الفن الشعري ، وجعله مجرد أداة نفعية براغماتية لنشر تعاليمها .

ولعل الشيء الرئيسي يكمن في كون الكونفوشوسية قد رأت أن تغلغل البوذية في الصين هو خطر جدي كامن ضد سيطرتها الأيديولوجية والروحية ، بل عملياً وضد النظام السياسي الذي حافظت عليه طوال قرون في المجتمع الصيني . لقد أظهر سير الأحداث التاريخية اللاحق أن تنبؤات ومخاوف أولئك الأيديولوجيين الكونفوشوسيين لم تكن مجرد وهم .

إلّا أن طرق نشر البوذية في الصين كانت شديدة التعقيد والتناقض . وخلافاً للكونفوشوسية ، بل وتناقضاً معها ، لعبت الداوسية الدينية ، منذ بداية التسرب البوذي إلى الصين ، دور التربة الصالحة لتنامي ذلك التسرب الذي ساعد بدوره على تطوير التقارب بين الداوسية والعقيدة البوذية . على أن عملية التقارب هذه كانت ذات صفة تبادلية مشتركة بين الطرفين . وتشهد المصادر الأدبية بأن التعاليم الدينية البوذية لاقت في البداية تأويلاً اعتبرها شكلاً

آخر من أشكال الداوسية الدينية ، الأمر الذي ساعد بالتأكيد على ترسيخ البوذية في حياة الصينيين الروحية وصب أيضاً مع طموحات رجال الدين الداوسيين(١) . وقد صب ذلك في نفس المجرى بقدر ما كانت أفكار الداوسية تنتشر بدورها خلال ذلك الوقت في الحياة الروحية الصينية عبر صراعها ضد العقيدة الكونفوشوسية .

إن طبيعة الداوسية نفسها (بغيبيتها ونزعتها الحدسية ، وبمطالبتها الإنسان أن يقمع في نفسه كل فكر وإرادة وجميع المشاعر والرغبات ، لكي يتحول الجسد إلى ما يشبه الخشبة اليابسة ، والقلب إلى رماد بارد) كانت بالنسبة للأفكار البوذية البيئة الأخصب للنمو واستقطاب الأنصار الجدد . وقد رأى الداوسيون من جانبهم في البوذية آفاقاً مغرية عندما شرعوا يستخدمون بشكل واسع كل ما في مخزون البوذية الروحي من وسائل تساعدهم على إغناء العقيدة الداوسية . ونتيجة لهذا التركيب الفكري أصبح بوذا أحد آلهة المعبد الداوسي ، واحتل مكانه إلى جانب الإلهين شبه الأسطوريين خوان ـ دي ولاو ـ تسي . ونقرأ في « تاريخ سلالة خان المتأخرة » أن امبراطور خان ، واسمه خوان (خوان ـ دي) ، مارس في سنة ١٦٦ ميلادية طقس تقديم الأضاحي لكل من بوذا ولاو ـ تسي في وقت واحد(٢) . فتحت تأثير البوذية بالذات أصبح أحد أهم أركان الداوسية (وهو « اللافعل » ، أي « عدم تحاشي » سير الأشياء والأحداث الطبيعي) يفسَّر على أنه تخلٍّ عن النشاط الفعال . وسلبية .

إن أهمية البوذية بالنسبة لتكوين الداوسية كدين (وليس كتعاليم فلسفية) قد تجلت أيضاً في كون الداوسية قد خلقت أدباً واسعاً على غرار النصوص البوذية (كثيراً ما تسمّى « النصوص . وسية ») ، وأنشىء معبدها طبقاً للمعبد البوذي إلى درجة كبيرة ، حيث دخله بوذا وآلهة أخرى كثيرة ،

أمثـال : غوانيـين ، ميلا ، بوسيان ، فانستو ، أي أمالوكيتشغارا ، مايتريا ، سامنتـا بخـادرا ، مانجـوشري وغيرهم . وقد جرى أيضاً اقتباس أشياء كثيرة من الطقـوس البـوذيـة . . إلـخ . . كل ذلـك ساعـد على قيام طوائف بوذية ـ داوسية مختلطة ، في زمن سون ومين .

ويـلاحـظ أنـه لدى ترجمـة النصوص البوذية كانت تستخدم بشكل كبير مفـردات ومصطلحـات التعاليم الداوسية ، وبصورة رئيسية من رسالة « داودي تسـين » التي يرتبـط تأليفهـا باسم لاو ـ تصي . إن المصطلحـات الـداوسية ، بحكم نفس المعتقـدات الـداوسيـة ، وخـلافـاً للكونفوشوسية ، مثلاً ، كانت تستجيب بدرجـة كبـيرة لجوهـر ومفـردات التعاليم البوذية ، ولا سيما في المرحلة المبكـرة من تغلغـل البـوذية في الصين ، ومن خلال تأويلها الصيني الأول . فيما بعـد راحت المصطلحـات تتغيرّ تدريجياً حسب درجة نضج منهج ترجمة التعاليم البـوذيـة وتـلاؤمـه مع ظروف الـواقـع الصيني . وهكـذا ، مثلاً ، فإن الدعاة البـوذيـين اختـاروا مفهوم « اللافعل » معادلاً لمصطلح « نيرفانا »[3] . على أن « الـلافعـل » تعني في العقيـدة الداوسية جوهر تصور اجتماعي ـ أخلاقي منبعه نظـريـة حول السيـولة اللانهائية للتطور الطبيعي للأشياء . كما أن أساس وجود العـالم ، والمصـدر الخـالد لجميع الظواهر والأشياء المحيطة ، هو داو (طريق ، طريق عالمي ، علة العـالم الأولى ، وجـود متعـال) ؛ ثم إن داو هو الـواحد ، الكـلي ، الـلامحدود ، المحيط بكل شيء ، الأبدي ، الذي لا يُرى ولا يُسمع ولا يُسمّى ، يجسِّـد عمليـة الولادة التي لا تنقطع ، وتغيرُّ السماء والأرض الذي لا ينتهي . وبعبـارة أخـرى ، فنحن نتكلم هنـا عن القـانـون الطبيعي ، عن القـانـون الكـلي لظهـور وتطوّر الأشياء في العالم . ومن الجلي هنا الاختلاف بين المضمون المادي لـ (داو) إجمالاً والمفهوم الكونفوشوسي « قضاء السماء » الذي هو مقـولـة مثـاليـة واضحـة . ويعتـبر المفهـوم البـوذي « نيرفـانـا » شيئاً مختلفاً

جوهـريـاً ، حيث كان يعني في البـدايـة بالسنسكـريتيـة « الاطمئنـان » ، « الانطفاء » ، « السلبية » ، أي الابتعاد الكلي عن كل ما هودنيوي ، ورفض الحيـاة نفسهـا . وهــذا ، كما نرى ، لا يعني « الـلافعـل » الـداوسي على الإطـلاق ، بمعنى أنـه لا ينبغي أن نفعـل أي شيء يخالف سنن الطبيعـة ، واتباع سير الأشياء الطبيعي ، والالتزام بالتطور الطبيعي واقتفاء سيرورة الحياة نفسها .

يسـاعـدنـا ما تقـدم كي نفهم أن التباين هنا كبير جداً ، وأن خصوصية وتمـايـز مفـاهيم « اللافعل » و« نيرفانا » و« قضاء السماء » أمر جلي لدرجة أنه هيهات أن يكون مناسباً الطموح إلى أي نوع من الخطاطية أو التنميط . ولعلّه بحكم الطبيعـة الداخلية المختلفة لكل من الداوسية والبوذية والكونفوشوسية ، أخفقت كل محاولات الجمـع بينهـا ، ومحاولات التوحيد أو المزج الميكانيكي بين هذه المـذاهب الغـريبـة عن بعضهـا البعض من الجـانب الفكـري والـديني والفلسفي . وفي المحصلة راحت تبرز حتماً مسألـة التنـافر المتبادل النابع من تناقض داخلي في جوهر طبيعة هذه المذاهب . غير أن ذلك لا يعني أن المذاهب الثلاثة ، أو الأديان المعنية ، لم تجد طريقة للتعايش فيما بينها . فمنذ نهاية القرن السـادس الميلادي ، كما هومعلوم ، قام تون بتقـديم اقـتراح إلى الملك حول « الأديـان الثـلاثـة » ، تحدّدت من خلالـه ميـادين فاعليـة كل منهـا في حيـاة الصين . وهذا التحديد لدور ومجال الأديان حافظ على أهميته بشكل عام طوال قرون كثيرة . فالدولة والأسرة من اختصاص الكونفوشوسية ؛ ودراسة الطبيعة والطب والسحر من اختصاص الداوسية ؛ أما العلاقات بين الإنسان والقضاء فقـد خصصت للبـوذيـة . وقـد كانت « النزاعـات » تنـدلـع في حين اختراق «مجالات النفوذ» هذه ، أي عندما كان أحد الأديان يتجاوز حدود غيره .

كما أن تاريخ تغلغل وتطور البوذية في الصين يشهد على أنه كانت تجري

بشكل ثابت عملية تصيين العقيدة البوذية ، وذلك تحت تأثير كل من الداوسية والكونفوشوسية على حدّ سواء . ولعله بالإمكان هنا الكشف عن عدد من الأطر الزمنية ، أي أنه إذا كانت الداوسية تحتل المقام الأول خلال المرحلة المبكرة من تغلغل البوذية في الصين ، كما سبق أن أشرنا ، فإن المرحلة اللاحقة قد تميزت بنشاط فعال من قبل الكونفوشوسية[1] . ومهما كانت المفارقة ، فإن البوذية التي ترسخت خلال قرابة ألفي سنة ، بل وكانت طوال مرحلة زمنية كبيرة الدين المهيمن في الصين ومارست تأثيراً عميقاً على تطور الثقافة الصينية ، هذه البوذية نفسها غدت ميداناً أثر فيه تأثيراً قوياً جداً وبشكل رئيسي كل من الداوسية والكونفوشوسية اللتين أحدثتا فيها تغيرات راديكالية بفعل ما أدخلته إليها عملية التصيين بحد ذاتها

ومن المهم أن نشير أيضاً إلى ظاهرة أخرى هي أن دعاة البوذية أظهروا رهافة مذهلة في تطويع عقيدتهم للتلاؤم مع شتى الظروف الاجتماعية والروحية ، واستغلوا لهذه الإمكانيات القومية ، بما في ذلك التعاليم المحلية الأصيلة ومفاهيمها ومصطلحاتها بغية ترسيخ عقيدتهم وبسط هيمنتهم . هذه التجربة القديمة في مجال استغلال وتسخير المصطلحات المأخوذة من ديانات أخرى ، بهدف الاستعاضة عن المفاهيم السائدة بمفاهيم مفيدة سياسياً أو إيديولوجياً لقطاعات اجتماعية محددة ، ما تزال كما يبدو تجربة غير منسية في الصين حتى اليوم .

(...) :

يرى تشان تشان ـ دو أن أعظم عصور الترجمة ابتدأ بعد سنة ٣١٧ ميلادية ، عندما كانت الصين منهمكة بصراع القبائل البدوية الغريبة حول السلطة ، وكانت البلاد أمام موجة الغزو « البربري » قد انقسمت إلى سلالات حاكمة « بربرية » هي السلالات الشمالية والسلالات الجنوبية ،

فقاسى الشعب من جراء ذلك أقصى درجات الويل . في ذلك الوقت بالذات ، إبان المحن الفظيعة ، قام دعاة البوذية بتصعيد نشاطهم الديني بحماس جنوني منقطع النظير . ففي لويان وحدها ، التي كانت عاصمة الصين إذذاك ، أقيم عدد هائل من الأديرة البوذية التي استمرت في تصعيد النشاط العاصف ، على الرغم من أنها تعرضت للهجوم وحملات العنف مراراً . وقد كان بين أنصار البوذية في ذلك العصر كثيرون من ألمع الأدباء الصينيين ، بمن فيهم سي لين ـ يون ، شان يوا ، ليو سي وآخرون . ولكن إحراز البوذية ذلك التأثير الضخم في الحياة الاجتماعية للبلاد أدى إلى ظهور النشاط المعادي للبوذية . وقد كان الاهتمام الأعظم من نصيب توزيع رسالة « حول تحطيم الروح » وهي من تأليف فان تشان (عاش في القرنين الخامس والسادس) المفكر البارز الذي يمثل وجهة النظر المادية في فهم العالم . ففيها تعرض لنقد دعاة البوذية وسخر من نمط حياتهم الطفيلي ، وأكد بشكل خاص على فكرة تقول : « إذا كان الجسد موجوداً ، فإن الروح موجودة أيضاً ، وإذا ما انهار الجسد ماتت الروح أيضاً . فالجسد مادة الروح ، والروح وظيفة الجسد » . وبذلك دحض فان تشان التصور البوذي عن الخلود ، وأثبت أن روح الإنسان فانية ، مثلما جسده فان أيضاً .

وقد قوبلت مواقف فان تشان الإلحادية بهجمات عنيفة ضده من قبل أنصار البوذية . وكانت حادة على وجه الخصوص تلك المواجهة التي شنها على فان تشان أنصار المدرسة المثالية المعروفة باسم « الأرض النقيّة » بزعامة خواي ـ يوان صاحب رسالة « الأبيض والأسود » ، وكذلك دعاة البوذية ، أمثال تصون ـ بين وخا ـ شان وغيرهما

ويرى تشان تشان ـ دو أنه كان لسيطرة البوذية في الصين عهد ذاك جذورها وسببيتها . فقد كانت نتيجة عملية تطور خفية طويلة المدى بلغت

ذروتها في زمن صعود انتفاضات البدو الرّحّل الذين كان بينهم كثير ون من معتنقي البوذية . ولعب دوراً معلوماً أيضاً أمر آخر هو أن بعض فئات السكان تعرضت إبان الفتنة السياسية الداخلية في الصين للتأثير الديني وآمنت بالتقمّص . ففي ظروف الأديان الصينية الأصيلة ، الضعيفة والقليلة الفاعلية ، استطاعت البوذية أن تحتل مواقع حاسمة في الحياة الروحية للبلاد ، وأن تتحول إلى دين مسيطر . ومن أسباب هذا الوضع أيضاً أن عدداً كبيراً من أتباع البوذية كانت تحركهم روح الشهادة والتضحية بالنفس والإيمان بأن العذاب يضيء النفوس المظلمة ، فرحوا ـ غير آبهين لشيء ـ يبذلون قصارى جهدهم لنشر البوذية ، ناذرين أنفسهم للدعوة ولترجمة مؤلفات التعاليم البوذية إلى اللغة الصينية .

دراسة جنس بيانغين

بدأت عملية جمع وإضاءة بيانغين على يدي العالم الصيني الشهير لو تشان ـ يو الذي أصدر في عام ١٩٢٤ مجموعة النصوص الأولى من (مكتشفات دونخوان) ، معتمداً في ذلك على ممتلكاته الشخصية من تلك المخطوطات . (. . .) .

ولكن تشان تشان ـ دو هو صاحب الفضل الأكبر في تعميق دراسة مخطوطات دونخوان ، حسب رأينا . ففي بحوثه اللاحقة وحدها تأكد اختيار مصطلح بيانغين ، وترسخ بشكل نهائي تعريف بيانغين بوصفه جنساً غنائياً ـ سردياً .

في فن الكلمة ، لاقى تطويراً في تاريخ الأدب الصيني . ونرى أن

ملاحظة ل . ن . مينشيكوف في هذا الصدد صائبة ، إذ يقول في عمله « حول جنس بيانغين ومنابعه »[1] ، إنه بعد أن رسخ تشان تشان ـ دو هذه التسمية لجنس ـ بيانغين ـ دخل هذا المصطلح الجديد بشكل ثابت في مجال الاستخدام سواء في الصين أو في البلدان الأخرى وهزم كل المصطلحات الأخرى التي سبق إطلاقها على هذا الجنس . بهذا المعنى يعتبر بحث « الأغاني البوذية والقصص الشعبية وبيانغين » أثمن أعمال تشان تشان ـ دو الذي حاول من خلاله إعطاء تفسير لظاهرة مخطوطات دونخوان .

(. . .) .

وصل تشان تشان ـ دو ، من خلاله معالجته لقضية الأجناس في تاريخ الأدب الصيني ، إلى نتيجة فحواها أن السمة المميزة لفن الكلمة حتى عصر تان (من القرن السابع حتى القرن العاشر) كانت التقسيم الواضح لأنواع الأدب ، أي كان ثمة مؤلفات شعرية صرفة ، أو مؤلفات نثرية صرفة . أما المؤلفات التي تجمع بين الشكلين هذين فلم تكن موجودة إبان ذلك الزمن ، حسب ما هو متوفر لنا من معلومات . وهذا ، بالطبع ، لا يعني أننا لا نستطيع أن نصادف عناصر ذات طابع شعري في مؤلفات نثرية ، كما في آثار الصين القديمة ، مثلاً . إن العلاقة بين شعر الغناء الشعبي والإبداع القصصي أمر قائم حتى في المرحلة المبكرة من فن الكلمة . غير أن الأبيات الشعرية في النثر القصصي لم تلعب دوراً جوهرياً ، بل كانت تدخّلات متفرقة تدقق أو تفسّر أو تنهي فكرة معينة أو صورة أو حالة . ويبدو أن من الخطأ اعتبار ذلك مزجاً عضوياً للشكلين الشعري والنثري ، بوصفه ظاهرة لها علاقة بالجنس الأدبي .

على ضوء هذه الظاهرة طرح تشان تشان ـ دو تصوره حول الجنس الجديد بيانغين ، حيث يتضافر الشعر والنثر ، وهو جنس ظهر في مرحلة تغلغل وانتشار الأدب البوذي في الصين . ولعل تشان تشان ـ دو هو صاحب الفضل

الأول في إعطاء أكبر قيمة للعلاقة بين الأدبين البوذي والصيني . ففي بحثه « تغلغل الأدب البوذي » كتب تشان تشان ـ دو منذ مطلع أربعينات هذا القرن قائلاً إن أضخم حدث في أدب القرون الوسطى هو تغلغل الأدب البوذي الذي أعقبته حركة تغيرات ملموسة في الأدب الصيني القروسطي . وقد بيّن هذا العالم أن مؤلفات التعاليم البوذية بالذات تتميز بكثرة استخدام طريقة الدمج بين الشعر والنثر وتناوب الشكلين (نص لوتوس ، مثلاً) . وكلما ازداد انتشار ترجمة النصوصّ البوذية ، ذات الصفة الشعرية ـ النثرية ، إلى اللغة الصينية ، وازدادت شعبيتها ، كلما ازداد استيعاب المؤلفين الصينيين لها ، إلى أن راحوا يحاكون هذا الجنس الأدبي في إبداعاتهم .

وهكذا ، فإن أصول بيانغين ، بوصفه جنساً يمزج بين الشعر والنثر ، ليست مرتبطة بالأدب الهندي وحسب ، بل كانت أيضاً نتيجة لمؤلفات التعاليم البوذية التي لاقت شيوعاً واسعاً في عصر تان . إن مؤلفات بيانغين باللغة الصينية هي بالذات التي كانت أولى أبكر مؤلفات هذ الجنس .

(. . .)

إن البحث العلمي قد وضع على محك النقد كل التصورات التي تشكلت خلال القرون ، وصقلتها خبرة دعاة البوذية وقوتهم في ظروف خاصة عاشتها الصين إبان القرون الوسطى ومن الواضح أن فهم بيانغين يزداد صعوبة بسبب الحاجز الزمني . فكثيرة هي الأمور التي قد تغيرت منذ ذلك الزمن

فقد انطلقت في حياة الصين المادية والروحية عملية تطور لا رجوع فيها ، فرُفضت كثيراً من الأشياء ، وأُثبتت أشياء أخرى . غير أن الزمن السالف ، أي عصر بيانغين ، هو جزء من الحركة التاريخية في حياة الشعب

الصيني ، بل وليس الشعب الصيني وحده ، تلك الحياة التي لم تتخلَّ عنها الأجيال المتأخرة ، بما فيها جيل اليوم .

(. . .) . .

لقد سعى تشان تشان ـ دو ، بوصفه مفسّراً للنصوص القديمة ، إلى جعل ذلك العالم البعيد والعصر السالف قريبين منه ، وحاول النفاذ ببصيرته عبر تراكم القرون إلى وجه الكاتب القديم لنصوص جنس بيانغين ، كي يتأكد من مصداقية مغزى ما تم الوصول إليه وأهمية ما هومكتوب ، ومن ثم ليقنع الآخرين بصحة اكتشافه . كما أن جميع إنجازات هذا العالم وملاحظاته وتقديراته واستنتاجاته ما تزال تحتفظ إلى اليوم بمغزاها وبراهينها العلمية . (. . .) . وعلى الرغم من كثرة عدد الأعمال المتخصصة بدراسة بيانغين ، فإنه من الصعب أن نقول من كثرة عدد الأعمال المتخصصة بدراسة بيانغين ، فإنه من الصعب أن نقول إن جميع المسائل المتعلقة بجنس بيانغين وتاريخه ودوره في سيرورة الأدب الصيني قد لاقت حلها النهائي . بل على العكس من ذلك ، إذ أن كثيراً من جوانب مخطوطات دونخوان وجنس بيانغين ما تزال تنتظر التمحيص والإضاءة ، بغض النظر عن وجود بحوث كثيرة في هذا الموضوع .

(. . .)

لقد بنيت مؤلفات بيانغين ، من حيث تكوينها ، بصورة رئيسية حسب مبدأ التناوب المتّزن للنصوص النثرية والشعرية . ويبدو لنا أن الجدير بالانتباه هو أن العنصرين الشعري والنثري في الجنس الجديد بيانغين لم يفسدا على الإطلاق عملية القص ، ولم يعقّدا أو يعيقا تطور الأحداث ، بل ساعدا على ذلك التطور . إن كلا جزئي النص ـ الشعر والنثر ـ كانا يكملان بعضهما البعض عبر تناغم هرموني في مؤلفات بيانغين . فوحدة العنصرين اللذين بينهما

حد دائم ، كانت ، كما تبيّن ، تساعد المؤلفين والرواة على إكمال الشخصيات وجعلها أكثر امتلاء ووزناً من الناحية الفنية . لقد خلقت طريقة القص في مؤلفات بيانغين انطباعاً لدى الآخرين بأنهم أمام إحدى لوحات فن الحفر المجسَّم والزاهي الألوان .

(. . . .) .

ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار أيضاً أن مؤسسي البوذية ودعاتها كانوا ، ربما أكثر من دعاة أية تعاليم دينية أخرى ، يولون اهتماماً بيّناً لمسألة وصول نصوصهم وسهولة فهمها بالنسبة لمختلف المستويات والفئات الاجتماعية . وقد تجلى ذلك في الشكل الملموس للعقائد البوذية ، أي أن تلك العقائد كانت تقدَّم عبر أمثلة بسيطة واضحة ، وصور يفهمها الجميع . وينبغي أن نضيف إلى ذلك أن البوذية كانت تتمتع بقدرة فائقة على التلاؤم مع الأوضاع في مختلف الظروف التاريخية .

جدير بالانتباه أيضاً أن نجاح نشر بيانغين كان مرتبطاً بمرافقة الموسيقى التي لم تكتف بجذب المستمعين ، بل وكانت تسهِّل فهم مضمون الدعوة ، سواء كانت تلك الدعوة بوذية أم غير بوذية . فالمرافقة الموسيقية ساعدت إلى حد معلوم على تغطية بعض ثغرات الصن الشعري البوذي الذي لم تكن ترجمته لتقترب من الكمال إطلاقاً، وذلك لأن المترجمين لم يكونوا دائماً من كبار الشعراء أو رجال الأسلوب . إن تقاليد مرافقة القراءة بالموسيقى والغناء تعود ، كما هو معروف ، إلى فن الغناء الشعري العريق القدم في الصين ، بدءاً من (شيتسيان) وأغاني (يوافو) .

ودون أن ينتقص أو يضخم من القيمة الفنية لمؤلفات بيانغين ، يضع لو دا ـ تصي هذا الجنس في مقام هام من تاريخ تطور الأدب الصيني . وبهذا

الصـدد فإن لملاحظتـه التالية قيمتها ، إذ يقول إن لجنس « بيانغين منبعاً ينحدر منه ، وله نجاحه الحقيقي . أما منبعه فهو النصوص البوذية ، وأما نجاحه فمن الدعوة » . ويوضح المؤلف أن مؤلفات هذا الجنس لم تحظ في مرحلة ولادتها بأية قيمة أدبية ، وإنما كانت تعتبر إحدى إفرازات الدين ومادة لنشر البوذية . بعدئذ أصبح لهذه المـؤلفـات شيـوع واسع بين الشعب ، الأمر الذي أعطى للكتّاب إمكـانيـة إدخـال تغييـرات تدريجيـة في المضمـون الـديني لتلك المـؤلفـات ، مستعيضين عن ذلك المضمون بقصص ذات طابع تاريخي . إن مؤلفي بيانغين لم يكتفـوا بالابتعـاد عن الالتـزام الحـرفي بالأحـداث في المـؤلفات البوذية ، بل وأبـدوا اهتـمامـاً حيـاً بسيـرة حيـاة شتى الحكـماء ، وكثـيراً ما دونوها لا كحياة قديسين ، بل على الأغلب كحياة أناس خيّرين كانوا موجودين تاريخياً واهتموا بالعدالة والأخلاق وواجب الابن تجاه والديه . . . إلخ . ونتيجة لذلك تحولت مؤلفـات بيـانغين إلى شكل جديد من أشكال الأدب الشعبي البسيط . وعلى الـرغم من كل أهميـة التعـاليم البـوذيـة ، فإننـا نجـد في مؤلفات بيانغين تلك العنـاصـر التي انعكست من خلالها الأفكار الواقعية الأخلاقية والجمالية وكذلك الطمـوحـات التي تميـز بها الشعب الصيني في القـرون الوسطى ، وذلك كله قد تجلى بوضوح عبر قشرة دينية خيالية . ومن المهم أيضاً أن البوذية ، شأنها شأن أديـان الشعـوب الأخـرى إلى حد ما ، كانت تستغل مختلف أشكال الفولكلور المحلية من أجل الدعاية لأفكارها وقيمها الأخلاقية .

وبالتالي ، فإن ولادة الجنس الجديد بيانغين جاءت ، حتماً ، عن طريق الخـبرة نفسهـا ، وبفضـل التقصيات الإبداعية التي قام بها أولئك الذين خلقوا بيانغين ، والآخرين الذين كانوا يتناقلونها ويروونها . فالمراجع الأدبية تشير إلى أن المـؤلف والـراوي كثـيراً ما كانـا يجتمعـان في شخص واحد . ويفسِّر نجاح جنس بيانغين أيضاً بأن تناوب عنصري الشعر والنثر في النص جعل السرد أكثر

غنى ، وأعطى القصة إمتاعاً جمالياً كبيراً ، كان يتناسب مع وظيفة الدعوة ، أي وصولها وسهولة فهمها بالنسبة للراغبين في اعتناقها . ومهم أيضاً ، من وجهة نظرنا ، أن نبينّ أنّ بيانغين يتجاوز حدود السرد الوقائعي البدائي لحكاية أوحدث تاريخي ما . فقد راحت أحداث مؤلفات بيانغين تكتسب طابعاً حياً وسهل الفهم سماعياً ، وأصبحت تجذب المدعويين إلى البوذية . كل ذلك عمل على خلق اهتمام خاص لدى المستمعين ، وعلى زيادة انتباههم في متابعة تطور السرد ، فكانوا يضحكون أو يحزنون ، يغضبون أو يتعجبون من جرّاء سلوك الأبطال والصراع بين الخير والشر .

جوهرية كذلك ، حسب رأينا ، ملاحظة لودا ـ تصي القائلة بأن في وسعنا العثور بين النصوص البوذية على كثرة من المؤلفات ذات القيمة الأدبية . مثال ذلك ، نصوص (فايموتصي) ، (سيرة حياة بوذا) و (الإشراق في كل مكان) ، التي هي ـ برأي لودا تصي ـ من أمتع القصص . إن هذه النصوص مكتوبة بطريقة فائقة الحيوية ، حيث يجري استخدام أشعار مكونة من أربع وخمس وسبع كلمات . في مؤلفات الأدب البوذي هذه تبرز سمتان : غنى الخيال ، والامتزاج العضوي بين النصوص الشعرية والنثرية . لقد مارست هاتان السمتان بالذات تأثيراً بيّناً تماماً على تطور الأدب الصيني في مرحلة متأخرة . ويؤكد لودا ـ تصي بأن المؤلفات الصينية كانت تفتقر دائماً لتحليق الخيال ، أي لما يتميّز به الأدب البوذي الذي تجد فيه أصغر الحوادث تحولات لا نهاية لها سماوية وأرضية ، بالإضافة إلى معجزات لا تنضب . تحليقات الخيال هذه بعيدة بالطبع عن التفكير السليم وعن الواقع ، ولكن الأدب الصيني كان يحتاج بالضبط إلى قوة روحية من هذا النوع ، لأنه منذ الأزل كان يستخف بقدرة الخيال . إن إدخال هذا العنصر قد أعطى الأدب الصيني بالتأكيد حرية عظيمة . يقول لودا ـ تصي ، إننا ونحن نقرأ مؤلفات قديمة

مثل « كتاب الجبال والبحار » و« سيرة حياة ابن السماء مو » وعدداً كبيراً من القصص المبكرة التي كان تأثير البوذية عليها معدوماً أو شبه معدوم ، ثم نقارنها بملاحم من العصر الوسيط ، مثل (رحلة إلى الغرب) لمؤلفها أوتشان ـ آن ، و« السمو إلى مصاف الأرواح » لمؤلفها سيوي تشون ـ لين ، فإننا سرعان ما ندرك أن روحَ خيال الأدب الهندي قد لعبت ، بالتأكيد ، دوراً معيناً في النثر القصصي الصيني .

هامة كذلك ملاحظات لودا ـ تصي القائلة بأن « الأجناس في الأدب الصيني محدودة ، فهي إما شعر وإما نثر . . . في حين أن في النصوص البوذية كثيراً من الأجناس التي تستخدم المزج بين الشعر والنثر » . وبالفعل ، فإننا كثيراً ما نجد أنه بعد السرد النثري يتكرر المضمون من جديد ولكن بقالب شعري يسمّى نشيداً أو مزموراً ، وهو يغنّى عادة ، مما يسهل حفظه . أضف إلى ذلك أن الأهمية الفعلية للنص غالباً ما تكمن بالضبط في هذه الأناشيد التي هي ، من حيث الناحية الفنية ، أكثر إمتاعاً وأغنى من السرد النثري .

هذه الخصائص الأسلوبية للنصوص البوذية كان لها أهمية فائقة القيمة بالنسبة لتطور حركة الأدب الشعبي الصيني في مختلف أشكاله .

لقد كشف بيانغين عن إمكانيات كبيرة بالنسبة لخلق مؤلفات تدور حول أحداث بوذية ، بل وغير بوذية ، أي حول أحداث مأخوذة من مصادر قومية صينية أيضاً .

(. . .) .

إن مؤلفات بيانغين هذه ، بما فيها بوذية المضمون ، تتسم بميزات فنية رفيعة . وهذا ينطبق على أدوات التعبير : الصورة ، الاستعارة ، التشابيه الشعرية ، الرمز ، وكذلك اللغة الحية ، الساطعة والسديدة .

هذه الأدوات الفنية ـ التعبيرية في مؤلفات بيانغين هي إلى درجة كبيرة وليدة الجنس السردي ـ المغنّى الذي كان مشروطاً بالشكل الشفهي للأداء ، وموجّهاً إلى مستمعين ينتظرون سرداً شائقاً وقصة مسلية .

وهكذا فإنه ، حين دراسة هذه المؤلفات ، لا بد من الانتباه إلى بنيتها المعقدة وعناصرها الفنية التكوينية : الكلام ، والغناء ، والموسيقى ، والدراما . . . إلخ ، التي تشكل كلاً محدداً وكمالاً بنائياً . فثمة في أساس هذا الجنس خصوصية هي العلاقة الوثيقة جداً بين الكلمة وباقي عناصر الفن الكلامي التي تربط فيما بينها صلة عضوية وتأثير متبادل .

(. . .) .

ويرى لو دا ـ تصي أن تأثير بيانغين على تطور العملية الأدبية في الصين فيما بعد قد تجلى في عدد من الظواهر الملموسة . **أولاً** : أثّر بيانغين على شكل خوانبان في عصر سون . **ثانياً** : إن باوتصوان والرقص ، كشكلين من أشكال الإبداع الشعبي ، مشتقان من بيانغين . **ثالثاً** : إن إدخال طرق السرد شعراً وإيقاعاً أو غناء إلى الرواية الصينية هو بدوره اقتباس عن بيانغين بالضبط . **رابعاً** : إن التطوير الكبير للفن المسرحي عن طريق إدخال شكل جديد في الدراما الصينية (أي مزج الغناء بالمونولوج) مرتبط أيضاً ، كما يبدو ، بتأثير بيانغين .

(. . .) .

وأظن أننا ، عموماً ، نكثر أحياناً من التصنيف والتنميط ، ونقلل جداً من الدراسة التحليلية للآثار الأدبية والظواهر المتنوعة في فن الكلمة . ولعله ليس صعباً على من يكون راسخ اليقين بفكرة ما إن يستنتج من سياق العلاقات الأدبية التاريخية فكرة تهمه وتناسب نظريته ، أو أن يعتمد قولاً لهذا

الأديب أو ذاك لتدعيم نظرته المسبقة واعتبار ذلك فتحاً أو خدمة تجديدية يسديها للعلم . ولا يعود الذنب في هذا إلى منهج البحث التنميطي ، وإنما إلى الذاتية والعسف اللذين يتسلح بهما بعض المؤلفين . يجب أن ينبني التنميط العلمي على ظواهر ووقائع حقيقية وموثَّقة ، تكون مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالعملية التاريخانية والموضوعية العلمية ، بعيداً عن الفهم القسري لتطور الأدب العالمي ، أي عن فهم هذه العملية كتكرار تقوم به الآداب القومية لمراحل واحدة ، وكأنها جميعاً تعبر ببساطة محطات بعينها على طريق واحدة . عندئذ لا بد أن نواجه سؤالاً هو : هل حقاً أن خصوصية وأصالة مختلف الآداب القومية معدومة القيمة وليس لها أية أهمية بالنسبة للفهم العلمي ؟ إننا نتحدث هنا ، بالطبع ، عن الخصوصية ، وليس عن الاستثنائية المشؤومة التي تلصق بهذا الأدب أو ذاك .

(. . .) .

في أبحاث تشان تشان ـ دو يبر ز واضحاً ذلك الإحساس الحي بالتقاليد القومية . إنه باحث يدرك استحالة الإحساس بغنى وسحر الأدب دون معرفة أسسه الأولى ، أي خصوصية وأصالة ذلك الأدب القومي . وهي أسس مرتبطة ، من حيث جوهرها العميق ، بالتطور الاجتماعي ـ التاريخي ، وتحدد سمات التفكير الفني .

لكي نعبّر عما هو أصيل ، قومي ، يجب علينا أن نعرفه في أصغر تفاصيله ، في ملموسيته . فمن الممكن الكتابة عن الحي اللاتيني بباريس أو عن تشاين تاون في سان فرانسيسكو دون معرفة بتاريخ فرنسا أو أمريكا ، إلا أنه لا يمكن الكتابة عن الأدب الصيني دون معرفة بتاريخ الصين ولغتها وكتابتها الهير وغليفية .

لقد انعكست في مؤلفات بيانغين (ذات المضمون البوذي وغير البوذي) جملة من المعتقدات والتقاليد الحية والعادات والطقوس والحكايات والخرافات المرتبطة بتصور بعض الفئات الاجتماعية عن العالم في الصين إبان العصر الوسيط . لذا فإننا لدى دراسة مؤلفات بيانغين نكون بحاجة ماسة إلى مراعاة الجانبين التاريخي والسوسيولوجي معاً ، أي إلى الأخذ بالمبدأ التاريخي الملموس ، العلمي - السوسيولوجي في البحث .

وفي ميدان الحياة الروحية ، في الإبداع الأدبي ، يكون جوهرياً بالنسبة للبحث ذلك الشيء الذي يشكل خصوصية شعب ، ويترابط عضوياً بماضيه وبحركته ومصيره التاريخيين . إن أقرب الأدباء إلى الشعب هم الأكثر استجابة لجوهر ذلك الشعب .

(. . .) .

ثمة ، على سبيل المثال ، تأكيد بأن الواقعية في الأدب الصيني قد ظهرت بفضل الفن الواقعي في أوروبا الغربية . ولهذه النظرة أنصارها ، لأن ثمة شيئاً على السطح يبدو مقنعاً . غير أن ذلك في الحقيقة مجرد ضلال . ولكن يمكن الحديث (وهذا واضح في أبحاث تشان تشان - دو) عن تسريع أو تنشيط الواقعية في العملية الأدبية لدى كتاب الشرق عن طريق تأثير مؤلفات الكتّاب الأوروبيين ودورها في إبداعهم .

لقد كان ضخماً أيضاً تأثير الثقافة البوذية على الفكر الجمالي الصيني ، ذلك التأثير الذي سلك طرقاً شديدة التعقيد وغير مدروسة بالقدر الكافي ، سواء في الصين نفسها (. . .) أو في الغرب حيث يهتمون بالدرجة الأولى بتأثير الحضارة الغربية على الشرق .

ويشهد تاريخ تطور الفن الصيني على أن الإحساس البوذي بالعالم كان

له أقوى تأثير على تطور الرسم الصيني . (. . .) .

ثمـة ، على سبيل المثال ، تأكيد بأن الواقعية في الأدب الصيني قد ظهرت بفضل الفن الواقعي في أوروبا الغربية . ولهذه النظرة أنصارها ، لأن ثمة شيئاً على السطح يبدو مقنعاً . غير أن ذلك في الحقيقة مجرد ضلال . ولكن يمكن الحديث (وهذا واضح في أبحاث تشان تشان ـ دو) عن تسريع أو تنشيط الواقعية في العملية الأدبية لدى كتاب الشرق عن طريق تأثير مؤلفات الكتّاب الأوروبيين ودورها في إبداعهم .

لقد كان ضخماً أيضاً تأثير الثقافة البوذية على الفكر الجمالي الصيني ، ذلك التأثير الذي سلك طرقاً شديدة التعقيد وغير مدروسة بالقدر الكافي ، سواء في الصين نفسها (. . .) أو في الغرب حيث يهتمون بالدرجة الأولى بتأثير الحضارة الغربية على الشرق .

ويشهد تاريخ تطور الفن الصيني على أن الإحساس البوذي بالعالم كان له أقوى تأثير على تطور الرسم الصيني . (. . .) .

وينبغي أن نضيف إلى ما سبق ، أن علم الجمال (التشاني) الذي جاء برفقة التعاليم البوذية من الصين إلى اليابان في القرون ٩ ـ ١١ قد مارس تأثيراً هائلاً على تطور الفن الياباني ، وأصبح عاملاً حاسماً في الحياة الفنية للبلاد .

الحواشـــــــــــــي

(*) نضع هنا بين يدي القارىء ترجمة دقيقة لفقرات من مقالة كبيرة للباحث السوفييتي فيديرينكو ، مع الإشارة بقوسين (. . .) إلى الفقرات المهملة نظراً لضيق المكان ـ المترجم .

(١) ل . ن . مينشيكوف . بيانغين حول (جزاء الإحسان) موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ١٩ .

(٢) انظر : ك . ك . فلوغ . وصف موجز للمخطوطات البوذية القديمة باللغة

الصينيـة ، من مجموعـة معهـد الاستشـراق لدى أكـاديميـة العلوم السـوفييتية (ببليوغرافيا فوستـوكـا) . الإصـدار ٨ ـ ٩ ، لينينغراد ١٩٣٥ ، ص ٩٦ ـ ١١٥ ؛ م . إ . فوروبيوفا ـ دسياتوفسكايا ، إ . س

. غوريفنتش . . . وصف المخطـوطـات الصينيـة في مستـودع دوخوان في معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفييتية الإصدار ١ ، موسكو ١٩٦٣ ، وأيضاً الإصدار ٢ ، موسكو ١٩٦٧ .

(١) انظـر : تان يون ـ تون . تاريـخ البـوذيـة في زمن خان ، فاي ، تسين كلتيهما ، والسلالات الشمالية والجنوبية . شانغهاي ١٩٣٨ ؛ ف . م . ألكسييف . فصل من تاريخ تصيين البوذية ـ « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية . ج ـ ٦ ، الإصدار ـ ٥ ، عام ١٩٤٧ ؛ باي بو ـ سيان . بحوث في العلاقات الأدبية بين الصين والهند . تايباي ، ١٩٥٩ .

(٢) انظر :

V. Hrdlickova. The First translations of buddhist Sutras in Chinese Literature and their place in the development of Story - telling . « Archiv Orientalni », vol, Praha, 1958.

(١) انظـر : ل . س . فاسيلييف . العبـادات والأديـان والتقـاليـد في الصـين . موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩

(٢) فان . ي . تاريـخ سلالـة خان المتأخـرة » . في سلسلة « أرشيصي شي » ، ج ـ ٣ ، بكين ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٨

(٣) انظر : ل . س . فاسيلييف . العبادات والأديان والتقاليد في الصين ، ص ٣٠٧

(١) فيما يتعلق بمسألة تصيين البوذية والدمج الديني ـ الأخلاقي لها مع غيرها ، نرى أن الملاحظـات القيّمـة التي قدّمها الأكاديمي ف . م . أليكسييف جديرة بالاهتمام ، وهي موجودة في مقالته « فصل من تاريخ تصيين البوذية » ، وكذلك في كتابه « في الصين القديمة » (الصـادر في موسكـو عام ١٩٥٨) . كذلـك يمكن الرجـوع إلى آراء فاسيلييف الممتعة في كتابه (العبادات والأديان والتقاليد في الصين) .

(١) انظـر : ل . ن . منيشيكـوف . مخطـوطات بيانغين مجهولة من قسم دونخوان في معهد شعوب آسيا ، موسكو ، ١٩٦٣ .

الكاتب الإنساني لوسين

• ترجمة : د . ماجد علاء الدين

يعتبر الأدب الصيني من أقدم الآداب العالمية إذ يبلغ عمره أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ومن أقدم الكتب التي وصلت إلينا كان كتاب (الأغاني) من القرن الحادي عشر وحتى القرن السادس قبل الميلاد / الذي يحتوي على الكثير من القصائد الملحمية في الأدب الصيني القديم . ومنذ ذلك التاريخ وحتى الوقت الحاضر كان الأدبُ الصيني يتطور بين صعود وهبوط وجمود إلى أن بلغ في بداية القرن العشرين مرحلة هامة للغاية .

ولد الأدب الصيني الحديث في ذروة النضال التحرري الذي ابتدأ في ٤ أيار ١٩١٩ ، متأثراً بصدى ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا ورفع الأدباء الطليعيون في العشرينات شعارات (رفض العالم القديم ، والنضال من أجل المثل الديمقراطية وتجديد اللغة ، وإقامة علاقات متينة مع قوى التقدم والتحرر في العالم وخاصة مع ثقافات الشعوب المجاورة وفي مقدمتها الثقافة الروسية » .

في طليعة هؤلاء الكتاب كان الكاتب الإنساني (لوسين ٥ / ١٨٨١ / - ١٩٣٦ / . الذي سجل صفحة ناصعة في تاريخ الأدب الصيني الحديث ، وعلى وجه الخصوص في الثلث الأول من القرن العشرين . ويعتبر لوسين الكاتب الصيني الأول الذي صور الإنسان العادي من عامة الشعب ، ووضعه في مقدمة أبطال نتاجاته الأدبية وخاصة في مجموعاته القصصية (نداء)

(ضياع) وفي قصة (التاريخ الحقيقي لـ أ . كيو) .

وتجدر الإشارة إلى أنه ، ومنذ هذه الآونة أخذ الأدب الواقعي الإنساني يتطور بخطوات سريعة إلى الأمام ، على حساب الاتجاهات المحافظة الرجعية التي كانت تنادي بما تدعوه « نظافة الروح القومية » والتي حاولت وضع جدار أصم ، أعلى من سور الصين الشهير بين ثقافة الشعب الصيني وثقافات الشعوب الأخرى . كما حاولت الأوساط الرجعية أن تحارب نتاجات شكسبير وبايرون وميلر ، وبلزاك وتولستوي ودوستويفسكي وغيرهم من الكتاب القدماء والمعاصرين . ولكن هذا الأمر كان مستحيلاً ، فلم تقدر القوى الرجعية في الصين أن تقف حاجزاً أمام تطور التاريخ ، وأمام رغبة الناس في الانفتاح الثقافي على العالم التقدمي ، وهكذا تهدم سد الرجعية الوهمي وأخذ الكتاب الصينيون وفي مقدمتهم لوسين يطّلعون على نتاجات الكتاب الأجانب وفي مقدمتهم بوشكين ، ليرمنتوف ، تولستوي ، تشيخوف وغوركي .

في بداية العشرينات نظم الكتاب الصينيون التقدميون « رابطة الكتاب اليساريين في الصين » . ومن أهم الأهداف لهذه الرابطة كان التقارب والتفاعل مع الأدب السوفييتي . وربط الكتاب التقدميون أعضاء هذه الرابطة مصيرهم بمصير الطبقة العاملة الصينية ، ولهذا قام الكتاب الصينيون بترجمة العديد من أعمال الكتاب الروس المعروفين وخاصة أولئك الذين أشرنا إليهم في المقدمة . ولقد اعتقد لوسين أن نضال الشعب الروسي كان خير مثال يحتذى به من أجل أن يحقق الشعب الصيني النجاحات المرجوة في نضاله ضد التخلف ، ومن أجل التحرر من عبء الماضي بكل ما فيه من مآسي واستغلال وإهانة . وفي عام ١٩٣٤ كتب لوسين موضحاً تطور وعيه الأدبي كما يلي : « كنت أشعر ، أن العالم القديم قد أخذ بالتعفن ، وأملت أن يأتي بدلاً منه ، عالم جديد ، ولكني لم أكن أعرف ما هي أسس هذا المجتمع الجديد الذي أبغيه ، ولم أعرف أنه

سيكون مجتمعاً جيداً بشكل أكيد . بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية فقط أصبحت أدرك ، أن القوة الفاعلة في بناء العالم الجديد هي الطبقة العاملة ، ولكن الدعاية الامبريالية الرأسمالية الغربية ضد الثورة جعلتني أقل اهتماماً بها ، وراودني الشك ، وعانيت من القلق فإلى أين أسير ؟ وعلى من أعتمد ؟ . ولكنني وصلت إلى قناعة مفادها : أن وجود الاتحاد السوفييتي وتحقيق العديد من النجاحات بعد الثورة قد أيقظ في نفسي الكثير من الإحساسات ، وجعلني أؤمن بأن المجتمع سوف يصبح يوماً ، ورغم كل المصاعب ، مجتمعاً خالياً من الطبقات وسينتهي القهر والاستغلال . ومنذ تلك اللحظة انتهت جميع المخاوف ، واضمحل الشك وزادت ثقتي بالمستقبل . . . » .

الموقف الاشتراكي

عملت الصحافة الصينية في العشرينات على نشر شتى الأفكار البورجوازية والرأسمالية المعادية للأفكار والمثل الاشتراكية ، وساهمت وسائل الإعلام البورجوازية في حملة الحصار التي فرضتها الدول الرأسمالية على الثورة الاشتراكية في روسيا . وأمام هذا الضغط الإعلامي عانى لوسين من بعض المخاوف والأفكار القلقة فكتب معبراً عن رأيه : « لقد قامت هذه الحملة الدعائية البورجوازية بدور قذر للغاية ، إذ عملت على تزوير الحقائق ، وكانت تروج دائماً أن الاتحاد السوفييتي بعد الثورة قد أصبح بلداً محتاجاً للموارد الاقتصادية ، ولكن الحقيقة دائماً مشعة ، ويصعب طمسها بأمر أو بمقالة معادية ، وازدادت علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي توطداً وتوسعاً وأخذنا نطلع عن كثب على المنجزات الهامة التي أخذت تحققها ثورة أكتوبر الاشتراكية . وأصبحت أقرأ يوماً بعد يوم عن النجاحات التي تبدعها الطبقة العاملة الروسية ، وصدرت العديد من النتاجات الأدبية الهامة التي تصور عظمة الثورة ، وعلى أثر هذا كله انقرض الشك نهائياً في خلدي ، وآمنت بانتصار

الثورة » .

ولم يكن هذا الأمر بالنسبة للكاتب لوسين أمراً سطحياً عابراً ، بل على العكس تماماً ، فقد تكلم عن إيمانه بالأفكار الاشتراكية في أكثر من نتاج أدبي ، ووقف مؤكداً في أكثر من مكان أن انتصار الأفكار الاشتراكية مسألة حتمية ويجب النضال من أجلها لتحقيقها في الصين . وكتب أكثر من مقالة يدين فيها الدعاية البورجوازية الكاذبة وأطلق على نشاطها اسم : « الخداع الوقح » . وامتدح لوسين كتاب « مذكرات عما رأيته وسمعته في الاتحاد السوفييتي » للعامل الصناعي « لين كي ـ دو » الصادر باللغة الصينية عام ١٩٣٢ ، كما امتدح كتاب « انطباعات عن موسكو » ١٩٣١ للصحفي الصيني التقدمي (خويوي جي) وغيرهما من الكتب الواقعية التي بينت الحقائق وكشفت أكاذيب (الصحف الصفراء » ، وفي مقدمته لكتاب « لين كي ـ دو » كتب لوسين ما يلي :

« لست مختصاً في مجال السياسة والاقتصاد ، ولكنني أدرك أن الاتحاد السوفييتي خلال بضعة سنوات من حياة الثورة حقق الكثير من النجاحات . ومن خلال الكميات التي صدرها الاتحاد السوفييتي من النفط والقمح لمختلف بلدان العالم خلال سنوات وجيزة ، أيقنت عظمة هذه الثورة وقدراتها ، وزادت ثقتي بانتصار الاشتراكية . . . » .

ولقد آمن لوسين بأن النظام الاشتراكي هو وحده القادر على تكوين العلاقات الاجتماعية المثلى بين أفراد المجتمع ، وإزالة الخلافات والاستغلال البشع . والنظام الاشتراكي وحده هو الذي يكون العلاقات الإنسانية الخلاقة . وقام لوسين بإجراء العديد من المقارنات ، وكتب العديد من الدراسات التي بين فيها أفضليات النظام الاشتراكي ، موضحاً فيها الأسباب التي تدفع البلدان الرأسمالية لشن حملة معادية ضد الثورة الاشتراكية ، ومن

أهمها أن الاشتراكية تحمل السعادة لفقراء الناس وليس للرأسماليين الأغنياء .

وفي عام ١٩٢٩ وقف الكاتب لوسين موقفاً شجاعاً ضد القوى الرجعية الصينية التي افتعلت صداماً مسلحاً مع الاتحاد السوفييتي ، وهاجم النزعة الشوفينية الصينية في العديد من المقالات ، والقصص الرمزية ، وبهذا سجل موقفاً عادلاً رافضاً للهجمة الرجعية في الداخل ، وضد سياسة العسكرة التي اتبعتها حكومة الصين آنذاك . وفي مقالة « لن يستطيعوا خداعنا مرة أخرى » . كتب لوسين ما يلي : « هل يوجد عند الامبرياليين أية أهداف ، لا تتعارض مع مصالحنا الوطنية مباشرة ؟ لا بالطبع ، فمصالحهم تتعارض كلياً مع طموحاتنا وأهدافنا الوطنية ، وكل ما يزعجنا يفرحهم ، والآلام التي نعاني منها تسعدهم . ولهذا ، فإن كل إنسان يعادي الامبرياليين هو صديق لنا . والإمبرياليون ـ عاجلاً أم آجلاً ـ سوف يسقطون ، وهم عاجزون عن الصمود ، ولهذا يحاولون أن يشنوا حرباً ضد الاتحاد السوفييتي .

ولم تكن مقولات الكاتب لوسين لتختلف أي اختلاف عن نشاطه الاجتماعي وعمله اليومي ، فشارك مشاركة فعالة في النضال ضد الامبرياليين ، وكتب العديد من المقالات ضد الفاشية ، وكان أول من دعم إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٣٢ .

المضامين الأدبية

عمل الكاتب لوسين معظم حياته في النشاط السياسي والاجتماعي ولكنه وبعد عام ١٩١٨ سخر قسطاً هاماً من نشاطه للعمل الإبداعي ، وما إن صدرت أقصوصة « مذكرات مجنون » حتى أصبحت شهرة الكاتب لوسين أكثر اتساعاً ، وخاصة أنه أطلق في هذه الأقصوصة صيحة مدوية لكافة بني البشر :

« أوقفوا الحروب ! أوقفوا إراقة الدماء ؟ كفاكم تنكيلاً ببعضكم البعض ! أنقذوا الأطفال من ويلات الحروب » ، وكان لوسين يطلق هذه الصيحات على لسان المجنون ، فكيف الأمر بالنسبة للعقلاء ؟!

طوال الفترة الماضية كان الكاتب لوسين يبحث عن بطل حقيقي لنتاجه الأدبي الأول ، واهتدى إليه بوحي من أفكار الكاتب الروسي المعروف غوغول الذي كتب عن المجنون مصوراً إياه إنساناً متفاعلاً مع المجتمع خير تفاعل .

وانطلق المؤلف في موقفه هذا من أن الإنسان المجنون يكون عادة متحرراً كلياً من مشاعر الأنانية وحب الذات ، ويقول كلمة الحق دون خوف من عواقب الأمور . ولقد تأثر الكاتب لوسين في نتاجه هذا بنتاجي الكاتب الروسي نيقولاي غوغول : « المعطف » و « مذكرات مجنون » . ومن خلالهما تمكن لو سين معرفة طاقات وإمكانات الإنسان الصغير . مما جعله يعتمد على هذا البطل بعد ما يقارب من القرن ، ليعكس المشكلات التي يعاني منها الشعب الصيني . وتتمة لنداء غوغول : « أيها الأم أنقذي ابنك المسكين ! » جاء نداء لوسين : « أنقذوا الأطفال ! » .

تختلف مضامين نتاجات لوسين : « لمعان » ، « سيف » . « الصلاة من أجل السعادة » ، « حادث صغير » ، ولكنها في مجملها إلى جانب حق الإنسان المضطهد ، وضد المستغِل الجشع . وإلى جانب الحرية والكرامة والأخلاق العالية . وتعتبر أقصوصة « مذكرات مجنون » مقدمة لمجموع نتاجات الكاتب الأخرى . وخاصة لكتاب « نداء » الذي ضم نتاجات الكاتب خلال مرحلة ١٩١٨ ـ ١٩٢٣ ، وكذلك لكتاب « الضياع » ١٩٢٦ و « الأعشاب البرية » ١٩٢٧ و « الحكايا القديمة في تحرير جديد » ١٩٣٦ .

في أقصوصة « مذكرات مجنون » يتحدث المؤلف عن مجتمع أكلة البشر

ويـرمـز بأكلة لحوم البشر إلى الديكتاتورية والرجعية والفاشية . أما في النتاجات الأخـرى فيتحـدث عن هذا المجتمـع الذي يعيش فيه لوسين ، ناهيك عن أن الكـاتب لم يهتم كثيراً باختيـار وتنويـع الأمكنـة التي يتكلم عنهـا في نتاجاته . ولـذلـك غالبـاً ما نجده يتكلم عن ناحيـة « لوتشي جين » التي ترمـز إلى كل الريف الصيني القديم . وهذا بالذات ما نجده في أقصوصة الكاتب « غداً » ، التي يتكلم فيها عن مصير الأرملة « شان » خلال فترة كان ابنها الصغير مريضاً وفي مرحـلة الاحـتضـار فيروي المـؤلف كيف حملتـه إلى الطبيب ، ثم إلى الصيـدليـة وبعـدها إلى البيت . تتلقى بعض المساعدات من الأهالي ، ولكن هذه المسـاعـدة كانت مصطنعـة ، وتجعلهـا تشعـر بمصيبتهـا أكثر من أي وقت مضى ، يمـوت الابن الـذي يشكل بصيص الأمل في هذه الحياة الدنيا بالنسبة لهذه الإنسـانـة ، وتصـل المأساة إلى أوجها ليس بالنسبة للأرملة فحسب ، بل بالنسبة لكل من اطلع على هذه المصيبة .

وقبـل أن نقـدم ترجمة أقصوصة « مذكرات مجنون » لا بد لنا أن نقول أن نتاجات الكاتب لوسين لم تبلغ درجة عالية من الناحية الفنية ، فكتب نفسه عن هذه الناحية إذ قال : « إن نتاجاتي الأدبية ، بالطبع لم تبلغ الكمال ، وأنا سعيد للغاية أن القراء قد وجدوا فيها ما يلبي طموحاتهم ورغباتهم ، وهذا بالنسبة لي شرف عظيم ، ولهذا وحده أرى أنني حققت نجاحاً كبيراً » . .

وفي واقـع الأمـر أن أدب لوسين حقق نجاحاً وشهرة لأنه يتضمن أسمى الأفكار الإنسانية ، وهو قريب من عامة الشعب . ولأن الكاتب لوسين اعتمد على التقـاليـد العـريقـة في الآداب العالمية ، وقرب بين الثقافة القومية الصينية والثقافات الأوروبية . ووصل لوسين بعمق أفكاره وبوسائل تصويره إلى ذروة الواقعية .

توفي لوسين في ١٩ تشرين أول ١٩٣٦ .

مذكرات مجنون

الأخوة « خ » / الآن لا أريد أن أسمي كنيتهم / كانوا في وقت مضى ، وخاصة أيام الدراسة أصدقاء أعزاء لي . افترقنا ، ومضى على آخر لقاء العديد من السنين ، وانقطعت الأخبار شيئاً فشيئاً بيننا حتى انعدمت . منذ آونة وجيزة علمت أن أحدهم مريض : سافرت إلى مسقط رأسي ، وخلال الطريق عرجت عليهم ، ولكني لم أجد إلا واحداً منهم . حدثني أن أخاه الأصغر كان مريضاً ، ثم قال :

ـ « كان من غير الضروري أن ترهق نفسك ، وتقطع هذا الطريق الطويل من أجل زيارته ، أنه منذ فترة طويلة قد شفي من مرضه ، وهو الآن مسافر إلى منطقة « ن » للقيام بمهمة كلفته بها السلطة » .

ضحك بصوت عال ، وأخرج دفترين مذكرات وقال ، أنه من الضروري أن يتصرف كصديق قديم ، على وضع أخيه خلال فترة مرضه . أخذت الدفترين وعدت متجهاً إلى البيت ، ومن خلال قراءتي للمذكرات وصلت إلى قناعة ، أن المريض كان يعاني من « أوهام الملاحقة » . ويتضح ذلك من الوصف القلق ، وغياب التسلسل المنطقي في التعبير عن الافكار ، ومن خلال وجود الكثير من الكلمات التي لا معنى لها ، ولا رابط لها مع ما سبقها أو تبعها من كلام ، ولم يؤرخ المريض مذكراته ، حسب الأيام أو الشهور ، ولكن من خلال الحبر المستخدم ومن خلال الخط يتضح أن هذه المذكرات لم تكتب خلال جلسه واحدة . انتقيت أكثر الأماكن ارتباطاً من هذه المذكرات ، وجمعها في كراس حتى أقدمها للاطباء من أجل دراستها . لم أصحح أية كلمة كانت ، ولكني قمت بتغير الكنية للاشخاص الذين تذكرهم

في سجلاته . رغم أن هذا ليس بذي أهمية ، لأن معظمهم من سكان الريف ، وغير معروفين على مجال واسع ، أما مايخص عنوان الكتاب ، فقد وضعه المؤلف المذكرات نفسه بعد أن مثل للشفاء ولم يتغير .

- ١ -

اليوم الثاني ، الشهر الرابع ، العام السابع .

اليوم في المساء يسطع القمر بنور رائع .

ثلاثين عاماً لم أره . واليوم عندما رأيته ، أصبح مزاجي حسناً للغاية . والآن فقط أدركت ، أن الثلاثين عاماً الماضية كانت دفينة الظلمة ، ولكن يجب أن أكون حذراً للغاية . هذا كلب أمام بيت تشوجاو . . . . لماذا ينظر إليَّ بعينين مفتوحتين ؟

أن خوفي ليس بدون سبب . . . .

- ٢ -

اليوم لم يسطع القمر نهائياً ؛ فهمت أن هذا لايحمل لي إلا السوء . خرجت صباحاً ، يحيطني الحذر خارج البوابة . نظر إليَّ تشوجاوغوي فين بعينين غير طبيعيتين : إما أنه كان يخاف مني ، وإما كان ينوي أن يقتلني . وهناك وقف سبعة أو ثمانية رجال يتهامسون بشيء ما عني . غير أنهم ، في الوقت ذاته كانوا يخافون أن الاحظ هذا . وكل من شاهدت في الطريق ، كان يتصرف أيضاً على هذا المنوال . أحدهم كان شريراً ، عندما شاهدني أخذ يضحك بصوت عال . أصابني نوبه برد شديدة . من رأسي وحتى أخمص

قدمي كانت خلايا جسمي ترتعد وترتجف ، ساعتها فهمت أن ما كانوا قد حضروه ضدي قد انتهى .

لم أخف من أحد ، تابعت طريقي ، وعلى مقربة مني كان يسير جمهور من الصبية . كانوا هم أيضاً يتحدثون عني . نظراتهم لم تختلف عن نظرات تشوجاو ، ووجوههم سوداء كوجهه . فكرت : هل أسأت التصرف مع هؤلاء الصبية ، حتى أصبحوا يكرهونني هذا الكره الشديد ؟ لم أقدر على تحمل نظراتهم ، فصرخت بهم :

ـ ايه ، ماذا تريدون ؟ ولكنهم لم يجيبوا وهربوا .

فكرت في قرارة نفسي : هل أنا أزعجت جاري تشوجاو ، هل أسأت للناس يوماً ، ولماذا ينظرون لي في الطريق هكذا ؟ هل لأنني قمت قبل عشرين عاماً بتمزيق كتاب الدخل والمصروف لـ غوتسيزو ؟ إن السيد غوتسيزو كان فعلاً غير راضٍ عن تصرفي . ولكن تشوجاو لم يعرفه سابقاً . ربما سمع بهذه الحادثة ووقف إلى جانب غوتسيزو ؛ هذا هو بالذات الذي أقنع الناس أن يكرهونني . ولكن الصبية ، لم يكونوا قد ظهروا إلى الوجود آنذاك ؛ لماذا كانوا يحدقون في وجهي اليوم عن كثب ؟ ربما كانوا يخافونني ، وربما كانوا يريدون أن يقتلونني . كل هذا يخيفني ، يدهشني ، ويزعجني بآن واحد .

أفهم . ربما علمهم على هذا ضدي !

ـ ٣ ـ

طوال الليل لم أستطع النوم . يبدأ الإنسان بفهم أية مسألة كانت عندما يدرسها من جميع الجوانب !

هؤلاء الناس غرباء للغاية ، فقبل قليل كان الإقطاعيون يضعون النير حول رقابهم ، واغتصب حراس السلطة نساءهم وأما آباؤهم وأمهاتهم فقد ماتوا من قسوة الاضطهاد ؛ ولكن وجوههم لم تكن بهذه الغرابة كما كانت البارحة .

وأشد ما أدهشني ، تصرف تلك المرأة التي صادفتني في الشارع ؛ كانت تضرب ابنها بقسوة وتصرخ به : « سوف أريك ! إنني لن أهدأ حتى آكلك ! » . كانت تصرخ وعيناها تنظران إليّ . لم أقدر على النظر إليها ، وخفت من نظراتها المرعبة . والناس من حولي أخذوا يقهقهون بأصوات مرتفعة ، ركض نحوي تشين الخامس وأخذني إلى البيت .

سحبني إلى البيت . . . حيث كان كل من فيه يحاول أن يأخذ وضعية خاصة به ، وكأنهم جميعاً لا يعرفونني ، نظراتهم لا تنم عن حسن نية ، وهي لا تختلف عن نظرات أولئك في الشارع . . دخلت إلى الغرفة ، ومن خلفي أغلق الباب بشدة ، ثم أقفل ، كما يقفل باب قن الدجاج أو الأوز . لم أعرف ما في الأمر .

قبل عدة أيام جاء من قرية (فولتشي) نذير يخبر الناس بأنباء القحط ، حدث أخي الكبير ، أن أهالي هذه القرية قد تجمعوا وقتلوا شريراً من قريتهم ؛ وأخذوا قلبه وكبده ، وقاموا بطبخهما ثم تناولوهما سوية كي يصبحوا شجعاناً . تدخلت في الحديث عندما كان في ذروته ، ولكن النذير وأخي نظر إليّ عدة مرات ، دون أن أفهم ما يريدانه . واليوم فقط قد أدركت ، أن نظراتهما كانت كنظرات هؤلاء البشر في الشارع ..

ولمجرد التفكير بهذا ، أخذ جسمي يرتعد ويرتجف من رأسي وحتى أخمص قدمي .

يا لهؤلاء البشر ! طالما أنهم يأكلون قلب وكبد الرجل ، فهم إذن ، على استعداد لأن يأكلوني .

فكروا أيها البشر ، في صراخ المرأة على ابنها : « سآكلك ! » . ضحك البشر من ذوي الوجوه العابسة ، صراخهم الحاد ، حديث النذير مع أخي - كل هذا ليس شيئاً عابراً كلمات المرأة - السم ، ضحك البشر ، السكاكين ، الأنياب بيضاء ، حادة ، كأنياب الوحوش المفترسة ، انظروا كأنهم زُودوا بها من أجل أكل لحوم البشر .

إنني لست شريراً ، كما يبدو لي ، ولكن الأمر اختلف بعد أن مزقت دفتر مصروفات غو تسيزو ، ولم يعد أحد يصدق أنني إنسان طيب . ربما كانوا يفكرون بشيء ضدي ، ولكن ما العمل ؟ لا أستطيع أن أعرف ، زد على ذلك ، يكفي الأمر ، أن يغضب هؤلاء البشر على أحد الناس حتى يطلقون عليه لقب شرير . أذكر جيداً ، أن أخي قد قال لي ذات مرة : إن أي إنسان جيد يمنع عن عمل ما ، سوف يقاوم لتحقيق غرضه ؛ ولكن أي إنسان سيء بإمكانه أن يمتدحك عندما تتغاضى عن احتجاجه : « آه كم أنا ذكي ، وإنسان محيط ، وعلى الأقل أعرف ما يعرفه الآخرون . وفي واقع الأمر ، لا يمكنني أن أعرف أهداف البشر الحقيقية ، وخاصة عندما يجري الحديث عن البشر الذين يأكلون من لحم إخوتهم البشر .

إن الإنسان يبدأ بتفهم أية مسألة عندما يدرسها من جميع الجوانب . في القدم غالباً ما كان البشر يأكلون بعضهم : لقد درست هذا في التاريخ ، حقيقة كل شيء غير مفهوم . ومن أجل التأكد من ذلك ، فتحت كتاب التاريخ ، ولكن لم أجد التحديد الواضح لذلك الوقت ، ولكني كنت أقرأ في كل صفحة كلمات عن « الإنسانية » « العدالة » ، « الأخلاق » ، « الخير » .

لم أقدر على النوم رغم أن الليل قد أصبح في هزيعه الأخير . تابعت قراءة كتاب التاريخ ، ولكن ، فجأة أصبحت أرى بين السطور كلمات كثيرة متكررة - « أكلة لحوم البشر » .

هذه الكلمة استحوذت على عقلي ، وأخذت تسخر مني ، وتنظر إليّ بعينين وقحتين .

أنا إنسان ، وهم يريدون أن يأكلوني !

- ٤ -

حل الصباح ، حاولت الجلوس بهدوء عندما دخل تشين الخامس حمل لي سمكة مسلوقة ، عينا السمكة كانتا ممتقعتين ، قاسيتين ، وفاهها مفتوح حتى النهاية ، وهي تشبه كل الناس الذين يفكرون كيف ينهشون لحوم أبناء البشر . أكلت عدة لقمات : لحم غير طبيعي ، يصعب أن يعرفه الإنسان ، فهي ليست سمكة ، وليست لحماً بشرياً ، أصابني نوع من الغثيان .

« أيها الكهل تشين - قلت - أرجو أن تقول لأخي ، أنني أعاني من الضجر ، وأريد أن أذهب لأتنزه في الحديقة » . ولكن تشين لم يقل أي شيء وخرج . وعاد بعد قليل وقفل الباب .

لم أتحرك من مكاني ، وتابعت مراقبة هؤلاء : ماذا يريدون أن يفعلوا بي ؟ أعلم جيداً أنهم لن يطلقوا سراحي ، نعم هكذا ! جاءني أخي واقترب مني بالتدريج ، وكان معه رجل كهل ، أخذ ينظر إليّ بعينين غريبتين ، وكيلا ألاحظ هذا ، أخذ يسير ذهاباً وإياباً ويلقي نظرة بعد نظرة نحوي . كان يقوم

بذلك خلسة من تحت نظارتين سميكتين . سأل الأخ : « يبدو أنك تشعر اليوم بتحسن في صحتك ، أليس كذلك ؟ أجبت بهدوء : « نعم » . تابع الأخ :

« لقد دعوت الدكتور خي ليفحصك » . فأجبت : « كما ترغب ! » ، هذا على الرغم من أنني كنت أعتقد أن هذا الطبيب الكهل هو جزار فاحش ! أمسك بيدي ، وحاول أن يقيس نبضي ، ولكنه في واقع الأمر كان يفحص سمنتي ، إنه كان يريد أن يعرف هل لحمي دسم ، وهل سيكون طرياً على أسنانه . ولكنني لم أخف ، وعلى الرغم من أنني لم آكل لحوم البشر ، فأنا شجاع . مددت يديَّ للكهل ، جامعاً أصابع اليدين في قبضتين صارمتين ، وأخذت أراقب كيف سيبدأ بعمله ، جلس الكهل ، أغلق عينيه ، وأخذ يتفحص يدي ، ويقيس ضغطي ، ويفكر بعمق ، ثم فتح عينيه الشيطانيتين وقال : « دعه لا يفكر بأي شيء ، عليكم أن تبقوه في هدوء كامل ، وكل شيء سيكون على ما يرام » .

عليه أن يترك التفكير بأي شيء عليكم أن توفروا له الراحة ، والهدوء ! » مفهوم ؛ عليهم أن يطعموني ويسقوني حتى أصبح أكثر سمنة ، عند ذلك سيحصل كل منهم على قطعة لحم أكبر ؛ وماذا كان يعني ؛ « كل شيء سيكون على ما يرام ؟ » هؤلاء البشر يمتلكون ناصية الخداع ، هم يريدون أن يأكلوا إنساناً ، وبنفس الوقت يفكرون ، كيف لهم أن يخفوا حقيقة أمرهم ، إنهم يخافون أن يباشروا بالعمل فوراً - يريدون التمهل ! لم أستطع أن أحافظ على صمتي ، ضحكت بصوت عال . لقد كنت راضياً عن كل شيء . في ضحكي كانت ثمة شجاعة ومقاومة . وجه أخي ووجه الدكتور قد تغيرا أمام شجاعتي وإصراري . ولكن كلما كان يزداد إصراري ، كلما ازدادت رغبتهم في أكل لحمي ، أنهما قد استغربا تلك الشجاعة . خرج الكهل من الغرفة ، وابتعد قليلاً عن الباب ، وقال لأخي بصوت خافت : « تعالوا نأكله

بسرعة » . هز أخي رأسه موافقاً : « هذا يعني أنك أنت أيها الأخ من أكلة لحوم البشر ! » . كان هذا شيئاً مفاجئاً بالنسبة لي ، ولكن كل شيء ممكن أن يكون منطقيـاً ، أخي أحـد أعضـاء هذه العصـابـة التي تجهـز نفسهـا لتلتهم خلايـا جسمي ، وأسفاه : أخي أيضاً يأكل لحم البشر !

أخي ـ من أكلة لحوم البشر !

وأنا ـ شقيق آكل لحوم البشر !

سيأكلوني شخصياً ، وسأبقى أخاً لأكل لحوم البشر .

ـ ٥ ـ

خلال عدة أيـام أخـذ وضعي يتغـير عما كان عليـه ، دعنـا نفـترض أن الكهـل ليس جزاراً بشعـاً ، وهـو دكتور حقيقي ، ولكن من أكلة لحوم البشر ، حتى أن معلمهم ومـؤسس هذه العلوم الطبيـة « لي شي تشجـين » سجـل في كتـابـه ، الذي يسمى « الجذور والأعشاب » ، وبكل صراحة ، أن لحم البشر يؤكل مقلياً ، فكيف يتجرأ هذا الكهل أن يقول بعد هذا ، أنه لا يأكل لحوم البشر ؟

ولم أبرىء أخي من هذه التهمة ، وخاصة أنه كان دائماً يحاول إقناعي ، أنه من الممكن « أن يربي الإنسان الأطفال ثم يأكلهم فيما بعد » ، وكان يقرأ لي النصـوص القـديمـة التي تروج لهذه الأفكار . وما زلت أتذكر كيف تحدثنا ذات مرة عن إنسـان مجنـون ، فقال أخي : « كان من الضروري أن يقتل ، ويؤكل لحمـه ، وأن يفـترش جلده » . كنت آنـذاك صغيراً ، فأخذ قلبي يدق بسرعة من شدة الخوف . ولم يستغرب أخي حديث المبعوث من قرية فولتشي ، والذي

جاء إلى عندنا قبل عدة أيام وحدثنا كيف « أكلوا قلب وكبد المقتول » . وكان أخي يهز برأسه موافقاً ، دون أي دهشة تصيبه . فهو كما يبدو قد أصبح الآن أشد قسوة من أولئك ، وخاصة أنه أصبح يؤمن بتربية الأطفال ثم أكلهم ، وبهذا أصبح بإمكانه أن يطعم أي إنسان ثم يأكله . في السابق ، كنت أسمع أحاديثه وأؤمن بما يقوله عن العدالة ، أما الآن فلم تعد شفتاه وحدهما ملوثتين بدهن لحم البشر ، بل أصبح قلبه مملوءاً بالأفكار عن أكل لحوم البشر .

- ٦ -

ظلمة موحشة ، لا أعلم : هل هو نهار أم ليل ، تنبح الكلاب بين الفينة والأخرى من جهة بيت تشيجاو .

قسوة الليث ، جبن الأرنب ، خداع الثعلب .

- ٧ -

لقد أدركت بعض طرقهم ، فهم لا يرغبون بقتل الإنسان فوراً ، بل إنهم لا يجرؤون على ذلك ، ويخافون بعض الآثار السيئة . ولهذا متنوا من روابطهم بعضهم مع بعض ، ونصبوا الفخاخ ، ومدوا الشباك حتى أقع في هذه المصيدة . تذكروا الرجال والنساء الذين قبل عدة أيام كانوا يقفون في الشارع ، وحللوا مواقف أخي مني ، وعندها سوف تقتنعون كلياً بصحة ما أقوله . أفضل شيء بالنسبة لي أن أخلع حزامي ، وألفه على رقبتي ، وأشنق نفسي ؛ عند ذلك لن يرتكب أحد ما جريمة بحقي ، وسوف يفرحون ويضحكون عليّ لأنني نفذت رغبتهم الجامحة . ومن الأفضل أن أموت من الخوف أو من الحزن والكآبة والضجر ؛ ولكن في هذه الحالة سوف أصبح أقل

سمنـة مما أنـا عليـه الآن ، ولهـذا أتصـور أنهم متفقـون كلياً على موتي الآن ، وليس بعد فترة .

إنهم يعرفون شيئاً واحداً ، كيف يأكلون لحوم البشر ! إنني أذكر ما قرأت في كتب العلوم ، أنه يوجد وحش كاسر وقذر ، يدعي الضبع ، يا له من وسخ وحقـير ، وخـاصة ـ عيناه . فهو يأكل الأموات فقط ؛ يقضم عظام البشر بكل سهـولـة ، بعد أن ينتهي من أكل اللحم . فكروا بهذا الحيوان البشع ، الضبع الـذي يعـود إلى فصيلة الـذئاب ، أما الذئاب فهم أقرب إلى الكلاب . لليوم الثالث ينظر إليّ كلب تشيجاو ، هذا واضح ، إن هذا الكلب قد اتفق مع هذه العصـابـة . كلا ، كلا ، لن أسمـح لك أيهـا الكهل أن تخدعني ، وعليك أن تقف أمامي صامتاً منحني الرأس .

يؤسفني وضـع أخي ، فهـو إنسـان كالآخرين ، فلماذا لم يخف مثلهم ؟ وأكثـر من ذلـك ؛ فقـد انضم إلى هذه العصابة ، حتى يأكل لحم أخيه ؟ هل هذا هو إحياء لتلك العادة القديمة عندما كان بنو البشر يأكلون بعضهـم ، دون أن يعتـبر ذلـك عار وإثم . أو أنـه فقـد كل ما عنـده من ضمير كغيره من أفراد العصـابـة الذين بإمكانهم أن يرتكبوا الجريمة عن قصد مسبق ؟ إنني أدين أكلة لحوم البشـر وأمقتهم وأحتقـرهم ، وفي مقـدمتهم أخي : أريـد أن أقنعهم بأن يتركوا هذه العادة ، وسأبدأ بإقناع أخي قبل أي إنسان آخر .

ـ ٨ ـ

بالطبع ، إن هذه الاستنتاجات يجب أن تكون مفهومة بالنسبة لهم .

فجأ قدم إنسان ، شكله الخارجي يدل على أنه يبلغ من العمر العشرين

عاماً ، ليس أكثر ، لم أستطع النظر إليه كما يجب ، أخذ يبتسم ، ويهز رأسه لي ، ابتسامته كانت مصطنعة . سألته :

ـ هل مسألة أكل لحوم البشر ، هي قضية صحيحة ؟

تابع الابتسام ، ثم أجاب :

ـ الآن لا يوجد قحط ، فلماذا يأكل البشر بعضهم بعضاً .

عندها فهمت أنه من هذه العصابة ، ويحب أكل اللحم البشري ، تضاعفت شجاعتي مائة مرة ، وأخذت أسأله بإلحاح : « قل لي هل هذه مسألة صحيحة ؟ » .

ـ لماذا تسألني عن هذا ؟ هل تمازحني ؟ فعلاً . . . أن الطقس جميل اليوم للغاية .

حقاً ، كان الطقس جميلاً ، والقمر يسطع بنوره الهادىء .

ـ كلا ، أريدك أن تخبر ني : « هل هذا شيء صحيح ، وهل يجوز أكل لحم البشر ؟ » .

حاول التملص من الإجابة ، ولكنه أجاب متردداً :

ـ كـ . . .

ـ تريد القول أن هذا غير صحيح ، أليس كذلك ؟ ولكن لماذا يفعلون ذلك ؟

ـ إن هذا شيء غير معقول . . .

ـ هذا شيء لا يمكن أن يكون ؟ إنهم يأكلون لحم البشر في قرية فولتشي

على الملأ ، ودون أي خوف ، زد على ذلك أنهم يكتبون عن ذلك بكل وقاحة في الكتب .

تغير وجهه ، وأصبح أسود قاتماً كالفحم . حدق في وجهي ، ثم قال :

ـ على كل حال ، كل شيء يمكن أن يكون ، طالما كان هذا منذ غابر الأزمنة .

ـ ولنفترض أن هذا قد كان من القدم ، فهل كل ما هو قديم صحيح ؟

ـ لا أريد أن أناقشك ، ولكن من الأفضل لك أن لا تتكلم هكذا ؛ فلربما تكتشف غداً أنك على خطأ !

نهضت من مكاني بسرعة ، وفتحت عيني مندهشاً ، ولكن ذلك الإنسان قد هرب ولم يعد له أي أثر . أخذ العرق يتصبب من جسمي . فهو أصغر من أخي ، ولم أكن أعتقد قبل الآن أنه أيضاً من أعضاء هذه العصابة . بالطبع أن الذين علموه هذا هم أهله . أخاف أن يعلم ابنه فيها بعد هذا العمل ؛ إنني أدركت الآن لماذا ينظر الأطفال إليّ بتلك العيون الشريرة .

ـ ٩ ـ

إنهم يأكلون البشر، ويخافون بنفس الوقت ، أن يأكلهم أحد ما . إنهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً والشك يخامر كلاً منهم . . .

كم كان الأمر رائعاً ، وهدأت الأمور لو أن هؤلاء قد رفضوا هذه الأفكار وتنكروا لها . ثم باشروا بتنفيذ أعمالهم اليومية كما يجب ، ومارسوا هواياتهم ، وتنعموا بالراحة ، وتناولوا ما يطيب لهم من الغذاء . من أجل هذا من

الضـــروري أن يتخطــوا حاجـزاً بسيطـاً . ولكنهم نظمـوا عصـابـة ، وانتهى أمـرهـم : الآبـاء ، البنـون ، الإخـوة ، الأزواج ، الأصـدقـاء ، المعلمون ، الأعداء وكثير من الناس المجهولين يشجعون بعضهم بعضاً ، ولكنهم ، وعلى حافة خطر الموت ، لا يرغبون أن يتخطوا هذا الحاجز .

- ١٠ -

في الصبـاح البـاكـر ، ذهبت باحثـاً عن أخي : كان يقف في الساحة ، ويتمتع بجمال الطبيعة ، وقفت خلفه وخاطبته بكل احترام وهدوء :

- أيها الأخ عليّ أن أقول لك شيئاً ما .

- تكلم ، ما تريد ، أجابني بسرعة بعد أن التفت نحوي هازاً برأسه .

- عليّ أن أقــول لك بضعــة كلمات ، ولكن يصعب عليّ لفظهـا . أيها الأخ ! من الممكن أنـه في بدايـة التـاريـخ كان البشر متوحشون ، وكان البعض منهم يأكـل لحوم البشـر لأنـه الغـذاء الـوحيـد لديهم . فيـما بعد تطورت الحياة واختلفت الآراء : البعض رفض مسألـة أكـل لحوم البشـر ، وعمل على تطوير معـالم الإنسـان ، وإغنـاء حيـاتـه ، وفي نتيجـة الأمـر تحول هؤلاء إلى أنـاس حقيقيـين ، أمـا البعض الآخر فقد استمر على طبيعته المتوحشة ، يأكلون لحم البشـر . والأمـر لا يختلف كثيراً عن عالم الـديدان : فالبعض من الديدان قد تحول إلى أسـماك ، أوطيـور ، أوقرود ، وأخـيراً إلى بشر ، أما البعض الآخر فلم يطمـح إلى التطـور والتكـامـل ، ولذلك بقوا حتى يومنا هذا ديداناً . وإذا ما قارنـا الـديدان بالقرود فلم نجد تلك الفروق الشاسعة بينهم كما نجدها عند مقارنة الأناس الواعيين مع أكلة لحوم البشر .

« إيا » سلق ابنه وقدمه لـ تسيزي وتشيجاو على طعام الغداء . لأن هذه العادة كانت منذ القدم ، ومن يعلم كم عدد البشر الذين تم قتلهم وأكلهم منذ تلك اللحظة التي انفصلت فيها السماء عن الأرض ، وحتى تلك اللحظة التي أكلوا فيها ابن « إيا » ؛ ومنذ تلك الحادثة مع ابن « إيا » وحتى « سيوسي لينيا » وإلى الساعة التي تم فيها أكل إنسان في قرية « فولتشي » . ففي السنة الماضية عندما أعدموا في المدينة مجرماً ، جلس على مقربة منه رجل وأخذ يلعق من دمه ، ويلحس يده بنهم .

إنهم يريدون أن يأكلوني ، وأنت بالطبع لا تقدر على فعل أي شيء لحمايتي ، ولكن لماذا دخلت في عصابتهم ؟ عليك أن لا تنتظر الخير من رفقة أكلة لحوم البشر ! طالما أنهم قادرون على أكلي ، فإمكانهم أن يأكلوك أيضاً ، ثم يلتهمون بعضهم بعضاً . فالأمر يحتاج إلى أن يصلح كل إنسان نفسه ، وبالتالي يعم الهدوء بين الناس ؛ فليكن ، إنه كان من الصعب حتى الوقت القريب إصلاح هذا الأمر ، وليكن هناك أناس سيئون ، فهل من الصعب أن نعمل من أجل أن يصلح الإنسان نفسه ، هل تتصور أن هذا من المستحيل ؛ وعندما طلب المستأجر قبل عدة أيام أن يخفض الأجرة ، أنت رفضت هذا .

في بداية الحديث ابتسم الأخ ابتسامة خفيفة ، ولكن نظرته أصبحت أكثر حدة وقساوة ، وخاصة عندما أخذت أفضح مخططهم ، وها هو يتجهم تدريجياً حتى أصبح وجهه أسود .

خلف البوابة تقف جماعة من الناس ؛ من بينهم « تشيجاو غوي فين » مع كلبه . يتدافعون عند المدخل ، وينصتون بإصغاء مادين رقابهم إلى حافة الباب . كان من الصعب معرفة بعضهم ، كأنهم غطوا رؤوسهم بأغطية سميكة . . كانوا متجهمين للغاية ، كنت أعلم أنهم من عصابة واحدة ، وأنهم جميعاً من أكلة لحوم البشر ، الجميع يفكرون ، وكل على طريقته ؛ وهم

موافقون على متابعة أكل لحم البشر كما كان هذا في السابق ، والبعض القليل منهم يعتقـدون أنـه لا يجوز أكـل لحم البشـر ولكنهم يفعلون ذلـك عن طيب خاطـر ، لأنهم يخافـون من أن يكشف أمـرهم ، ويتعـرف أفـراد العصـابة إلى رغبتهم السـريـة ، ولـذلـك تابعـوا ضحكهم وسخـريتهم مني عنـدمـا سمعوا كلامي ، وأخذ كل منهم يقهقه على طريقته فاتحاً فمه ، ساخراً مما أقول .

ـ أخرجوا من هنا ! هل تستمتعون بالنظر إلى المجنون !

هنا علمت أحد أسرارهم ، فهم لم يرغبوا بإصلاح أنفسهم ، بل علمت من خلال تصـرفـاتهم أنهم يرغبـون بإخفائي في مكان ما لأنني مجنون . وعندما سيأكلوني سينتفي الأمر كلياً ، ولكن سيكون بعض الناس على علم بالموضوع وسيتعاطفون معي . وعن مثل هذا الحادث حدثنا المستأجر باهتمام كبير . كل شيء يسير حسب المخطط .

كان تشـين الخـامس منـدهشاً من كلامي ، وقدم نحوي راكضاً . ومهما حاول هؤلاء البشـر أن يكتمـوا صوتي فإنني أقـول لهم بصـوت جهوري : « لم يفت الـوقت ، وعليكم بإصـلاح أنفسكم ، فافعلوا هذا عن طيب خاطـر ! واعلموا أن البشر في المستقبل سوف يمقتون ويحتقرون أكلة لحوم البشر . فإذا لم تصلحوا أنفسكم فسوف يأكلكم البشر حتى آخر واحد في عصابتكم ، مهما بلغ عددهـا ، فالأنـاس الحقيقيـون ، طلبـة الحقـد ، سوف يقضون عليكم . كما يقضي الصيادون على الذئاب . كما يقضون على الديدان ! » .

طرد تشين الخامس أفراد العصابة . وخرج الأخ إلى مكان ما . وحاول تشـين الخـامس أن يعيـدني إلى الغـرفـة . بقيت في مكـاني بضعـة دقائق ، ثم دخلت إلى تلك الغـرفـة المظلمة . وما إن دخلت حتى اهتز سقف الغرفة فوق رأسي ، وتكسرت الأعمدة . . . وهبطت عليّ . . . . .

أنقـاض ثقيلة ، كنت أعجـز عن الحـركة تحتها : إنهم يريدون أن أموت بأسرع ما يمكن . أدركت أن هذه الأثقال فوق جسمي غير حقيقية ، تصبب العـرق من وجهي بغـزارة . ساء وضعي ، لكنني مصمم ـ مهما كلفني الأمر من ثمن » مصمم أن أقـول لهم : « انتقـدوا أنفسكم ، وأصلحوا أمركم عن طيب خاطر ! واعلموا أن البشر في المستقبل سوف يحاكمون أكلة لحوم البشر . . . » .

- ١١ -

الشمس لم تبـزغ ، والأبـواب لم تفتح : كانوا يطعمونني مرتين في اليوم . كنت أمسـك العيـدان لتناول الطعام ، فأتذكر أخي : إنني أعلم ، أنه وحده ـ سبب موت أختي الصغيرة ، وحتى هذا الوقت لم تذهب صورة أختي الصغيرة من خاطـري . يا له من منظـر كئيب وحـزين . كان عمـرهـا خمس سنـوات آنـذاك . كانت الأم تبكي كل يوم ، وهـو يقنعهـا أن تكف عن البكاء . ربما ، لأنـه نفسـه أكـل الأخت ، ودمـوع الأم كانت تثير في داخله شيئـاً من تأنيب الضمير . لماذا لم يصلح نفسه ما دام عنده شيء من الضمير ؟! . . .

الأخ أكل أخته ؛ لا أعلم ، هل تعرف الأم شيئاً ما عن هذا ؟

أتصـور أنهـا تعرف كل شيء ولكنها لم تقل شيئاً ، وكانت تكتفي بالبكاء الصـامت ، ربـما كانت تعتقـد أنه لا يجوز إلا هذا . إنني أذكر ، عندما كان لي من العمـر خمس سنوات ، أو أقـل ، جلست أمام بيتنا في الظل ، عندها تقدم أخي مني وقـال : « لو مرض أبي أو أمي فعلـيّ أن أقطـع اللحم من جسمي ، وأسلقه ، وأقدمه غذاءً لهما ، هكذا يجب أن يفعل الابن تجاه والديه ، وعندها فقط من الممكن أن يسمى ابناً صالحاً . لم ترفض الأم ما قاله أخي . وطالما من

الممكن أن يأكل الإنسان قطعة لحم بشرية ، بإمكانه أن يأكل إنساناً كاملاً . ويكفي لي أن أتذكر تلك الحادثة حتى ترتعد أوصالي ، وعندما أتذكر دموعها يتمزق قلبي حزناً ومرارة . أليس هذا غريباً !

- ١٢ -

لم أعد قادراً على التفكير . واليوم فقط قد فهمت ، أنني أعيش في عالم يأكل البشر فيه بعضهم بعضاً خلال أربعة آلاف سنة ؛ عندما ماتت أختي ، كان أخي مسؤولاً عن إطعام الأسرة ، فمن يعرف ، إن كان قدم لنا جسد أختنا طعاماً في إحدى الوجبات بسرية تامة .

كل شيء يجوز ، وربما عن غير معرفة أكلت عدة قطعات من لحم أختي ، والآن أتى دوري ، وحان الوقت كي يأكلوني . . .

والآن ، وبعد أن اطلعت على تاريخ أربعة آلاف سنة ، فهمت جيداً ، كم هو صعب للغاية أن يجد الإنسان أخاً إنسانياً حقيقياً .

- ١٣ -

ربما يوجد في أيامنا أطفال لم يأكلوا بشراً ؟ أنقذوا الأطفال !! . .

نيسان ١٩١٨

حول طائفة من التعابير المثلية في لهجة بكين

• م . تيبول • ترجمة : محمود المقداد

أولاً ـ تمهيد :

يعلم المرء أن لهجة بكين غنية جداً بالأمثال ، والقصص الخيالية ، وأساليب الإلقاء ، والتلاعب بالألفاظ من كل نوع ، مما يعطي اللغة ، إن استعملت فيها بمعرفة ، قوة ونكهة . ونحن نعرض في هذا المقال لطائفة من التعابير المثلية التي وإن صح أنها غير خاصة ببكين ، إلا أنها شعبية ومستعملة على نطاق واسع في الأحاديث الدارجة ، وتعرف في اللغة العلمية بمصطلح (خيبهويو)[٢] xiehouyu ، وفي اللغة الشعبية باسم (كياوييهوا)[٣] qiaopihua (وهاتان الكلمتان غير مترادفتين تماماً إلا في بكين) .

وهذه التعابير المثلية تتضاعف أحياناً بالتلاعب بالكلمات ، وتستدعي كل ما استطاع تاريخ طويل أن يتركه من تلميحات إلى حكايات خرافية أسطورية وإلى وقائع تاريخية ، وجغرافية ، واجتماعية . . إلخ . . إلى الحد الذي يكون من الصعب جداً فيه على الأغلب تفسير أصل بعض هذه التعابير .

ويمكن لهذه الدراسة أن تقدم لنا فائدة مثلثة :

أ ـ لغوية : وتتعلق هذه الفائدة في الحقيقة بالتعابير الصادرة على

الأغلب عن ميدان الـ (بوتونغهوا)[٤] Putonghua ، لأنها تستعمل كلمات ترجع بشكل خاص إلى لهجة بكين .

ب ـ اجتماعية : بكل ما تستطيع تقديمه من معارف داخلية عن عقلية الشعب ، ولا سيما أن بعض هذه التعابير له مقابل دقيق في الفرنسية ، مما يسمح بمقارنة الطريقة التي يعبر بها شعبان متباعدان جداً عن الفكرة نفسها .

جـ ـ وفي تاريخ الأدب ، نعلم أن الرواية المشهورة (هونغ لومنغ)[٥] Hong Lou Meng ، التي كتبت تحديداً باللهجة البكينية ، تستعمل على نطاق واسع (الخييهويو) . ومن بين الكتب الأخرى المعروفة جداً أو التي نجد فيها طائفة من (الخييهويو) يمكن أن نذكر الرواية الأخلاقية (جين بنغ مي)[٦] Jin Ping Mei ، والرواية الشعبية (سهوي هو زهوآن)[٧] Shui Hu Zhuan ، والرواية الساخرة (رولين وايسهي)[٨] Rulin Waishi ، ومسرح آل (يو آن) Yuan ، إلخ . . ونلاحظ أخيراً أنه يمكن استخلاص أمثلة عديدة من استعمالات (الخييهويو) عند بعض الكتاب المعاصرين الكبار (لوخون Lu Xun ، ودينغ لنغ Ding Ling ، وماو زيد ونغ Mao Zedong ، إلخ) .

ثانياً ـ تعريف كلمة (خييهويو) :

من الطريف جداً أن لا يكون هنالك ـ كما يبدو لنا ـ تعريف مرضٍ لكلمة (خييهويو) . وتبرهن التجربة في الحقيقة أن التعريفات التي يمكن للمرء أن يجدها لهذه الكلمة في الأدب لا تختلف عن تلك التي تقدمها لنا المعاجم الصينية الشائعة وأن تعريفات هذه المعاجم تختلف عملياً من معجم إلى آخر ، ولا سيما أنها لا تغطي جميع التعابير التي يصنفها المتحدث البيكيني عفوياً في نطاق (الخييهويو) . ويمكن أن نعطي لهذه الظاهرة الأسباب التالية :

أ ـ إن مفهوم (الخييهويو) تطور مع الزمن إلى حد أن المرء يرجع إلى تعابير أدبية تقريباً ، أوم حكية ، بحسب المستوى الذي تتوضع فيه أداة الأخبار التي يمتلكها هذا المرء .

ب ـ وحتى في فترة معينة فإن مفهوم (الخييهويو) يمكن أن يتغير بالمسافة . وإذا كان قد ظهر لنا أن (الخييهويو) و (الكياوييهوا) هما حالياً مترادفان تماماً في بكين ، فإن من المستبعد أن يكون ذلك كذلك في أي موضع آخر ، ويكفي أن نسأل عدداً من الصينيين ، من أصول مختلفة ، توضيح معنى هاتين الكلمتين لنقتنع بهذه النقطة .

ويتأكد المرء مع ذلك أن للمتحدث البكيني مفهوماً واضحاً جداً لما يسمى (خييهويو) أو (كياوبيهوا) ، لأننا لن نهتم هنا بغير التعابير المستمدة من اللهجة البكينية ، ويعرف دون تردد ما هومن (الخييهويو) (أوما ليس منه) ، ويمكن لبعض الناس كذلك أن يختلق منه أشياء جديدة على الرغم من عجزه عن إعطاء تعريف دقيق له في الوقت نفسه .

ولما كان لا يوجد تعريف شاف للـ (خييهويو) ، فقد أصبح من الضروري أن نستنبط تعريفاً له بمساعدة مجموعة منه ، وهنا تطرح قضية تكوين مثل هذه المجموعة .

يجد المرء أمثلة من (الخييهويو) في كتب ذات عناوين متنوعة جداً ، ولا سيما في مجموعات الـ (شينغيو)[٩] Chengyu (إن الصيغة (المقولية) للـ (خييهويو) تجعلها تظهر بمظهر التابعة لأسرة (الشينغيو) . يضاف إلى ذلك أن المرء يستطيع ، منذ عدة سنوات ، أن يجد في بكين مجموعات للـ (خييهويو) منشورة بانتظام بعنوان : (كياوبيهوا دا غوآن)[١٠] Qiaopihua da guan . ولسوء الحظ كان من المستحيل علينا أن نحصل

عليها ، وكان علينا أن نكتفي بالكتابين الأول والثاني المشار إليهما في قائمة المراجع . وبالمقابل فقد تمكنا من الإفادة من متكلمين من أصل بكيني[١١] .

- ١ -

التعريف الكلاسي لكلمة (خييهويو) :

إن التعريف الكلاسي لكلمة (خييهويو) هوما يمكن أن نجده في كتاب (سيهاي)[١٢] . (تسمى [خييهويو) كل عبارة اختتم جزؤها الأخير وبقيت غير واضحة) .

ويرى المرء القضايا التي يثيرها هذا التعريف على النحو التالي :

أ ـ بأي نوع من التعبير يتعلق هذا التعريف ؟ هل هو على صلة بعبارات أم بنصوص منطوق بها ليس لها طابع معين ؟

ب ـ كيف تنقسم إلى جزءين (أو أكثر من جزءين) ؟

جـ ـ لماذا ، ومتى ، وكيف لا يعبر فيها عن الجزء الأخير ؟

من الواضح إذن أن لدينا تعريفاً غامضاً جداً يمكن أن ينطبق بسهولة على عدد كبير من العبارات الممكنة التي لا يرى فيه المتحدث البكيني مع ذلك أي (خييهويو) .

وللإجابة عن الأسئلة التي طرحناها آنفاً ينبغي لنا قبل كل شيء أن نبدأ بدراسة عينة متنوعة جداً من (الخييهويو) . ولما كان هذا العمل قد مُهِّد له في موضع آخر[١٣] ، فإننا نكتفي هنا بعرض النتائج التي يمكن استنباطها منها :

كل (خييهويو) هو عبارة ، ونريد بالعبارة « صورة من الكلام الخاص الذي يبتعد عن الاستعمال العادي للغة »[١٤] . وتبدو هذه العبارة بصورة زوج

يتألف من عنصرين : العنصر الأول منه يمثل إطاراً جاهزاً ومعروفاً جداً ، والعنصر الثاني يستنبط منه ميزة ما لـ (كائن) أولـ (حالة) ، أولـ (شيء) .

وهذا أمر يسمح لنا أن نحدد أكثر أيضاً مفهوم (الخييهويو) ، إذ يكفي أن نلاحظ أننا نجد تعريفاً لما يسمى (تعبيراً مَثَلِيّاً)[١٥] :

(الخييهويو هو تعبير مَثَلِيّ مكون من عبارتين) .

وهكذا نعود إلى دراسة الأدوار التي يقوم بها عنصرا (الخييهويو) والرابطة التي تجمع بينهما .

- ٢ -

طبيعة الجزء الأول من (الخييهويو) :

رأينا منذ قليل أن دور الجزء الأول هو التذكير بإطار معروف . وإن مجموعات (الخييهويو) ، التي تمثل شكلاً من التعبير الشعبي عن الحالات والشخصيات المعروضة ، ترجع إلى المعارف العامة للشعب . وهكذا يمكن أن تلمّح إلى شخصيات تاريخية ، وقصص خيالية أو بكل بساطة إلى الحياة في كل أيامها ، وإلى الحيوانات ، والأشياء ، وحتى الآثار .

- ٣ -

دور الجزء الثاني من (الخييهويو) :

يستنبط الجزء الثاني من الأول عادة بطرائق مختلفة سنتكلم عليها في الفقرة / ثانياً ـ ٤ / (ويتم هذا الانتقال في الأغلب بكثير من الدعابة) ميزة

كائن ، أوحالـة ، أوشيء . ونظـريـاً لا يذكـر المـرء إلا هذا الجزء الأول تاركاً الجزء الثاني معلقاً ، ومن هنا جاءت كلمة (خييهويو) .

وفي الحقيقة لا تستعمل هذه التعابير إلا في حالة المحادثة ، ويفترض أن للمتحدث ذهناً ثاقباً ليكمل بنفسه الجزء (الناقص) ، مما يعطيه متعة مضاعفة بأن يلتقـط الفكـرة الـدقيقة لمن يذكر (الخييهويو) (وهي الفكرة التي يعبر عنها كليـة الجـزء الثـاني وحـده والذي ينبغي للمرء أن (يتنبأ به) من خلال الإشارة الـوحيـدة التي يحتـويهـا الجـزء الأول) وبأن يثبت قدرتـه على الـرد السـريع ، ويحدث ، في الوقت نفسه ، تأثيراً قوياً ، إن لم يكن قد استعمل فيه (الخييهويو) .

وعمليـاً من المعقـد جداً أن نعـرف في أي الحـالات يعطي المـرء (أو لا يعطي) النص التـام لـ (خييهـويـو) . فكـل شيء يتـوقف على حالـة المحـادثـة . ولنقل ، على وجه الإجمال ، إن كان لنا صلة بمتحدث غير بكيني الأصل فإننا نقدم له الجزء الثاني من (الخييهويو) بطريقة مألوفة .

- ٤ -

الرابطة بين جزأي (الخييهويو) :

بقي علينـا أن نرى كيف يتم الانتقـال من الجـزء الأول في (الخييهويو) إلى الثـاني ، وبعبـارة أخـرى كيف يستمـد الجـزء الثـاني من الجـزء الأول ميزة كائن ، أو حالة ، أو شيء . ويمكن أن نميز هنا ثلاث طرائق :

أ ـ الطريقة الأولى :

في الأغلبيـة العظمى من (الخييهـويـو) يجري الاستنبـاط كليـة بطريقة

منطقية ، وقلما يضبط تماماً الإطار الذي يرجع إليه العنصر الأول . وهكذا فإننا عندما نرى ، في عدد من (الخييهويو) ، منظر الفلاح الجاهل والساذج يصل من ريفه الذي ولد فيه ويدخل المدينة الامبراطورية ، يمكن أن نستنبط منه بسهولة أن هذه هي في حياته المرة الأولى التي يرى فيها كثيراً من العجائب .

(الشاهد بالخط الصيني)[١٦] :

Xiangxialaor jin huangcheng tou yi zao .

ب ـ الطريقة الثانية :

وفي طائفة أخرى من (الخييهويو) ، وهي كثيرة أيضاً ، يتم الاستنباط على مرحلتين : في الأولى يكون لدى المرء نتيجة لا قيمة لها تؤدي إليها بطريقة (طبيعية) عبارة الجزء الأول . وفي الثانية يستنبط منها المعنى الحقيقي للـ (خييهويو) بمساعدة معنى مجازي للجزء الثاني أو بإبدال حرف أو عدة حروف من هذا الجزء الثاني بالتورية .

والأغلبية العظمى (أكثر من ٩٠ ٪) من (الخييهويو) تجري بهاتين الطريقتين .

جـ ـ الطريقة الثالثة :

نحذف الكلمة الأخيرة من الشاهد (وتكون على وجه العموم معروفة تماماً ، ولكن يمكن أن تكون كذلك أدبية جداً) ، فهذه الكلمة الأخيرة تحتوي حينئذ على الجزء الثاني من (الخييهويو) .

ولنشر هنا ، أخيراً ، إلى أنه غالباً جداً ما يمكن للـ (خييهويو) الواحد نفسه أن يتم بأكثر من الطرائق الثلاث المذكورة آنفاً ، مما يفسر لنا الصعوبات التي يعاني منها المرء أحياناً في تفسير طائفة من (الخييهويو) لا يُعرف منها غير

الجزء الأول ، والصعوبات التي تعود كذلك إلى تنوع الاستعمال لدى المثقف (لئلا نذكر إلا مثلاً واحداً : هناك عدد من (الخييهويو) في رواية « أزهار دراق في إناء من الذهب » ، ونعلم أنها مكتوبة بلهجة سهاندونغ Shandong ، تبقى للتوضيح) .

- ٥ -

تعريف مقترح :

ويمكننا ونحن نستجمع جميع العناصر التي وضحناها آنفاً أن نقترح التعريف التالي :

يسمى (خييهويو) التعبير المثلي الذي يملك المزايا التالية :

١) ألا يُستعمل إلا في حالة الحوار .
٢) أن يتكون من زوج من العبارات تكون الأولى منهما وحدها واضحة .
٣) أن يكون الجزء الثاني أو لا يكون وارداً بحسب حالة الحوار الذي يوجد فيه .
٤) أن يُستنبط هذا الجزء الثاني من الأول بطرق شتى وأن يشتمل على الخبر الذي يراد نقله ، ويكون في أغلب الأحيان بقالب هزلي .

ثالثاً ـ أمثلة من (الخييهويو) :

وسنوضح التعريف السابق بمساعدة بعض النماذج الشائعة جداً من (الخييهويو) . وسنبين أولاً الإطار الذي يرجع إليه كل واحد منها . ثم نعطي كيفية النطق به مع ترجمته الحرفية ، ونوضح الظروف التي يستعمل فيها ، مما

يسمح لنا في كل مرة بتقديم تعبير فرنسي معادل له(١٧) . وأخيراً نعطي منها نموذجاً حياً مستعملاً في سياق الكلام .

وهذه النماذج من (الخييهويو) كالأمثلة التي تصحبها مقتبسة جميعاً من الكتابين الأول والثاني في قائمة المراجع .

- ١ -

(الهييهويو) المستعمل في تمييز (كائن) ما :

أ ـ إن الفضائل الثماني التقليدية عند الصينيين تحصى غالباً بحسب الترتيب التالي :

Xiaò ti zhong xin li yi lianׂ chi .

(الحنان الأبوي ، والحب الأخوي واحترام الكبار ، والأمانة ، والصدق ، والأدب ، والإنصاف ، والاستقامة ، والحياء)(١٨) .

فإذا أراد المرء أن يوحي بأن أحدهم يتصرف دون حياء ، فإنه يقول عنه أنه يمتلك الخصال السبع الأولى من القائمة ، وهي :

(الحنان الأبوي ، والحب الأخوي واحترام الكبار ، والأمانة ، والصدق ، والأدب ، والإنصاف ، والاستقامة) .

والمخاطب الذي تكون هذه القائمة الكاملة مرتسمة دائماً في ذهنه سوف يصيح : Wu ćhi .

(إنه يفتقر إلى الحياء) .

وهذا يعني بالفرنسية تقريباً قولنا[١٩] :

. L'individu dont on parle a une conduite eĥonteé.

ومثاله في الحوار :

A - ta suo zuo de shi jianzhide shi « xiaò ti zhong xin li yi liań »

B - Wu chi

المتحدث الأول : جميع أفعال فلان موسومة بختم أعظم الفضائل : (الحنان الأبوي ، والحب الأخوي واحترام الكبار ، والأمانة ، والصدق ، والأدب ، والإنصاف ، والاستقامة) .

الثاني : لا ينقصه إلا الحياء .

هذه هي الصورة المهذبة للـ (خييهويو) ، ونجد أيضاً الرواية التالية للجزء الثاني : Wàng ba .

(وانغ ٢٠ با)

(ونسي الفضيلة الثامنة ـ من القائمة)

ولهذه الرواية تورية هي : Wáng ba .

(ونغ ٢١ با)

(زوج مخدوع ، قوّاد)

إن الحوار المذكور آنفاً والذي أبدلنا فيه (وانغ با) بـ (ووشي) يمكن أن يستعمل كذلك للإيحاء بأن هذا الشخص المراد هو (زوج مخدوع) أو ـ في حالة خاصة ـ (قواد قذر) .

ولاستجماع المعاني المختلفة الممكنة لهذا (الخييهويو) يمكننا أن نحاول الإيحاء بترجمة من النهج نفسه[٢٢] :

Manque d'une vertu, meṙe de tous les maux .

وبهاتين الصورتين يستعمل (الخييهويو) مركباً من الطريقتين الثانية والثالثة .

ب ـ نعلم كم كان صراع الجداجد[٢٣] شعبياً في الصين . وكانت هذه التسلية تتطلب بكل جلاء أن يتزود المرء بالجداجد ، وهذا ما يشير إليه بشكل مضحك (الخييهويو) التالي الذي يستعمل لوصف حال الناس الذين يبقون في الانتظار دون قدرة على فعل شيء ما[٢٤] .

(أعميان يحاولان الإمساك بجُدْجُدْ ، أنت تسمع وأنا أسمع أيضاً) .

من الواضح جداً ، في الواقع ، أن هذين الأعميين اللذين يحاولان التقاط الجداجد لا يستطيعان إلا إرهاف السمع وهما عاجزان عن الإمساك بأي جدجد منها . ويمكن أن نؤدي بالفرنسية الفكرة نفسها (ولكن دون هذه الصورة الرائعة جداً للأعميين اللذين يحاولان تلمُّساً أن يمسكا ببعض الجداجد التي يبغيانها) بالقول[٢٥] :

Indećis pour commencer , tardif pour agir .

(متحيرّ في البدء ، متباطىء في التنفيذ) .

مثال من الاستعمال :

المتحدث الأول : إذا عهدت إليهما بأمر عاجل جداً فإنهما يظلان كأعميين يودان الإمساك بجدجد . إنه لارتباك جميل .

الثاني : متحيرّ في البدء ، متباطىء في التنفيذ . فما النتيجة المأمولة في هذه الحالة ؟

وقد استعمل هذا (الخييهويو) بكل بساطة الطريقة الثانية المذكورة في الفقرة / ثانياً ـ ٤ / .

٢

(الخييهويو) المستعمل في تمييز (حالة) ما :

أ ـ في حوالي سنة ١٥٧٠ ظهرت رواية (خي يوجي) Xi youji للكاتب (ووشنـغ اين) Wu cheng'en ، وهي تحكي قصـة القـرد (سون ووكونغ) Sun Wukong ورحـلاتـه في صحبـة الراهب (خوان زانغ) Xuan Zang ، والذي ساعده في العودة إلى بلاد الهند ليحصل فيها على (سوترات[٢٦] المركبة العظيمـة) Les Soutras du Grand Vehicule ، وكـان يسـاعـده ـ ضمن آخـرين ـ شخص شرس يمثـل الغرائز الحيوانية في الطبيعة البشرية ، ولذا فقد صُوِّر برأس خنـزيـر وبـاسم (زهـو بـاجيه) Zhu Bajie . إن مغامراتهما ، التي تروى في روايـة (خي يوجي) ، وطـرقت مراراً في مسـرحيـات عديـدة وفي حكـايـات شعبية ، إن هذه المغامرات مألوفة جداً لدى كل صيني ، وكثيرة هي الأمثال التي يضربها (سون ووكونغ) أو (زهو باجيه) ، وهي ذات صلة بوقائع حجهما أو بسمات طبعهما (ومن وجهة النظر هذه من المهم أن نجري مقارنة بين الأمثـال التي ذكـرتها رواية (خي يوجي) والأمثال التي ترد في مغامرات الثعلب في روايتنا الفرنسية (رواية الثعلب) Roman du Renard .

وسنكتفي هنـا بإعطـاء (خييهـويو) واحد يشير إلى الواقعة التي يرفض فيهـا (زهـو باجيـه) ، الذي كان يكره (سون ووكونغ) حسداً له ، أن يطيعه (وهو يبحث بكل الوسائل عن الإساءة إليه في ذهن سيدهما الراهب) :

Zhu Bajie bai shour, bu ci hour (hour) .

(زهو باجيه كف يده رافضاً خدمة سون القرد) .

ولدينا في الفرنسية تعبير يقابل جيداً فكرة رفض ما يطلبه منك أحدهم ، وهو[٢٧] :

. A Bon demandeur , bon refuseur

ولكن ليس لدينا هنا صورة مثيرة جداً كما في الصينية .

ومثاله من الاستعمال :

المتحدث الأول : اليوم وأنت عائد من المدينة أحضر لي ليبرة[٢٨] من الكستناء .

الثاني : تطلب مني أن أخدمك . . متأسف ، لكل طالب طيب رافض طيب .

إن هذا (الخييهويو) يقوم على أساس التورية بين (hóur) و (hòur) والأولى تشير إلى (زهوباجيه) ، إذ يفكر المرء مباشرة بربطه بالقرد (سون هور) حيث يصبح التعبير : Bu ci hour .

ملحوظاً في الحال كالتالي :

bú ci hour

على الرغم من الاختلاف في النغمة (ولا يفهم هذا التطابق جيداً إلا في إطار « الخييهويو ») .

ب ـ حين يترك المرء أسرته ليصبح راهباً بوذياً يحلق شعر رأسه علامة على عزوفه عن الطيبات الدنيوية . وإذا أراد أصلع أن يدخل في الدين فليس هناك حاجة إلى حلق رأسه . ويمكنه بسهولة ـ دون أن يدخل لهذا وحده في الدين ـ أن يصبح راهباً ، إذ يكفيه أن يرتدي ثياب الرهبنة ، ولكن ينبغي ألا نرى ذلك بهذا المنظار السهل ، فالواقع أنه بينما يحلق الرهبان شعورهم ، فإن الصلعان تحرق جلدة رؤوسهم بمياسم تترك عليها آثاراً دقيقة لا تزول . وإلى هذا يشير (الخييهويو) التالي :

Tuzi dang heśhang, Jiangjiu shir

(راح أصلع ليصبح راهباً بوذياً ، وهو كذلك تقريباً) .

لنلاحظ أننا نجد أحياناً الرواية التالية للجزء الثاني :

Jiangjiu cailiaor

وهذا هو بالضبط ما نعبر عنه في الفرنسية بقولنا[٢٩] :

Faute de grives on mange des merles

مثال من الاستعمال :

المتحدث الأول : سمعتهم يقولون أنك وجدت عملاً ملائماً .

الثاني : أتعتقد ، لكن بذنب طيور السماني . . .

الأول : . . . تؤكل الشحارير ، إذن هو غير سهل البتة .

وهذا (الخيهويو) يتعلق بالطريقة الأولى من الفقرة / ثانياً ـ ٤ / .

جـ ـ هنالك عدد من (الخييهويو) تظهر الأصلع كما رأيناه في المثال المذكور آنفاً . ولنعط لذلك مثالاً آخر يتميز بوجود مقابل دقيق له في الفرنسية ، وهو :

(قملة على رأس أصلع . . أمر ظاهر للعيان) .

وهو يستعمل في الحالة التي يكون فيها صعباً إخفاء شيء أو ستره .

ونجد الفكرة نفسها في الفرنسية حين نقول[٣٠] :

C'est comme le nez au milieu du visage, ça crève les yeux

مثال من الاستعمال :

المتحدث الأول : كل الناس على علم تام بهذا الأمر ، فكيف يمكن إخفاؤه ؟ إنه قملة على رأس أصلع[٣١] [٣٢] . .

الثاني : إذن هو ظاهر للعيان .

وقد ستعمل هذا (الخيبهويو) الطريقة الثانية .

- ٣ -

(الخيبهويو) المستعمل في تمييز (شيء) ما :

أ ـ قطط بكين عموماً من عروق مختلفة جداً ، ووبرها أحياناً يكون مبرقعاً (هوار) Huar ، ولذا يستعمل تعبير (هوارهوار) huarhuar لمناداتها ، في حين أننا نحن الفرنسيين نقول في مناداتها (مينيه ، مينيه) minet, minet . ومن جهة أخرى تستعمل كلمة (هوار هوارده) huarhuarde للدلالة أيضاً على كل ما هو متعدد الألوان في ظاهره أو ربما على الأنسجة المشجرة . ومن هنا جاء (الخيبهويو) القائل :

Lao taitai jiao mao, huarhuarde.

(السيدة العجوز تنادي قطتها ، يا لجمال الأنسجة المشجرة) .

وهذا ما يمكن ترجمته إلى الفرنسية بالقول[٣٣] :

C'est la mère Michel qui appelle son chat, quel concert de ramages.

مثال من الاستعمال :

المتحدث الأول : نسيجك جميل جداً ، إنه يذكرني حقيقة بالعجوز التي تنادي قطتها[٣٤] .

الثاني : ألا تجد مع ذلك أن هذا الانسجام في الأنسجة المشجرة غير مألوف إلا قليلاً ؟

وقد استعمل هذا (الخيبهويو) الطريقة الثانية .

ب ـ ولنر أخيراً ، مثالاً من (الخييهويو) المستعمل في امتداح شيء ما ، ولا سيما إذا كان فعالاً :

Shaǹg xieb́ u shi zhuizi, zhen (zhen) hao

(دَرَزَ النعلَ دون استعمال المِخْرز ، هذا جيد حقاً) .

إن القول أن المرء ليس في حاجة سلفاً إلى ثقب جلد النعل بالمخرز يعني أن المِسَلَّة المستعملة في خياطة النعل من الجزء الأعلى للحذاء ممتازة حقاً . فالكلمتان (مِسَلَّة) zhén و (حقّاً) zhén أدخلتا في التعبير تورية هي (المسلة جيدة) التي تطن في الأذن (هذا جيد حقّاً) ، وهذا ما يراد قوله بالفعل حين يستعمل هذا (الخييهويو) . ويمكن أن نؤدي هذه الفكرة بالقول[٣٥] :

A - bon ouvrier, belle ouvrage

مثال من الاستعمال :

المتحدث الأول : كيف تجد ما اشتريت ؟

الثاني : أجده خارجاً من يد صَنَع[٣٦] ، إنه صناعة متقنة .

رابعاً ـ (الخييهويو) الصيني و (الخييهويو) الفرنسي :

رأينا آنفاً أننا توصلنا في بعض الأحيان إلى العثور على مثل مقابل يؤدي في الفرنسية بدقة كبيرة الفكرة التي يعبر عنها (الخييهويو) الصيني . ورأينا كذلك في الفقرتين (ثالثاً ـ ٢ / ب) ثالثاً ـ ٢ / جـ) مثالين من (الخييهويو) الصيني الذي له مقابل دقيق في الفرنسية (ويمكن أن نجد أيضاً بسهولة بعض المقابلات الأخرى في الإنكليزية على سبيل المثال) ، وهي مقابلات تمتلك (تقريباً) جميع خصائص تعريف (الخييهويو) الصيني .

لنأخذ مثلاً تعبير (بذنب طيور السماني تؤكل الشحارير) ، إن هذا

التعبير معروف لدى الجميع . ويستعمل بكثرة في المحادثة وهوينقسم بالطبع إلى جزءين ويكفي في أي حوار سريع أن يقول المرء : (بذنب طيور السماني . . .) ليتأكد من أن المخاطب يتابع قائلاً : (. . : تؤكل الشحارير) .

وهذا التحليل يمكن تطبيقه على عدد كبير من العبارات الفرنسية[٣٧] . ومن الواضح ، من نحو آخر ، أن المرء يستطيع ، عند المحادثة ، أن يستعملها كما يستعمل الصيني (الخييهويو) ، أي للتعبير عن فكرة بمساعدة الجزء الثاني الذي يترك عادة معلقاً . . وهكذا فإنه لإفهام فتى من الفتيان مثلاً أنه لا يمتلك غير قدرة ضئيلة على أن يضمن سلفاً ، وبوسائل مشكوك فيها ، النصر أو الفوز في أي منافسة ، يكفي أن يقال له في الموعد المضروب[٣٨] : « tu sais, à vaincre sans péril .. » حتى يفهم بالتأكيد فوراً التتمة القائلة[٣٩] : « .. on triomphe sans gloire .. » .

وسنرى في الفقرة التالية مثالاً من (الخييهويو) الأدبي كلية والذي يستعمل الطريقة الثالثة . وهناك أيضاً يمكن أن نجد مماثلات في لغة الطبقة المثقفة . وهكذا فإن رجلاً أديباً مثلاً يمكنه ، للدلالة على الارتياح الذي يشعر به لكونه خلياً من التبعات التي يتعرض لها آخرون ، أن يقول : « Sauve mari mangno... » ويكون هو نفسه في الغالب عاجزاً عن تقديم الشاهد كاملاً[٤٠] .

ومع ذلك فهنالك فارقان مهمان :

١ ـ في الصينية لدى المرء طريقة مألوفة جداً وشعبية جداً يعيها الناس وعياً نقياً جداً . وفي الفرنسية تعد هذه الطريقة من استعمال العبارات المثلية نادرة جداً ، وهي بشكل مطلق غير منهجية (ما عدا بعض المشاهد المسرحية

الفكاهية الحوارية القصيرة Sketches) .

٢ ـ في الصينيـة ، وهنـا أيضـاً كل شيء منهجي ، الجـزء الأول من (الخييهـويـو) استعارة من الجزء الثاني ، واستعارة رائعة جداً في الغالب . وفي الفـرنسيـة روعة مماثلة في التشبيه ، ويكفي أن نرى كيف يعبر كل من الفرنسي والصيني عن الفكـرة نفسهـا في الفقـرتـين (ثالثـاً ـ ١ / ب) (ثالثاً ـ ٢ / أ) للاقتناع بذلك .

خامساً ـ (الخييهويو) في التراث الأدبي :

نحن لم نهتم هنا من حيث المبدأ بغير (الخييهويو) في لهجة بكين . يجب الإشارة إلى أن المثقفين قد استعملوا في وقت مبكر جداً هذه الطريقة من التعبير عن الذات ، وأن هذا الشكل الخاص من التسلية الأدبية اعتني به في كل العصور .

وهكـذا مثـلاً استعملت الكلمتـان (يي جوى) éYi ju أحيـاناً للدلالة بطـريقـة نادرة جداً على أحفـاد الرجل . وهما في الحقيقة الكلمتان الأوليان من بيت شعر في (كتاب الأناشيد) Livre des odes ، ونصه :

. Yi jue śun moú (Shi Jing - Da Ya - wen wang you sheng)

(نَقَلَ[٤١] مؤسساته إلى ذرّيته)[٤٢] .

حيث يعني فيه تعبير (يِيْ جوى) كلمة (سون) sûn أي : حفيد .

وهـذا هو بالتأكيـد المثـال نفسـه لمفهـوم(الخييهـويـو) (وهـو ترك الجزء الأخير ، من عبارة معروفة جيداً ، معلقاً) . وهكذا يمكن أن نتصور أن هذه الطـريقـة من التعبـير عن الـذات تتطـابق تطـابقاً تاماً على وجه الخصوص مع الفكـاهـة الشعبيـة الصينيـة ، وقـد حاولنـا أن نبسـط الطريقة (مع الاحتفاظ

بالاسم نفسه)[43] ، مما ولَّد جميع أشكال (الخييهويو) الذي أمكن حفظه إلى الآن .

سادساً ـ الدراسات الحالية حول (الخييهويو) :

إن القسم الأعظم من أدب (الخييهـويـو) (لئـلا نقـول كله) يتركز في اللغة الصينية واللغة اليابانية .

ولا نذكر هنا أدبه في اللغة اليابانية إلا للذكرى .

ويمكن للمـرء أن يقسم الأدب الصيني الخـاص بالـ (الخييهـويو) إلى قسـمين : الأول مجموعات مختارة من (الخييهويو) . والثاني دراسات نظرية . وقد ذكرنا في قائمة المراجع كتابين من هذه المجموعات[44] . وفيما يتعلق بالقسم الثاني نجد كتاباً مناسباً هو كتاب (هانيو جيانغي [شوغاو]) Hanyu jiangyi [chu gao] [45] (قبل الشروع في دراسة اللغة الصينية) ، الطبعة الأولى ، بكين ، ١٩٥٨ ، من الصفحة ١٨٠ إلى الصفحة ١٨٣ .

ولنر كيف عُرِض في هذه الصفحات مفهوم (الخييهويو) وكيف دُرِس ، مما يعطينـا فكـرة عما يمكن أن نجـده في المنشورات الصينية الأخرى التي تعالج هذه المسألة .

يعـرف (الخييهويو) بالطريقة التالية : « إن اللغة المحكية تمتلك طريقة ماهـرة للغـايـة للتعبـير عن الذات بشكل مناسب ، وتعرف هذه الطريقة عادة باسم (خييهـويـو) . وأغلبيـة (الخييهـويو) تتألف من جزءين : الجزء الأول تشبيـه ، والثـاني تفسير لهذا التشبيه . وفي العادة حين يتكلم شخص ما يمكن ألا ينطق بغـير التشبيـه الـذي يؤلف الجزء الأول من (الخييهـويـو) ، تاركـاً للسـامـع الاهتـمام بإدراك الجزء المفسِّر المتروك معلقاً وتوقعه . ومن هنا جاءت

كلمة (خييهويو)[٤٦] . ويمكن أحياناً أن يعطى (الخييهويو) تاماً .

وإذن فإن (الخييهويو) هو قبل كل شيء طريقة للتعبير الحاذق عن الذات . وقد ذكر المؤلفون أن أغلبية (الخييهويو) تتكون من جزءين ، وهذا يتضمن أن في أذهان هؤلاء المؤلفين (خييهويو) من النوع الذي درسناه آنفاً في الفقرة (ثالثاً - ١ / أ) (وفعلاً لم يقدموا أي مثال من هذا الطراز في الفقرة المخصصة لدراسة (الخييهويو) ، ولكن حتى في هذه الحالة نفضل أن نعدّ له جزءين . وفي المثال المذكور آنفاً يقوم الـ (ووشي) Wu chi (أو الـ (وانغ با) Wàng ba) في استعمال (الخييهويو) بدور مختلف جداً عن جملة الفضائل الصينية السبع الأساسية التي تؤلف الجزء الأول وكذلك الأمر بالنسبة لجميع (الخييهويو) من هذا الطراز .

ثم يأتي تصنيف (الخييهويو) : (يوجد كثير من التصنيفات لهذا (الخييهويو) بعدد الناس الذين درسوها . فهنالك من يقسمها إلى صنفين بحسب ما يكون الجزء الثاني موضحاً أو غير موضح ، وآخرون يقسمونها إلى عدة أصناف بحسب طبيعة التشبيه المقدم في الجزء الأول (تشبيه بعمل ، أو بحدث ، إلخ . .) ونقدر نحن أنه يمكن تقسيمها إجمالاً إلى صنفين كبيرين ، بحسب استعمالها التشبيه أو التلاعب بالألفاظ ، والصنف الأخير أقل أهمية نسبياً من وجهة النظر العددية . وسنرى في الفقرة التالية ما يجب أن نعتقد في هذا النوع من التصنيف .

وأخيراً عالج المؤلفون طريقة استعمال (الخييهويو) في الأدب . وبعد أن لاحظوا أن (الخييهويو) المستعمل بطريقة ذكية يمكن أن يعطي للتعبير عن فكرة ما (نكهة واسعة جداً) ، ويمكن بالتالي أن يقدم (فائدة أكيدة) ، أشاروا إلى الصعوبات التي يقدمها استعماله : « فلا ينبغي للمرء أن يستعمله إلا عند الضرورة : لأن إدخاله بكل قوة من أجل إثبات الغنى في المفردات قد

يُخشى منه أن ينفِّر القارىء » . ومن نحو آخر ، فإن كثيراً من (الخييهويو) يتجنبها المرء لأنها تمثل أثراً قوياً من آثار الإقطاع أو الخرافة » ، وفي الوقت نفسه يجب أن يحترس المرء من استعمال (الخييهويو) الذي يكون (مبتذلاً أو بلهجة إقليمية » ، وبدلاً من حفظها يجب استبعادها مطلقاً » .

وبعبارة أخرى ، لا يجب استعمال (الخييهويو) المبتذل جداً ولا الذي يذكِّر بالمجتمع الصيني القديم .

وهذا صدى لجدل أدبي كان الكاتب الكبير (ماو دون) Máo Dùn قد أثاره في خطابه الذي ألقاه يوم ٢٥ ايلول سنة ١٩٥٣ أمام المؤتمر الثاني للكتّاب الصينيين : فال (الخييهويو) بالنسبة له إنما هو « تلاعب بالألفاظ (يويان يوخي) Yuuań yoúxi يجب ألا يُرى مع الأدب ، ويجب ألا يُستعمل بغير روية كافية ويجب هجر ما يخدش الذوق (للحفاظ على نقاء اللغة) . ويعد خادشاً للذوق كل (خييهويو) مبتذل أو مشير إلى تقاليد المجتمع القديم وأعرافه .

وبعد هذا الخطاب أخذ عدد من الكتاب بأفكار (ماو دون) . وإذا كنا على وجه العموم لا نتفق مع الرأي القائل بأن (الخييهويو) تلاعب بالألفاظ يجب ألا يرى مع الأدب فإننا نوافق على أنه يجب ألا يستعل بغير روية (مع فروق معينة لدى كل كاتب) . ثم بعد استشهاد الرئيس (ماو) و (لوخون) Lù Xùn بأمثلة من استعمال (الخييهويو) ، استخلص الناس أنه لا شيء يمنع من استعماله (ضمن حدود معينة) في الأدب .

وهذه النتيجة الأخيرة ليست مدهشة . لأن (الخييهويو) ، في الواقع ، جزء متمم للكلام اليومي . والكاتب الذي يلتزم عدم استعماله في رواية ما زاعماً وصفه الحياة اليومية للمجتمع الصيني الحالي ، ينتزع بذلك جزءاً كبيراً من المصداقية في الحوار بل وفي الوصف ، لأنه ما من شيء أكثر ملاءمة للنفسية

Psychologie الصينية من هذا الشكل من أشكال التعبير .

فيجب إذن ألا نندهش من العثور على عدد كبير من (الخييهويو) في واحدة من الروايات الأخيرة المنشورة في بكين بعنوان (يان يانغ تيان Yan Yang Tian ، أي : النهار المشمس ، للكاتب (هاوران) Hao Ran ، وقد ظهرت المجلدات الثلاثة الأولى منها بين سنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٦٦ .

سابعاً ـ النتائج وبعض القضايا المفتوحة :

حاولنا فيما مر بنا أن نعطي تعريفاً مرضياً لكلمة (خييهويو) وقد وضحنا هذا التعريف ببعض الأمثلة . وقد نضيف للدرس أيضاً قضايا نظرية عديدة تتعلق بها ، لنذكر منها طرفاً نقترح دراسته فيما يلي :

أ ـ هل يمكن تحديد العلاقات الموجودة بين الكلمتين (خييهويو) و (كياوبيهوا) ؟

ب ـ ما التعريفات الدقيقة التي يمكن إعطاؤها للكلمات التالية : (شينغيو) Chengyu ، و (سويو) Suyu ، و (يانيو) Yanyu ، و (غيان) geyan ؟ وما العلاقات التي توجد بينها وبين الكلمتين (خييهويو) و (كياوبيهوا) ؟

جـ ـ كيف يصنف (الخييهويو) ؟ نجد في أدب اللغة الصينية (ورأينا من ذلك مثالاً في الفقرة (سادساً) عدة تصنيفات قائمة على أساس الطريقة المستعملة في تكوين (الخييهويو) (كالتشبيه ، والتلاعب بالألفاظ ، إلخ) . ولسوء الحظ يمكن للـ (خييهويو) نفسه ، وفي وقت واحد ، أن يستعمل عدة طرق مختلفة ، مما يقلل كثيراً فائدة هذا النوع من التصنيف . فيجب إذن العثور على منهج مختلف .

د ـ تقـدم طائفـة كثيرة من (الخييهويو) ، للجزء الثاني نفسه ، روايات أسلوبية مختلفة للجزء الأول ، وهي روايات من المهم تجميعها من أجل مقارنتها .

ه ـ لَمحنـا ، في الفقـرة (ثانيـاً ـ ٤ /) إلى القضـايا المطروحة من بعض (الخييهـويـو) الـذي يمكن أن نجـده في روايـة (جين بنغ ميّ) . ولحل هذا النـوع من القضـايـا ، ينبغي كذلك دراسة (الخييهويو) في غير لهجة بكين من اللهجات الأخرى التي تنتمي إلى المجال اللغوي الواسع للمثقف الصيني .

م . تيبول

M. Teboul

المراجع

1 - Qi Tiehen - Beiping de qiaopihua

أي : (النكات في اللهجة البكينية) ، وهو مجموعة من (الكياوبيهوا) البكيني (وبـالتـالي من [الخييهـويـو]) مفسرة ومبينة بأمثلة كانت تظهر شهرياً (بواقـع بعض الأمثلة في كل مرة) في مجلة (زهـونغ غوويووين) Zhongguo Yuwen (التي لم نستطع أن نحصل منها إلا على بعض الأعداد) التي تنشرها جامعـة (تاي باي) Tai bei ، وأنشئت من أجـل الطلاب الصينيين الشباب الراغبين في التعود على لهجة بكين ، وهذه أفضل مجموعة تمكنا من العثور عليها في الصينية .

2 - Chén Zishi - Beiping xiehouyu cidian

أي : معجم (الخييهـويـو) البكيني ، تايوان ، ١٩٦٩ ، وقد شرح فيه أكثر من ألف (مثال) .

3 - Arthur H. Smith , Proverbs and common sayings from the Chinese

أي : أمثـال وقصص خيـاليـة عاميـة باللغة الصينية . أعادت نشره دار DOVER Publication سنـة ١٩٦٥ . وفـيـه سبـع صفـحـات عن (الخييهـويـو) . وخـارج نطاق هذه الصفحات السبع يستشهد المؤلف بأمثلة عديدة من (الخييهويو) .

4 - M. Teboul, Memoire de maitrise de chinois.

أي : بحث لدرجـة الأستـاذيـة في اللغـة الصينيـة ، جامعـة باريس السابعة ، ١٩٧٤ .

ذيـــل

كان هذا المقال قد أنشىء وقدم للطبع حين لفت انتباهي الأستاذ ج . دو فرانـسيس J. de Francis ، خلال حديث دار بيننـا ، إلى مقـال مهم جداً للباحث ج . ل . كرول J. L. Kroll ، نشر في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية Journal of the American (مج ٨٦ ، سنـة ١٩٦٦ ، ص ٢٦٦ - ٢٧٦) بعنـوان : (محاولـة لتصنيف الأمثـال البكينيـة العـاميـة [الخييهـويو) ووصف بنيتهـا ، A tentative classification and description of the structure of Peking common sayings وأفضل هنا تقديم لمحة موجزة عن هذا المقال مع الإشـارة إلى الطـريقـة التي ترتبـط فيها النتائج التي وصلت إليها مع النتائج التي وصل إليها كرول .

يبـدأ ج . ل . كرول يطـرح قضيـة وجـود (الخييهـويو) ولكن دون أن يعمد إلى تعريفه إلا ببعض الأمثلة القليلة . ثم يعطي تصنيفاً للـ (خييهويو)

قائماً على ملاحظة أن الجزء الثاني من (الخييهويو) يُستعمل في الوقت نفسه في قرينتين مختلفتين ، القرينة الأولى هي بكل بساطة تلك المقدمة في الجزء الأول من (الخييهويو) . وفي كل من هاتين القرينتين يأخذ الجزء الثاني معنى محدداً ، ليس هو نفسه بالضرورة ، حيث يصل إلى تمييز صنفين كبيرين من (الخييهويو) بحسب ما يكون للجزء الثاني المعنى نفسه (ببعض الفروق القريبة) في القرينتين ، أو معان مختلفة . وفي النهاية يدرس الباحث الدور الخاص لكل من جزءي (الخييهويو) (الدور الذي يكون لهما بالنسبة إلى قرينة استعمال [الخييهويو]) والدور الذي يقوم به كل منهما بالنسبة للآخر .

ومن السهل التأكد من أن (الخييهويو) الذي يستعمل الطريقة الأولى المذكورة في الفقرة (ثانياً ـ ٤ /) فيما سبق ، ينتمي إلى الصنف الأول الذي أوضحه كرول ، وذاك الذي يستعمل الطريقة الثانية ينتمي إلى الصنف الثاني . وفيما يتعلق بالـ(خييهويو) الذي يستعمل الطريقة الثالثة (التي يشير إليها كرول مرتين دون أن يعطي لها أي مثال) يبدو أنه ، بحسب البيانات التي قدمها ، ينتمي إلى الصنف الثاني (ولكن بإعطائه أهمية لهذه الطائفة من (الخييهويو) على أنها (جوهر) مفهوم (الخييهويو) ، يمكن للمرء أن يعد هذا الصنف مكوِّناً لصنف متفرع من الصنف الثاني) .

ويمكن للمرء أن يرى بالتبادل أن كل (خييهويو) منتمٍ إلى الصنف الأول عند كرول يستعمل الطريقة الأولى ، وكل (خييهويو) ينتمي إلى الصنف الثاني يستعمِل الطريقة الثانية . وبعبارة أخرى يوجد تطابق بين صنوف كرول وتقسيم مجمل (الخييهويو) إلى صنفين بالطريقتين الأولى والثانية (هنالك تحليل أكثر دقة من هذا عرضناه في صلب هذا المقال ، يسمح بأن نرى أن الطريقة الثالثة يمكن أن ترجع إلى إحدى الطريقتين الأخريين ، وأنا أفترض من جانب آخر ، دون إثبات ذلك بعد ، أنها ترجع في الواقع إلى

الطريقة الثانية كما أشرت آنفاً) .

إن هذا التطابق ليس وليد المصادفة ، لأنني ، في الحقيقة ، جهدت ، في الفقـرة (ثانيـاً ـ ٤ /) أن أبـينَّ بأي الطـرق ينتقـل المرء من الجـزء الأول للـ (الخييهـويـو) إلى المعنى المعبـرَّ عنـه ، في حالـة الحـوار ، بالجـزء الثاني . وبمـلاحظـة أن (الخييهـويـو) يظهر بصورة (علاقة تضمينية) فقد سعيت في مرحلة متوسطـة لتـوضيـح هذه العـلاقـة ، يعني ، من أجل استرجاع كلمات التحليل عند كرول ، معرفة ماذا كان معنى الجزء الثاني في القرينة التي أعطاها الجزء الأول من (الخييهـويـو) . ولذا فهناك حالتان ممكنتان تبعاً لما تعطيه هذه العلاقة التضمينية من معنى صحيح للـ (خييهويو) (وهذا هو الصنف الأول عنـد كرول) أولما لا تعطيـه إلا تحولاً معيناً مرتبطاً بقرينة استعمال (الخييهويو) (وهـذا هو الصنف الثـاني عنـد كرول) . ويبـدولنـا أن هنـالـك تصنيفاً ذاتياً للـ (خييهويو) مختلفاً جداً عن التصنيفات التقليدية القائمة جميعاً على طريقة تكوين (الخييهويو) (وهي الطرائق التي ضرب لها كرول أمثلة عديدة جداً في مقاله) . ويمكن للمرء بذلك أن يبدأ بتقديم عنصر للجواب على واحدة من القضايا المطروحة في الفقرة / سابعاً / آنفاً .

وفي النهاية أريد أن أحدد نقطة هامة لم يكن كرول واضحاً فيها . إذ يبدو بنـاء على كلامـه أنـه بالنسبة إلى (الخييهويو) (بالنسبة للجزء الثاني المعطى) هنـاك جزء أول ثابت . وهـذا الجـزء الأول ، في الـواقـع ، غير ثابت إلا في التغييرات الأسلوبية القريبة (كما أشرت إلى ذلك في الفقرة / سابعاً / آنفاً . وهكـذا فإن (الخييهـويـو) المـذكـور في الفقـرة (ثانياً ـ ٤ /) والمعبرَّ عن فكرة (المرة الأولى) لويي زاو Lou yi zao يمتلك على الأقل ثلاث روايات أسلوبية مختلفة لهذه الفكرة نفسها .

م . تيبول
M. TEBOUL

الحواشـــــــــي

(١) عنوان المقال بالفرنسية :

M . Teboul, Sur une famille dexpressions proverbiales du dialecte de Pekin, dans : Bulletin de L'Ecole Francaise dExtreme - Orient , t. LXII, 1975, PP. 487 - 503.

(٢) ومعناه : (العبارة المبتورة أو الناقصة) .

(٣) أي : « الكلمة الشبح أو الطيف ، أو الكلمة البارعة ، أو الكلمة الظريفة » (عن الترجمة الفرنسية للباحث بتصرف) .

(٤) أي : « اللغة الدارجة » .

(٥) بمعنى : « حلم في الجناح الأحمر » .

(٦) أي : « أزهار دراق في إناء من الذهب » .

(٧) أي : « رواية ضفاف الماء » .

(٨) أي : « تاريخ غير رسمي لغابة المثقفين » .

(٩) أي : « التعابير الجاهزة » .

(١٠) بمعنى : « ديوان الكياويبهوا » .

(١١) هما السيد « لي تشي هوا » Li Tche - Houa الأستاذ المساعد في جامعة باريس الثامنة ، والسيدة « غوان منغ زهي » Guan Ming - Zhe المعيدة القارئة في جامعة باريس السابعة .

(١٢) طبعة منقحة ، تايوان ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٧٧

(١٣) انظر المرجع الرابع في قائمة المراجع .

(١٤) انظر :

P. Guiraud, Les locutions francaises, Collection « Que sais - je ? » , P. 5.

(١٥) انظر :

J. Pineaux, Proverbes et dictions francais, Collection « Que sais - je » , P. 112.

(١٦) نظراً لعدم تمكننا من الكتابة الصينية ، وعدم انتشار الطباعة بها في قطرنا ، فقد اضطـررنـا إلى الاكتفـاء بالكتـابـة اللاتينية لأصواتها التي أثبتها الباحث تحت جميع الشواهد مبـاشـرة لتسهيـل قراءتهـا ، ويفهم من ذلـك ضمنـاً أن نصـوص الشـواهـد جميعاً ، وأسماء الروايات والكتب ، وأسماء المؤلفين والكتّاب ، كانت تكتب بالصينية قبل ذلك حيثما ترد في هذا المقال (المترجم) .

(١٧) يلاحـظ في بعض الأحيـان أن لـلـ (خييهـويـو) الصيني أيضـاً مقـابلاً في اللغة العربية يؤدي المعنى نفسه ، ولكن بصورة أو تشبيه أو استعارة أخرى ، وسنذكر هذه النماذج المقابلة في مواضعها الملائمة من هذه الحواشي . (المترجم) .

(١٨) هذه هي الـترجمـة العـربيـة لنص الـترجمـة الفرنسية عن الأصل الصيني ، وقد جعلنـاهـا بديـلاً عن تلك الـترجمـة ، ولكن حين يذكـر البـاحث نصـاً فرنسياً مقابلاً لبعض (الخييهويو) الصيني فإننا كنا نثبته كما هو في المتن ونذكر له ترجمة عربية في الحاشية . (المترجم) .

(١٩) أي : « الشخص الذي يُتَكَلَّم عنه ذو سلوك وقح » . (المترجم) .

(٢٠) بمد حرف الألف . (المترجم) .

(٢١) بخطف الألف لتصبح أقرب إلى الفتحة بالعربية . (المترجم) .

(٢٢) أي : « نقص فضيلة واحدة أسّ لكل شر » . (المترجم) .

(٢٣) جمع جُذْجُدْ ، وهو صرّار الليل . (المترجم) .

(٢٤) tao هنا تصف فعل انتزاع الجدجد من مخبئه وسط العشب .

(٢٥) متبعـين في ذلـك حكمـة (كنتليـان) Quintilien في كتـابـه : De Institutione Oratoria . (الباحث) .

وكنتليان هذا كاتب لاتيني من القرن الأول . (المترجم) .

(٢٦) وهي جمع «سوتـرا » ، أي : مجموعـة الحكم التي تلخص التعـاليم الهندية في الدين والأخلاق وفي الحياة اليومية . (المترجم) .

(٢٧) أي : « لكل طالب طيب رافض طيب » . (المترجم) .

(٢٨) الليبرة : وزن يساوي ٥٠٠ غرام . (المترجم) .

(٢٩) أي : « بذنب طيور السماني تؤكل الشحارير » ، ولدينا في العربية أمثال عدة في

معنى هذا المقابـل الفرنسي ، مثل : (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) أو (كذي العُرّ يكوى وهو راتع) و (كالثور يُضرب لما عافت البقر) . (المترجم) .

(٣٠) أي : « كالأنف وسط الوجه ، أمر ظاهر للعيان » . (المترجم) .

(٣١) استعمل الباحث في ترجمته الفرنسية المثل الفرنسي : (كالأنف وسط الوجه ، أمر ظاهر للعيان) بدلاً من (الخييهويو) الصيني الأصلي : (قملة على رأس أصلع) . (المترجم) .

(٣٢) والمقابـل العـربي لهذا (الخييهـويو) الصيني يمكن أن يكون : (كأنه علم في رأسه نار) و (كالشمس في كبد السماء) وهما يضربان للشيء الواضح الجلي . (المترجم) .

(٣٣) أي : « أم ميشيل تنادي قطتها ، يا لانسجام الأنسجة المشجرة » . (المترجم) .

(٣٤) استعمـل البـاحث في ترجمتـه الفـرنسيـة المثـل الفرنسي عن أم ميشيل بدلاً من الأصل الصيني ، ولذا آثرنا إثبات ذلك الأصل في ترجمتنا العربية لأنه الأصح والأصلح . (المترجم) .

(٣٥) أي : « لكل صَنَع (عامل جيد متقن) صناعة متقنة » . (لمترجم) .

(٣٦) انظـر الهـامش السـابق . ويـلاحظ استعمال الباحث في ترجمته الفرنسية المقابل الفرنسي دون الأصل الصيني ، وأبقينا في ترجمتنا ذلك الاستعمال لقرب دلالته . (المترجم) .

(٣٧) وهو ينطبق على كثير من الأمثال العربية سواء ما كان منها بالفصحى أم العامية وهـذا مثـال من العـاميـة مثـلاً : يتحـدث رجل عن امرأة ويذكر بعض خصالها السيئة على الأغلب ، فيقـول له من معـه : « طب الجرة على تمها . . . » فيرد عليه المتحدث متابعاً : (. . بتطلع البنت لأمها) . (المترجم) .

(٣٨) أي : « أنت تعلم : الغلبة دون مخاطرة . . . » . (المترجم) .

(٣٩) أي : « . . نصر دون مجد » . (المترجم) .

(٤٠) وهـو بالـلاتينيـة من شعـر الشـاعر (لوكريس) Lucrèce (المتوفى سنة ٥٥ قبل الميلاد) صاحب القصيدة (عن الطبيعة) . (المترجم) .

والشاهد كاملاً هو :

Suave, mari magno turbantibus aequora ventis, E terra magnum alterius spctare laborem.

انظر : Lucreće, De rerum natura, II, 1.

(٤١) يعود الضمير هنا على الملك (وو) WU مؤسس أسرة (زهو) Zhou .

(٤٢) انظر :

(٤٣) وربما لهذا كانت تعريفات (الخييهويو) التي تقدمها المعاجم متنوعة جداً .

(٤٤) انظر الكتابين الأول والثاني في قائمة المراجع . (المترجم) .

(٤٥) وهو العمل الجماعي لقسم الأدب الصيني في جامعة بكين .

(٤٦) الذي يعني : « العبارة الناقصة » كما مر بنا في الحاشية الثانية آنفاً . (المترجم) .

* * *

العام والخاصّ في مُؤلفات تسي يون وَيُو آن مايْ

• بقلم : أولنا فيشمان [1] • ترجمة : ابراهيم كاسوحة

اكتسبت مجموعات القصص القصيرة ، التي تدخل في إطار فن (البيتزي) في الصين ، شهرة كبيرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولم تحتل المؤلفات ذات المضمون المحدد (الأقصوصة ، النكتة والحكاية) ، ضمن هذه المجموعات ، فصولاً خاصة بها ، وإنما امتزجت مع (النثر الحر) من دون وصف الأحداث أو رسمها (يدخل في مفهوم [النثر الحر] الملاحظات والخواطر حول مختلف المواضيع ومناقشة الشعر وأصل تسمية بعض المناطق الجغرافية أو النباتات المختلفة وأسس الخرافات والعادات المحلية وغيرها) .

يتميز فن (البيتزي) باحتوائه على معلومات أو (وقائع) أو حقائق معروفة (يتم التوصل إليها عن طريق الدلالات وأمكنة الأحداث وتاريخ وقوعها وأسماء الشهود أو الرواة الذين رووا هذه الأحداث) ، وباختصار فهو وصف بأسلوب أدبي ـ فني مبسط نسبياً .

هذا وقد لاقت مجموعتان قصصيتان من بين هذه المجموعات نجاحاً خاصاً وانتشاراً كبيراً في العصر الحديث هما : مجموعة : (خواطر من الخوخ حول العظيم في الصغير) للعالم والأديب الصيني المعروف تسي يون (١٧٢٤ ـ ١٨٠٥) ومجموعة (ما لم يتحدث عنه كونفوشيوس) للشاعر الكبير والقصصي يو آن مايْ (١٧١٦ ـ ١٧٩٧) .

تتألف مجموعة تسي يون من خمسة أجزاء . تم نشرها ما بين ١٧٨٩ و١٧٩٨ .

أما مجموعة يو آن مايْ فهي عبارة عن كتاب واحد وملحق له . وقد استغرق الكاتب في كتابتها حوالي ٢٦ سنة (من سنة ١٧٧٠ إلى ١٧٩٦) .

تضم المجموعة الأولى ١١٩٣ وحدة قصصية : فيها ١٠٤٤ قصة (أي ٨٧,٦ ٪) و ١٤٩ خاطرة (أي ١٢,٤ ٪) . في حين تضم المجموعة الثانية ١٠٢٣ عملاً إبداعياً ، من بينها ٩٥٣ قصة (أي ٩٣,١ ٪) و ٧٠ خاطرة (٦,٩٪) .

إن وضع عنوان (خواطر من الكوخ حول العظيم في الصغير) لمجموعة تسي يون ليس إلا تسمية مجردة تتضمن تعميقاً فلسفياً . ويبدو أن الكاتب يريد أن يقول عبر هذه التسمية أن جزئيات الحياة التي لا نعيرها اهتماماً قد تكون في بعض المواقف المنفصلة شرطاً لتشكل نظام العالم العظيم الهادف والمعقول . وعندما يتكلم تسي يون عن الصغير فإنه يعمد إلى كشف كثير من أسرار العالم وأموره الخفية كما أن قصصه القصيرة وخواطره ونكاته تحتوي على أعظم القوانين الأخلاقية . وهو لا يضع عناوين منفصلة لقصصه القصيرة لأنه كان يعتبر أن القصص القصيرة المستقلة (التي تروي حدثاً منفرداً) أو بعضها لا تمتلك الأهمية التي تمتلكها مجموعة كاملة تتضمن لوحة شاملة عن مجمل الوقائع المعبرة عن تشكل الحياة وأنظمة قواعد السلوك . أما المضامين فتتكرر عنده من قصة إلى أخرى ومن مجموعة إلى أخرى . وهي تؤكد على سعي المؤلف الدائم من أجل الوصول إلى وحدة الانطباعات وشموليتها واكتمالها حول صورة الأخلاق الاجتماعية التي يرسمها .

هذا ويكشف تسي يون بنفسه عن أسلوبه الأدبي . فهو (يدبلج)

تكوين عالم الإنسان عبر إظهار عالم الشر وإبرازه وجعل كل مثال منفرد صورة لهذا التكوين . وكل قصة حلقة في سلسلة الصور والبراهين .

أما عنوان مجموعة يو آن ماي فهو أقل تجريداً وأكثر دقة من عنوان مجموعات تسي يون . ويشعر المرء أن المؤلف يريد أن يتحدى عبر هذا العنوان أنصار كونفوشيوس الأورثوذكسيين الذين يعرفون جيداً ويتذكرون دائماً ما جاء في (أحاديث وخواطر من الكوخ حول العظيم في الصغير) من أن « المعلم لم يتحدث عن الأشياء غير الطبيعية ولا عن إظهار القوة ولا عن الفتن ولا عن الكائنات الخارقة » . هذا وقد نبه يو آن ماي القراء منذ البداية وعبر عنوان كتابه إلى أنه سيتحدث عما تجنب ذكره كونفوشيوس ، وخاصة عن العجائب والأشياء غير الطبيعية وعن الطبيعة الخارقة .

يضع يو آن ماي لكل قصة عنوانها . ويهتم بكل حدث على حدة ، لأن كل واقعة ، برأيه ، تشكل حدثاً له قيمته الذاتية المستقلة وليس مجرد حلقة في سلسلة ما . وبالتالي فهو لا يسعى إلى تأكيد وحدة الانطباعات بل على العكس من ذلك إذ يحاول إظهار تنوع الحياة وتعقدها .

لقد احتل موضوع الطبيعة الخارقة مكانة هامة عند كل من تسي يون ويو آن ماي (وصلت نسبتها المئوية عند تسي يون إلى ٨٦ ٪ من مجمل مؤلفاته ، وعند يو آن إلى ٩١ ٪) . لكن الطبيعة الخارقة تؤدي هنا وظائف مختلفة . وقد كان الخيال بالنسبة لتسي يون وسيلة لإرشاد القارىء وتوجيهه . كما استخدمه لأهداف تربوية وتعليمية . أما الأبطال الخارقون فيؤدون في قصصه وظائف ثابتة ومحددة تتلخص في الحكم على أعمال الناس وسلوكهم وفي معاقبة الأشرار ومكافأة الصالحين . في حين يستخدم يو آن ماي الخيال لأغراض التسلية فقط . فعندما يتحدث عن العجائب المختلفة وعن مقابلة الناس للشياطين

وللمتقمصين الذين يمزحون معهم فإنما يكون قد قام بنوع من التسلية الذاتية .

تتضمن قصص تسي يون في معظم الأحيان فكرة واحدة هي قدرة القوى الخارقة على مراقبة سلوك الناس باستمرار . وفي حال عدم تمكن الإنسان من الرد على أفعال الآخرين (الجيران أو الموظفين أو غيرهم) فإن هذه القوى ، التي تعرف كل شيء ، تقوم بالرد والحكم على الأعمال الصالحة أو الشريرة . ففي القصة رقم ١٠ نرى رجلاً اسمه جين يصل إلى مملكة الموتى ويقف متعجباً أمام مشهد من مشاهد هذه المملكة ، حيث يرى أن ملك ملكة الموتى يان لوفان لا يكترث كثيراً بأحد الموظفين الهامين لدى دخوله ويستقبله ببرود واضح وسخرية لاذعة في حين يظهر احترامه العظيم لإحدى العجائز ، القرويات البسيطات . ويسأل عن السبب في ذلك فيجيبه كاتب مملكة الموتى : « إن هذه العجوز لم تسيء إلى أحد طوال حياتها ولم تلهث وراء مصالحها الذاتية كما يفعل معظم الناس بمن فيهم الحكماء وكبار القوم » . وتنتهي القصة بالإرشاد والتوجيه : « إن الأرواح الشريرة والشياطين ترى روح الإنسان من الداخل وتعرف كل شيء مهما كانت هذه الروح غامضة وقاتمة . وحتى الحكماء عندما يبدؤون بالتفكير في مصالحهم الشخصية فإن الأرواح تكشف ذلك وتعاقبهم »[٢] .

تقول (إرشادات الحكيم) : « كن هكذا دائماً ، حتى عندما تدخل مخدعك . ولا تخجل من ظهور فتحة في سقف بيتك . ولا تقل إنك اختبأت تحته وإن أحداً لا يراقبك »[٣] .

نشعر في هذا المقطع الذي يستشهد به تسي يون من شيدزين أن الكاتب يريد أن يقول إنه يجب على الإنسان أن يتصرف وكأن القوى الخارقة حاضرة دائماً وهي تراقبه باستمرار ، حتى داخل بيته ، حيث يعتقد أنه بعيد عن

الأنظار

في قصة يو آن مايْ ذات الرقم ٩٩٥ والتي تدور حول نفس الموضوع « في مملكـة الموتى لا يعاقبون بشدة على الفسق والنفاق » . وهنا نرى الموقف يشبه لوحة تسي يون : حيث يصل أحدهم إلى مملكة الموتى ويرى باستغراب كيف يقـوم الملك يان لوفـان بمكافأة امرأتين بالتقمص الرائع علمًا أن هذا الإنسان القادم يعرف هاتين المرأتين معرفة جيدة فهما فاسقتان وفاسدتان ! لكن موظف مملكة الموتى يوضح له أن المرأة الأولى كانت تتصف بالطيبة والبساطة في حين اتصفت الثانية باحترام الكبار .

وهـذه الصفـات تتفوق في نظر قاضي مملكة الموتى على الفسق والفساد والمنـافقة . هذا وقد وردت جملة هامة على لسان موظف مملكة الموتى في مجرى توضيحه إذ قال : « إن يان لوفان إنسان جليل ومستقيم . ولا يمكن له أن يذل نفسه إلى درجة الاختباء تحت أسرة الناس والتجسس عليهم أثناء تواجدهم في منـازلهم ! » . إن هذه الجملة تعـطي انـطبـاعاً جدلياً حول موقف تزي يون الفكري التقليدي .

وإذا نظرنـا إلى قصـة يو آن مايْ ، في سياق أعـمالـه الإبـداعية ضمن المجموعة ، فسنجد أنها تشير إلى أن الكاتب ليس بعيداً عن الإرشاد والتوجيه . إضافة إلى أن بعض قصصه تتضمن شخصيات من القوى الخارقة جاهزة للرد السريع على سلوك الناس . أما قصص تسي يون فتتضمن قوى خارقة تسعى إلى مكـافـأة الفاضلين والذين يحترمون الكبار في السن (يبدو أنه يعطي هذه الصفات التي تحتل المرتبة الأولى في سلم القيم الأخلاقية التقليدي ، يعطيها قيمة أكبر من أية صفة أخرى) ، وتعاقب الفاسق (٥٨ حالة) والشرير (٢٦ حالة) . أما عند يو آن مايْ فإن هذه القوى تكافىء الموظف المخلص صاحب الضمير الحي والعالِمْ الحقيقي ، كما تعاقب الفاسق (١٤ حالة) والشرير (١٠

حالات)[٤] والذي لا يقيم اعتباراً للقوى الخارقة (١٣ حالة) . ومن الطريف أن نسبة القصص التي تتحدث عن عدم احترام القوى الخارقة وعن سرقات القبور عند تسي يون أقل بمرتين مما هي عند يو آن مايْ (١١ ٪ عند الأول و ٢٦ ٪ عند الثاني) . إن هذا الاختلاف ليس وليد الصدفة . فتسي يون كان يعتبر أن الجرائم التي توجه ضد الناس وبخاصة ضد الأسرة تستحق العقوبة لأنها أكثر خطورة من الجرائم التي ترتكب بحق الآلهة والأرواح . وقد كان رأيه حول تحديد الذنوب مطابقاً للتصورات التقليدية التي سادت في عصره[٥] . أما يو آن مايْ فكان أقل اهتماماً بمسائل الأخلاق . هذا وقد شكلت المقاطع المتعلقة بالناس الذين خدعوا أو يخدعون الأرواح والذين لا يقيمون أي اعتبار للآلهة ، مادةً غنية للانعطافات المختلفة والمفاجئة في المضمون (كما هي الحال في تصوير ذنوب الآلهة والأرواح) .

تكاد مجموعة تسي يون تخلو من القصص التي تقي فيها الروح المرأة من الاحتراق وتطلب منها بالمقابل تقديم ضحية إعراباً عن شكرها . كما تخلو من القصص التي ترتشي فيها الأرواح وتعمل على سرقة التجار والمرابين . . . إلخ . كما هي الحال عند يو آن ماي وخاصة في القصص : ١٨١ ، ١٨٤ ، ٤٨٦ ، ٧٦٣ من مجموعة (ما لم يتحدث عنه كونفوشيوس) . إن هذا واضح ومفهوم لنا لأن تسي يون كان يعبر دائماً عن التصورات التقليدية السائدة آنذاك والتي نظرت إلى جميع الآلهة على أنها مخلوقات طيبة وأخلاقية ، تطلب من الناس أن يسلكوا سلوكاً أخلاقياً بصورة دائمة[٦] .

تشكل القصص الإرشادية التوجيهية ـ إن صح التعبير ـ في مجموعة تسي يون ٤٢ ٪ من مجموع المواد في حين لا تزيد نسبتها عند يو آن ماي عن ٢٨ ٪ . وهنا تجدر الإشارة إلى أن فرز القصص الإرشادية عند يو آن مايْ أكثر شرطية وإرادية . وإذا كانت قصص تسي يون تنتهي بمواقف تربوية ، أخلاقية

وبمـواعظ يقدمها المؤلف وبـ (نصائح) على لسان الراوي أو أحد الأبطال ، فإن هذا يكاد ينعدم عند يو آن مايْ انعداماً تاماً . أما الدرس الأخلاقي الذي قد يستخلصه القارىء من القصة فيأتي من المضمون العام وهو غير مرئي ولا يلفت النظر . كما أن الكاتب لا يوليه الأهمية الأولى في القصة .

لقد كان يو آن ماي منطقياً في تسلسل أفكاره إلى درجة أنه طرح النهايات الاخـلاقية جانبـاً ، حتى من القصص التي اقتبسها عن مجموعة تسي يون . وهكـذا جاءت قصص يو آن ماي بعيدة عن الإرشاد والتوجيه المباشر وتقديم النصـائـح الشخصية والتقـويمات العـامة . وإن القيمة الحقيقية الكبيرة التي أعـطاهـا المؤلف لوصف الأحـداث والأبـطال في مجموعة (ما لم يتحدث عنه كونفـوشيوس) هي التي تستحق الاعتبار والتقدير لا بالمقارنة مع مجموعة تسي يون فحسب بل وبالمقارنة مع المؤلفات النثرية الأخرى ليو آن ماي نفسه .

لدى تحليل القصص والخـواطـر والـذكـريات والـرسـائـل التي تتناول المعـاصرين نرى أن شخصية الكـاتـب تظهـر بوضـوح تام في ردوده وتقـويماته وأحكـامـه على الأشخاص والأحداث . كما نلاحظ ذلك بصورة أوضح لدى مقارنة هذا المضمون الذي استخدمه يو آن ماي مع مختلف أنواع الفنون . ففي القصة رقم ٨٢ من مجموعة (ما لم يتحدث عنه كونفوشيوس) (لي سيان دزيون ترفع الناموسية) يروي الكاتب قصة عن صديقه يان تشاوغوان الذي رأى في حلمـه امرأة جميلة هي لي سيان دزيون ، تأتي إليه وترفع الناموسية عن سريره وتطلب إليه أن ينتبه إلى ما يكتبه أحد أقرباء عشيقها في الامتحان . وكان يان في تلك الأثناء يشرف على امتحانات الطلاب .

يبدو السرد في هذه القصة موضوعياً ومحايداً ولا يتغير إلا في نهايتها حيث يقول الكاتب : « كان يان تشاو غوان يتباهى أمام الناس برؤية المرأة الجميلة لي سيان دزيون في الحلم . ويعتبر ذلك حدثاً هاماً وعجيباً » . لكن ما إن علم يان

بالقصة حتى كتب رسالة إلى صديقه يو آن ماي لامه فيها على تحويل « جميلة العصر العتيق الأسطورية المجهولة » إلى مجرد مغنية مشهورة هي لي سيان دزيون يراها الناس في الحلم ! وقد أحدثت هذه الرسالة تأثيراً كبيراً على الكاتب يو آن ماي فرد عليها بجواب ساخر ، مزاجي وبعيد عن المنطق . مما جعله يبتعد أكثر عن الحياد والواقع . يتهم يو آن ماي في رسالته يان تشاوغوان بالنفاق ويواسيه بسخرية ويدعوه إلى عدم الخوف ويسأله : أين الغرابة في أن يرى الإنسان امرأة جميلة في حلمه ؟ خاصة وأنه يمكن أن يكون لها من العمر الآن أكثر من مائتي سنة . « ولماذا يخاف الناس عندما يعثرون على شيء قديم سواء كان ركيزة أو حتى قرميدة قديمة ؟ لكن الرجل الذي التقى بجميلة العصر العتيق ينفي أن يكون قد خاف . فهل يعود السبب إلى أنها كانت مغنية ؟ ثم يسأل الكاتب صديقه بسخرية أشد : وهل تخاف زوجتك إلى هذه الدرجة ؟ حيث تحاول تجنب الفضيحة حتى في الحلم ؟ » . ويذكره بعد ذلك بالإنسان الذي روى لزوجته ما رآه في الحلم حول اصطحابه عشيقته إلى المنزل مما أزعج زوجته وأخافها كثيراً . . .[7] .

إن الأهداف المتباينة لكل من تسي يون ويو آن ماي لا تحدد فقط مدى تدخل المؤلف في سياق القصة والتناسب بين السرد والوعظ فحسب ، بل وتحدد أيضاً الاختلاف في بنية قصصهما . وكما كانت العادة فإننا نلاحظ أن السرد كان مختصراً في كلا المجموعتين (فالأحداث مبسطة ومكثفة والسرد خاضع لحركة المضمون . والكاتب لا يُظهر أي اهتمام بالأسباب النفسية الكامنة وراء تصرف الأبطال وسلوكهم بل يقتصر اهتمامه على السلوك ذاته) . لكن مجموعة يو آن ماي تحتوي على عدد أكبر من القصص ذات التركيب المعقد نسبياً (سرد تفصيلي وعرض يسبق الحبكة وخاتمة كما في قصة « الروح الصغيرة من بويان » و « تسو آن غو » وغيرها) . هذا وينحصر الخلاف الأساسي بينهما في أن عدد المواضيع عند يو آن ماي أكثر منها عند تسي يون وإذا كانت قصص تسي يون

تحتوي غالباً على المواضيع التي تدخل عضوياً في إطار المضمون وتعطي مادة للتعميم الأخلاقي فإن يو آن ماي يضمن قصصه مقاطع (ثانوية) غير مرتبطة بإطار المضمون لكنها تحمل مواضيع جديدة تزيد من تعقيد الأحداث أحياناً أو تحييها أحياناً أخرى . وإذا لجأنا هنا إلى استخدام مصطلحات الناقد السوفييتي غاسباروف فيمكننا أن نسمي هذه المقاطع (الثانوية) (بالمواضيع والصور الحرة) التي تنحصر وظيفتها « في إحياء الأحداث وتشكيل الانطباعات عن حرية هذه الأحداث وطبيعتها وتقسيمها ، وذلك بإكساء عظام الموضوع بلحم التفاصيل الحية »[٨] . نورد على سبيل المثال ، قصة (المحافظ فيندو) . فالمحافظ الجديد لوغان قرر أن ينزل إلى البئر التي رمى فيها أهالي محافظته رزماً من الأوراق النقدية المفروضة عليهم كضرائب لمملكة الموتى . وما إن وصل إلى قاع البئر حتى وجد نفسه داخل قصر يان لوفان . وهناك أعرب له عن رفضه ومعارضته لهذه الضريبة ، فالشعب جائع نتيجة الجفاف الذي أصاب المحافظة عدة سنوات متتالية ولا يستطيع تسديد الضرائب للدولة . وليس هناك من مصدر آخر يمكن له أن يعتمد عليه لتسديد ديونه إلى مملكة الموتى ! هنا يوضح يان لو للمحافظ لوغان أن طلب الأوراق النقدية ما هو إلا احتيال يقوم به الكهنة البوذيون الحقيرون وأتباعهم الخبثاء . وأثناء هذه الزيارة تحدث غوان دي ، الذي كان في زيارة عند يان لو ، إلى لوغان وسكرتيره المرافق له لي . وكان يمكن للقصة أن تنتهي عند هذا الحد حيث يعود لو غان إلى محافظته وشعبه . لكن الكاتب يو آن ماي أدخل موضوعاً (ثانوياً) إضافياً إلى القصة حيث جعل السكرتير لي يطرح سؤالاً على غوان دي يؤدي إلى إزعاجه وذهابه غاضباً . فيقول يان لوفان على الفور أن غوان دي سيلجأ إلى قتل لي بضربة قوية من الرعد . ويطلب لوغان من يان لو إنقاذ حياة سكرتيره لي . لكن يان لو يوضح له أنه لا يستطيع ذلك ولا يمكنه سوى إنقاذ جثته من الاحتراق بنار الصاعقة . وهكذا يضع ختمه على ظهر لي ثم يسحبه مع محافظه لوغان من البئر ويضعهما

على سطح الأرض . بعـد قليل يسمـع رعد قوي يؤدي إلى موت لي ثم تنزل صاعقة وتلف جثمانه وتحرق ثيابه باستثناء المنطقة التي وضع عليها يان لو خاتمه .

وفي قصتي (الـدمية) و (الثعلب يقـرع الناقوس) تم إضافة موضوع النقـود التي سرقتها القوى الخارقة من بعض الناس ثم أعطتها لأناس آخرين (وهذا يشبه إلى حد ما القصة الفولكلورية التي تتحدث عن استلام أحدهم كمية من الذهب من الأرواح الشريرة والسحرة . وفجأة يتحول هذا الذهب إلى أوراق يابسة وروث جاف) .

إن إدخال المواضيع الإضافية (الثانوية) إلى قصص يو آن مايْ أدى إلى توفر عدد أكبر من الأبطال أكثر مما هو عند تسي يون . وبالتالي فقد أصبحت دائرة الشخصيات عنده أوسع وأكثر تنوعاً وخاصة فيما يتعلق بالشخصيات الخارقة .

أما بالنسبة لصورة الآلهة فنراها عند تسي يون أوسع مما هي عند يو آن ماي إذ نصـادف عنـده الآلهـة : (غوان دي ، غوان إين ، يان لوفان ، إله الأدب ، الروح ـ حامي المنطقة ، إله الرعد) و (الشياطين ، أرواح الموتى ، نماذج من المتقمصين بتسعة أشكال (وهم ثعالب في معظم الأحيان) ، أرواح بخمسـة أشكـال (مائية ، جبلية ، أرواح الأشجـار ، أرواح الأوبئة المعدية والأرواح التي يستحضرها المنجمون) . هذا وتجد عند يو آن ماي بعض الآلهة التي لم يأت على ذكرهـا تسي يون وهي إلهة قوس قزح وسحرة السماء وأرواح المعابد وأرواح البحيرات وأربعة أشكال من المتقمصين (قرد ، كلب ، كلب النهـر ، قط) وتنين البحر وأرواح الأمراض المختلفة والجثث التي تنعدم نهائياً عند تسي يون في حين نراها في ٢٧ قصة من قصص يو آن مايْ . إن قوى الشر عند يو آن ماي تسيء إلى الناس أكثر مما عند تسي يون . وهي أشد خطورة وإن

كانت لا تزيد عدداً . وكقاعدة عامة فإن الضرر الذي تلحقه قوى الشر بالناس في قصص تسي يون ناتج عن سلوك الناس أنفسهم أي أنه مجرد رد هذه القوى على تصرفات الناس وأعمالهم . في حين نجد أن الضرر الذي تلحقه قوى الشر بالناس في قصص يو آن ماي ناتج عن الطبيعة الشريرة لهذه القوى . من هنا تعرف أن نظرة يو آن ماي إلى قوى الشر قريبة من التفسيرات الفولكلورية : فالشياطين وأرواح الموتى والجثث والمتقمصون ليسوا بشراً و (غرباء) ولا يحملون معهم سوى الضرر كل حسب وظيفته . أما عند تسي يون فإن روح الميت تنتقم ممن يسيء إلى الأقارب (أقرباء الروح طبعاً) (حالة واحدة) . وهي في كثير من الأحيان (٢٢ حالة) تعنى بأقاربها وتقدم لهم المساعدة . في حين لا تساعد هذه الأرواح عند يو آن ماي إلا في ١٢ حالة فقط . فيما تنتقم من الناس رداً على إساءاتهم في ٣٧ قصة . كما أن هذه الأرواح تبحث دائماً عن (بديل) لنفسها فتدفع بالناس إلى الانتحار . أما الجثث فهي تخيف الناس وتطاردهم وتحاول قتلهم . وحتى الريح فهي ليست غريبة الأطوار فحسب بل وتسيء إلى الناس أيضاً وتحطم منازلهم .

إذا كان رسم الأبطال من الخارج ورسم الطبيعة بمناظرها والإلمام بجزئيات الموقف يحمل طبيعة خاصة وله وظيفة تدخل ضمن عناصر الحدث فإنه جاء فقيراً عند تسي يون في حين نراه في قصص يو آن ماي يخدم الزخرف ويعزز الانطباع الفني . وعلى أساس الوصف الفقير لوجوه الناس يحاول يو آن ماي إبراز الوصف التفصيلي عندما يلجأ إلى رسم إحدى الشخصيات الخارقة من الخارج فمثلاً قدم لنا شخصية على النحو التالي : « إنسان له قامة جني وأكثر ، وجهه أخضر وشارباه أخضران ، حذاؤه أخضر ، ملابسه خضراء . طويل القامة إلى درجة أن رأسه قد لامس السقف . وفيما هو واقف دخل رجل قصير القامة له رأس ضخم ، وجهه أخضر وقبعته وملابسه خضراء أيضاً . وكان إنسان ثالث يجلس بالقرب من السرير . وضع على رأسه قبعة شفافة ولف

خصره بشال عريض وظهرت على وجهه آثار الجدري وقد أرخى لحية طويلة . . وهكذا أخذ يتجمع لفيف من الناس طوال القامة وقصارها وأولئك الذين لا تختلف وجوههم عن الأطباق حتى شكلوا جماعة هائلة وكان يعلو فوق رؤوسهم ذلك العملاق الذي يشبه رحى الطاحون »[٩] .

لقد أدى غياب وصف الطبيعة ومناظرها من قصص يو آن ماي إلى ظهور التفاصيل والجزئيات في وصف العالم الآخر . وقد خدم هذا الوصف تعزيز الانطباع الفني وجمالية الوصف وتعبيريته . وهكذا نرى في القصة رقم ٥ وصفاً « للرمال الصفراء ، التي لا حدود لها ، والأعشاب البيضاء والفضاء الخالي من الناس » . وفي القصة رقم ٢٨ « . . . كانت السماء صفراء ، والشمس لا تضيء ، وحيث تمد نظرك ترى كثباناً رملية ، والأرجل لا تلامس الأرض . ولا ترى هناك بشراً أو مساكن » . ويفصل الكاتب في وصف (قصر على حافة الأرض) وفي وصف ملابس الحراس وغيرهم .

يعير يو آن ماي ، خلافاً لتسي يون أهمية كبيرة لوصف نشاط أبطاله من الشخصيات التي لا ترتبط بالمضمون الأساسي . وهكذا نجد في القصة رقم ١ وصفاً لزيارات الوداع التي يقوم بها الخادم الذي قرر أن يموت ليصبح (بديلاً) لمولاه الميت . ويصف ردة فعل الناس المحيطين به على هذا القرار . وفي القصة رقم ٢٨ وردت تفاصيل كوميدية قريبة من الصور الكاريكاتورية . وفي القصة رقم ٦ نقرأ أحاديث البطل مع أحد المتقمصين ولغزاً هيروغليفياً لا علاقة له بتطوير خط الحدث (المضمون) .

إن مواضيع يو آن ماي أكثر غنى من مواضيع تسي يون وأكثر تنوعاً . فعدد المواضيع الفولكلورية في مجموعته أكثر مما هي في مجموعة (خواطر من الكوخ حول العظيم في الصغير) . وتحتوي بعض القصص على موضوع الولادة العجيبة (القصص رقم ٢٠٩ ، ٤٤٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٨٣٠) وعلى

موضـوع الإسـاءة الأسـطورية (القصص رقم ١٧٠ ، ٦٩٢ وغيرهما) ، أما موضوع الشجرة الساحرة التي تعتبر همزة الوصل بين السماء مكان إقامة الساحرة الخالدة والأرض مكان إقامة عشيقها (القصة ١١٠٥) ، وموضوع البئر ـ همزة الوصل مملكة الأرض ومملكة الموتى أو مملكة ما تحت الأرض (القصة رقم ٧) .
هذا وإن بعض القصص قريبـة من الأسـاطير الخرافية وقصص السحرة مثل القصة (رقم ١١٥) « امرأة تغسل مشيمة في النهر » . ففي هذه القصة نرى إنساناً ضل طريقه حتى وصل إلى معبد مهجور وبداخله تمثال روح برأس ثور وقـد غطاه الغبـار وخيوط العنكبـوت . يدخـل الرجل إلى المعبد ويقترب من التمثـال ويبدأ بمسح الغبار عنه إلى أن ينتهي ثم يتابع طريقه حتى يصل إلى ضفة نهر حيث يرى امرأة تغسل مشيمة ويكتشف أنها زوجته الميتة . وتخبره أنها أصبحت بعد موتها زوجة الروح برأس الثور . وتقول له أنه لا يمكن لأي إنسان من الأحياء أن يظل هنا . ولكن ما دام لا يستطيع العودة إلى عالم الأحياء من دون مسـاعدة الروح فإنها تأخذه معها إلى البيت . وعندما يعود الروح برأس الثـور (يشم) رائحة إنسان حي فتسارع زوجته لتخبره أن هذا الإنسان كان زوجهـا الأول . فتقـترب منـه الـروح وتشكـره على مسـح الغبار عن التمثال وتنظيفه . ثم تقدم الروح له رأس الثور دواءً سحرياً يساعده في العودة إلى عالم الأحياء . ويعود الرجل إلى منزله ويستعمل هذا الدواء السحري في شفاء أحد المرضى الأغنياء من مرض عضال فيبادر إلى مكافأته بخمسمائة ذهبية .

ثمـة عدة مواضيع خرافية متشـابكـة أولهـا (الميت المشكـور) وثـانيها (الـوسيلة السحـرية) وثـالثها (إنقاذ البطل) (هنا تنقذه زوجته ولكن عادة تكون أخته) وكل هذه المواضيع مأخوذة من الفولكلور الصيني . كما أن النهر الذي يفصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات هو موضوع فولكلوري أيضاً .

سبق لنا أن أشرنا إلى أن تسي يون خلق نموذجه الخاص عن العالم الذي

تعمل فيه القوى الخارقة بشكل معقول وهادف حيث تقوم بدور (المسؤول عن تطبيق القوانين الأخلاقية) ، أي أنه خلق أسطورة القوى التي تراقب دائماً وأبداً سلوك الإنسان والمستعدة لمعاقبته على أبسط انحراف له عن الخط الأخلاقي المرسوم والمعترف به . وما تكرار الموضوع في قصص مجموعته إلا مجرد حلقات في سلسلة البراهين العامة على الفكرة الأساسية التي تتلخص في تصحيح الأخلاق الاجتماعية بقوة المثال والقدوة والتربية(١٠) .

إن تسي يون لا يحاول ، خلافاً ليو آن ماي ، أن يرشد أحداً ولا أن يثبت شيئاً بل يبين فقط كم من الغرائب والطرائف والأحداث والأشياء الممتعة تحدث في العالم وما هي الأشياء المستحيلة التي يمكن أن تقع أو أن تحدث مع الناس . أما بالنسبة للأشياء الخارقة فإنها تعطي قصصه ألواناً زاهية وتجعلها غير عادية ومشوقة . ومن الملاحظ أن الشياطين عند يو آن ماي مخيفة لأن أعمالها عشوائية وغير معقولة ولا تستند إلى أسباب دائمة وواضحة . ويستحيل على الإنسان أن يتنبأ بسلوك هذه الشياطين أو أرواح الموتى .

تجري أحداث قصص يو آن ماي في الأحلام غالباً . أما بالنسبة (للحدث الأرضي) فهو مجرد إطار . ويلجأ الكاتب إلى الحلم لأنه يعرف أنه (يتحرر) من المكان والزمان والسببية ويصبح غير ملزم بربط هذه الأشياء بالشروط المادية ولا أن يضع أسباباً أو أهدافاً للسفر وبالتالي فالحدث لا ينتج بالضرورة عن الأسباب العادية . وهكذا تجري أحداث غريبة لا تفسير لها سوى أنها جرت في الحلم . والواقع هنا يزداد غموضاً وتعقيداً ويصبح متعدد المعاني . وعوضاً عن التفسير العادي لسلوك الناس وفقاً لمصالحهم كما في (التاريخ غير الرسمي لأنصار كونفوشيوس) أو طبقاً لقواعد الأخلاق السائدة كما في مجموعة تسي يون فإن الإنسان في كثير من قصص يو آن ماي يعمل دون أسباب ولا يبغي إلى هدف وبالتالي يفقد عمله جوهريته . ولكن من طرف آخر

فإن قوى معينة توجهه وتخلق له أحداثاً لها مغزاها الذي يصعب على الإنسان فهمه .

هنا يبتعد الكاتب عن الواقع ويلجأ إلى الخرافة حيث ينتقل من الأرض إلى العالم الآخر أو إلى الحلم . وذلك خلافاً لتسي يون الذي يتمركز الحدث عنده على الأرض . أما الحلم فهو مجرد وسيلة للمعاشرة مع القوى الخارقة .

وهكذا ويغض النظر عن التشابه الناتج عن الخصائص الفنية لمجموعات (بيتزي) فإن قصص تسي يون تختلف كلياً عن قصص يو آن مايْ . وهذا الاختلاف ناتج أساساً عن الفوارق الجوهرية بين شخصية الكاتبين الإبداعية وأهدافهما المتباينة .

الهوامـــــش

(١) أولغا فيشمان : باحثة أدبية سوفييتية معاصرة . عضو اتحاد الكتاب السوفييت . تحمل شهادة دكتوراه في الآداب . من مواليد ١٩١٩ . متخصصة في الأدب الصيني وآداب شعوب الشرق الأقصى . تعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية . لها عدد كبير من الأبحاث الأدبية والترجمات المختلفة عن اللغة الصينية .

(٢) تسي يون . خواطـر من الكـوخ حول العـظيم في الصغـير . الجزء الأول ، شنغهاي ، ١٩٢٣ ، صفحة ٦ .

(٣) شيدزين . موسكو ، ١٩٥٧ ، صفحة ٣٨١ .

(٤) من الـواضـح أنـه بالمقـارنـة مع مجمـوعة تسي يون فإن هذه الأرقام تصبح غير مفهومة ، وإن تنوع الذنوب كما في بعض الأمثلة يعطي انطباعاً عن صدفة اختيار (الجرائم) وليس الاختيار الهادف كما في قصص تسي يون .

(٥) Eberhard W., Guitt and Sin in Traditional China, Berkeley and los Angeles, 1967, P. 61.

(٦) Williams E. T., Popular Religious Literature of the Chinese, « Journal of the North China Braneh of the Royal Asiatic Society. New Series », vol. 33, 1899- 1900.

(٧)يو آن ماي . المؤلفات الكاملة ، بكين ، ١٨٩٢ .

(٨) غاسبـاروف م . ل . الأسـطورة الأدبية القديمة (فيدرو بابري) ، موسكو . ١٩٧١ ، صفحة ٨٣ ـ ٨٨ .

(٩) يو آن ماي . المؤلفات الكاملة ، بكين ، ١٨٩٢ .

(١٠) فيشمان أولغا . استخدام الأساليب الإحصائية في دراسة مؤلفات تسي يون . أكاديمية العلوم السوفييتية ، ١٩٧٠ ، صفحة ٩٠ ـ ٩٢ .

شعر

قصائد صينيّة حَديثة

● للشاعر: جانغ جيمين ● ترجمة: د. حسام الخطيب

ماوتسي تونغ .. شاعراً

ترجمة: د. شاكر مطلق - من الألمانية

مختارات من «كتاب الأغاني» الصّيني

ترجمة: يوسف أحمد المحمود - من الإنكليزية

أشعار من الصّين القديمة

● ترجمة: فاروق هاشم (من الإنكليزية)

قصائد صينيّة حديثة

● للشاعر: جانغ جيمين ● ترجمة: د. حسام الخطيب

((ناي من الخيزران يصدح في ليل))

إنها ليست ساقية منسابة تتمتم وتفرقر
بل هو لحن يصدح من ناي خيزران
إنه يأتي من جهة حقول الشمّام
من تحت كوخ الحارس الليلي
لماذا لم يخلد الشاب الى النوم !
ولمن يعزف لحن نايه ؟
لاتقلق بشأنه
فعلى الأرجح له « جمهوره » .
وإذا كنت لاتصدقني فابحث عن يونيغ
إذن تجدها جالسة على عتبة الباب « تعد النجوم »

((كلما مررت من هنا . .))

في وادي الجبل
ذلك البناء الأحمر المُحْدَث
يسمى
« منزل عمال التعدين »
كلما مررت من هنا
لم أتمالك نفسي
من الوقوف برهة عنده .
أُسرِّح النظر
في كل نافذة
واسترق السمع الى الغناء والضوضاء
ومايصدر عن الأطفال
الذين يرتعون في البيوت الجديدة .
أَعُدُّ الشرفات
واحدة تلو الأخرى
كما أعدّ تلك التنانير الصغيرة والقمصان
ماأجمل تلك القمصان الصغيرة الحمراء
كانت مثل غمامات متوردة في وهج الشمس
ماكان أجمل تلك التنانير الملونة البراقة
كانت تتدلى في كل مكان
مثل مجد الصباح
داومت النظر اليها
طويلاً طويلاً

ونسيت أن أذهب الى البيت .

وإذا سُئلت
لم هذا التعلق
بتلك التنانير والقمصان الصغيرة
فالجواب لايمكن ان يصدر الا عن القلب
ولايمكن التعبير عنه بالكلمات
واذا لم يكن من الايضاح بد
فالسبب مختصر وبسيط :
منذ طفولتي
كنت آلف الاطفال هنا
كانوا يولدون
عراة تماماً
على هذا المنحدر الجبلي
وكانوا أخيراً يدفنون
وهم مازالوا عراة تماماً
في أسفل الجبل .

((ارض العشب بعد المطر)

الصفارة
تخلف الليلة الماطرة وراءها
والفجر
يدرك القطار

وتمطّي غيمة وردية
يوقظ النائمين من سباتهم
انظر ، آه ابصر
أرض العشب بعد المطر
أي منظر خلاب

شمس الصباح
تصّاعد من قطرات الندى
والنجوم الخابية
تسّاقط في بحيرة العشب
وتتمطى سماء مشمسة
حتى نهاية الارض
وتغدو السماء والماء كلاً أزرق
أيُّ امتداد واسع لهذه الارض
أين تقع حدودها ؟
أين تقع تخومها ؟

أرض الشعب ، ياأرض العشب
بمثل هذه الرؤ يا الفسيحة
ترعرع في ظلك
بنوك وبناتك
الذين وهبتهم جنوح الفرسان .

ان الخيام الجلدية
أشبه بزهور فوق أرض العشب
والأغنام

أشبه ببجع راقص
وفي أقصى المطر
تموج الخيول - كلما التمعت السياط - مثل مدٍ دافق
وفي أسّفل المنظر
يتراقص العشب مع الريح
ياللبهجة ، ياللبهاء
ألف شعاع من ضوء الشمس
عدد لايحصى من الأزهار المتنوعة
ياأرض العشب ، آه ياأرض العشب
انك بمثل هذه الألوان .
رسمت لمسات الفتنة خارج (السور العظيم)
وصبغت الحياة بألوان العشب .
القطار
يسرع عبر أرض العشب
والصفارة
تصفر شارة الوداع لأرض العشب
ياأرض العشب
كيف أستطيع ان احمل مناظرك البديعة
الى الاقارب والأصدقاء في بكين ؟
ياقطار
أبطىء من فضلك
دعني التقط
خصلة من الغمامة القاتنة
وأضعها بين أوراق(٢) كتاب ؟

((متحابان))

وقع كل منهما في غرام الآخر
كان الشاب
مراسلاً حربياً
وكانت الفتاة
طبيبة عسكرية

كان الذي قدمته له
حياته الثانية
كان الذي قدمه لها
نسخة من يومياته في الميدان

كانت نظراته المشعة
كناية عن طلب يدها
وكانت ابتسامتها الخافتة
كناية عن قبولها
وكان لسان حالهما يقول
« ننتظر الى أن نحرز النصر »
وكان اتفاق ضمني
فهمه الاثنان

ولكنهما لم يتزوّجا ابداً
فالشاب
اسلم روحه

وهو يتابع أخبار معركة
والفتاة
قتلت فيما كانت
تحاول انقاذ جندي جريح

لا . انهما مازالا على قيد الحياة
في تلك المنطقة الجبلية العيدة
ان نبتة الأزاليا النارية
تتوهج مثل خدّيها
وشجرات الحور الزمردية
تنتصب مثل قامته المشدودة

مازالا يعيشان
وسوف يستمر الى الأبد
حبهما الشاب
وسيكون عمرهما دائماً
أربعة وعشرين
وثلاثة وعشرين !

((بين المعارك))

دويّ المدافع
يتلاشى
رشقات البنادق

أضحت متقطعة

ومن بعيد تسمع بصعوبة

بضع نداءات من أبواق منهكة

ودخان البارود

يتبعثر مع الريح

والصمت

يخيم على ساحة المعركة

الممرضون

منهمكون في إكساء الجرحى

وفرق النقالات

منهمكة في الاندفاع من مكان لأخر

« هو - لو ، هو - لو

أولئك المشتاقون الى النوم

يشخرون الان شخيراً عالياً

ويغرقون في أحلام عذبة .

اما الشبان (الملاعين)

فيتبادلون النكات

من أجل التسلية

ويقول واحدهم للآخر

إذاً ، أنت حيٌ يرزق »

على أرض المعركة
لاتسير الأشياء دائماً
وفق ايقاع واحد .
الآن ، لاقذائف ولا لهيب ،
وعالياً في السماء
يحول حول فوّهات البنادق
زوج من الفراش
وفي الأسفل على أرض الميدان
تنتشُ الخيول بلطف
قطع العشب من التراب .

((المطر في الجنوب))

المطر في الجنوب
يحمل القسمات الفريدة .
لمناطق الجنوب .
إنه قطعاً لايشبه حراس القطيع
المنطلقين على صهوات الخيل
إن فيه نفساً من صائدات السمك
اللواتي يجدِّفن قواربهن جيئة وذهاباً .

وحين يهطل
فإنه يأتي ناعماً رشيقاً
وحين يخف بالتدريج

يكون لطيفاً وعذب الوقع
لايكاد هذا يكون مطراً
إنه أشبه بعملية رسم
تقوم بها الغادة السماوية
وهي تدلق ألوانها المائية

إنه يجعل بيارات الخيزران
تبدو انضر وأشدَّ اخضراراً
ويجعل التلال الخضر
تزدهي بحللها السندسية .

ترجمها الى الانكليزية
هو شيغوانغ
عن مجلة (الأدب الصيني)
شتاء ١٩٨٤

ماوتسي تونغ .. شاعراً

ترجمة : د. شاكر مطلق - عن الألمانية

ايضاحات :

في عام (١٩٦٣) ظهرت في الصين الطبعة الأولى لمجموعة شعرية تضم (٣٧) قصيدة لقائد الصين العظيم الراحل (ماو - تسي - تونغ) تلتها عام (١٩٦٤) الطبعة الثانية .

(١٩٣٧) نشر « ادغار سنو » Edgar Snow ، وبعده عام (١٩٥٠) « روبرت بين » R.Payne خبراً في العالم الغربي يشير إلى أن ماو - تسي - تونغ شاعرٌ ونشر ثلاثة نماذج من شعره .

وحتى (١٩٥٧) كانت قد نُشرت ثماني عشرة قصيدة ١٩٥٨ ثلاث أخرى ، ١٩٦٢ ستُ أخرى .

معظم هذه القصائد كان قد كتب في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . وقد اعتمدت في هذه الدراسة على ترجمة « يؤاخيم شيكل Y.schikel للقصائد من الصينية الى الألمانية والتي صدرت عن دار النشر : H.U.Campe في هامبورغ بالمانيا الاتحادية في العام ١٩٦٥ وبعدها عام (١٩٦٧) في دار النشر (dTV.) - طبعة جيب - مونيخ عام (١٩٦٧) .

واذا كانت القصائد قد ترجم بعضها عن المصدر المذكور الا ان النص الذي أقدمه لايعتمد دائماً على ماجاء في هذا المصدر فقط ولايعتمد بشكل خاص على ترجمة دقيقة وحرفية ، وإنما صيغ بالشكل الذي اعتقد أنه الأفضل للدخول في هذا الموضوع .

في تاريخ الصين لم يكن من النادر ان يكتب بعض حكامها الشعر ، ولكنهم قلة أولئك الحكام الذين يمكنهم القول كما قال : (بوشو - إي PO CHU I) عن نفسه : بأن شعرهم يُروى على « أفواه الرعيان - وخادمي الخيول ، ويعلّق على جدران القصور والمعابد ومحطات البريد » .

حوالي العام (٢٠٠ م) أحب القيصر (تساو ، تساو Tsao TSAO) وأولاده جميعاً الشعر وكتبوه .

« تاي - تسو TAI TSU » الذي انتصر في القرن العاشر على القيصر (الشاعر) « لي - يو LI YU » قال ساخراً :

((لو أضاع « لي - يو » الوقت في ادارة الامبراطورية ، بدلا من إضاعته في الشعر ، كيف كان يمكن أن يصبح أسيري ؟))

هذا القيصر الشاعر « لي - يو » هو الذي أوصل قصيدة (تسو - TZ U) الكلاسيّة الى الازدهار ، هذه القصيدة الغنائية الصعبة ، والتي كانت تنظم على ألحان قطع موسيقية جاهزة ترافقها آلات وتريّة ومزمار في البدء ، والتي تعتبر من روائع أدب الحب الصيني برقتها وعذوبتها ، وتحتل مكانة مرموقة في الأدب العالمي . هذا النمط الشعري الصعب هو الذي كتبه في القرن العشرين « ماو - تسي - تونغ »

وعندما نشرت ست قصائد له في العام (١٩٦٢) (نزولا عند رغبة أصدقائه) كما قال ، كان قد كتبها مابين ١٩٢٩ - ١٩٣١ (على ظهور الخيول) وكادت تنسى .

وقد ذكر « روبرت بين R.Payne » أن « ماو » إبّان جلسات حكومة السوفييت الصينية في (ينان YEN an) كان يكتب القصائد على قصاصات ورق كما يتسلّى الآخرون برسم الوجوه ، ويُلقيها بعد الجلسات على الأرض ، حيث يتهافت العديدون على الحصول عليها .

وقد تطورت قصيدة (تسو TZ U) في القرن الحادي عشر على يد بعض الشعراء أمثال (سو تونغ بو SU Tung P O) وأُدخلت فيها مواضيع بطولية ، ولم تعد تقتصر على مواضيع الحب فقط ، وعلى الرغم من أنها لم تعد تُرافق بالموسيقى (الخارجيّة) إلا أنها لم تزل حافلة بموسيقاها الذاتية .

وهي تتألف من مقاطع طويلة وقصيرة أي (أبيات) ثلاثية رباعية وخماسية أو اكثر وهي ليست « شعراً حراً » ، وتستمد من هذا التباين العددي ايقاعها الخاص .

ويذكرني هذا بالبناء الخاص لقصيدة (الهايكو) اليابانية وقصيدة (التانكا) وبالقيصر (ميجي) الذي يعتبر من كبار شعراء (الهايكو) الى جانب (بوزون) - باشو - عيسى - شيكي وغيرهم ، ومايزال هذا النمط الشعري يلقى ، حتى اليوم في اليابان - الرعاية والاهتمام في بلاط القيصر وفي أوساط المثقفين الامر الذي لمسته شخصياً هناك ولم أستطع أن أجده إبان زيارتي للصين الشعبية عند بعض من تحدثت اليهم من المثقفين ، وربما يعود ذلك الى الصعوبة القصوى في معرفة رموز اللغة القديمة التي يتطلب من المثقف أن يعرف منها أكثر من أربعة آلاف رمز وحتى يصل الى مرحلة أعلى من الثقافة كالشعر عليه معرفة أربعة آلاف أخرى ، بالاضافة الى (٣٥٠٠) رمزاً يتعلمها الطلاب اليوم في المدارس المجانية ، وتضم اللغة الصينية القديمة حوالي ٤٠ الف رمز . وهناك مسألة هامة أخرى وهي أن الأدب الصيني الكلاسي يستعمل كتابة خاصة ولغة خاصة بعيدة كل البعد عن الكلام المتداول ، بشكل لايسمح بالتعبير عنه بالكلام الشفهي ، وكانت هذه اللغة ضرورية لدخول الموظفين في خدمة الدولة وكان عليهم اثبات معرفتها بفحوص خاصة ، ولذلك كانت معرفتها مقصورة على الأغنياء الذين يستطيعون تمويل دراسة أبنائهم الطويلة والشاقة

وكـان من الضـروري (ترجمتهـا) - اذا صح التعبـير - من الكلمـة الصينيـة المكتـوبـة - الى الكلمـة الصينيـة المقروءة عند الناس العاديين حتى يتمكنوا من فهمها ، كما ذكر عالم اللغة الألماني (كارل أريند Carl Arendt) عام ١٨٩١ في دراسته للأدب الصيني .

وقـد كتب « ماو » ثلثي قصـائـده ال (٣٧) على هذه الطريقة المعقدة الكـلاسيـة التي تلتـزم بالمقطـع (الشكـل) الكـلاسيّ دون الالتـزام بالنوعية الصوتية أو الموضوع .

أما الثلث الأخير من قصائده فقد كتبها على طريقة قصائد (شي - لو CHI LU) الغنـائيـة ، ذات السطـور الثمانيـة والتي تحتوي كل منها على سبعة (أقـدام) - رمـوز - تلفظ في الصينية كمقطع واحد - وهذا النمط يتبع نوع (الشي - CHIH) أي القصيـدة الحقيقيـة ، كما أن له قصـائـد كتبت على أساليب قديمة أخرى .

وكـما في قصيـدة (تسو) كذلك قصيدة (شي) مقفّاة ، ولكن أنظمتها المتعلقة بالايقاع والنطق تتطلب جهداً عالياً ، وقد شهد علماء اللغة الغربيون (لماو) بسيطرته (بشكل كاف) على قواعد هذا اللون الشعري .

بتـاريـخ ١٢ / ١ / ١٩٥٧ كتـب (ماو) الـى رئيس تحريـر المجلة الشهرية (شعر Chih U am) قائلا :

((. . . كما ترغبـون قمت الآن بنسـخ . . كل ماأتـذكره من قصائدي الكـلاسيـة . . حتى الآن لم أرغب أبـدا بالاعـلان عن هذه الأشياء رسمياً ، لأنها مكتوبة على الطريقة القديمة . لقد كنت أخشى أن يشجع ذلك اتجاها خاطئـا يؤثـر سلبياً على الشباب ، بصرف النظر عن كونها ، أي قصائده ، لا تتصف بشاعرية كبيرة ، وليس هناك مايستحق الاهتمام بها . . طبعا يجب ان

يكتب شعرنا ، بشكل رئيسي ، على الطريقة الحديثة . يمكن ان نكتب أحياناً شعرا على الطريقة القديمة ولكن لا يُنصح بتشجيع الشباب على ذلك ، لأن ذلك سيحد من أفكارهم ، عدا كونه صعب التعلم))

بعد مرور سنوات قليلة على ثورة - ١٩١١ - ارتفعت بعض الأصوات تطالب بالتخلي عن الشكل القديم في اللغة التي لايفهمها الشعب وشبهها بعضهم باللغة اللاتينية بشكلها القديم الذي انقرض بينما لاتزال اللغة اللاتينية بشكلها المتطور مستعملة حتى اليوم ، ولأنها - أي اللغة الصينية القديمة - (محمّرة مبُودرة) غدت مجرد (كليشات) بلا حياة .

ولذلك اتجه الشعر نحو الشكل المسمى « باي هوا Pai Hua » أي الى لغة الرجل العادي .

وقد طالب (ماو) عام ١٩٤٢ في مؤتمر الأدباء والفنانين في (ينان Yen an) الكتّاب باطاعة مقوله (لوهسون Lu Hsum) القائلة :

((برأس مطرق وبرضى ، أخدم كُجاموسٍ ماء الطفلَ))

أي الشعب ، هذا النداء الذي لبّاه كل الأدباء تقريباً - على حساب بعض القيم الفنية طبعاً - لم يلتزم به (ماو) الشاعر الذي تحدث الى الأدباء كسياسي .

وقد أكد أيضاً في كلمته على ضرورة الاستفادة من التراث باشكاله كافة حتى الشعبي والاقطاعي فيه ، في المجال الثقافي ، وصياغته بطرق تخدم الشعب في حياته الجديدة .

وقد شرح هذه الفكرة فيما بعد (١٩٥٧) بشكل مفصّل ، عندما أشار الى أن التراث يبقى تراثا في الأدب والفن ولايجب تقليده بشكل أعمى لأن

الكـاتب الثـوري يجب ((أن يذهب الى الجـاهير)) ولفترات طويلة والا فلا جدوى من عمله وان عليــه أن لايتخلى عن المضمــون السيـاسي من أجل الشكل الفني وإنما يحارب على الجبهتين معاً وبشكل متناسق ومتزامن .

وعلى الـرغم من ذلــك فقــد كتب ، عدا (ماو) رئيس الاكـاديميـة الصينيـة (كومـويـو Kuo Mo Yo) وكذلك الجنرال (شوتي Chu Te) على نفس الانماط الكلاسية القديمة - (شي) و (تسو) شعرهم .

هذا التنـاقض الظـاهـري بين اعتـماد الأسلوب التقليـدي المعقـد (التراثي) في الأدب وبين متطلبات الانفتاح على جميع الشعب بأدب يحمل سمات الأفكار الثورية الجديدة كان قد واجه الشيوعية الروسية قبل ذلك .

ولكن « الافكـار الثـورية استطاعت تجنب الوقوع في الشّرك القديم كما عبر عن ذلك (ميخائيل لفشتز M.Lifschitz) وتابع قائلا :

(غير ان ذلك لم يتم بدون صراع داخلي ولكن النصر حملته فكرة لينين)[1] .

وكان هذا القياس ، ساري المفعول طبعاً في الثورة الثقافية ايضا وبالرغم من كل ماأشيـع حولهـا من مغالطات ، وقد طالب (شوان إن لاي) في كلمته بتـاريـخ ٢٨ / ١١ /٩٦٦ محاولاً القـاء الأضواء على مغزى كلمة (ماو) من العام / ١٩٤٢ / أمام الأدباء والفنانين في (ينان) بما معناه :

على الثـورة الثقـافيـة أن تحطم كل الايـديولوجيات والثقافات القديمة التي طبقتهـا الطبقات المستغِلّة آلاف السنين والانفتاح على الجماهير العريضة ووضع التراث في خدمة الحاضر وحتى الأجنبي في خدمة الصين ، مع الحفاظ على امكانية الفهم العام لها ، ورفع مستوى هذا الفهم العام في الوقت ذاته .

وإن كان المجال هنا لايسمح بالافاضة حول هذا الموضوع وهذا التناقض الظاهر بين أشعار (ماو) وأفكاره الثورية ، الذي هو في الحقيقة غير موجود ، إلا أن المجال قد يسمح بعرض.فكرة موجزة قالها :

(سيتوارد . شرامز ، Stuard R.Schrams) حول هذا الموضوع .

« ان اشعاره – أي « ماو » – هي تعبير دقيق عن التآلف والذّوبان بين الماركسية اللينينية وبين التقاليد الصينية . . وهويعبر عن اتحاده مع شعراء الماضي في الوقت نفسه الذي يحوّل أشكال شعرهم العاطفية الى أمل ثوري » .

الواقعية والرومانتية ، في الأدب الصيني يتحدان في مفهوم ثوري ، « وعلى كل شعر هام أن يشع بقوة من تحطيمه للتقليدي وامتصاصه (له) » .

الواقعية والرومنتية ، هذان التوأمان الدياليكتيان بحاجة الى تفسير مختصر هنا . أما الواقعية فهي معروفة بما فيه الكفاية وأما الرومانتية هنا فهي ليست ذلك الهروب الخيالي والاغتراب وإنما تبقى هنا موضوعية ، عارفة بالتاريخ ، غير خيالية ، فالكائن التعيس يتحول فيها إلى « شخصية شعبية ايجابية » ومبدؤها ليس الأمل بالثورة وإنما هي ذاتها ، تستدعي الماضي والأساطير والبطولات لتتصور هذه الصور الكبيرة في الحاضر وللتعرف على ذاتها من خلال ذلك ، ترتحل الى العوالم الخيالية لتؤكد عناصر الكون التي تحدث ، بشكل طبيعي هنا . .

وهذا هو المفهوم الذي نجده عند (برتولد برشت) وبخاصة في « دائرة الطباشير Kreideures» وانسان سيتشوان الفاضل (Der gute Mensch V.Sezuan) (٢) .

ولقد تطرق (كومو – يو Kuo Mo Jo) في دراسته هذا الموضوع (الرومنتية والواقعية) الى « الطريقة الفنية الجديدة » التي جاءت بها أشعار

(ماو) التي لم تتجاوز ٣٧ قصيدة حتى ولو صح ظن (ر . بين R. Payne) بأنّ العدد الحقيقي الذي يعرفه هو ضعف ذلك وفي تلك الدراسة كما عند آخرين من علماء (الجمال) الصينين دعوة الى المفهوم الذاتي في عملية الخلق الفني تحت شعار (الرومنتية الثورية)

والواقع ان (ماو) قد وافق على نشر قصائده لأول مرة - كما ذكرنا - في عام ١٩٦٣ أي في جوومناخ معتدل ، ومتحرر ايضا في مجال التعبير الأدبي والفني ، هذا المناخ الذي عبر عنه (ايليا اهرنبورغ E. Ehrenbrg) في عام / ١٩٤٥ / قبل انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي بعامين وقبل حملة (مئة الزهرة) الصينية .

وإذا كانت أشعار (ماو) قد كتبت في مناسبات عديدة منها (مسيرته الطويلة) وغيرها من الاحداث الثورية ، وبقالب تقليدي ، كان محتكرا لشعر تمجيد الملوك في وقت ما من تاريخ الصين ، الا انه لابد من توافق بين ((المناسبات الخارجية والداخلية حتى لكأن الشاعر قد خلقها بذاته)) - كما عبر (إلوار Elwond) - حتى ينضج مثل هذا العطاء . وهذا مافعله (ماو) .

البحث عن قصائد (ماو) :

لقد كان « ادغار سنو E. Smow » هو أول غربي اطلع على بعض قصائد (ماو) باللغة الصينية .

في عام / ١٩٣٧ / نشر في مقالته : (النجم الأحمر فوق الصين) قصيدة كلاسيكية ترجمها عن الصينية « لأحد الثوار ، الذي يُحسن كتابة الشعر كما يحسن ادارة المعارك (٢) - المسيرة الطويلة .

إبّـان فترة الهـدنـة عام (١٩٤٦) بين قوات الحـزب الشيوعي الصيني وقوات (الكومن تانغ Kuo min tang) طار (بين R. Payne) من بكين الى شمال الصين حيث مقر قيادة الثورة هناك للتعرف على أشعار (ماو) التي كان قد سمع بوجودها ونشرت واحدة منها في (Ta Kung Pao) ولكنه لم يستطع ، برغم إلحاحه الشديد الحصول من (ماو) على أية قصيدة ، وكان رأي (ماو) « بأنها – أي القصائد – ركيكة ، أنا أكتب الشعر لمتعتي الخاصة . . لا يجب عليكم حملها محمل الجد » .

وقبل رحيله حاول (بين) مرة أخرى – وكان قد حصل على اثنتين منها وأصبح المجموع ثلاث قصائد – وكان قد حصل على القصيدتين من رئيس تحرير مجلة (التحرير) ، وسأل (ماو) عن وجود قصائد أخرى له فنفى قائلاً (في الوقت الحاضر لا)

ولكن مجلة (شعر SHI K. an) نشرت في عددها الصادر في كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ثماني عشرة قصيدة (لماو) . وقد أشار رئيس تحرير مجلة شعر في حينه الى أن القصائد حُققَت من قبل الشاعر ، لأنها كانتِ الى حد ما موضع مراجعة مما أدى الى بعض التحريف في بنائها وربما في محتواها ايضا .

بعـد ذلـك بعام أي عام ١٩٥٨ نشرت مجلة شعر قصيدة أخرى (لماو) نظمهـا على طريقـة (TZ U)وأمسى العدد تسـع عشرة قصيدة . ووصل العدد المنشور من القصـائـد حتى عام ١٩٦٢ الى سبع وعشرين قصيدة . ولكن في عام (١٩٦٣) ظهـرت مجـموعـة (أشعـار وأناشيد للقائد ماو) حاوية مجموع قصائده السبع والثلاثين والتي كتبت في مناسبات وأوقات متباعدة وعلى أنماط كلاسية مختلفة .

ترجمة القصائد :

الصعوبات المعروفة بشكل عام في مجال ترجمة الأدب والشعر خاصة ، لم تكن وحدها موجودة هنا إبّان ترجمة النص من الصينية الى الالمانية - التي أخذنا عنها ترجمتنا العربية - وإنما أُضيفت إليها صعوبات أخرى تتعلق بطبيعة اللغة ونظام بناء القصيدة الصينية القديمة التي كانت نواميسها تشبه طقوساً غامضة سرية . لهذا نجد مثلا في ترجمة قصيدة (لماو) من أربعة سطور ، هذه السطور تصبح (٢١) والكلمات الموجودة في النص الأصلي (٢٨) تصبح (٦١) والايقاع الموحد يتحوّل الى ايقاع متنوع ، بخلاف ترجمة أخرى اقتربت من النص الأصلي اقتراباً عظيماً وهنا حصل ما طالب به بعض علماء اللغة الألمانية حيث تم « تصيين الألمانية » بدلا من (أُلمنة الصّينية) - إن صح التعبير - إبان الترجمة الجيدة ، الأمر الذي هو عمليا غير ممكن بسبب

خصائص لغوية ، تمنع ذلك - إذ أن الكتابة الصينية مثلاً التي ابتدأت من الصور فالشمس مثلاً : (دائرة بداخلها نقطة ثم مربع بداخله خط عرضاني) لتصبح في اللغة خطوطا منطوقة بايقاع معين وتكتسب معناها وخاصيتها من ذلك ، حتى أن أحد اباطرة الصين (هوانغ - تي Huang ti) أعطى كل أسرة شعار اسمها الذي ترفعه ، من أنغام كان يعزفها على المزمار .

وكان يتم فحص هذه الشعارات التي ترفعها الأسرة كل تسعة أعوام ومدى مطابقتها (للنغم) الممنوح لها كترخيص ، وذلك بحضور موظفين من الدولة وموسيقيين من العميان لايستطيعون رؤ ية الشعارات وانما يحددون ، استناداً الى النغم المعزوف ، مايجب أن يكون عليه شكل شعار للأسرة .

وهذا يعني ببساطة أن رموز اللغة الصينية ، منطوقة أم مكتوبة تكون

دوماً رمزا لصوت واحد ، وبذلك تحرك مجموعة واحدة من الخطوط المركبة الاهتمام والنشاط عند السامع أو القارىء على السواء .

هذه الصعوبات في الترجمة من اللغة الصينية لمسها (برتولد برشت) الذي ترجم للشاعر الصيني (بوشو - أي PO Xhu i) كما ترجم احدى قصائد (ماو) وعبر عن ذلك قائلا :

((ان جزءاً من الجمال الشعري للأصل يكمن في صورة الكتابة ، في الخيار والتنسيق . . مما نعطي الكتابة ميزتها الخاصة ، التي لايمكن طبعاً انقاذها (إبان الترجمة)

وبذلك تفتقد حاسة البصر متعة تأمل التناسق في ترتيب الرموز على الورق - والذي يكاد يشبه فن تنسيق الزهور - كما أن حاسة السمع لاتستطيع - في النص المترجم - ان تتمتع بالايقاع الخاص للقصيدة (أنشودة لحن الكلمات) التي تنبع من تتالي لحن الكلمات ضمن البيت الواحد وحسب نظام معين للقافية ونطق الكلمات وعدد المقاطع وعدد الرموز المستعملة في كل منها (ان يختلف اللحن مثلا - في بعض طرق نظم الشعر الكلاسي الصيني التي تشبه (البحور) عندنا - وان كانت أكثر تعقيداً - بين البيت الثاني والرابع ، ولكن الثاني يجب ان يتوافق مع السادس في ايقاعه أوفي نمط آخر مثلا (Ch i Xhuch) وهو ضرب من نوع (Shih) - يتألف من أربعة سطور فقط لكل منها سبعة رموز ، وهذا النمط قد استعمله (ماو) مرتين في شعره ، حيث نجد ان ايقاع البيت الأول والرابع في رمزه الثاني واحد ، وايقاع البيت الثاني والثالث يجب أن يكون مضادا للايقاع السابق)

هذه الأمور تكاد تشكل المدخل الى متاهات فهم الصورة الشعرية الكلاسية في الصين حيث يوجد العديد من القواعد والرموز التي تجب معرفتها

مسبقاً لفهم النص وحيث الكلمات لاتعني مجرد كلمات أو مترادفات فقط وإنما تكتسب بُعداً شاعرياً من خلال مكانتها في الجملة وارتباطها بمفاهيم أخرى لا علاقة مباشرة لها بمعنى الكلمة الموضوعة وحدها على الورقة ، وبالضبط هذه النقطة كانت دائما تثير لديّ الشكوك في دقة الترجمة للأدب القديم في بلاد الرافدين وبخاصة (لملحمة كِلْكامِشْ) وغيرها من النصوص حيث يتم فك الرموز ووضع أحرف مرادفة لها لنحصل على كلمات ترتّب في سطور ومقاطع وتعطي أحيانا صورة ليست بذات إشعاع شاعري ساحر ، كالتي نجدها في مقاطع أخرى ، في الملحمة نفسها وربما يعود ذلك - كما في الأدب الصيني أو الياباني (قصائد الهايكو) الى هذه النقطة بالذات .

وعلى الرغم من أن المجال لايسمح هنا بالتوسع في مناقشة مثل هذه الأمور إلا انه قد يكون من المقيد إعطاء مثال على ذلك .

((السلام الكبير فوق العالم)) هي الترجمة الحرفية والصحيحة للسطر قبل الأخير من قصيدة (ماو) (K un lun) (جبال : ك أون لون) من عام ١٩٣٥ ونصه :

(T,ai P ing shih chieh)

ولكن أي سلام هذا المقصود ؟ فلو كان المكتوب هناك :

(ho P ing) - وهو التعبير الحديث الدارج (للسلام) لانتهى الأمر ، ولكن لفظة (ho) تثير العديد من الصور في مخيلة القارىء : التفاهم ، هو المقصود ، ولكن ذلك الذي يتبع الخصام - الصداقة التي تحل محل العداوة ، التناغم الذي يذوب فيه الصوت الشاذ ، الالتقاء الذي كان متنافرا ، تصالح المتصارعين ، كصراع الجنسين (رجل / امرأة) فريقين ، شعبين ، كل هذا تثيره لفظة (ho) في مخيلة القارىء

تأتي بعدها (Ping) - وهي الصورة القديمة للميزان ، وهو رمز التوازن

وهو يستعمل لوزن أشياء مختلفة ويحتاج المرء الى اضافة وزن ما ليتساوى وهذا يتطلب الأمـانـة وكـذلك الرقابة وحيث يتم هذا التوازن والتناظر الطبعي يسود الهدوء والأمان وربما (السلام) فاذن (ho Ping) تعني :

تصـالـح الأضداد - التوازن في كفتي الميزان ، أي (السلام) الذي هو هنا ليس مجرد مفهوم سطحي جاهز وإنما يجب الحرص عليه وعلى كفتي الميزان لبقائه .

كلّ هذا النمـوذج لشـرح كلمة أو تعبير واحد في القصيدة ، وعلى هذا المنـوال تم التعـامـل من قبل علماء اللغة المختصين أمثال مترجم هذه القصائد الى الالمانية مع النصوص الشعرية (لماو) الأمر الذي يثير إعجابنا الكبير وفي الوقت ذاته يكشف صعوبة الترجمة الى الغربية .

وذلك على الرغم من تجاربي السابقة في الترجمة عن الألمانية ، ولاسيما بعد أن ترجمت للشاعر الالماني المستعصي على الترجمة (هانس بوتشر المسمى يؤاخيم رنغـل ناتس) دراسـة نشـرت في « الآداب الأجنبيـة ، العدد (٢٨) آب / ١٩٨١ دمشق وإن كنت لاأزال عاجزاً عن نقل بعض قصائده الى لغتنا العـربيـة بما يكفـل الـدقة والامانة ، على الرغم من مضي عشرين عاماً على محاولاتي المستمرة .

نماذج مترجمة عن الألمانية لبعض قصائد ماو تسي تونغ :

(برج « البجع »(*) الأصفر)

- مطلع ١٩٢٧ -

في الخلف البعيد ، أذرع تسعة ، إنها تخترق الصين
في الأسفل العميق خط حديدي متعرج شمال - جنوب
الضباب ، المطر ، زرقة محتجبة
سلحفاة ، أفعى حزام جبلي على (نهر) اليانغ تسي
البجعة الصفراء ، من يدري الى أين ؟
لم يتبقّ ، سوى استراحة الجوال
النبيذ يُوهب للنهر الجاري ،
طوفان القلب يعلو علوّ الأمواج

تعليق حول القصيدة :

هذه القصيدة التي نشرت لأول مرة عام / ١٩٥٧ / ، كانت قد كتبت على نمط (Tz u) لمقطوعة موسيقية (البرابرة) من القرن التاسع - عهد تانغ - وهي تصور مُثول المبعوثين الأجانب في حضرة القيصر برفقة نساء يضعن على شعرهن المزين والمرفوع الى الأعلى غطاء مذهباً ، وعلى خصورهن سلاسل الذهب واللؤلؤ .

ولهذه القصيدة خلفية تاريخية وإسقاطات عسكرية وثورية ، إبّان الثورة طويلة ومعقدة .

« جبل شنغ - كانغ »
- خريف ١٩٢٨ -

أعلام (الفرق العسكرية) في الأسفل ، الأعلام تبدو للعيان ،
في الأعلى قرع الطبول ، (صوت) النفير فى الأذن .
محاصرون بالأعداء ، قوة لاتحصى ،
على أنفسنا معتمدين ، نقف بلا حراك .

صف دفاعي ، جدار لايمكن الاقتراب منه
وعزم الجميع يزداد متانه
من هوانغ يانغ شي دوي المدافع يتصاعد أُنبَلّغ : العدو في هروبٍ ليلي .

تعليق حول القصيدة :

نشرت لأول مرة عام / ١٩٥٧ / ، وهي من نمط (Tzu) على اللحن الموسيقي - قمر على الشاطىء الغربي -

وهذه القصيدة لها خلفية تاريخية من أحداث / ١٩٢٧ / إن شكل (شان كاي شك) حكومته المضادة ، وإخفاق ثورة سبتمبر الفلاحية في مقاطعة هونان بقيادة (ماو) وفراره مع حوالي ألف رجل الى جبال (شنغ كانغ) الحصينة وما تلا ذلك من أحداث تاريخية .

« مطلع العام »
- كانون ثاني ، ١٩٣٠ -

نينغ هوا (Ning hua) (*)

شي إنغ - ليو - Ch ing liu - كوي هوا (Kuei hua) الطرقات ضيقة ، الغابات

عميقة ، الطحالب ملساء كالجليد

ماذا اليوم ، إلى أي مكان ؟

« الى الامام » - أصبع يشير الى هبوط جبل فو اي ( ) ع ظ ص

هبوط الجبل ، هبوط الجبل

الريح تَغرِد الراية الحمراء كلوحه

تعليق حول القصيدة :

نشرت لأول مرة عام ١٩٥٧ وهي على نمط (تسو Tz u) وهي لقطعة موسيقية تسمى : (لحن ، كما الحلم) وخلفيتها : بقاء الحبيبة وحيدة عند البوابة في ضباب الصبح ، حيث الأوراق تسقط والقمر شاحب ساطع ، وعنوانها مأخوذ من قصيدة للقيصر شوانغ تسونغ (Chwang T sung) (٩٢٣ - ٩٢٦) م من أسرة (مِنْغ) .

وخلفيتها هو النقد الذي كان قد وجهه (ماو) الى اولئك الذين يحاربون من أجل الحرب ، ويكتفون بالهجمات الانصارية السريعة ، حيث يصلون الى المدن ويستريحون وغير ذلك من النقد السلوكي .

(*) أسماء مواضع حصينة في مقاطعة فوكين .

« معبر لو – شان (Lou Shan) الجبلي »

– شباط ١٩٣٥ –

ريح الغرب ، حادة ،
عالٍ في السماء نداء الأوز البري ، قمر بكر متجمد ،
قمر بكر متجمد :
من الخيول ضربات الحوافر ، تقرقع ،
صدى الأبواق يُبتلع .
معبر الأبطال الجبلي ، حماقة أن تقول : إنه من الحديد
اليوم خطوه تَثَبَّتَتْ ، قهرنا الذّروه ،
قهرنا الذّروه :
جبال زرقاء كالبحار
شمس منطفئة كالزهور .

تعليق حول القصيدة :

نشـرت لأول مرة في ينـايـر / ١٩٥٧ / وهي مكتـوبـة على نمط (Tzu) للّحنِ المـوسيقي المسمى : « حنـين الى الجميلة في (شي ، إن Ch in) – والجميلة هنا هي إحدى سيدات البلاط لأسرة (تانغ) –

الخلفية التاريخية للقصيدة هي كسر الحصار عن الجيش الأحمر في اكتوبر / ١٩٣٤ / وانتشاره في المقاطعات الاحدى عشر واحتلال تسون اي (Tsun i) في يناير / ١٩٣٥ / وذهـاب المكتب السيـاسي للحزب الشيوعي الصيني الى هنـاك حُيث ثم انتخـاب (ماو) – الذي كانت السياسية العسكرية المتناقضة

التي تصله مسؤولة عن بعض خسائره العسكرية واعترافه بذلك - رئيساً أولَ للحزب وحيث يرغب في قيادة الجيش الى الشمال (حيث الأوز البري يهاجر ، والـذي يشبـه نداؤه صرخـات ألم الجنـود المتروكـين هنـاك ، وحيث (الريح الغـربيـة) و (معـبر الابطال الجبلي) يدعون الى تحريرهم ، وعندما تتلاشى الشمس تكون المعركة قد انتهت بالنصر الذي تطلّب التضحيات .

« المسيرة الطويلة »
- تشرين الأول ١٩٣٥ -

الجيش الاحمر يحتقر ، (في) مسيرتهِ الطويلة ، العناء ، عشرات آلاف الأفواه ، ألف جبلٍ ، وسير مرح .

خمسة سلاسل جبال ، طرق متعرجة ، تسلُقها لعب الأمواج

انحـدار (نا) الكتلة الصخـريـة (فو - منع (Wu . meng) كانجراف أرضي مياه الـرمـال الـذهبية : على انحدارات جبلية غائمة ، تدفىء ، جسر (تاتو Tatu) سلاسل عرضانية ، ببرودة الجليد .

فقـد في (من - شان Min shan) تصبـح السعـادة أكـبر ، في ثلج الف الميل ، جيوش ثلاثة : طريقها قد انتهى ، وجهها قد انفرج .

تعليق حول القصيدة :

نشـرت لأول مرة في كانـون الثاني / ١٩٥٧ / وهي على نمط (شي - لو Chi Lu) أو يمكن اعتبـارهـا - استنـادا الى (قواعد السبعة) من نمط شي (shih) ، أو (لوشي Lu shih) - أي (القصيـدة النظـامية) - لأنها تخضع في قياس اللحن وإيقاعها الخاص الى قواعد صارمة .

عام كامل من أكتوبر الى اكتوبر سار الجيش الأحمر قاطعا الصين من الشرق الى الغرب ومرة أخرى من الجنوب الى الشمال (حوالي ثلث محيط الكرة الأرضية) وقاسى الأهوال .

والقصيدة ، على الرغم من قصرها (٥٦ رمز لغوي فقط) ، تحدد مواقع جغرافية مثل (سلسلة الجبال الخمسة التي تمر بهونان - كوانغ - تونغ - كوانغ زي وكوي شو) وكتلة (فومنغ) الصخرية على أبواب (يونان) ، ونهر اليانغ تسي - نهر الرمال الذهبية - الذي تمّ اجتياز نصفه عندما أمسى جسر تاتو في الظهر وغير ذلك من الأمور الأخرى التي لا مجال لذكرها هنا .

« جبل ليو - بان

- تشرين الأول ١٩٣٥ -

علو سماوي ، شحوب غيمي
بعيدة عن النظر ، الأوزة البرية تطير الى الجنوب
لاسبيل للوصول الى الجدار العظيم ، ألسنا « صينيين » جيدين :
نعدُّ على الأصابع أميال الطريق ، عشرين ألفا

صاعدون جبل (ليو - بان) ، على قمة عالية
بحر الأعلام الحمراء ، متجعد من ريح الغرب
اليوم إذاً ، حبل طويل في الأيدي ،
متى (يحين) الوقت ، لشد وثاق التنين الأخضر ؟

تعليق حول القصيدة :

كتبت في تشرين الأول عام / ١٩٣٥ / ونشرت أول مرة عام / ١٩٥٧ / وهي منظومة على نمط (تسو Tz u) لقطعة موسيقية تدعى

(موسيقى السلام الصافي) والتي نظم (ماو) على لحنها ايضا عام / ١٩٢٩ / قصيدة (حرب تسيانغ - كوانغسي) وهي قطعة مجهولة الأصل من النصف الأول للقرن الثامن ، وهي من قصائد (المسيرة الطويلة) حيث استطاعت الثورة الشيوعية الصينية تثبيت مواقعها خاصة في (يينان) و(باو - أن) ومنها انطلقت ابتداء من اكتوبر / ١٩٣٥ / المقاومة ضد اليابان ، وفي الأربعينات المعارك الحاسمة ضد (تشانغ - كاي - شك) .

في السطر الثالث من القصيدة ترد كلمة (صينيون) ترجمة للأصل المستعمل وهو : (هان han) ، وهي تعني ، منذ مئات السنين ، اسم أسرة حاكمة في تاريخ الصين ولكنها تعني ، باللغة الرسمية (مجموع الشعوب الصينية) بصرف النظر عن أصلها الاتني ، كما أن الاعلام الحمراء لاتعني بالضرورة الثورة الشيوعية ، فهي رمز استعمله جنرالات الصين منذ القديم ، ومع ان (ماو) لايسنى أبداً الواقع ، غير أنه يضعه أمام خلفية تاريخية من عظمة الصين القديمة .

وأما (التنين الأخضر) وهو رمز سماوي لنجوم سبعة في السماء الشرقية ، فهو يعني هنا المعتدي الذي قدم من الشرق (اليابان) . وكان (روبرت بين) قد قال بان (ماو) يعني به (كل شر) .

(١) للمزيد حول هذا الموضوع في نقض مقولة (هيجل) الثورة تريد ان تضع تاريخا ، ولكن هذا التاريخ المصنوع غير جمالي انظر :

M.Lifschits, Karl Marxu.d. Aesthetiu, Dresdem o.j.s.10

هذا البحث « لكارل ماركس » صدر بالروسية أول الامر عام ١٩٣٠

(٢) انظر : Mit.L.Kofer, therorie d. mod. Witratur, neuwied a.Rh. 1962,s.210 f.

- (حول نظرية حديثة للأدب)

(٣) انظر : R. Payne, Mao tse tumg, Ham 6 urg 1951

مختارات من «كتاب الأغاني» الصّيني

ترجمة: يوسف أحمد المحمود - عن الإنكليزية

« كتاب الأغاني » هو أقدم مختارات شعريَّة في الصِّين . فقد كانت هذه الخمس والثلاث مئة أغنية ، التي في هذه المجموعة شائعة في عامّة الناس ، بين القرن الحادي عشر الى القرن السادس ، قبل الميلاد . ويُرجح أنها لم تجمع في كتاب واحد الاّ في عصر متأخر .

إنّ اكثر من نصف هذه الأغاني هو أغنيات شعبية ، جمعت من مناطق الصّين المتعددة . وما تبقى فهو أغنيات شعائرية أو مهرجانية ، أنشدت في البلاط أو في مآدب أو لدى تقديم الضحايا للآلهة أو الأسلاف . وقد ظلت هذه القصائد ، المكتوبة بأسلوب بسيط وطبيعي مفعم بالحيوية ، مستمتعة طوال العصور .

في العدد الثالث لسنة ١٩٦٢ ، من مجلة « الأدب الصيني » والعدد الثالث ايضا ، لسنة ١٩٧٨[١] ، نشرت خمس وعشرون قصيدة من هذه المختارات ، مع مقالات كتبها ايوعويانج وكسوغونغسبي .

* المحررون

مُناداة العقبان النُسارية

مرحةً تنادي العقبان النُسارية ،[٢]
في جُزيرةٍ ، وسط النّهر
الفتاةُ الكريمةُ اللبقِة ،
زوجةً تليقُ بالرجلِ الشَّهم .
قصيرةٌ وطويلةٌ هي الأعشابُ النامية في الماء ،
عَن شمالٍ ويمين يُمكن أن تُقتلَع .
كريمةٌ ورشيقةٌ هي الفتاة ،
التي ، مستيقظاً ونائماً ، يتوقُ اليها .
وإذا ماأخفق في التَّودُّد اليها ،
فإنه ، في يقظته وأحلامه ، يفكّر فيها .
وممتلئاً بالأفكار الحزينة .
يتقلبُ في فراشه لايقدر أن ينام .

قصيرة وطويلةٌ هي الأعشاب الطافية فوق الماء ،
عن شمال ويمين يمكن لك أن تجمعها .
وديعةٌ وجميلةٌ هي الفتاة ،
التي يودُّ أن يخطبها ، فدع الكين والسِّي يعزفان ،[٣]

قصيرة وطويلةٌ هي الأعشاب العائمةُ في الماء ،
عن شمال ويمين يمكن لك أن تأخذها .
لطيفةٌ وظريفةٌ هي الفتاة ،
التي يرغب ان يتزوجها ، فلتقرع الأجراس والطُبول .

شجرة الدُّراق نحيلةٌ وقوية

شجرةُ الدُّراق نحيلةٌ وقوية ،
أزهارُها المتفتحة تشتعلُ حمرة .
الفتاةُ تُطلب للزَّواج ،
إذا ما أصبحت صالحةً للبيت .

شجرةُ الدّراق هيفاءُ وقوية ،
ثمارُها وافرةٌ وحلوٌ مذاقُها .
الفتاةُ ، تحصل على الزَّواج .
إذا ماكانت مناسبةً للبيت .

شجرة الدّراق رشيقةٌ وقويّة .
أوراقُها كثيفةٌ وخضراء ،
الفتاةُ تظفرُ بالزَّواج ،
عندما تكون أشدَّ موافقةً للعائلة .

زورق خشب السَّرو

طليقاً راح الزَّورقُ المصنوعُ من خشب السَّرو،
ينقذفُ هنا وهناك على طول النَّهر .
عينايَ مفتوحتان ، لا أقدر أن أنام ،
وكأنَّ قلبي مثقلٌ بالأسى .
ليس لأني لا أجد خمراً أشربُه ،

أو لامكانَ أستمتعُ بزيارته .

إن قلبي ليس كمرآةٍ برونزية ،
تستوعبُ صورةَ كل شيء .
بل إنْ واحداً منهم غيرُ جدير بالثّقة .
إذ كلّما حاولتُ أن أُخرجَ لهم مظلمتي ،
وجدتُهم يتميّزُون غيظاً مني .

إنَّ قلبي لم يكُنْ كحجرٍ ،
لايستطيعُ أن ينقلبَ أو يتحرّكَ بيسر .
ولا هو كان كحصرة ،
لايمكن أن تُدرج عند الحاجة .
إني لأقسمُ بشرف وفخر ،
أن لن أنثني أبداً ، أو أن أذعن .

إنَّ قلبي مُرهقٌ بالاغاظة ،
فالأوغادُ يحملون لي الضَّغينة .
بكربٍ مُفرط يتحدونني ،
وبمهانة بالغةٍ يُعاملونني
صامتاً أُفكر بهذا كله ،
ماسكاً قلبي بيدي أن تبزغَ الكآبةُ الحقيقية علي .
أيتها الشَّمس ، أيها القمر ،
لماذا أنتما دائماً باهتان ؟
إنَّ قلبي الملطَّخ بالأسى ،

لايمكن أن ينظَّف كما تُغسل الثيابُ الوسخة .
صامتاً فكّرتُ ملياً بهذا كلّه ،
إنني لا أستطيع أن أبسطَ جناحيَّ وأُحلّق في الفضاء .

هذا هو الغسق

ها هو ذَا الغسقُ يقترب ،
ها هو ذا الغسقُ يقترب ،
فلماذا لا أمضي إلى البيت
إذا لم يكن عملي إلاَّ سخرةً لمالِك الأرض ،
فلماذا علينا أن نتحمل النّدى الكثيف ؟

ها هو ذَا الغسقُ يقترب ،
ها هو ذا الغسق يَقترب ،
فلماذا لانذهبُ إلى البيت ؟
إذا لم يكن عملنا إلاَّ لشخص مالك الأرض ،
فلماذا علينا أن نكدح في الوحل ؟

حتّى الموت أمّلت أن تعيش مع زوجها

بالآمل أن تعيش مع زوجها حتّى الموت ،
توّجت رأسها إكليلاً بست جوهرات .

إنه ليبدو فخماً وجميلاً جداً ،
كجبالٍ مهيبةٍ وأنهارٍ رائعة .
ثوبُها المزخرفُ يلائمها كُلَّ الملائمة .
إلاّ أنّ القدرَ كان سيئاً ،
فأيةُ بليةٍ يمكن أن تُجتنب !

ريشُ التدرج المرسومُ على ثوبها ،
شديد الزهو وبهي الأسودُ المحلولُ يكلّل رأسها كالغيوم ،
فلا تحتاجُ الى خصلات شعرها إضافية
قُرطاها المتدلّيان من اليشب مصنوعان ،
ورأسُها من العاج مصوّر .
جبينها واسعٌ وناصعُ البَشَرةَ ،
فلماذا عليها أن تصعد إلى السَّماء ؟ولماذا تعرض نفسها أمام الآلهة ؟

فاتنةٌ جداً وزاهية ،
ملابسُها الاحتفاليةُ البيضاء كالثلج .
فوق مبذَل الكريب الرائع ،
ترتدي ثوباً مسدوداً مناسباً .
صافيتان ومتألقتان عيناها ،
وحاجبُها فسيحٍ .
حقّاً ، إن سيدةً واحدة فقط مثلها ،
لها أن تكون حسناءَ هذه الولاية .

السُّنونات

السُّنونات تستحثُّ أجنحتها على الطَّيران ،
قصيرٌ وطويلٌ ريشُها ،
والسيِّدة نحوَ البيت تتوجَّه ،
في أقصى الحقول أراها منطلقة .
حدَّقتُ إليها حتَّى فاتت النَّظر ،
فانهمرت دموعي كمثلِ المطر .

السُّنونات تستحثُّ أجنحتها على الطيران ،
صعوداً ونزولاً تحُوِّم .
والسيِّدة ماضية باتجاه البيت ،
مراحلَ كثيرةً أراها قد قطعت .
متطلّعا اليها مازلت حتى تجاوزت النَّظر ،
فوقفتُ أبكي وقتاً طويلا .

السَّنونات تحضّ أجنحتها على الطَّيران ،
غناؤها يرتفعُ وينخفض .
والسيدة نحوَ البيت ذاهبة ،
بعيداً الى الجنوب أراها تذهب .
ناظراً إليها مازلتُ حتَّى خفيت ،
فامتلأ قلبي بالأسى .

رين ، هو اسمُ عائلة هذه السيدة زهونج :

قلبُها مخلصٌ وعميق .
كريمةٌ وشفوقة ،
فقد ظلَّت محترمة وطاهرة .
لأنَّ حبَّ الملك الأخير ،
طاعةٌ بنيويةٌ واجبةٌ لأرامله .

السيدة العامرة الصّدر

السيدةُ العامرةُ الصدر جسيمةٌ وطويلة ،
وشاحاً ترتدي فوق الثَّوب المقصَّب .
هي ابنةُ دوق كي ،
والآن هي عروسُ دوقنا ، دوق ويء ،
الأتُ الصُّغرى وريثةُ كي ،
امرأة أخي ماركيز كسينج ،
وسيّد تاث هو صهرُها .

أناملُها النَّاعمةُ كأطرى ما يكونُ العُشب ،
بَشرتُها بيضاءُ وملساءُ كالدُّهنِ ،
عِنقُها طويلةٌ وناعمةٌ كقرني اليَرقَة ،
أسنانُها مستويةٌ وناصعةٌ كبزور الشَّمام ،
رأسُها تام ومعتدل ، وحواجبُها طويلةٌ ومقوسَّة ،
ابتسامتُها العذبة تجعل غمازات في مُلتقى الشفتين ،
عيناها الجميلتان ، يتَّضحُ فيهما السَّوادُ والبياض .

السَّيدة العامرةُ الصَّدر طويلةٌ وبدينة ،
إذا ما مشت الي الضَّـواحي تتـوقَّفُ لتسـتريـح . جيـادُ عربتها الأربعة المطهَّمة نشطةٌ وقويّة ،
الزّخُرفُ الحريري الأحمر حتى حَكَمَةِ اللجام مهيب ،
بمركبةٍ مغطّاةٍ بريش التّدرج ، وصلت الى القصر .
أيُّها الموظفون الكبار ، اخلُوا القصرَ مبكرين ،
فلا تُزعجوا دوقَنا وتُضجروه .

وسيعةٌ وقويَّةٌ هي مياهُ النهر الأصفر ،
شمالاً تندفعُ أمواجُها متهلِلة ،
وإذ ما تُخرَجُ الشبكةُ من الماء تتهسهس ،
يقفزُ سمكُ الشَّبوط والحفش يترشرش .
القصبُ كثيفاً يعلُو على الضَّفتين ،
فتياتُ عرسها جميعاً هيفاواتٌ وغنيات اللباس ،
وجندُها جميعاً شهماءُ ومؤثرون .

السّفرجل

رَمتني بسفرجلة ،
فأعطيتها قرطاً من اليشب بالمقابل .
ما كان ذلك مكافأة بالمعنى الصحيح ،
بل لأُريها أن إلى الأبد سأحبُّها .
دُراقةً ألقتْ إليَّ ،

جوهرةً أعطيتُها بالمقابل ،
ماكان ذلك مكافأة بالمعنى الصَّحيح
بل لأبرهن لها أن إلى الأبد سأُحبُّها .

خوخةً رَمتَ اليَّ ،
فأعطيتها بالمقابل قرطاً متدلياً من اليشب .
ماكان ذلك مكافأة بالمعنى الصحيح ،
بل لأوكد لها أنّي أُحبُّها الى الأبد .

صياح الدّيك

قالت الزَّوجة : « ها قد أخذ الديكُ يصيح »
ردَّ الزَّوج : « إذن يُوشك أن يكون الفجر . »
- « **فانهض وانظر في سماء الليل ،**
إنَّ نجمةَ الصَّباح مرتفعةٌ وساطعة »
- « سأنهض على هينتي ،
وأمضي لاصطيادِ البطِ والاوز البري . »

- « إنَّك إن تذهب ، ورجعتَ بصيد وافر ،
سأصنعُ لك ذلك بنفس طيبة .
ومع هذا الطعام **الشهي** سنشربُ نخب الحُبّ
الى الشيخوخةِ السعيدة .
وبمثل هذا الحبِّ المنسجم ،

سنكونُ معاً سعداءَ وآمنين . »

- « عن معرفةٍ باهتمامكِ العميق بي ،
قلادةً مدلاة من اليشب سأقدمُ لك
مدركاً لشعوركِ الرقيق نحوي ،
قرطاً مدلّى ملوناً من اليشب سأعطيك .
متيقّناً من حُبك الشّريفِ لي ،
سأكافئكِ بحلقةٍ مدلاة من اليشب الملون . »

إن كنت حقا تحبّني

إن كنتَ حقاً تحبُّني ،
فشمِّر ثوبَك واعبر نهرَ زهين !
وإن لم تكن تحبّني ،
فما عسى أن يكون من رجلٍ آخر ؟
أيُها الأشدّ حماقةً بين الحمقى جميعا !

إن كنت حقاً تُحبّني ،
فشمِّر ثوبَك واعبر نهرَ ويىء !
وإن لم تكنِ تُحبّني ،
فما عسى أن يكونَ من رجلٍ غيرك ؟
أوه ، وان يكن من أحمق بين المجانين فما هو إلا أنت !

الرّيح والمطر

باردةٌ هي الرِّيح والمطرُ مُقفقف ،
والدّجاجاتُ توكوكُ بصوتٍ عال .
والآن أرى ربَّ بيتي مرَّة ثانية ،
فما أعظم طمأنينةَ قلبي !

الريحُ تصفر والمطرُ يَقرَع ،
والدّجاجاتُ تنقنق مرحة .
الآن أرى زوجي الطَّيب مرةً ثانية ،
فكم يكونُ قلبي مبتهجا !

الرِّيح والمطر يجلوان السَّماء العابسة ،
الدّجاجات لايتوقَّفن عن الوقوقة .
الآن أرى بيتي مرة ثانية ،
فما أعظمَ شعورَ قلبي بالسعادة !

التلميذ ذو الياقة الزّرقاء

أيُّها التلميذ ، ذوُ الياقةِ الزَّرقاء
لقد اشتقتُ اليكَ طويلا .
وإذ لم أذهب لزيارتك ،
فلماذا لم تُرسل لي بعضَ الأخبار !

أيها التلميذ ، ذو الشَّريطةِ الحريرية الزَّرقاء ،

إنّي منذُ أمدٍ طويلٍ أُحبك .
ولأنّي لا أذهبُ لزيارتك ،
فكيف لاتأتي أنتَ لزيارتي ؟

إنّني ، على بُرجِ سور المدينة ،
مواظبةٌ على الغَدوَ الرواح .
وأن يمرَّ يومٌ لاأراكَ فيه ،
فإنه لكثلاثةَ أشهر عليّ !

خارج بوّابة المدينة الشرقية

خارجَ بوابةِ المدينة الشرقيّة ،
تبدو الفتياتُ كالغيومِ الغنيةِ بالألوان .
ومع أنّهنَّ كالغيومِ فاتنات ،
فإنّ واحدةً منهن البتَّةَ لم تقعْ في قلبي بعد .
وحدَها ليس غيرِ ذاتُ الثّوب الأبيض والوشاحِ الأخضر ،
أودُّ مشتاقاً أن لو أَلتقي بها .

قربَ بوّابةِ المدينة الخارجية ،
تلوحُ الفتياتُ كالقصب نورت أعاليه .
ومع أنّهن في جمالِ القصب ذي النُّور ،
فإنّ واحدةً منهنّ البتّة لم تسكن قلبي بعد .
ما عدا ذاتَ اللّباس الأبيض والوشاح القرمزّي ،
فهي وحدها يمتلئُ قلبي بهجةً أن أراها .

بين النّبات البرّي المتسلّق

بين النَّبات البرِّي المتسلّق ،
امياً بقطرات النَّدى غزيرةً وكثيفة .
كانت فتاةً ، جميلةً تتألق فتنةً وسحراً ،
قسماتُها مبهجةٌ وفتّانة .
مصادفةً التقى كلٌ منّا **الآخر ،**
إنّها تُجسد رغبتي التي طالما دللتُها .

بين النبات البري المتسلّق ،
وقطرات الندى تامةٌ ومستديرة .
كانت فتاةً ، جميلة تتألق فتنةً وسحرًا ،
قسماتُها فاتنةٌ ومُسرة .
مصادفةً التقى كلٌ منا الآخر ،
أن نعيش معاً ستكونُ الحياةُ سعيدة .

الحزم باحكام

باحكامٍ شدَّت حزمة الحطب ،
النجمات الثَّلاث مرتفعاتٌ في السَّماء .[٤]
أوه ، أيَّةُ ليلة هي هذه اللَّيلة ؟
أن اجتمعتُ فيها برَجُلي الصالح .
فأيةُ مصادفة ! أيُّ توفيق !
وكم كنت محظوظةً أن أبصرتُ برجلي الموافق !

باحكامٍ ربطت حزمة الحشيش الميبّس ،
النجماتُ الثّلاث صارت على زاوية البيت .
أوه ، أيّة ليلة هي هذه الليلة ؟
أن ألتقي ها هنا بزوجي غير المعروف .
فأيّة مصادفة ! أيّ توفيق !
وكم أنا محظوظة أن ألتقي بزوجي اللاّمعروف !

باحكامٍ حزمت حزمةُ العليق ،
النّجمات الثّلاث صارت الى مقدمة البَاب .
أوه ، أيّة ليلة هي هذه الليلة ؟
أن أجتمع فيها بامرئي الجميل .
فأيّ حظّ سعيد ! أيّ قدر !
وكم أنا محظوظة أن أرى امرئي الجميل !

ريش الحبارى

حفحفة ، حفحفة صوتُ ريش الحُبارى ،
وهي تحطُّ على أجمةَ البلّوط .
إنّ سخرةَ الملك لا تترك اطمئناناً ولا راحة .
ولا تمكن مثلي أن يزرعَ الدُّخنن !
فأنّى لأبوي أن يعتمدا عليّ في معيشتهما ؟
ياللسماء ! ياللسماء !
متى سيتاح لي أن أعيش عيشةً راضيةً !

هسهسةً ، هسهسةً رفرفةُ أجنحةِ الحبارى ،
وهي تحطُّ على أجمة البلُّوط .
إنَّ سخرةَ الملك لاتدعُ طمأنينةً ولا راحة ،
ولايمكن لمثلي أن يزرعَ الدُّخن !
فكيف لأبويّ أن يُعولا على مساعدتي لهما !
ياللسماء ! ياللسماء !
متى سيكون لهذا كلِه نهاية ؟

مهفهفاً ، مهفهفاً يأتي رفُّ الحبارى ،
واقعاً على أشجارِ التُوت .
سخرةُ الملك لاتتركَ طمأنيةً ولا راحة ،
ولايمكن لمثلي أن يزرع الرز !
فكيف لأبويّ أن يتكلاَ عليَّ في طعامهما ؟
ياللسماء ! ياللسماء !
متى تستردُّ الحياةُ هناءها ؟

القصب

القصبُ ناضرٌ وأخضر ،
والنّدى الأبيض استحالَ الى جَمَد .
حبيبي الغالي جداً ،
في مكان من وراء الماء .

في أعلى النّهر فتّشتُ عنه ،
والطريقُ شاقةٌ وطويلة .
وفي أسفلِ النهر بحثتُ عنه ،
فبدا كأنه في وسط الماء .

القصب كثيفٌ وقويّ ،
والندى الأبيض لم يجفّ بعد .
حبيبي الغالي عليَّ كثيراً ،
في مكانٍ مّا قربَ الضّفة .
في أعلى النهر فتّشتُ عنه ،
الطّريق شاقةٌ وعسيرة .
وفي أسفل النّهر بحثتُ عنه ،
ولكن يبدوُ أنه في ضحضاحٍ من الماء .

القصب مزدهرٌ ومُورق ،
والنّدى الأبيض مايزالُ يتساقط .
حبيبي الغالي عليّ كثيراً ،
في مكان ما بجانب النّهر .
في أعلى النّهر فتّشتُ عنه ،
الطّريق شاقةٌ ومتعرجة .
في أسفل النّهر بحثتُ عنه ،
فلعلّه كان في جُزيرة وسطَ النهر .

كيف تستطيع القول أن لاثياب لك ؟

كيف تستطيعُ القولَ أن لاثيابَ لك ؟
إنني سأتداولُ ردائي معك .
الملكُ يوجِّه عسكره الى المعركة ،
دعنا نهيء خناجرنا - البلطات والرماح .
بالاضافة اليكَ ، سأُقاتل عدوّنا المشترك .

كيف لك أن تقول أن لاثياب لديك ؟
معك سأتشارك بقميصي التّحتي .
الملك يُرسل جنده الى المعركة ،
دعنا نُعدُّ رماحَنا والمطارد .
علاوةً عليك ، سأنطلق الى الحرب .

أنى لك أن تقول أن **لاثياب عندك ؟**
معك سأتبادلُ قميصي البسيط
الملك يبعثُ بعساكره الى المعركة ،
فدعنا نجهِّزْ دروعَنا وسلاحنا .
بالاضافة إليك ، سأمشي الى جبهةِ القتال .

في الأرض الواطئة تكبر الكارامبولا

في الأرض الواطئة تكبرُ الكارامبولا ،(*)
أغصانُها لدنةٌ ورشيقة .
ومع أنّك تظهرين قويةً وجميلة ،

فأنا سعيد أن لا إحساس فيك .

في الأرض الواطئة تنمُو الكارامبولا ،
أزهارُها غضّةٌ وأنيقة .
ومع أنّكِ ثابتةٌ وجميلة ،
فأنا سعيدٌ أن لابيتَ لك .

في الأرض الواطئة تكثرُ الكارامبولا ،
ثمارُها طريةٌ وظريفة .
ومع أنّك قويةٌ وجميلةٌ تلوحين ،
فأنا سعيدٌ أن لاعائلةَ لك .

البومة

أيّتُها البُومة ، أيّتها البومة !
لقد سَلبتني فراخي ،
فأرجوكِ ألّا تخربي عشي .
بحبٍ بالغٍ وألمٍ شديدٍ ،
كدحت حتى فقست هذه الفراخ ،

فقبلَ فترة الطّقس المطير ،
قشرتُ شيئاً من جذور التُوت ،
لأرممَ عشّي ، نافذةً وباباً .
ماعَدَا سفلةَ النّاس المبغضين ،
فلن يتجرأ أحدٌ أن يتنمَّرَ عليّ .

بمشقّةٍ بالغةٍ اشتغلت ،
رحتُ وجئت لأجمع النور من رؤوس القصب
الذي زودتُ به أعلاه ،
ومنقاري تقرح وبلي ،
ورغم ذلك فمازلت بلا بيتٍ ملكي .

لقد تمزّق ريشي وتناثر ،
وذيلي قد فقد لمعانه .
وعشي يترنّح ويتقلقل ،
تحت رحمةِ الرّيح والمطر .
وفي الخطر لاأستطيع أن أصرخ .

(١) سبق أن ترجمنا قصائد هذا العدد للآداب الأجنبية ، في السنةنفسها . (المترجم)

(٢) العقبان النّسارية ، أو النّسر السّماك ، عقبان تألف البحار ، وتأكل السمك (م ت)

(٣) الكين والسي ، آلتان موسيقيتان صينيتان قديمتان تشبهان ، الى حدّ ما ، القانون للأولى سبعة أوتار ، وللثّانية خمسة وعشرون وترا . (المحرّرون) .

(٤) اختلفت التفسيرات حول هذه النجمات . فمنها ماقال بأن النجمات الثلاث في المقطع الأول تشير الى كوكبة الجوزاء ، والسطر يدل على الفصل . وفي المقطع الثاني هي ثلاث نجمات متألقة في برج العقرب ، والسطر يشير الى وقت متأخر من العشية . وفي المقطع الثالث هي النسّر الطائر ، والسطر يدل على أن ذلك كان في منتصف الليلة . (المحررون) .

(٥) لم أعثر ، فيما لديّ من معاجم انجليزية ، على تعريف بالكارامبولا . في معجم فرنسي وجدت (كارامبوليه) بمعنى (رشدية) وهي (شجر مثمر من فصيلة الغرنوقيات ثمره حامض يصنع للشراب والمربى) ، فأرجو أن نكون قد « رشدنا » الى معرفة هذه الشجرة . (م ت)

أشعار من الصّين القديمة

• ترجمة : فاروق هاشم (عن الانكليزية)

تمهيد :

كان أفراد الطبقة العليا والطبقة الارستقراطية الحاكمة ، والعلماء ، وموظفو البلاط وأقاربهم يجمعون ويجبون الضرائب من الفلاحين ؛ وكانت هذه الثروات تشارك في خلق حضارة رفيعة الثقافة وتتحلى بالاناقة والصقل ، وكانت مشهورة بما تنتجه من فن وأدب . وقد اشتهرت فترة التانج (٦١٨ - ٩٠٧م) بشكل خاص بموسيقاها ورسمها وشعرها . ومع أن الشعراء كانوا من طبقة عليا بمجملهم ، إلا ان الكثيرين منهم تعاطفوا مع عامة الشعب وكتبوا القصائد عنهم . ومايزال (توفو)Tu Fu مثلاً ، معروفاً حتى الآن بأنه « شاعر الشعب » وكتب (يو تشو - يي) Po CHU YI بلغة يومية أكثر مما فعل بأسلوب يدل على الصنعة والتعلم . وعلاوة على ذلك ، كان كثير من الشعراء لايتمتعون بالغنى أو الثروة ؛ وقد عاش بعضهم على هامش مجتمع الطبقة العليا ، وكانوا يقتاتون مما يحصلون عليه من تعليم أطفال العائلات الغنية أو بالحصول على وظائف رسمية إذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

لي يو LI PO (١٠٧ - ٧٦٢ م)

((واحد من أعظم شعراء الصين ، كان مولعاً بالخمرة ، وهو دائم الذكر لولوعه بأوصاف الطبيعة والتفنن في ذكر محاسنها . في القصيدة التالية ،

على الجبل ، يشرح ويدافع بالحجة عن الأسباب التي دعت ناسكاً لكي ينسحب الى البراري ، تاركاً الأرض المألوفة وراءه غير آسف .))

فوق الجبل : سؤال وجواب

تسألني :
لماذا اعيش
فوق هذا الجبل الأخضر ؟
أبتسم .
ولا جواب .
قلبي هادىء فوق الماء المنساب
كالطلاء الخوفي فوق الخزف
يندفع بهدوء بعيداً .
هذه أرض أخرى
هذه سماء أخرى
ولا شبه
بينها وبين ذلك العالم البشري في الأسفل .

أحتسي الخمرة وحيداً تحت ضوء القمر

أمسكُ بدورق الخمرة بين الأزهار ،
وأشرب وحدي ، وليس ثمة روح تؤنس وحشتي ،
أرفع كأسي وأطلب من القمر ان يشاركني الشراب .

ومع ظلي نصبح ثلاثة .
ولكن القمر لايعرف متعة الشراب ،
وظلي يتبعني فقط كلما تحركت .
ومع ذلك ، سأبقيهما في رفقتي ،
لأنه على المرء أن يستمتع بالحياة في مثل هذا الوقت .
يتلكأ القمر وأنا أنشد أغانيَّ ،
ويبدو ظلي مرتبكاً وأنا أرقص .
وأشرب مع رفيقيَّ هذين عندما أصحو .
وأفترق عنهما عندما أصل الى الثمالة .
ومن هنا قد نحتفل دوماً .
وقد نتقابل في نهر السماء الملبد بالغيوم .

القتال جنوبي الأسوار

العام الفائت كنا نحارب عند منبع
نهر (سانج - كان) ،
وهذا العام إننا نقاتل في طريق نهر (أونيون).
لقد غسلنا سيوفنا في أمواج بحار (البارثيان) ،
وقد رعينا خيولنا بين ثلوج (تيان شان) ،
لقد شابت جيوش الملك ودب الكبر فيها
والجنود يقاتلون على بعد عشرة آلاف فرسخ من الوطن
ولايملك ال (هون) تجارة سوى المعارك والمذابح
وهم لايملكون أية حقول او مزارع للفلاحة
ولايعرفون سوى الصحاري حيث

تستلقي العظام البيضاء بين ذرات الرمال الصفراء .
حيث بنى بيت (تشين) السورالعظيم
لكي يصد البرابرة والمتوحشين .
وهناك ، بدوره ، أضاء بيت ال (هان)
مشاعل الحرب .
وتلك الحرائق مشتعلة دمعاً ، والقتال والزحف لايتوقفان أبداً .
يموت الرجال في الحقول ، وقد اشتبكوا سيفاً لسيف
وخيول المقهورين تصهل بحزن وترنو الى السماء .
والغربان والنسور تنهش أحشاء البشر ،
تحملها في مناقيرها وتعلقها
على أغصان الأشجار الذابلة .
والقادة والجنود منتشرون كلطخة
فوق الشجيرات والعشب :
والقائد يرسم الخطط عبثاً .
فلتعلم ، إذن، أن السيف شيء ملعون .
حيث لايستخدمه العقلاء الا مضطرين .

تو فو Tu FU (٧١٢ - ٧٧٠م)

((شاعر أكثر جدية من (لي بو) . عاش أثناء المشاكل الناجمة عن ثورة (آن لو - شان) وكتب حول الحروب التي كانت تكتسح الصين بصورة منتظمة . والمشهد البارز في قصيدة (قدوم الربيع) هو خرائب مدينة مدمرة بعد حرب طاحنة من تلك الحروب .))

قدوم الربيع

لقد سقطت المدينة : ولم يبق سوى التلال والأنهار .
في الربيع ، كانت الشوارع خضراء بالعشب والأشجار .
حزن يحيط بالأوقات ، والأزهار تنتحب .
وقد وجب قلبي خشية أن تغادر الطيور . والحرائق على التلال تشتعل منذ ثلاثة أشهر ،
رسالة من البيت تساوي عشرة آلاف قطعة ذهبية .
وأفرك الشعرات القليلة فوق رأسي الأبيض ،
وعبثاً ماأحاول أن أجمعها بدبوس شعر

تسان شان Tsan Shan

في الأراضي القاحلة

نحو الغرب أتجه بحصاني ،
نحو السماء نفسها
ومنذ أن غادرت المنزل ، رأيت
القمر مرتين وقد اكتمل أمام عيني .
لا أعرف أين سأتوقف
لكي أقضي هذه الليلة
فمن الرمال المنبسطة ، لأميال لاحصر لها
لا أرى اي أثر لدخان تحدثه نار بشرية .

وانغ هان Wang Han

أشعار من ليانج جو Lyangjou

خمرة العنب جميلة في الكأس
المصنوع من اليشب الشفاف كالليل
يندفعون بقوة ، وهم يهمون بالشراب ،
ويعزفون على الأعواد على ظهور الخيل .
ثمالى ، وهم يستلقون على الرمال ،
ولكن لاتجعل سيدي كريم المحتد يضحك
فرحلة العودة من أرض المعركة ،
كم من رجل قام بها ؟!

غالباً ماكان الشعراء الصينيون ينتقدون الديانات الكونفوشية والبوذية ذات الأقدام الراسخة هناك . وهنا نجد (يوتشو -يي) يستهزيء ب (لاو تسو) Lao Tzu مؤلف (تاوتي تشينغ) Tao Te Ching وهو شخصية رئيسية في (التاوية) Taoism .

يو تشو - يي Po Chu yi (٧٧٢ - ٨٤٦ م)

مع أن يو تشو- يي تمتع بسيرة حياة ناجحة في العمل الحكومي ، نجده هنا يعرض لنا انطباعات شخصية عن الظلم في مجتمع التانج Tang وله قصيدة تدلنا على أن جزءاً من الضرائب كان يدفع بمقادير من الحبوب . وقد ظهر

كتــاب بأكمله باللغـة الانكليـزيـة عام ١٩٤٩ بعنـوان (حيـاة يو تشـو - يي وعصـره) ألفـه آرثر ويلي Arthur Waley الذي ترجم الكثير من القصائد الصينية الى الانكليزية .

لاوتسو

« أولئك الذين يتكلمون لايعرفون شيئاً ،
وأولئك الذين يعرفون صامتون »
هذه الكلمات ، كما قيل لي ،
نطق بها لاوتسو . .
واذا كان علينا ان نعتقد ان لاوتسو
كان من هؤلاء الذين يعرفون ،
فكيف تأتى له ان يكتب كتاباً
فيه خمسة آلاف كلمة ؟

ضريبة الحبوب

وأتى ضابط يقرع على بابي في الليل -
ويطلب بصوت جلف ضريبة الحبوب .
لم يجرؤ خدم بيتي على الانتظار حتى الصباح
ولكنهم جلبوا الشموع ووضعوها فوق أرض مخزن الحبوب .
ويمر عبر الغربال ، مغسولاً نظيفاً كالجواهر ،

حملُ عربة كاملة ، ثلاثون مكيالاً من الحبوب .
ولكنهم مازالوا يصرخون بأن الدفع ليس كاملاً :
وبالسياط والسباب ينخزون خدمي وغلماني .
مرة ، وكخطأ ارتكبته ، دخلت الخدمة العامة ،
إنني خجل في داخلي لأن كفاءاتي لم تكن كافية
وبالتتالي شغلت أربعة مناصب رسمية ،
ولم أعمل شيئاً - وتلقيت رواتب عشر سنوات !
وغالباً ماكنت اسمع ماقاله القدامى :
إن « الخير والشر يتتابعان بسلسلة لانهاية لها »
واليوم ، ينبغي ان يرتاح قلبي .
كي أعيد الى الآخرين القمح الموجود
في مخزن غلالي الضخم .

الأقحوان في الحديقة الشرقية

أيام شبابي غادرتني منذزمن بعيد ،
والآن تتضاءل مكانها سنوات نضجي .
ويالأفكار الحزن والوحدة التي ترافقني
وأنا أسير ثانية في هذا المكان البارد المهجور !
في وسط الحديقة أقف وحدي طويلاً ،
وأشعة الشمس باهتة ؛ والريح والندى باردان .
خس الخريف قد تشابك وتحول الى بذار ،
والأشجار الباسقة أصابتها الآفات وذبلت .

كل ماتبقى هناك بضعة أزهار من الأقحوان .
تفتحت مؤخراً تحت السياج المضفور مع الأوراق .
لقد جلبت خمري وأنوي أن أملأ قدحي ،
وإذ بمنظر الأقحوان هذا يوقف يدي عن الحراك .
أتذكر ، عندما كنت في شرخ الشباب ،
سرعة تغير حالتي من الحزن الى الفرح .
فعندما كنت ألمح الخمرة ، في أي فصل كان ،
وقبل احتسائها ، كان قلبي يثب من الحبور .
ولكن الآن يهل ذلك العمر ،
حيث لحظة المتعة لاسبيل للوصول اليها .
ودائماً أخشى عندما تتقدم بي السن
فأشدَّ الشراب لن يريحني .
لذلــك تراني اتســاءل ، ياأزهـار الأقحـوان المتأخـرة ، في مثـل هذا الفصـل الحزين ، لماذا تزهرن وحدكن ؟
مع أنني أعرف تمام المعرفة ان إزهاركن ليس من أجلي ،
فقد تعلمت منكن ، وللحظة ، أن أخفف من تقطيبتي .

قصيدة مجنونة مهداة الى أبناء وبنات أخي وأختي

العالم يخدع أولئك الذين لايعرفون القراءة ،
وأنا ، بكل سعادة ، أتقنت القراءة ومسك القلم .
والعالم يخدع اولئك الذين ليس لديهم عمل ؛
وأنا مبارك لحصولي على رتبة رسمية عالية .
وغالباً مايصاب المسنون بالأمراض والأوجاع

أما أنا ، لحسن الحظ ، فلا أعاني من ذلك البتة .
والناس عندما يهرمون ، غالباً ماتتعبهم القيود ؛
ولكنني تخليت عن الزواج والاستسلام للزواج .
فلا تغيرات تحدث لتضايق هدوء بالي ؛
وليس ثمة فعل يدمر نشاط أعضائي .
ولهذا السبب ومنذ عشرة أعوام
استقر الجسد والروح بهدونُسكي .
وعلاوة على ذلك ، في السنوات الأخيرة المتبقية لي ،
لم يبق لي سوى حاجات قليلة جداً .
سجادة صغيرة واحدة تبعث الدفء في خلال الشتاء ؛
وجبة واحدة تقوم بأودي طوال النهار .
ولايهم إن كان بيتي صغيراً بعض الشيء ؛
فالمرء لايستطيع أن ينام في أكثر من غرفة واحدة !
ولا ضير ألا أملك خيولاً كثيرة ؛
فلا أحد يقدر على ركوب جوادين بنفس الوقت !
ويمكن أن يوجد من المحظوظين مثلي في العالم
سبعة من بين كل عشرة .
ومن القانعين مثلي ، مهما حاولت جهدك ،
فلن تجد واحداً من بين مائة .
في القضايا المتعلقة بالآخرين ، حتى الحمقى يبدون حكماء ؛
وفي قضاياهم الخاصة ، حتى الحكماء يخطئون .
لا أجرؤ على الافصاح عما يدور في خلدي لأي شخص .
ولذا فكلماتي المتطرفة موجهة
لأولاد وبنات أخي وأختي .

لاوتسي LAOTSE
كتاب التاو BOOK OF TAO

((في القرن السادس قبل الميلاد ، شهدت الصين شخصيتين فلسفيتين ، هما كونفوشيوس (كونغ فو - تسي) Kung Fu tes و (لاوتسي) وكان الأول فيلسوفاً عملياً ، رجل سياسة ، ورجل قضايا عامة ، ومعلماً ، وأخلاقياً ، أما الثاني فقد كان شاعراً صوفياً ، مكتشف ال (تاو) أي « الطريق » ، الاتحاد مع الطبيعة . وكان منعزلاً إلا أنه عمل بالتدريس أيضاً . وكتاب التاو ذو طبيعة شخصية فردية ورسالته تحوي المودة والحب . والتاو هو المطلق . « كل الأشياء تنشأ من تاو ، تتماثل مع تاو ، وأخيراً الى تاو تعود » .

وكان لاوتسي يؤمن ويبشر بالتقمص ، وفي إحدى الفترات من حياته عمل كمشرف على مكتبة أحد الأمراء الحاكمين في عصره ، وقد انتهت حياته وهو يعيش في صومعة . ويعتبر كتابه (تاوتي تشينغ) واحداً من الكتب المقدسة في الصين القديمة))

((١))

لاشيء في الدنيا أكثر نعومة وأكثر ضعفاً من الماء ؛
ولكن ، من أجل الهجوم على ماهو قاسٍ وقوي ،
فلا شيء شبيه بالماء !
لأنه لا شيء يمكن ان يحل محله
وأن الضعيف يتغلب على القوي .

واللين يتغلب على الشديد .
فهذا شيء يعرفه الجميع ولكن لاأحد يطبقه .
لذلك ، يقول الحكيم ،
ان تتلقى كل قذارات البلاد
هو أن تكون سيد مزارات تربتها .
وأن تتحمل مصائب بلد ما هو أن
تكون أمير العالم .
حقاً ، تبدو الحقيقة مثل ضدها !

((٢))

تاو العظيم عالمي مثل الفيضان ،
الذي يصعب تحويله يمنة او يسرى
كل المخلوقات تعيش منه ،
وهو لاينكر شيئاً لأي شخص .
إنه يهب اللباس ويطعم الجميع .
ولكنه لايطغى بذلك عليهم .
وهكذا يمكن ان يطلق عليه اسم « المتواضع »
كل الأشياء تعود إليه وكأنها عائدة الى بيتها .
ولكنه لايستبد بذلك عليهم .
وهكذا ، يمكن ان يطلق عليه اسم « رحب الصدر »
إنه عادل لأنه لايرغب بأن يكون عظيماً
لأن عظمته قد تحققت تماماً .

((٣))

السماء تدوم طويلاً والأرض تبقى .
ما هو سر بقائهما ؟
أليس ذلك لأنهما لايعيشان لنفسيهما
مما يجعلهما يعيشان طويلاً جداً ؟
لذلك ، يعرف الحكيم نفسه .
ولكنه لايحب نفسه .
ولكنه لايمجد نفسه .
إنه يفضل ماهو في الداخل عما هو في الخارج .

((٤))

كيف يصبح البحر ملكاً على كل الجداول ؟
لأنه يستلقي بصورة أخفض منها جميعاً .
ومن ثم يصبح ملكاً متوجاً على كل الجداول

لذلك ، لكي ترتفع فوق كل الناس ،
عليك أن تتواضع بكلامك ،
وكي تصبح قائداً للناس ،
عليك ان تضع نفسك خلفهم .

وهكذا يحدث أنه عندما يقف الحكيم فوق الناس ،

فإنهم لايشعرون بوطأة وزنه ؛
وعندما يقف امام الناس .
فإنهم لايشعرون بالأذى والضرر .
لذلك ، كل العالم سعيد ليدفعه قُدماً
بدون ان يتعب ويمل منه .

ولأنه لاينزع للكفاح ضد أي شخص ،
فلا أحد أبداً ينزع للنضال ضده .

((٥))

الأمور الصعبة في العالم
يمكن فقط أن تُعالج عندما تكون سهلة .
الأشياء الكبيرة في العالم
يمكن فقط أن تنجز بالاهتمام ببداياتها الصغيرة
وهكذا ، على الحكيم ألا يتصارع مع الأشياء الكبيرة ،
مع أنه الوحيد القادر على انجاز ذلك !

إن من يعد بشكل خفيف لابد ان ينقصه الايمان .
وان كل من يعتقد بأن كل شيء سهل سوف ينتهي بأن يجد كل شيء صعب .
لذلك ، فإن الحكيم ، الذي يعتبر كل شيء صعباً ،
لايواجه مصاعب البتة في النهاية .

((٦))

بدون أن تخرج من بابك ،
باستطاعتك ان تعرف طرق العالم .
وبدون اختلاس النظر من نافذتك ،
بمقدورك ان ترى طرق السماء .
وكلما اوغلت بالذهاب ،
قلَّ ماتعرفه .
وهكذا . فالحكيم يعرف بدون ترحال ،
يرى بدون القاء النظر
وينجز الكثير بدون جلبة .

((٧))

إنك تحكم مملكة بقوانين عادية ؛
أنك تخوض حرباً بدوافع استثنائية ؛
ولكنك تربح العالم بأن تترك الجميع وشأنهم
كيف بامكاني ان اعرف ان الأمر يسير على هذا النحو ؟
بوساطة النور الداخلي !

وكلما زادت الممنوعات والمحرمات في العالم ،
ازداد الناس فقراً .
وكلما كانت الأسلحة التي يستعملها الناس أكثر حدة ،

زادت الفوضى في المملكة .
وكلما ازداد الناس ذكاءً وحدة صنعة ،
ازداد حدوث الأمور الأكثر غرابة .
وكلما كانت القوانين أكثر وضوحاً وتنظيماً ،
زادت نسبة اللصوص والمعتدين .

لذلك ، يقول الحكيم ،
إنني لا أحدث أية جلبة ، والناس يغيرون من اشكالهم .
أحب السكينة ، ويستقر الناس في اماكنهم المعتادة .
انني لا أرتبط بأي عمل ، ويزداد الناس غنى .
ليست لدي رغبات ، ويعود الناس الى البساطة .

((٨))

كل الناس يضطربون ويتجهمون ،
كما لو أنهم يحتفلون بثور تمت التضحية به ،
كما لو أنهم يصعدون الى شرفة الربيع ؛
أنا وحدي رابط الجأش ، ولا تصدر عني أية ارتعاشة ؛
مثل طفل لم يبتسم بعد ،
وحدي أبدو بائساً كمن ليس لديه بيت يعود اليه .

كل الناس لديهم مايكفيهم ومايوفرون :
أنا وحدي أبدو انني لا أملك شروى فقير .

ما أشد بساطتي !
ويااللعقل المشوش الذي أمتلك !
كل الناس أذكياء :
أنا وحدي الغبي :
أنا وحدي الغبي :
كل الناس يقظون ، يقظون :
أنا وحدي الصامت ، الصامت !
لطيف مثل المحيط ،
وبلا هدف مثل العاصفة التي تهب .

كل الناس يستقرون في أماكنهم :
أنا وحدي عنيد وأبقى في الخارج .
ولكن مايميزني عن الآخرين هو أنني
أعرف كيف أمتص ثدي أمي تاو !

((٩))

لذلك ، يدبر الحكيم قضايا العالم بدون جعجعة ،
إنه يعلم الناس بدون الالتجاء الى كلمات .
إنه لايحجم عن مديد العون للأشياء التي تتوالد .
إنه يربيهم ولكنه لايدعي بأية مطالب عليهم .
إنه يقوم بعمله ولا ينتظر جزاء عليه .
إنه ينجز مهمته ، ولكنه لايفتخر بمزاياه .

((١٠))

وعندما بدأ الظلام والفوضى يعمان في المملكة ، هناك ظهر المؤيدون .

((١١))

البساطة وحدها تستطيع ان تكبح رغبات الناس .
وعندما تُكبح رغبات الناس ،
سيعم الهدوء .
وسوف يستقر العالم من تلقاء نفسه .

((١٢))

إن من يزيد الهرج والمرج حول شيء مايفسده .
وإن من يزيد قبضته على شيء مايخسره .
والحكيم لايلغط بأي شيء ولذلك لا يفسد شيئاً .
وهو لا يقبض على أي شيء ولذلك لا يفقد شيئاً .

((١٣))

لكل مخلوق وقت للمضي قدماً ،
ووقت للتراجع ؛
وقت للتنفس البطيء ووقت للتنفس السريع ؛

وقت للقوة ووقت للانحلال ؛
وقت للصعود وقت للنزول .

((١٤))

أن تعرف الآخرين يعني أنك ذكي ،
وأن تعرف نفسك يعني أنك متنور .
إن من يقهر الآخرين قوي ،
ولكن من يقهر نفسه يملك القوة والشجاعة معاً .
أن يعرف المرء متى يملك مايكفيه يعني أنه غني .

إن من يتبع طريقاً ترافقه فيه الروح
يمكن ان يصل الى مبتغاه ،
ولكن أن يبقى المرء سليماً ، يعني ان يتحمل .
وأولئك الذين يقبلون النسيان ،
ومع ذلك يبقون أحياءً
يصبحون خالدين .

((١٥))

عوضاً من أن تملأ وعاءً حتى يطفح ،
توقف في الوقت المحدد

والشحذ المستمر سوف يُبلي أكثر النصل حدَّةً .
إذا ما ملأت قصرك بالذهب واليشب ،
فكيف ستؤمن له الحراسة ؟
أن تكون متعجرفاً بسبب الغنى ،
يعني أن تجلب المأساة على نفسك .
انجز ماتصبو اليه ، اكسب الشرف ولكن لاتدعيه ؛
والانسان العاقل من ينسل بهدوء من هذا العالم
حينئذ فقط يكتشف
تاو المقدس .

(١) هذه القصائد مأخوذة من المصادر التالية :

1) CHINA : yesteray and today, edited by molly coye and johu livingston. (Bantam Books, 1975)

2)The penguin book of contemporary verse, edited by kenneth allott. (penguin, 1962)

3) An anthology of world literature (Third Edition) edited by philo M. buck, Jr. (Macmillan, new York, 961)

قصة

مسبحة الكهرمان

• ليانغ زياو شنغ • ترجمة: د. سليمان محمد أحمد

عيد الربيع

• يونان • ترجمة: علي الخش

الهلال

• لاوشيه • ترجمة: ليان ديراني - من الفرنسية

الهدف

• وانغ أنيي ترجمة: عبد الكريم ناصيف - من الفرنسية

جبال ورجال وكلب

بينغ جيا نمنغ

• ترجمة: حليمة سعد الدين • مراجعة: د. حسام الخطيب

منطقة المستنقع العظيم

بقلم: ماوتون

• ترجمة: حكمت لبيا عن الانكليزية • مراجعة: د. حسام الخطيب

شو - يان

تمثيلية من أدب الصين الحديث

تأليف الكاتب الصيني الكبير «كيو موجو»

ترجمة: د. عبد الرزاق جعفر - من الفرنسية

مسطـرَة الكهرمـان[1]

• ليـانغ زيـاو شنغ • ترجمة : د. سليمان محمد أحمد

التفتت نحو منجم الفحم ، حيث قامت تلة النفايات مهيبة كهرم مكلّل بضباب كثيف . كانت الشمس المشرقة معلقة فوق التلة حمراء ملتهبة كعجلة ، كأنّها رفعت الى السماء بحبل ثخين .

تذكّرته فجأة . فاليوم من أيام الشّفع ، وسيكون في المنجم مع العمال الآخرين . لولاه ماجاءت الى هذا المكان . وغداً سوف ترحل ، ولاتدري ان كانت ستعود أبداً .

ذات يوم منذ أربعة شهور ، قرع بابهم حين كانت عائلتها تتناول طعام العشاء .

فتحت البـاب ورازتـه : إنّه غريب تماماً في الثلاثين من عمره تقريباً ، طويل فاره عريض الوجه ذو ملامح خشنة لكنها متميزة قالت في ذهنها وقد وقع في نفسهـا موقعـاً : يالـه من رجـل وسيم . كصورة ملك البستوني (في ورق اللعب) . لو كان بلحية لكان أفضل . كان لديها معاييرها الجمالية الخاصة ، وكـانت تظن ملك البستـوني منتهى الجمال في الـرجـال . كم هو مؤسف أن لايكون له لحية !

وقفت في المدخل تنظر اليه بإعجاب ظاهر للعيان ، ثم سألته بأدب

« ماذا تريد ؟ »

كان جوابه ثلاث كلمات - اسم أبيها .

قالت مفسحة الطريق له : « تفضل »

دخل وخطا ثلاث خطوات ليقطع البهو الى الغرفة . فتعجب افراد العائلة جميعاً وركزوا أعينهم على الزائر غير المتوقع .

قال مفسراً بشيء من الغموض : « أود أن أتكلم مع رئيس المكتب يان ، حول موضوع ، اذا . . . »

وضع والدها قضيبي طعامه فوراً وخذه الى غرفة المعيشة .

وبعد وقت قصير أوصله الى الباب . سمعوه يسأله :

- « هل أنت مدير المنجم ؟ » .

أجاب الزائر : « هل ذلك ضروري ؟ اعتبرني ناطقاً باسم العمال »

ناداها والدها الى غرفة المعيشة بعد ذهاب الرجل ، وسألها ما تنوي ان تفعل بعد التخرج . قالت إنها مستعدة للخدمة في أي مكان يحتاجها كمعلمة . هز الوالد رأسه بتقدير : « ذلك هو الجوهر . وهكذا يجب التفكير » ثم قال بصوت جدّي كرئيس يخاطب مرؤوسه : « حسناً ، هذه هي الحال . بما أنني رئيس مكتب التربية وأنت ابنتي ، خريجة دار المعلمات ، وبما ان المنجم بحاجة ماسة الى معلمين ، يجب ان تتطوعي للعمل هناك . سوف أذهب الى معهدك لألقي كلمة حماسية ، وأريدك ان تكوني قدوة . فبدون متطوعين سيكون ماأقوله مجرد كمية من الهواء الساخن . هل تفهمين ؟ »

- نعم ، انها فهمت فهماً حسناً وزيادة ، فلم تنطق ببنت شفة . ياله من منطق رائع ! وذلك « الملك » الملعون قد جاء ليوقعها في الفخ !

صرخت وأجهشت بالبكاء وتوسلت وثارت ثائرتها وتضرعت الى أمها لتتوسط والى اختها لتحتج ، ولكن ذلك كله كان دون جدوى . كان والدها صارماً وفي كل مرة كان يجيب : « إنك لاتلقين بنفسك في الجحيم عندما تعلمين في المنجم » . ياله من قلب لايحس .

تطوعت أخيراً ، ضد ارادتها .

لاقت ترحيباً حاراً يوم وصولها الى المنجم . رأت « الملك » بين المرحبين وهي تنزل من القطار . لكنها تظاهرت بأنها لم تره فقد كانت ناقمة عليه .

مشى نحوها ومد يداً كبيرة ليشد على يدها الصغيرة ، وقال : « لم اكن اتوقع ان اراك ؟ » ثم شرع يقدم لها : رئيس اتحاد العمال ، رئيسة الاتحاد النسائي ، أمين اتحاد الشبيبة ومدير المدرسة الابتدائية - جميع الشخصيات البارزة في المنطقة . لو كانت وزير صناعة الفحم نفسه مالاقت عدداً أكبر من الناس خرج للتكريم . لم تكن تتصور أنها مهمة في نظرهم هكذا .

قال رئيس اتحاد العمال مشيراً الى « الملك » : « هذا مدير المنجم ، أيعرف أحدكما الآخر ؟ »

إذاً هو رئيسها المباشر .

أجابت ببرود وهي تنظر إليه بحدة : « لا أقول إنني أعرفه . التقينا مرة واحدة فقط »

في أول وجبة غداء لها في المنجم جلس « الملك » إلى جانبها . قال لها بوقار : « أنت أول خريجة من دار المعلمات تأتي الى المنطقة . لقد أحدثت مدرستنا الابتدائية منذ وقت قصير ، وهي بحاجة كبيرة الى معلمين مؤهلين . ولكن لاأحد يريد أن يعلم هنا ولو دعوناه أنت أول معلمة تأتي ، ولذا أود أن

أعبر عن احترامنا وشكرنا لك بالنيابة عن العمال . آمل أن تتمكني من تفهم هذا . »

نطق كلمة « تفهم » بصوت جدي ، ثم توقف كأنما كان يفكر ملياً فيما إذا كانت تستطيع حمل ثقل هذه الكلمة .

ابتسمت بدلاً من أن تغضب . ذكّرتها طريقة كلامه المنطقية الرسمية بأبيها . ربما كان معلمه في المدرسة صارماً جداً في تعليمه للنحو .

ابتسم هو ايضاً ، فأصبح الجو أبهج .

قال : « اذا لم يكن لديك اعتراض ، سأرافقك غداً في زيارة الى المنجم تحت الأرض . أنت لم تجربي الركوب في قفص ، أليس كذلك ؟ »

« لقد ركبت في شيء يشبهه في الحديقة العامة عندما كنت صغيرة . »

« ان النزول في المنجم في قفص يعطيك إحساساً بالمغامرة . ذلك في المرة الأولى طبعاً . على كل حال ، قد يبعث هذا ذكريات طفولتك . »

أُعطيت لباس العمال أول مرة فانخفضت روحها المعنوية عند رؤيتها للخيش الخشن الوسخ الذي انبعثت منه رائحة العرق القوية . فقررت ان لاتنزع ثيابها بل ان ترتدي لباس العمال فوقها . كان باستطاعتها تحمل الحرارة رغم كون الوقت صيفاً . أما أن تشعر بالخيش الخشن يلامس جلدها الناعم فكان شيئاً مستحيلاً .

لاحظ قرارها ، فلم يستهزىء بها ، بل ابتسم ابتسامة متفهم .

كانت خوذات الأمان مميزة بأربعة ألوان : الاحمر والاخضر والأصفر والأسود . قرأت باهتمام التعليمات المكتوبة على لوح ، وهي كما يلي : الخوذات

السود للعمال ، والصفر للكوادر ، والحمر لمفتشي الأمان والخضر للأشخاص ذوي المهمات المؤقتة .

أعطاهما أمين المستودع خوذتين . وساعدهما في ارتداء إحداهما بالاضافة الى مصباح العامل في المناجم وحزام ربطت به بطارية .

حيّاه العمال الذين كانوا ينتظرون القفص . مازحوه وتحرشوا به ولكنه لم ينزعج كأنه تعوّد على هذا . أمسك بذراع أحد المازحين وطواها خلفه حتى انحنى محتجاً : « يالك من متصّول ، يامدير ! » ثم ترك الذراع بابتسامة منتصرة .

قرقع القفص صاعداً وتوقف عند مدخل المنجم . وفي اللحظة التي أخذت مقعدها فيه اندفع ثلاثة من الشباب يتزاحمون للجلوس بجانبها ، بحيث أصبحت معصورة كأبي بريص بينهم وبين هيكل القفص الحديدي البارد .

عندما لاحظ ذلك ، تقدم صامتاً وأخذ بخناقهم واحداً واحداً وجرهم بعيداً عنها ، ثم جلس الى جانبها ، بينما جلس الثلاثة مذعنين في مكان آخر .

توقف القفص مرة في منتصف الطريق الى أسفل المنجم . ورأت الشباب الثلاثة يخرجون قاصدين ساماً افتتح حديثاً .

أخذها في جولة في المنجم الذي كان يعرفه معرفة جراح يبين للأطباء المتدربين الأوعية الدموية في جسم بشري . روى لها تاريخ المنجم وتاريخ السام قائلاً باعتزاز إن إنتاجهم أعلى إنتاج في المنطقة . ثم شرح لها كيف تعمل الآلات وحدثها عن العمل تحت الأرض وإجراءات الأمان . كان دليلاً صبوراً لدرجة أدهشتها . لو لم تأت لما حصلت على مثل هذه المعرفة المتخصصة .

لم يكن باستطاعتها إلا أن تعجب به .

« هل تنزل في المنجم مع العمال مراراً ؟ » .

نعم كل يوم تقريباً : انني من أسرة من عمال المناجم فجدي وأبي كانا من العمال ، وأنا نفسي كنت رئيس فريق في سن الثامنة عشرة »

« هل تظن ان العمال يحترمونك الآن وأنت مدير المنجم ؟ »

ما ان خرجت الكلمات من فمها حتى شعرت ان باستطاعتها ان تقص لسانها بعضّة . فقد تذكرت كيف كان العمال يمازحونه خارج المنجم . لم تتمكن من رؤية وجهه ولا ان تتصور تعبيره ، ولكنها لمحت بشكل واضح عينين براقتين ترمقانها . كم كانت براقتين ! هذا الاكتشاف جعل قلبها يضطرب . الآن هما معاً وحدهما في هذا المكان المظلم : هي فتاة ضعيفة ، وهو رجل قوي . فكرت بأولئك الشبان الثلاثة ذوي السلوك الشرس فشعرت بالقلق حتى أنها في لحظة اضطراب (نرفزة) صدمت مصباحها بالسام فكسرت زجاجه . وعمت الظلمة الكاملة كل مكان .

« ماذا جرى لك ؟ » جاءها صوته من قلب الظلمة .

صرخت مروَّعة : « لا ، لاتأت إلي ! »

أشعل مصباحه وأعطاها إياه بضمت . ثم قال بهدوء :

« لنصعد الآن . يظهر أنك تعبة قليلاً » وبعدها استدار للذهاب دون أن ينظر اليها .

كانت منهكة . ثيابها المبللة بالعرق والملتصقة بجلدها جعلتها تشعر بالضيق . مشى أمامها بخطوات اكبر من خطواتها بضعفين ؛ لذا كان عليها ان

تسرع لتجاريه . كانت تخاف ان تبقى وحدها في المنجم المظلم .

تريث لينتـظرها وأعطاها وقتاً كافياً لتلتقط أنفاسها . عندما تابعا المشي سألته نادمة واجلة : « لست غضبانا عليّ ، أليس كذلك ؟

أجاب دون ان ينظر خلفه : « لِمَ ؟ »

« للسؤال الذي سألتكه قبل لحظة . ربما ، ربما . . » لكنها كانت تعرف في صميمها أنه ان كان منزعجاً منها فعلاً فإن السبب ليس سؤالها . وفضلاً عن ذلك فإن لديه سببا وجيهاً ليغضب منها بل وليلعنها .

تابع المشي بعض الوقت بصمت ، ثم قال « ان سؤالك ، كما أفهمه ، متعلق بمقامي . أنا معجب بالمدير كياو وأحب أن أكون قائداً مثله ، غير أنني أعلم أنني لا أستـطيع ذلك ، على الأقل في علاقتي مع عمال المنجم . عندما ألبس خوذة الامان أحب أن أشعر أنني واحد منهم لا أكثر . فأنا أشرب معهم وألعب معهم . ونـادي بعضنا بعضاً بكلمة « أخ » حتى أننا نجدّف بكلامنا معاً . . ان نصف أجوري تصرف على الخمر والسجائر . فعمال المناجم ليسوا كغيرهم من العمال في الصناعات الاخرى . كلا انهم مختلفون . علي أن أعي ذلك . ومايسرني الا انهم يظنون انني لست مديراً سيئاً . ليس لي رغبات أخرى عدا ذلك . أما مقامي فربما كان بامكان معلمة المدرسة ان تفسره أفضل مني . لايهمني . . »

قال هذه الكلمات ببطء محافـظاً على الصـوت الهـادىء نفسه ، وكانت تستطيع ان تحس فيه بنوع كئيب من الثقة بالنفس .

عنـدمـا وصـلا منعطفاً في النفق ، قفز إلى الامام فجأة ودفع ثلاثة من العـمال يعملون هنـاك في كهف للطوارىء . قال لها عرضـاً وهـو يسـد فتحة

الكهف بجسمه الضخم : « تابعي . لا شيء هنا يستحق الرؤية » . ولكنها كانت قد رأت في ضوء مصابيح العمال ثلاثة أجساد عارية يغطيها العرق وغبار الفحم . خفضت رأسها ومرّت بجواره بسرعة . وتذكرت بوضوح أنه المكان الذي خرج فيه الشبان الثلاثة من القفص .

بعد وقت قصير لحق بها فوجدها واقفة مستندة الى السام تبكي .

سألها ببرود بعد ان تقدمها « ماذا حدث؟ »

هزت رأسها .

خفض رأسه مفكراً برهة ، ثم قال : « لاحق لي ان اعاقبهم من أجل هذا ، فانتاجنا أصبح حديثا عصرياً ، ولكننا لم نستطع حتى الآن ان نتخلص تماماً من الرفوش والفؤوس . منذ وقت غير طويل ، حدث انفجار غاز في هذا المكان تماماً ودفن اثنان من العمال حيين في المنجم . . » توقف ويده تلامس الفحم الصلب بنعومة ، ثم تابع بصوت منخفض للغاية : « كانا كلاهما في العقد الثاني من العمر . طرحتهما أرضاً موجة انفجار قوتها تسع كيلو غرامات لسنتيمتر المربع شقت الفحم كسكين . وبينما كان الخطر الكبير قائماً تطوع هؤلاء الشبان الثلاثة لمحاولة انقاذ زملائهم ولمنع حدوث كارثة أخرى . عملوا بدون توقف ثلاثة أيام . كانت جلودهم جالحة مكدّمة متورمة ملتهبة ، حتى أنهم لايقدرون حتى الآن على ارتداء ثيابهم اثناء العمل . .

انفجرت قائلة : « أوه ، توقف ! أنت المدير . كيف تستطيع ان ترى العمال يعملون بثياب وسخة كهذه ؟ »

أجاب خافض الرأس بصوت أثقل من ذي قبل : « إننا منجم لا مخبر . فثلاث ورديات في اليوم ، ومئات العمال في الوردية الواحدة تعني الآلاف من

الثياب . أود أن أعطي العمال ثياباً نظيفة كل يوم . ولكنني لست فوق مستوى البشر » .

أحزنها أن ترى وجه هذا الإنسان الضخم تعتليه نظرة عجز .

وتابع وعلى شفتيه ابتسامة فيها مرارة : « لم يكن ثمة وقت كاف ، للعمال لتناول الوجبة الرئيسية على السطح ، ولذا قررت دون الرجوع إلى أحد أن أزودهم بوجبة مجانية تحت الأرض تكلف ثلاثين فناً[1] . وبسبب ذلك كان علي أن أقوم بنقد ذاتي مرتين . ولم يصرف النظر عن قضيتي إلا عندما اتخذ رفيق من اللجنة المركزية قراراً بعد تفتيشنا .

قالت بلطف : « أستميحك معذرة ، لم أكن أعرف . . . » ولمست يده الكبيرة بيدها الصغيرة مسترضية إياه ولتضيِّق قليلاً الهوة بينهما .

كان ضوء الشمس خارج المنجم باهراً جداً بحيث لم تستطع أن تفتح عينيها إلا بصعوبة . ترنحت بضع خطوات ، ثم تقيأت .

في المساء جاءت إلى مكتبه وعرضت أن تبدأ العمل في اليوم التالي . لم يظهر دهشة أو إعجاباً بمبادهتها . أرادت أن تجلس مدة أطول في مكتبه لتتحادث معه ، غير أنها لما أحست بحالته النفسية السيئة اضطرت إلى المغادرة . ثم لاحظت أنه يمسك بمسطرة سوداء . وعندما شعر بحب الاستطلاع عندها شرح قائلاً : « كانت في الأصل قضيباً من الكهرمان عثرت عليه في المنجم . عندما كنت أفكر كنت أقف بجانب النافذة وأحفه على عتبة الشباك الاسمنتية . وبعد وقت طويل تحول القضيب إلى مسطرة . فكلما قمت بشيء مفيد للعمال أحفر فيها فرضة . والآن عليها مقياس بالسنتيمترات وبالميليمترات أيضاً . . . » .

فكرت أثناء عودتها ، ليت شعري هل حفر فرصة لمجيئي إلى هنا . لا ، إنـه مستحيل . ومهما يكن ، ما أنا بالمقارنة مع أولئك الشغيلة العاملين تحت الأرض ؟ ترى هل أشغل مكاناً في أذهانهم ؟

كان في المـدرسـة عدد قليل من مواد التعليم البسيطة ، وهـذا شيء توقعته . لكن ما أساء إلى كرامتها كمعلمة هو تلاميذها . فعندما كانت في دار المعلمات قيل لها في أول حصة إن الأطفال أزهار الوطن . هنا أطفال كثيرون وسخو الوجوه وسخو الأيدي ، محشورون حشراً في قاعة الدرس . كان أكثرهم يرتـدي ثياباً إمـا واسعة جداً أو ضيقة جداً أو بدون بعض الأزرار . وكانت أصابع أقدام بعضهم تخرج من مقدمة أحذيتهم . وكان شعر بعض الصبيان طويلاً طولاً يمكن من تجديله . . . إن كان شيء عنـدهم مشرقـاً زاهياً فهـو عيونهم التي كانت تبرق حيوية وذكاء .

في اللحظة التي دخلت ، رددوا معاً : « صباح الخير ، يا آنسة ! » .

عبست عندما سمعت لهجتهم المحلية القوية .

ردت قائلة : « صبـاح الخير ، يا أطفـال » . ثم حاولت أن تصحح نطقهم . « والآن انظروا إلى فمي ـ آ ـ نسة . . » .

ثم طلبت من صبي أن يرددها وراءها

صدرت بضع ضحكات من الصف .

غضبت . « قفوا عن الضحك ! » .

صمت الأطفال خوفاً ورمقوها . تعجبوا لقسوتها عليهم في النطق أول يوم .

« من علمكم أن تقرؤوا بهذه الطريقة ؟ » .

قال تلميذ بخجل : « الآنسة لي . إنها ذهبت في إجازة أمومة » .

نفرت بشدة من التطلع إلى مستقبلها كمعلمة في مكان كهذا ، فأعلنت للصف : « اليوم لن أستطيع إعطاءكم أية دروس ، لأنكم جعلتموني حزينة جداً . أريدكم أن تأتوا إلى المدرسة غداً مرتبين نظيفين » .

مر الأطفال أمامهم مطأطئي الرؤوس وخرجوا واحداً من قاعة الدرس .

كانت آخر من يخرج . وعلى الباب وجدت مدير المنجم ومدير المدرسة .

قالت لمدير المدرسة أولاً : « أرجو ألّا تستنكر ذلك . فأنا أعتقد أن من واجبي كمعلمة أن أساعد تلاميذي على ترسيخ عادة النظافة الجيدة » .

كان المدير في عشرته الخامسة وكان نفسه يلبس ثياباً وسخة . هرش فكه ثم قال : « طبعاً ، طبعاً . . ولكن . . » ونظر إلى مدير المنجم .

استدارت نحو الأخير قائلة : « آمل أن تستطيع فهم هذا » .

كان قد أشعل لتوه سيجارة فقال ناظراً إلى سيجارته : « ربما أنت محقة » .

فكرت لماذا ربما ؟ على أية حال ، لا أبالي إن كان حقاً أو باطلاً . سوف أصر . إنها لن تذعن في اليوم الأول .

قالت : « وداعاً » ومضت دون أن تلقي نظرة إلى الوراء .

في التاسعة مساء خرجت تتمشى قبل أن تعد نفسها للنوم ، وصدف أن رأت مدير المنجم يقود اثني عشر من الأطفال من حمام العمال باتجاه بناية

المكاتب .

فهمت معنى ذلك فوراً . لحقت بهم وانسلت إلى الطابق العلوي حتى وصلت إلى باب مغلق . سارقت النظر من خلال لوح زجاجي في الباب فرأت بعض ثياب الأطفال الجديدة المكدسة على المكتب .

كان يوزع الثياب . قال بعد أن سلمها جميعاً : « الآن البسوها ودعوني ألقي نظرة » . ثم قعد على كرسي وأخذ يدخن ويراقب الأطفال يغيرون ثيابهم .

عندما انتهوا قال آمراً : « تعالوا إلى هنا » .

فتجمعوا حوله مطيعين .

« مدوا أيديكم » .

امتثلوا . وبعد أن أطفا سيجارته ، وجد مقصاً صغيراً وبدأ يقص أظافرهم .

فكرت بالدخول ، ولكنها كانت تفتقر إلى الشجاعة ، فترددت .

سأل عندما قصّ أظافر فتاة حُلق شعرها : « لماذا حلقت شعرك كله ؟ » .

غمغمت الفتاة : كان فيه قمل . عمّاه ، إنني خائفة من المعلمة الجديدة . أنا متأكدة أنها لن تحب رأسي الأصلع » .

« لا داعي للخوف . إنها معلمة جيدة . وسوف تحبك » . ثم أضاف بعد إعادة التفكير : « سوف أكتب لها رسالة . هل تستطيعين أخذها لها غداً ؟ » .

« نعم ، أستطيع » .

قال صبي فجأة : « عمّاه ، هل تحب المعلمة ؟ » .

أذهله سؤال الطفل لحظة ، ثم هز رأسه مبتسمًا .

شعرت أن كرامتها لم تتضرر أبداً ضرراً خطيراً كهذا الضرر . فتراجعت خطوة خطوة إلى بسطة الدرج ، ثم اتجهت بسرعة إلى الطابق السفلي وعدت عدواً إلى المهجع .

في اليوم التالي جلبت لها الفتاة ذات الرأس الحليق رسالة تقول : « لقد مات والد هذه الفتاة وهو على رأس عمله » .

فإذا ارتكبت بعض الأخطاء التي تزعجك ، أرجوك أن تضبطي نفسك . كل من في المنجم ، بالغاً أم طفلاً ، يعطف عليها ويود أن يتحمل اللوم ليحميها . وشعرها سوف يطول عما قريب ، وسوف تكون فتاة ذات شعر أسود طويل جميل » .

حققت الرسالة غرضها فأصبحت مهتمة جداً بالفتاة ولم تثر ثائرتها عليها أبداً . مع هذا لم تكن مرتاحة لأنها كانت تستطيع قراءة فتوره بين السطور المهذبة .

منذ ذلك اليوم لم تأخذ زمام المبادرة أبداً في التحدث إليه أو تحيته . ثم حدث شيء .

لم يكن في المدرسة غرف خاصة بالمعلمات ، ولذا سكنت في مهجع العازبين . وكمساعدة لها أعطيت غرفة خاصة بها في طرف الممر في الطابق الثالث . حينما كان الرجال يلتقونها في الممر أو في الحمام ، كانوا يتصرفون بأدب

وتهذيب . كانوا ينادونها « معلمة » ، وعندما كانت تخرج لإجراء تمارين الصباح على الشرفة ، كانوا يؤرجحون أذرعهم ويمدون أرجلهم . ذات مساء حبست نفسها في غرفتها لتستمع إلى الموسيقا من مسجلتها ، وبعد حين لم تستطع أن تحجم عن الرقص . ثم بدا لها وكأنها تسمع حركة خارج بابها . بعد أن وقفت رمقت الباب . وفي اللحظة التالية دوّى الممر بوقع الأقدام المتراجعة لعدد من الأشخـاص . فتحت البـاب بغضب ، فلم تجد أحـداً هنـاك . ثم عادت لتجلس على سريرها وقررت أن تنتقم من أولئك الشباب قليلي الحياء .

حدث الشيء نفسه عندما رقصت ثانية . تظاهرت أنها لم تلاحظ شيئاً واستمرت في الرقص مقتربة تدريجياً من الباب . ثم قرفصت فجأة ونفخت في ثقب المفتـاح . سمعت فوراً هرجـاً في الخـارج ، فاضطرت أن تعض شفتها لتوقف ضحكتها . عرفت أن مسحوق الطباشير الذي وضعته في ثقب المفتاح قد أعطاهم شيئاً يفكرون فيه .

أحست أن عليها أن تعلم مدير المنجم بالحادث . فجاء إلى المهجع في ظهيرة أحد الأيام وجمع العازبين كلهم وجعلهم يقفون في نسقين في الممر . عقد يديه خلف ظهره ومشى جيئة وذهاباً أمامهم ، مثله مثل قائد يستعرض جنوده . ثم وقف ليشير إلى العينين الحمراوين لأحدهم : « إنه أنت ، أليس كذلك ؟ » .

خفض (المجرم) رأسه في هوان . كان تعبير وجهه تعبيراً عن استكانة تثير الشفقة .

« عيناك ، هل ذهبت إلى المستوصف بشأنهما ؟ » .

« ليس هناك حاجة » .

« هل تستطيع العمل في المنجم ؟ » .

« نعم » .

« هراء ! إنك لا تستطيع العمل تحت الأرض وعيناك حمراوان ، أيها التافه ! » .

شعرت بالأسف لما سمعت كلماته القاسية . خرجت من غرفتها ومشت حتى وصلت إليه وقالت : « أنا ملومة أيضاً . . . » .

رماها بنظرة ، قائلاً : « إن ما أتخذه من إجراءات ليس من شأنك أبداً » . ثم نادى عاملاً ليرسم خطاً أبيض على الأرض أمام غرفتها .

ثم أعلن مشيراً إليه : « إن ما وراء هذا الخط خارج الحدود ، أتفهمون ؟ » .

أجاب الشبان : « نعم » .

« انصرفوا » .

انطلقت كالسهم إلى غرفتها ، وأغلقت الباب ، ورمت بنفسها على السرير وبكت حتى شبعت بكاء .

بعد ذلك ، كلما التقوها تصرفوا كما لو أنهم التقوا نمراً وهربوا بسرعة . إن الخط الذي فصلهم عنها وضعها في الواقع في سجن انفرادي . كانت نادراً ما تخطو خطوة خارج غرفتها أينما ذهبت إلى المهجع بعد العمل .

ولكن الوضع استمر أسبوعاً واحداً ، فقد خرق القاعدة واضع القاعدة نفسه ، ذات يوم عبر الخط ليقرع بابها ، فتحته وفكّرت مترددة أن تغلقه في وجهه . بعد برهة رمق فيها الواحد منهما الآخر ، سمحت له بالدخول ، مع أن

تعبير وجهها كان جافاً

قال بصراحة إنه يريدها أن تعلمه الرقص . فرفضت معتبرة أنه من العبث أن يقترح ذلك بعد اتخاذه إجراءات لحمايتها . ولكنه لم يبال . شرح لها وابتسامة تعلو وجهه أن المنجم سيقيم حفلة بالاشتراك مع العاملات في معمل النسيج وأنه اتخذ الترتيبات كلها . وقال إنه يأمل أن يجد بعض العمال صديقات لهم في الحفلة .

كان التفسير واضحاً لا لبس فيه . أخيراً وافقت رغم ترددها .

وسألته : « هل ستجد لك زوجة في الحفلة أيضاً ؟ » .

« لا ، ولكنني أود أن أتعلم ، فقد يقتضي الحال أن أبدأ حفلة الرقص » .

لم يكن ثقيل الحركة ، بالرغم من ضخامته . بل كان على العكس سريع التعلم . فبعد بعض التدريب استطاع أن يرقص برشاقة تامة .

أخيراً كلفها بمهمة تدريب الراقصين وتعليمهم بعض اللطافات الاجتماعية .

جاء يوم الحفلة . ركب العازبون في سيارات شاحنة اتجهت بهم إلى مصنع النسيج ، وكانوا جميعاً يلبسون ثياباً لائقة ويتمتعون بروح عالية .

لقد نظمت حفلات عديدة كهذه ، ولكن الغاية المتوخاة لم تتحقق ، ولا يبدو أن هناك أي أمل في تحقيقها . كان موقف الفتيات واضحاً . بإمكانكم أن تقيموا حفلات كثيرة كما تحبون ، ونحن جاهزات تماماً لنرقص معكم ونصادقكم . أما فكرة زوجة عامل منجم ـــ فلا ، إن ذلك مستحيل .

شعرت إن من الضروري أن تواسيه .

وكعـادته ضرب مسطرة الكهرمان على راحة يده برفق مدة طويلة ، ثم قال : « لم أُغلب أبداً غلباً سيئاً كهذه المرة » .

أثّر في نفسها تأثيراً عميقاً أن ترى رجلاً واثقاً بنفسه كهذا ينحط به الحال إلى الكمد واليأس .

ومنذئذ آمنت أنها قد بدأت تفهمه .

والآن جاء وقت العطلة والعودة إلى بيت أهلها .

لكنها أحست بالاضطراب . لم تكن قادرة أن تقرر ما إذا كانت ستعود في الفصل القادم أم لا ، إذ لم تكن مستعدة للبقاء طويلاً في المنجم عندما قررت في البداية أن تعمل هناك . إن من غير الممكن أن تكرّس حياتها كلها للتعليم فيه . على كل حال ، لقد قضت في المكان عدة شهور ، والآن جاء دور شخص آخر .

لكن المشـاعـر الإنسانية معقدة . فعندما حان الوقت أخيراً لروبنسون كروزو ليقـول وداعـاً للجـزيرة المقفرة ، من المحتمل أنه شعر ببعض الأسى لمغادرتها . كان عليها أن تعترف لنفسها بأن ثمة شيئاً هنا تكره أن تفارقه . وهي ليست روبنســون كروزو ، والمنجم ليس جزيرة مقفـرة في عرض المحيط ، والعمال ليسوا أناساً متوحشين .

كان عمال المنجم أشبـه ببروميثيوث . فالحضارة التي يتنعم فيها الناس اليوم مدينـة لظهورهم المتسخة إلى حد ما ، بينما أعطاهم المجتمع قليلاً جداً مقابل ذلك . كانت تعلم أنها لو تركت المنجم نهائياً لن تسبّ أبداً ، كما كانت تفعل في الماضي ، حين لم تكن التدفئة تعمل مبكرة كما ينبغي . لن تفعل ذلك

أبداً . بل على العكس من ذلك ، ستقلل استهلاكها من الماء الساخن كي توفر قطعة فحم .

تجنبت غرفة الاستقبال عند بوابة الساحة بعد أن تركت المهجع حاملة حقيبة ثيابها . وبدلاً من ذلك خرجت من فتحة في السور . أخذت ثيابها كلها ؛ غير أنها تركت لحافها الجديد مع رسالة قصيرة كتبت فيها أنها قد لا تعود وأنها تأمل من مدير المنجم أن يعطيه للفتاة ذات الرأس الحليق . اختارت الطريق الأطول إلى محطة القطارات لتتجنب لقاء الناس .

بينما كانت تمشي فكرت بمسطرة الكهرمان ، لنفترض أنك تقيس قلوب الناس بها ، ليت شعري كم عدد أولئك الذين يملكون ضمائر نظيفة . كان قلبها ثقيلاً .

عندما اقتربت من المحطة حدث أن رفعت رأسها فلمحت رجلاً يجري مسرعاً باتجاه المحطة . كان يحمل طفلاً بيد وصرّة كبيرة باليد الأخرى . إنه مدير المنجم ومعه الفتاة . أحست باضطراب شديد فجأة فتمنت لو تستطيع أن تهرب أو أن تخبىء نفسها في مكان ما .

لكن فات الأوان . كان يقترب منها ، وبعد لحظة وقف أمامها تماماً

قال : « أخبرني الآذن أنك ذهبت . فأخذت لحافك إلى بيت الفتاة كما رغبت ، غير أن أمها رفضت قبوله ، مع أنها شاكرة لك جداً ، كانت إدارة المنجم قد أعطتهم ثلاثة لحف قبل وقت قصير ، ولذا جلبت هذا لك . والفتاة تريد أن تودعك أيضاً » .

تكلم بالصوت الهادىء نفسه ، متجنباً أي تعبير أسفٍ على رحيلها . وغير محاول أن يقنعها بالبقاء . لو كان قد أفصح عن هذا أو لّمح ، لكان أمكنها

أن تقول له دون تردد : « سوف أعود » .

كانت الفتاة الصغيرة تنظر إليها نظرة عارف . سألت بخجل : « يا آنسة ، هل تريدين ترك هذا المكان لأنك لا تحبين رؤية فتاة بلا شعر ؟ إن كان الأمر كذلك ، فسأنتظر حتى ينمو شعري ويطول كي أجدله قبل أن أذهب إلى المدرسة . هل ذلك صحيح ؟ » ونظرت إليها منتظرة جوابها بلهفة .

أنزل المدير الفتاة وقال لها برفق : « لا تكوني سخيفة . إن معلمتنا راحلة . انحني لها » .

انحنت الفتاة بأدب . وحين رفعت رأسها ثانية كانت عيناها مليئتين بالدموع .

انطلقت صفارة القطار تزعق من بعيد .

تقدم منها خطوة وأخرج مسطرة الكهرمان وقال : « من فضلك اقبلي هذه تذكاراً . هناك فرصة عليها حضرتها لك » .

ترددت لحظة في أخذها ، وتطلعت إليه بتشكك .

« لقد عنيت ما قلته » .

أخذت المسطرة بصمت ، وأحست بها أثقل من أي وقت مضى . لم تكن تتوقع أن قيمتها مسجلة على مسطرة الكهرمان . شعرت للحظة أنها صغيرة النفس جداً بحيث لا تستحقها فعلاً .

« إذا قررتِ أن لا تعودي سأتأكد أن إضبارتك ستحوَّل . لا عليك من ذلك » .

وصل القطار إلى المحطة . دخلت تحمل حقيبتها ، وناولها اللحاف .

شعرت بدافع لأن تقول بعض الكلمات الأخيرة له بينما كانت واقفة على الباب ، ولكن لّما كانت لا تعرف ماذا تقول رمقته وكأنها متخشبة .

تحرّك القطار ، تاركاً إياهما جنباً إلى جنب على رصيف المحطة المبتعد . رأت يد الفتاة مرفوعة .

وفجأة طفرت الدموع من عينيها وصاحت بصوت عال : « سأعود ! » .

لكن القطار كان قد ابتعد كثيراً ، فلم يسمعاها .

كاتب القصة : ولد ليانغ زياوشنغ Liang Xiaosheng في هاربين بالصين عام ١٩٤٩ . وتطوع في سن الثامنة عشرة للعمل في استصلاح الأراضي شمال غرب الصين . ثم أصبح فيما بعد مراسلاً لصحيفة محلية . وفي عام ١٩٧٥ التحق بجامعة فودان بشانغهاي . وبعد تخرجه عمل كمحرر في استديو بيجنغ السينمائي . وقد نشر ما يزيد على خمس وثلاثين قصة قصيرة . ترجم (مسطرة الكهرمان) إلى الإنكليزية يانغ نان .

ببليوغرافيا

Liang Xiaosheng, « The Jet huler » Story International, VIII, No 46 (October 1984), PP. 28 - 41.

عيد الربيع

• يونان • ترجمة: علي الخش

في هذه السنة كان عيد الربيع أغنى حياة من يوم رأس السنة الجديدة . فمنذ أوائل الشهر الثاني عشر القمري انهمك الناس ، في غبطة الإعداد له . وفي ليلة اليوم الكبير سمع تفرقع السهام النارية في كل جوانب المدينة من غير انقطاع . وانما في منتصف الليل ، بلغ ذلك الصخب أقصى غايته بانفجارات من كل نوع تصم الأذان . إلا وانه وسط كل هذا المرام شرع الناس في اعداد طعام العيد .

يقال دوماً إن الصغار هم الأفرغ صبرا بانتظار العيد . أما في بيتنا فكانت امرأة عجوز في الرابعة والثمانين من عمرها هي أمي .

كانت رغم عمرها المديد ، وشعرها الأبيض ما تزال جيدة البصر رهيفة السمع . وبسبب من همة روحها ، ومتانة صحتها ، ظلت قادرة على القيام بكل الأعباء المنزلية ماعدا نقل الماء .

في ليلة العيد لم نفرغ من اعداد الطعام إلا وقد تأخر الليل . وإذ كان يترتب علي في صبيحة الغد ان اقوم بزيارة العديد من العائلات صحبة أقراني ، رأيت أن استغل ما بقي من وقت في النوم . في العادة كنت أتلبث حتى تأوي أمي الى سريرها ، وعندئذ أطفئ المصباح ، وأسعى الى غرفتي . أما في هذة الليلة فانها لما مررت لرؤيتها لم تكن مشتاقة للنوم . كانت في سبيل البحث في الصندوق العتيق ، ذي اللون البنفسجي الغامق ، وكان مهر زواجها .

وسألتها : أمي ، ألما تستريحي ؟

فأدارت رأسها وتبسمت حين رأتني . رغم تجاعيد وجهها ، ظلت عيناها تشعان ألقا ، وبياضهما لم يعره عكر ولا صفرة ، كما يحدث عادة للطاعنين في السن ، وظل صافياً يضرب الى الزرقة لا يقل في ذلك عنه في عيني فتاة . ومهما أرجع بالذاكرة قديما أراني قد عرفت لها دائما هاتين العينين .

ـ عجباً لك ياولدي العيد مصبح ، وأنت ماتزال تفكر بالنوم ؟ عندما كنت فتية ، فانه تبعا للتقاليد ، لم يكن أحد ليلة العيد ينام . ألم تسمع السهام النارية ؟ لقد كرموا هذه العادة القديمة . أصغ هذه السهام تفرقع جيدا . انه حقا كما كان في الماضي . . . وبدا أن الجواب ماكان له أن ينتهي ، فقطعت عليها كلامها لكي أحول وجهة الحديث .

ـ أمي ، لابد من أنك متعبة . . .

فردت قائلة : كلا ، كلا . فانه لمما يسعدني دخولي هذا في ربيع جديد . لكن لاتنسَ أن ترسل الأولاد لتحية الشيوخ . ولكي يباركوا لهم بالعيد . تنبغي الآن علاقات عادلة بين الأجيال . لن يكون ذلك عبثاً . كلا إلا اذا كان من هذا القبيل تبادل التحية بين الشباب . ان الرفاق يعملون معاً طوال العام كله . وقد تشجر بينهم خلافات ، ومشاكل ،وسوُ تفاهم ، ولكن بمناسبة العيد ، فانهم يتبادلون الزيارات وتتبدد المشاكل بعد ذلك يمكن أن يصلوا إلى الوفاق وحسن التفاهم أثناء العمل .

لم أكن توقعت أن كلماتي القليلة ستطلق هذا الوابل من المبدئيات الفلسفية . كنت أقدر أنها ، وقلبها في عيد راغبة في التحدث قليلاً ولكي أحملها على أن تسارع إلى طلب الراحة ، كانت الوسيلة المثلى أن انسحب توا .

وحين لاحظت رغبتي في التخلص ، نادتني بالاسم الذي كنت أنادي به طفلا :

ـ زهو ! هذه ليلة العيد . لنبق كي نسمر زمناً قليلاً ، أنت وأنا .

ـ كنت حينئذ رجلاً جاوز الأربعين من العمر . ومنذ نيف وثلاثين عاما كانت قد كفت عن دعوتي باسمي أبان طفولتي . قبل يومنا هذا بعشرين عاماً ، وبسبب من مشقة الحياة في الريف . غادرت قريتي ، وعملت كمياوم في الشمال الشرقي ، وبعد أن خلفتها لتكدح وتشقى في الريف .

بعـد ذلـك باثني عشر عاما اصبحت عامـلا أصيلا ، وتـزوجت من غوييغ ، احدى مواطناتي . رزقنا ولدين وابان هذه القصة . كان قد مضى عام ونيف على اليوم الـذي استطعت فيه العودة إلى مسقط رأسي إثر مناقلة وكنت حين ذلك مستخدماً للقيام بشتى الاعمال في شركة المحاصيل المحلية بالولاية ، وكانت زوجتي تعمل في مصلحة شراء الفراء . وكنت بعد عودتي ، قد جئت بأمي من الريف . لتقيم معي حتى تحلولي قليلاً أيام شيخوختها . واذ كنت أعمـل طوال أيام الأسبوع وكان علي حتى في يوم الأحد ، القيام بمهام كثيرة متنوعة ، فانه لم يكن في وقتي متسع للجلوس بصحبتها . ولذلك فمن المؤكد انه كان لديها الأن الكثير مما تريد أن تفضي به إلي .

بقيت . فقالت لي أمي وهي تبتسم :

ـ زهـو ، أمك قد عاشت حتى الآن احدى وثمانين سنة . وغدا ستبدأ سنتها الثانية والثمانين . فلم تبق في عمرها فسحة كبيرة لتبادل الحديث وإياك . أني أعـرف أنك مشغول دوماً بعملك ، وبأعبائك المنزلية . ولا أريد أن أثقل عليك . كل ما أريده أن أفتح لك قليلاً قلبي .

لدى سماعي هذه الكلمات ، امتلأت نفسي بمشاعر الندم وتأنيب الضمير .

« كيف للمرء أن يجرح حساسية إنسان طاعن في السن ؟ » . وقد أنساني هذا الشعور نعاسي . وجلست إلى حافة السرير .

في الحق لم يكن لديها من شيء هام تقولـه لي . لقـد حدثتني عن العيد . قالت :

قبل قيام الصين الجديدة أيدنا بفاعلية حرب التحرير . وكان بين رجال الحرب الثورية زعيم اسمه ليو الصغير . كان في ميعة الشباب . في العشرين من عمره أو يكاد ولكنه كان في نضجه وطيبة قلبه عزيز المثال . ولم يكن يتخلف قط عن زيارتي في عيد الربيع ، حتى ولو عرضه ذلك للاشتباك مع العدو . ولأن والديه كانا قد قتلا بأيدي الرجعيين . اذ هو حدث ، فأنه حسبني كأمه ، وحسبك كأخيه الصغير . لاأعلم أن كنت تذكر كم كان يحبك ، لقد كان يجعلك على ظهره ليقوم هو بدور الحصان .

واستمرت سهرتنا . وفي تمام منتصف الليل أعلن المذياع حلول السنة القمرية الجديدة . وكانطلاقة رصاص كثيف ، عربدت السهام النارية بالغة ذروة صخبها .

ـ وقالت لي أمي : هيا الآن فخذ قسطاً من النوم .

عدت إلى غرفتي ، وتمددت على سريري ، من غير أن أخلع ثيابي وعلى غير شعور مني أدركني الكرى .

عندما جاءت أمي لتوقظني كان الصباح في ساعة الرابعة . وفي الخلاء كانت السهام ماتزال تفرقع .

ـ أذكيت النار . أما أنت فلتشعل القنديل ، ثم لتضرب بالمكنسة في فناء الدار .

بعد ذلك ينبغي ايقاظ غويينغ لكي تساعد الأولاد في ارتداء ملابسهم . ثم تلو ذلك ينبغي الشروع باعداد طعام العيد . وإلا فسيصل الزائرون قبل أن نكون فرغنا من اعداده .

قلت نعم بفمي ، ولكني بفكري كنت على نقيض ذلك ، واهاً لك يا أمي العزيزة ، انك لا تعلمين العادات في هذا البلد ، ولكني حين رأيتها ترتدي الملابس القشيبة التي استصنعتها من القماش الذي اشتريته لها قبل العيد ، وتضع قبعة مما تضعه السيدات المسنات ، جديدة هي الأخرى ، على شعرها الذي عنيت بتسريحه ، ومنديل حرير راح يلمع فوق وجهها الذي يشع حبورا ، أدركت مدى أهمية هذا العيد عندها . وسرى إلي انفعالها كما سرى إلى نفوس بقية أفراد العائلة . فخففت لاشعال القنديل ، وعلقته ، كما شاءت بواحد من أغصان الشجرة الكبيرة التي تنبت وسط الفناء فاستضاء هذا بنوره الأحمر ، وهرع ولداي داماؤ وارماؤ فجاءا بقضيبي الخيزران اللذين تعلق بنهايتهما عنقود من السهام النارية ، أقمنا على صنعها في الليلة الفائتة . وضعا في كل من جانبي الباب قضيباً ، وراحا ينتظران الانفجار بعيون مغمضة ، بادرتهما أمي بضربة لطيفة على شعرهما وقالت ضاحكة :

ـ ياللطائشين انكما لم تفكرا باشعال الفتيل

وأقبلت غويينغ ، تحمل المعجنات وهي تلهث ، بوجه ضاحك جلست أمي في مكان الصدارة فيما كانت سهام داماؤ النارية تفرقع في الفناء ، تلك كانت ساعة العيد الكبرى ، والأحفل بالمراسم والمرح ، وبالقدسية . انحنيت أمام أمي و تلفظت بهذه الكلمات :

ـ أمي ، أتمنى لك سنة طيبة وسعيدة ثم أدت غوييـنغ هذا« الطقس » بدورها ولم ترفض أمي أن تهب نفسها لهذه الحفلة ..

قالت مبتسمة : تماماً ! تماماً !

أذهلت المفاجأة داماؤ ، وكان ينظر إلينا بعينين مدورتين ،مد ارماؤ ذراعه نحو المعجنات . قلت لهما :

هيا سريعاً لتحية جدتكما .

وشغبت أمي وهي تهدد باصبعها :

لن تصيبا منها شيئاً مالم تكونا مهذبين .

أدى داماؤ ما عليه على وجه حسن . وعندما انتهت « حفلته » نظر إلي كمن يريد أن يسألني (أتراني كنت عاقلا ؟)اما ارماؤ فكان أكثر ارتباكا حين انحنى ، اذ أن رأسه ويديه اصطدمت بالأرض معا . فهبت أمي أسيفة ، وانهضته سريعاً وهي تواسيه :

مرحى ! لقد أحسنت الأداء . بل انك فقتهم جميعاً في حسن الأداء . أمسكنا (بالعيدان) وسط صيحات الضحك .

ماكدنا نشرع في تناول الطعام حتى تناهت الينا اصوات من خارج الدار .

ـ هل السكرتير في المنزل ؟

فاضطربت أمي وقالت :ـ

ـ ماذا كنت قلت لك ؟ هؤلاء هم الزائرون بالباب .

فأوضحت لها مبتسماً :

ـ كلا يا أمي انهم يقصدون زيارة جارنا الشرقي

ولم أكد انهي كلامي حتى بلغت مسامعنا صيحات جديدة وفي هذه المرة أنحت علي أمي بالمزيد من اللائمة . سألت :

انهم آتون لزيارة جارك الغربي ، أليس كذلك ؟

نعم يا أمي إنهم يقصدون بيت المدير (زهي) .

كان هذا هو المدير المعاون لشركتنا ، وقد عين مسؤولاً عن مخزن الدولة الكبير في المقاطعة . وبسبب علو الوظيفة التي تسلمها فقد كان من المؤكد أن عدداً كبيراً من الزوار سيؤمون بيته وشيكا . أما الناس على شاكلتنا فلا خوف أن يزعجهم الناس وقت الطعام .

وفيما كنت غارقاً في جلبة افكاري ، كنت أسمع ، كما لو كنت في حلم ، أمي وهي تعطي كنتها و أحفادها تعليمات سمعتها منها حتى الآن أكثر من عشرين مرة ، من ذلك :

إذا كانت المعجنات تؤكل خالية من اللحم في اليوم الأول من السنة فإن هذا الطقس يرمز إلى الصفاء و الطمأنينة ، والسلام والازدهار .

كان النهار قد أضحى عندما فرغنا من طعامنا . أصبحت فرقعة السهام النارية لا تسمع إلا لماما . فاستحثتني والدتي :

زهيكيانغ (أمام زوجتي وأولادي لم تكن قط تناديني باسمي الطفولي) حضر الحلويات سريعاً

أثناء عيد الربيع تضع كل عائلة أربعة أطباق مليئة بالنقل للزائرين . أما نحن فكانت ضيافتنا صحفة من السكاكر ، وثانية من الفستق وقد أهداه إلينا شقيق زوجتي ، وصحفة من بذر عباد الشمس ، جنيناه بانفسنا أما الصحفة

الـرابعـة فكنت أتهيأ لأن أضـع فيهـا برتقالاً أو بسكوتا ، عندما أوقفتني أمي بابتسامة غامضة . كانت تريد أن تفاجئني بأمر .

في اعتقادي أني أحسنت تحضير الصحاف . لكن أمي لم تجدها في وضع يرضي ذوقهـا وضعت أول الأمـر بذور عبـاد الشمس التي تستهـوي الزائرين بمتناول اليد . ثم وضعت الفستقات والسكرات واحدة فواحدة بحيث رسمت بها كوخا ، وبعد أن تفحصت عملها لآخر مرة تبسمت في رضى . في زيارات التهنئة بعيد الربيع ، جرت العادة أن يتجمع الزوار في بيت أحدهم ، ثم أن ينطلقوا سوية ليزوروا الآخرين . وفي الساعة الثامنة ، عندما امتطيت دراجتي لأمضي لشأني ، ألقت إلي أمي أيضاً بعض الوصايا .

ـ زهيكيانغ ، يجب أن تمر على سائر الرفاق . وحذار أن تنسى عائلة واحدة !

ـ سأتابع الآخرين ، وأذهب إلى حيث يذهب الجميع .

وعندما سمعت أمي هذه الكلمات بدت مطمئنة .

كان فريقنـا من الـزوار يتـألف من ثلاث فصائل : الأولى تضم اركان الفريق :

هؤلاء كانت لهم صلة قربى بأحـد كبـار الموظفين ، وكان الجميع بمن فيهم موظفو الإدارة يداورنهم ويرهبون جانبهم . هؤلاء كانت لهم خبرة وحذق بالعلاقات المهنية ، ويجدون سبل النجاح بسهولة لا تتأتى لسواهم ، وينعمون بالحظوة لدى المسؤولين . وآخرون كانوا ذوي وضع اقتصادي يسمح لهم بأن يدعـوا النـاس إلى مآدبهم ، ليستكثـروا من الأصـدقـاء وخاصـة من وسط الحـزبيين ، وفـريق آخر كانوا ذوي مهن لاغنى عنها للمجتمع . وعلى سبيل

المثال كان ثمة طبيب تقليدي قادر على العلاج من الأمراض الخطيرة ، أو المستعصية على طرق المعالجة المعهودة . هذا الانسان كانت له مداخل حتى إلى أمين الفرع في الولاية . وكان هؤلاء الناس جميعاً على علاقة وثيقة فيما بينهم ويتعارفون كأصدقاء خلص . وعندما كانت الشركة تواجه بعض المشاكل أو تقيم اتصالاً بالخارج ، فأنهم هم الذين كانوا دوماً يقومون بدور الوسطاء أو حلالي المشاكل وكانت خبرتهم تؤمن النجاح . وعلى الخصوص كان أحدهم إبن أخي موظف كبير في الأقليم . ولما كانت قد سنحت الفرصة بأن يصادف لدى هذا الأخير أمين الفرع في الولاية وأن يشرب بصحبتة ، فإنه قد أصبح رائد فريقنا الزائر .

أما الفئة الثانية فكانت تتألف من الموظفين متوسطي الحل في شركتنا .

وكنت بمفردي أؤلف الفئة الثالثة . كنت ذلك الذي يعمل يومياً حتى تنخلع قدماه ، ومن غير تذمر . ثم أنه كان لي تخصص يحظى برضى الناس جميعاً ، ألا وهو البناء ، وكنت في هذا المجال غالباً ما أقدم الخدمات . وفضلاً عن ذلك ، فإذ لم أكن بياع كلام فأني لم أكن أدخل في خصام مع أحد . حين كانت ثمة مسألة مطروحة على بساط البحث ، لم أكن أجد ما أقوله . كان يشق علي فتح فمي بقدر ما يشق على كلب عض قنفذ . وأنه لهذه الأسباب مجتمعة قبلت في الجماعة .

أقبلت دراجاتنا لكي تتوقف كأسطول صغير امام بوابة من القرميد الأحمر . اقمناها جانباً ودخلنا ذيلياً واحداً إثر صاحبه . وحين كنت ما ازال اسائل نفسي لمن كان هذا البيت صاح كبير ممثلينا :

ـ نحن قادمون لتحية السكرتير صن .

ويقوله هذا دخل الدار بخطا مدروسة يتبعه الجميع . حين تجاوزنا

العتبــة لاحظت ان لم يبق ثمــة كرسي شاغــرلي . وجــاءت امـرأة نصف ، متميـزة ، بـاسمـة الـوجـه ، فتبـادلت وإيانا احاديث مجاملة ، فيما كانت تقدم بلطف سكاكر وسكائر للحاضرين جميعاً .

أرجوكم ، اخدموا أنفسكم ،لقد سافر الشيخ صن مع السكرتير ما . . .

عندما دنت مني لاحظت اني ما ازال واقفاً ، فسارعت لاحضار تابورة (١)

وسألت بتواضع ، والابتسام لا يفارق وجهها : أنتم . . .

فهب كبير ممثلينا واقفاً وأجاب باحترام :

-نحن من شركة المنتجات المحلية هي ، هي . . .

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه سيدة المنزل ، وقالت بنعومة :

آه حقـاً ! يا لذاكـرتي ، كم هي سيئـة تعلمـون في هذه الأيام الأخيرة بدأت ذاكـرتي تضعف . عنـدمـا يرتفـع ضغطي فإن رأسي يدور فأنسى هذا الشيءُ أوذاك . فمن لم يكن عرفني ، قد يذهب به الظن الى اني اخــاطبـه من حالق بسبب مركزي . . . واستطردت بتواضع :

وفي الحقيقة مالي من صفات الشخص الهام شيء فزوجي ليس إلا مجرد سكـرتـير معـاون وإنني شاكـرة لكم زيـارتكم . لا سبيل الى التدخل فأنا المُي مجســاً . لم اكن أجرؤ على تفحص المكـان علانيـة لكن كان يداخلني شعـور غامض بالـترف فيـما حولي . وإذ رشقت المكــان بنظـرة خاطفـة لأقـارن بين ضيافتهم وضيافتي ، لاحظت ، حيث توجد الأطباق عادة ، علباً ضخمةً مليئة بالحلوى الفـاخـرة ، وعلب سكـائر نفيسة صفاة . لكن سيدة المنزل لم تقدم لنا

شيئاً منها . بعد دقيقتين عندما ران الصمت على الجماعة ادار ممثلنا بحركة مسرحية معصمه الأيسر لكي يرى ساعته وصاح مصطنعاً المفاجأة :

آه كم يمضي الوقت سريعاً ، عمّة ينبغي ان ننصرف (في الحقيقة ، هذه المرأة لم تكن تكبرنا سناً) ارجوك ان تنقلي تحياتنا للسكرتير صن . اني ادعى كيو جونيا والرفاق الذين صحبوني يعملون جميعاً في الشركة ذاتها . واشار الينا بحركة عريضة من يده :

لا داعي لأن اقدمهم اليك واحداً فواحداً على كل حال سرني ان ألاحظ انه بهذه الاشارة كان يعدني واحداً من الجماعة .

قادتنا ربة البيت بتهذيب حتى الباب ، اذ دعتنا بالحاح ان نأتي لرؤيتها عندما نجد متسعاً من الوقت .

فيما كنت أحث دراجتي سألت زهو الصغير ، الذي كان يجري إلى جانبي بدراجته :

ـ من يكون هذا السكرتير صن ؟

فعجب زهو الصغير للسؤال وأجابني بامتهان :

ـ ألا تدري ؟ انه سكرتير الولاية .

ووضح لي الأمر فجأة فعاودت السؤال :

ـ ولكنه الرقم / ٢ / في ولايتنا لِمَ لَمْ نبدأ بزيارة السكرتير الاول ؟

تابع زهو الصغير جريه بدراجته من غير ان ينظر الي ، وقال بلهجة لا مبالية :

ـ لأنه سينقل الى مكان آخر .

ففهمت لتوي . لم اكن حظيت قط بتلقي المعلومات عندما يستجد امر هام . وكنت غارقاً في التعجب حين اجتزت حد العائلة الثانية مقتفياً خطوات الآخرين .

كانت تلك اسرة مدير المكتب التجاري بالولاية . حسبما يرى ممثلنا كان ذلك (واجباً) ينبغي ان ننهض لأدائه بأسرع المستطاع : كانت إمرأته (شخصية) لايصح اغفالها .

وكنا على مثل اليقين بأنها ستحدث زوجها بكل ما قد يحدث في غيابه ، وبدقة بالغة . له ، على سبيل المثال ، ساعة وصولنا وساعة انصرافنا بل انها ستذكر له أينا اخذ سكرة ، ومن منا دخن سيجارة وما هو الكلام الذي قيل : سيعرف كل شيء . في هذه المرة لم يبد على ممثلنا الأول مثل الضيق الذي بان عليه في منزل السكرتير صن . وتماماً كما لو كان في منزله راح يصب الشاي ، ويقدم السكائر . ومضى يتحدث بإلفة الى ربة البيت . فأشفق عليها من ان المدير لا يولي عائلته أي اهتمام . مثلا مكنة الخياطة هذه التي ترى هناك . والتي نيفت على العشرين عاماً ، لم يفكر المدير قط ان يستبدل بها اخرى جديدة (مع كثرة ما قدم من جديد للآخرين) بعد ذلك اخبرها انه اذا كان لديها نية بأن تشتري بعض الفراء لتخيط ثوباً لحميها فان (شركتنا استوردت منه نوعاً ممتازاً .

العائلة الثالثة كانت ايضاً عائلة رئيس مما اجهل وظيفته ثم تلت الرابعة ، فالخامسة وهكذا دواليك . . .

لا اعلم عدد من زارنا في ذلك الصباح . كانوا جميعاً من ذوى النفوذ اما الوقت الباقي فكان مخصصاً لتبادل الزيارات بيننا نحن الزملاء . ثمة ، ونحن سواسية فيما بيننا ، كانت المهمة اكثر سهولة . كنا ندخل فنحيي افراد الأسرة ،

ونتمنى لهم عيداً سعيداً ، ثم نخرج على الفور.

وبما كنت لا صاحب رتبة ، ولا صلة ، كان من الطبيعي ان تكون اسرتي آخر من يزار . بيد انه كان لذلك مزية . فبفضل الخبرة التي اكتسبتها صباحاً سأعرف كيف اقدم زملائي لأمي . وهذه ، يقينامستخف لاستقبالهم بالابتسام ، وستعرف كيف تدير حديثاً محبباً .

لسوف يسرها ، انتقدم لهم الحلوى التي كانت تنوي ان تفاجئني بها . لم يكن يخالجني شك في ان استقبالنا سوف ينجح ، وإني سأشعر بعده بالمزيد من الطمئنينة والثقة بالنفس .

واخيراً لم نكن إلا على مبعدة ٣٠٠ متر من دارنا . شعرت اني مستوفز ، اشتد علي خفقان قلبي . . . خلفت زملائي بعيداً وحثثت دراجتي لكي اخبر امي ولكي أتأكد من أن كل شيء على ما يرام . ومذ أن دخلت الزقاق اعملت جرس دراجتي .

كانت امي واقفة تماماً امام الباب ترقب الشارع . وسارعت لسؤالي :

- هل زملاؤك قادمون ؟

- نعم ،نعم ، أعدي الشاي بسرعة .

تدخلت زوجتي ضاحكة :

- لقد فرغت امي (تقصد حماتها) من اعداده . ثم نظرت الي باستحياء . ياه كم كان جميلا تصفيف شعرها .

أما ولداي اللذان أثار أعصابهما جو هذا اليوم الأستثنائي فهرعا إلى خارج المنزل ، يداً بيد يتسقطان الأخبار .

حين لم أشاهد إلا ثلاثة أطباق على المائدة صحت :

ـ أمي ماذا ستضعين في الطبق الرابع ؟ هيا عجلي .

لم تجب أمي لكن عندما ذهبت لأنظر في غرفتها كانت مستغرقة تستخرج بحذر واهتمام ، وبيدين مرتعشتين ، جرة صغيرة من الخزف أقعدتها بهدوء ثم نزعت باصبع من يدها المعروقة الطين الجاف الذي كان يغلف السدة بإحكام . وسرعان ما فاحت رائحة الفول .

أوه ! كانت ثمرات من العناب منقوعة بالكونياك ! لقد زرت عائلات كثيرة في الصباح ، ولكن لم أجد عند أي منها مثل هذه الضيافة النادرة .

آه ! يا أمي العزيزة لقد فكرت بكل شيء .

ـ زهو إمض فخذ طبقاً و أغسله جيداً بهذا أمرتني .
أخرجت حبات العناب واحدة بعد أخرى بواسطة عيدان ، ونضدتها في الطبق .

وكم كانت كبيرة ، وكم كانت غضة حتى لكأنها كرات من العقيق وحتى سال لها لعابي .

ودخل أرماؤ وهو يعدو وصاح :

بابا أنهم قادمون على الفور .

قلت له : إذهب لاستقبالهم .

عبر بوجهه عن عدم الارتياح ثم مط لسانه ففهمته على الفور وناولته عنابة .

كانت حبات العناب تشكل ما يشبه جبلا صغيراً في الطبق . اخذتها امي من يدي ووضعتهاعلى المائدة . نعم انه كان من شأنها هي ان (تضيّف) زوارنا .

في هذه اللحظة وصل داماؤ وكأن به مساً .

- أبي ، لقد انصرفوا .

- ماذا ؟ طرحت عليه السؤال من غير أن أفهم حقيقة الأمر .

- لقد مروا أمام بابنا ولكنهم لم يتوقفوا .

- أوه هذا محال لعلهم ذهبوا إلى (غير مكان) (١) سأذهب للبث عنهم .

في الزقاق لم يكن أحد . وفي الشارع لم يكن ثمة حتى ظل دراجة . لكن في أقصى نهايتة لمحت قافلة الدراجات . وقد ابتعدت زهاء مئة متر . تلفت أثنان منهما كانا في المؤخرة لينظرا إلي . ومن ثمة بلغني صوت ممثلنا الأول .

- والأن كل إلى بيته لتناول الفطائر

وبسماعهم هذه الصيحة ، جدوا في سيرهم وتفرقوا .
خيل إلي أني تلقيت لطمة وغشي بصري ما يغشى . نجمت في رأسي فكرة : (اتراهم نسوني ، أم تراهم لم ينووا قط المجئ إلى بيتي ؟)

أصابني الجمود ، ولا مخرج . كدت أبكي (أمي كسائر الامهات ، حق لها أن تحترم كغيرها . فكيف سوغتم أن تعاملونا على هذا النحو ؟ تمرون من غير أن تتوقفوا ، أكان يضيع الكثير من وقتكم أن تلقوا نظرة على بيتي . كان أهون أن تصفعوني من أن تلحقوا بي هذه الإهانة) عدت إلى البيت بخطاً متثاقلة (في

بيتي لست محتقرا . كلا ولا أمي تزدريني)

ولكن كيف انقل إليها الخبر؟

مهدماً خائر القوى عبرت بوابة الدار .

كانت أمي ممسكة طبق العناب ، ما تزال تنتظر أمام البيت ، كلها سعادة ، وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب .

أشفقت لحالها وتألمت . كانت على غير علم بما حدث :

ـ هل وصلوا ؟

أنهم . . . أنهم لن يأتوا .

تغير وجه أمي دفعة واحدة . زلت بها القدم . تدحرجت أرضاً بعض حبات العناب .

من غير أن تنبس بكلمة ، أدارت ظهرها ، وأتجهت نحو البيت ، مترنخة قليلاً .

سارعت لأسنادها ، حاولت تطييب خاطرها :

ـ أنها الآن ساعة الغذاء ولهذا أشفقوا من أزعاجنا . بقيت صامتة

ـ أمي ، هل يسعك أن يساعدي غويينغ في صنع الفطائر ؟ وأعقبت : باللحم . . . .

وبصوت خفيض يكاد لا يسمع أجابت :

ـ اليوم ، لا يأكل أحد اللحم .

نعم . هذا صحيح . فالفطائر بغير لحم ترمز إلى الصفاء والطمأنينة ولكن الآن . . . آه يا أمي اغفري لولدك الذي لم يعرف أن يشرفك .

وضعت أمي العناب على المائدة قبل أن تعود إلى غرفتها . جلست على طرف سريرها و غرقت في تأملاتها . لم تلفت حتى رأسها حين سمعتني أدخل ، كما لو كانت في خوف مني . أم أنا ، فكان يبدو لي أني قارفت إثمًا ، وكانت بي حقاً رغبة البكاء . لكن كان علي أن أخفي حزني لكيلا أزعج أمي . تكلفت وجهاً مبتسمًا ومددت إليها بالعناب .

ـ أمي ، إنك لم تذوقي هذا !

فتظاهرت بأنها تبحث عن شيء ، وأدارت رأسها لكي تمسح دموعها .

ثم ردت وهي تدفع الطبق بلطف :

ـ كلا لا أريد منه شيئا . احتفظ به للضيوف !

ـ لم تنامي ليلك وكدت لم تأكلي شيئاً ولزام أنك جائعة . سأمضي لأشوي بعض الفطائر .

ـ كلا ، لا أحس جوعاً .

ـ لا سبيل إلى التسرية عنها . وإذ ذاك تشاغلت بغسل الآنية وإعادة ترتيب البيت .

ـ دعك من ذا . سأتولاه أنا . لقد جريت حتى الظهيرة ولا جرم بأنك تعب . أذهب واسترح قليلاً .

وبقولهاهذه الكلمات أخذت (المسّاحة) من يدي وراحت وهي تجفف الآنية ، تتكلم بلهجة يملؤها الحنين

ـ في الريف ، كان أول أيام السنة دوماً مليئاً بالحركة . كان الناس جميعاً يأتون لزيارتي ، حتى سكرتير الحزب ، وقائد اللواء . لا لأني كنت أكبرهم سناً بل لأنهم لم ينسوا ماقدمنا أثنا الحرب . وكان الصغير (ليو) لا يفوت مطلقاً زيارتي ، إلى أن سافر للقتال في الجنوب . بل أنه ذات مرة خاطر بحياته حقاً . مازلت أذكر كان ذلك في منتصف الليل ، أو بعيده بقليل ، وكنت قد وضعت الفطائر في المقلاة ، سمعت فجأة انطلاقة رصاص في خارج القرية ، وكانت كلاب تنبح نباحاً ضارياً . بغتة رأيت أحدهم يقفز إلى دارنا . كان قد تسلق الجدار . فتحت الباب ، لأعرف هويته . وكان هناك ، أمامي يتصبب عرقاً متقطع الأنفاس ، وقبل أن يأخذ من وقته ليفسر حضوره ، حياني قائلاً ، أتمنى عيداً سعيداً لأمي ثم نهض وانطلق وهو يعدو ، ومعه بضع فطائر وحفنة من العناب ! وكان النهار لما يطلع حين وصل الجنود الأعداء . حطموا الباب ، وعندما لم يجدوا (ليو) الصغير أذاقوني مر العذاب بقطع مدببة من الخيزران ، ليحملوني على الاعتراف أين خبأته . عندما تركوا البيت كنت في الرمق الأخير ، ولكني لم أفه بكلمة . لكي يأتي لزيارتي خاطر أخوك بحياته . ولكن واحزناه ! إنه منذ نيف وعشرين عاماً يعمل في جزيرة هينان ، ويتعذر عليه الحضور لزيارتي . بيد أنه مع ذلك يكتب إلينا في غالب الأحيان . وأثناء الثورة الثقافية لم يكن يحتفي بالطقوس بالطريقة المألوفة ، لكن القرويين ظلوا يحيونني بانحناءة . كل ذا يعبر عن الرحمانية وروح الجماعة . أخوك ليو يقول ذلك في رسائله ، فرغم أنه أصبح من كبار القادة ، ما يزال يفكر في ، وأنا أيضاً أفكر فيه كثيراً . عندما ستكتب له ، قل له أني في صحة جيدة . وأن ليس له أن يقلق بشأني . قل له أيضاً أنه في هذا العام مرغت العادات وساد مبدأ كل لنفسه . آن أني عجوز ومنظري يفزع ال . . . . ومسحت دموع عينيها .

حين رأيت حزنها وكمدها قلت عجلان :

- كلا يا أمي ليس لك أن تبكي اليوم ، فهـو يوم عيد . إن كان أحـد يستحق اللوم فهو أنا . أنا الذي لا أحسن تدبر أمري ، ولا أفلح . . .

وعند هذه الكلمات اختنق صوتي .

كانت غوبينغ قد سمعتني من الحجرة الاخرى ، فجاءت لنجدتي .

- هل يمكنك أن تأتي لمساعدتي ؟

اغتنمت هذه الدعوة فدخلت الغرفة الأخرى ، وتركت السجاف ينسدل ورائي .

- لا تعد لقول شيء . كلما حاولت مواساتها ، كلما ازداد أساها . لعلها ستنسى بعد حين . أمي لا تدرك أنه في ظرفنا هذا لا شئ ، ما خلا السلطة و الغنى ، يحسب حسابـه و يتزلف إليه النـاس ، ثمة أناس فقدوا كل حس أنسـاني ، حتى قِبَلَ والديهم الحقيقيين . هؤلاء الناس لا يسلوون كلبا . بل الكلب أفضل منهم . أنه يحب سيده سواء أكان غنياً أو فقيراً .

عدت لا أستطيع أن أتمالك نفسي . أرتميت على السرير وصرت أخبط على الـوسادة بقبضة يدي : (أنك حقاً ولد لا قيمة له حتى لتعجز أن تحمل الناس على أحترام أمك) .

أمسكت غوبينغ كلتا يدي وقالت بصوت خفيض :

- أنت مجنون .

أمي لاشـك في أنهـا سمعت كل شيٌ . دخلت بعـد أن أزاحت سجاف الباب وجلست إلى حافة سريري :

- أنه العيد . فما هذا الذي تفعله ؟

نهضت وقلت بابتسامة متكلفة :

ـ لست على ما يرام . لم أنم ليلي الذي فات .

قالت أمي :

ـ زهيكيانغ ، لا داعي لأن تخفي عني الأمور . أني عارفة بما يجري . في هذه الأيام يقوم بعض الناس بمعايداتهم تبعا للجاه والمنصب فإن لم يريدوا القدوم إلى بيتنا فليس الذنب ذنبك . كل ما ينبغي عليك هو أن تربي أولادك بحيث لا يصبحون كهؤلاء . في قريتنا لم يتصرف الناس قط على هذه الشاكلة . الحالة السائدة اليوم لن تعمر طويلاً . هيا لا تبق هكذا هامداً . إن كنت تحس جوعاً أو عطشاً ، فلا تحرم نفسك . في أول يوم من السنة لا ينبغي . .

عند قولها هذا توقفت . كنت أعلم أن كلمة (مريض) محرمة في هذا اليوم .

ثم سألتني بصوت منخفض :

ـ زهيكيانغ ، ألست أنت الذي أهنتهم ؟

انتفضت بحدة لهذا السؤال الذي أحسسته ظالماً :

ـ بالطبع لا . ما الذي كان بوسعي أن أفعله لهم ؟ إن كانوا لا يألفونني فذلك لأني لا أملك سوى ذراعي للعمل ، ولأنه إذا تركنا مهنة البناء جانباً ، لا فائدة ترجى من معاشرتي . إنهم حقاً بلا قلب . وأنا الذي بنيت لهم أفرانهم . خلال الصيف كنت أتفصد عرقاً كحساء ، وفي الشتاء حملت اللبن ، وخلطت الطين بيدي المتجمدتين في ريح صقيعية .

واستنى أمي والدموع في عينيها :

ـ زهو ، لا تجعل من الأمر مأساة . أن لم يكن لديهم ما يلومونك عليه ، فلا ذنب لنا في الأمر ، وبوسعنا أن نطمئن ضميراً . إذاكان هؤلاء الناس لا يأتون لرؤيتي فلا خسارة كبيرة ، حتى لو أنهم جاؤوا بعد الآن فليس بودي أن أعرفهم .

وبقولها ذلك أعادت ثمرات العناب ، وشرعت تفك أزرار ثوبها الجديد .

وسألتها : لم يا أمي ؟

ـ لأنه لن يجيُ أحد . قالتها والحزن يلون صوتها .

وفي هذا الآن تماماً ارتفع صوت رنان في فناء الدار :

ـ عيداً سعيداً يا خالة (أكسو)

عرفت فيه للتو صوت ممثلنا الأول . آه لقد جاؤوا أخيراً .

إن زملائي لم ينسوني ، ولم ينسو أمي في الثانية والثمانين من عمرها . كم أنا غبي إني مفرط في الحساسية بالنسبة لرجل عمره أربعون عاماً .

تراءى لي أن ثماني شموس ترتفع فجأة في السماء وأن البيت كله استضاء بمصباح قوته ألف واط .

ـ أمي هؤلاء هم رفاقي قدموا ، عجلي وزرري سترتك

أعاد السرور الشباب إلى وجهها بغتة . كانت تشع ، وفي الوقت ذاته راحت الدموع التي لم تكن تمسكها تسيل من عينيها . وفي حالها من التأثر لم تكن تفلح في العثور على العرا ، وفي اندفاعها نادتني باسمي الطفولي

ـ زهو ، ساعدني ، هيا غوييغ أخرجي العناب .

وسط هذا اليحران ظهر ممثلنا الأول ، مزيحاً سجاف الباب ، وملقياً تحياته :

ـ عيداً سعيداً يا خالة (أكسو) ولتسعد كل العائلة . أختي أنت منشغلة بصنع الفطائر ؟ وأين الأولاد ؟ أطيب أمنياتي أخي القديم (اكسو) حق لي عليك بعض عرفان الجميل : فأنا قد جئتك بضيفين رفيعي الشأن . . . والتفت فأشار بيده دلالة على الطريق ، وقال بلهجة مفعمة بالاحترام :

ـ تفضلوا ، عنوا أنفسكم بالدخول .

حسبته أول الأمر يستعمل عبارات التفخيم هذه تندراً على أحد الرفاق ، وإنه كان يتسلى باصطناع دخلة استعراضية مليئة بالأسرار .

وكم عظمت دهشتي إذ دخل شخصان غريبان أحدهما أثر الآخر أكبرهما ، كان في بزة عسكرية ويناهز الخمسين من عمره ، تلمع على عمرته النجمة الحمراء وكان عريض المنكبين ، ربعة ، متينا كصنوبرة قديمة . وجهه المربع وحاجباه الكثيفان يعبران عن التواضع والشدة . وله عينان حادتان ، فيهما مكر ولكنهما مليئتان بالعاطفة . وكان يتبعه شاب طويل القامة في نحو العشرين من عمره ويحمل حقيبة سفر ممتلئة .

إلى جانبي ، راحت أمي التي سمرتها المفاجأة تنظر إلى الضابط . كان كلاهما يفحص الآخر وفجأة تغير تعبير وجهيهما وارتميا كل بين ذراعي صاحبه .

ـ أمي .
ـ ليو الصغير .
ـ وقلت لممثلنا : خذ مجلسك .

ـ لا ، لا شكراً . لا تنزعج بسببي واصرف اهتمامك للرفيق القائد أرجوك .

وسأل الضابط : أمي ، اهذا أخي زهو؟

ـ نعم أنـه هو . هو الآن يدعى زهيكيانغ . أنه رجل ولو شاء الآن أن يعلو ظهرك كما يعلي الحصان ، فقد يسحقك .

رنت الضحكات حتى ملأت الحجرة

قالت أمي :
ـ ليو ، كيف استطعت أن تجد الطريق ؟
ـ أنسيت يا أمي أني كنت كشافاً ؟

وتدخل ممثلنا الأول وملء وجهه الأبتسام

خاله أكسو ، تماماً إذ كنا زملائي وأنا في الطريق لزيارتكم وقعنا على هذا الرفيق القائد الذي كان يبحث عن بيتكم . وقد عرضت عليه أن أرافقه . إنه آت من جزيرة هينان ، رغم المسافة .

ـ لا تقـل أني نسيت . لو لم تكن كشافاً لامعاً ، لما كانت العنابات قد تناقصت بانتظام في الجرة .

ـ آه آه . . . حقاً يا أمي إن أنفي يقول أنه ما يزال حتى الساعة في هذا البيت جرة من العناب ، ومخبأة .

ـ آه آه أن هذا القائد تملؤه روح النكتة

لأول مرة يجد ممثلنا كلمة حق يقولها .

وسألت بدوري :

- أخي ليو هذا الفتى ؟

- إنه ولدي . كسايومين ، تقدم لتحية جدتك وعمك .

- أجلس دع الكلفة وتصرف كما في بيتك غويينغ ، أقدم لك أخي ليو الذي طالما حدثتك عنه .

- أيها الأخ ليو . أن أمي تحدثنا عنك في كل مناسبة . عاما سعيداً .

- أعتقد أن هذه هي زوجتك أليس كذلك ؟ كم هي محتشمة نادني بيا أخي و لا تزيدي .

واتأنفت أمي متوجهة بكلامها إلى الشاب .

- حفيدي ماأجمله ما هو عملك اليوم ؟

- أني في الجامعة ياجدتي .

- إليك ، أنه حبي كفتاة وأبوك ؟

- أبي ؟ أوه . . .

- آه لعلك تخشى الكلام في حضرته لكن عليك أن تجيبني هنا في هذا البيت القرار لجدتك .

- أبي مفوض سياسي في الفرقة .

- هائل أطلق ممثلنا هذه الصيحة ، ثم : أيها الرفيق القائد هل بين عائلتيكما صلات منذ زمن طويل ؟

- صلات ؟ أنها لمضحكة عبارتك هذه .

- أيها الرفيق القائد ، لعله يحسن أن تتعرفوا إلى المسؤولين المحليين ، أن إبن عمي يعمل في اللجنة الحزبية بالأقليم . وأنا أدعى كيوجونيا . . .

ضحك الحاضرون . لكأن الجواب بعض حوار هزلي .

ولكنه تابع من غير أن يعروه ارتباك : اليوم تشرفت بالتعرف إليكم إن لقاءنا هو رمز صداقتنا الثورية أرجوك ، تعال لزيارتي في منزلي عندما يسمح بذلك وقتك ، بغية تمتين علاقتنا الثورية . اسمحوا لي بالأنسحاب . اتركِكم بعضاً لبعض . خالة أكسو ، أخي الكبير أكسو ظلا جالسين . (شقيقتي) (١) وأنت يا رفيق كسياوُمين ، ظلا في مكانكما . لا يزعج أحد نفسه من شأني . إلى اللقاء ، أرجوكم لا تظلوا خارجاً فالجو بارد خارج الغرف . . . . ادخلوا سريعاً إلى اللقاء . . .

تلوى الحاضرون جميع من الضحك وصحت :

ـ يااللنفاق أنه ليس من أجل الأعراب لنا عن تمنياته كان قدومه إلى هذا المنزل .

فقالت أمي :

ـ لكن يا زهيكيانغ أنه قدم على أية حال .

ـ هذا المخلوق يثير قرفي فكل ما حدث من جريرته .

ـ لا بأس . ما مضى قد مضى . لا أشغل نفسي به . أنت ترى أن أخاك لم ينسني . أن هؤلاء الناس كالمربدات الصغيرة في النهر العظيم . لكن سينتهي بهم الأمر إلى اللحاق بالتيار عاجلاً أم آجلاً .

ـ أمي أتدافعين عنه أيضاً ؟

ـ يا أخي زهـو ، أمنا على حق . هؤلاء الشباب يترتب علينا نحن أن نستأنف تربيتهم ، وأن نعلمهم أنه لا يخلق بهم أن يضيعوا التقاليد الثورية ، وإرث الحضارة الصينية القديمة . فلنا جميعاً عيوبنا ، وينبغي ألا ننبذهم بالكلية لأنهم ليسوا كملاً . في الماضي ، كنت أنا الذي يكلمك ، أسرق

العنابات من جرة أمي

وعند ذلك ، رجت ضحكاتنا البيت كله .

. . . .

كما لو كان في العـرض ، وقف المفوض السياسي ، مشدود القامة ، في حالة استعداد ، وحيا بالطريقة العسكرية :

ـ أمي ، أتمنى لك عيداً طيباً سعيداً .

وانحنى ابنه بدوره :

عيداً سعيداً لكم جميعاً ، جدتي ، عمي ، خالتي .

ناديت : داماؤ وارماؤ هيا أشعلا السهام النارية .

وضجت البـاحـة بانفجـارات تصم الآذان . على وجه أمي ظهرت ، أخيراً ، ابتســـامة الســـعادة .

(*) لونان في السابعة والأربعين من عمره . ولد في محافظة يوشانغ من أقليم شاندونغ . يعمل الأن في دار الثقافة بالمحافظة ، ومافتئ منذ عام ١٩٧٩ ينشر الأقاصيص والقصائد ، وأعمالاً أدبية أخرى . وقصته هذه مأخوذة من مجلة أدب شاندونغ العدد ٨ لعام ١٩٨١ .

(١)ـ كرسي مختصر بلا مسند ولا ساعدين .

(١) غير مكان : المقصود الحمام . . .

(١) يعني زوجة أخيه

الهـــــلال

• لاوشي • ترجمة: ليسان ديراني - عن الفرنسية

كاتب شهير ولد في بيجنغ من أسرة فقيرة ، نال شهادة دار المعليمن في بيجنغ . عمل مدير مدرسة ابتدائية . علم اللغة الصينية في مدرسة ثانوية . دعي إلى جامعة لندن ليدرس اللغة الصينية في الكلية الشرقية مدة خمس سنوات ١٩٢٤ - ١٩٢٩ ثم سافر إلى الولايات المتحدة حيث علم ثلاث سنوات ، كتب في هذه الأثناء روايات كثيرة ، أهمها : الطلاق . قصة نيو تيانسي والجمل السعيد الحظ وعدداً كبيراً من القصص القصيرة منها : الهلال والحب الرؤوم وعدداً من المسرحيات الشهيرة أهمها : حفرة لحية التنين وبيت الشاي وسعادة الأسرة ورواية تحت الراية الحمراء وغيرها وقد كوفىء بحمل لقب « فنان الشعب » عام ١٩٥١

آه ! أجل ، للمرة الثانية أشاهد الهلال ، هذه الكلابة الذهبية الشاحبة ، التي تنفث نفحة باردة لقد شاهدت مرات عديدة علالاً كهذا ، مرات عديدة . . . عندما أجلس لأراه ، مثيراً في عواطف مختلفة ، بارزاً في أطر متنوعة ، فهو دائماً معلق ، بصورة مائلة إلى سحابة ذاكرتي الخضراء . إنه يوقظ ذكرياتي واحدة واحدة كما ينتزع نسيم المساء وريقات زهرة هامدة .

- ٢ -

من هذا الهلال تنبثق حقاً نفحة جليدية . عندما ظهر أول مرة في سحابة ذكرياتي ، كان مصحوباً بمرارة وكان ضياؤه الضعيف الذهبي ينتشر على دموعي . ربما كنت في السابعة من العمر . كنت فتاة صغيرة ، ترتدي رداءً مبطناً أحمر وتعتمر قبعة صغيرة حاكتها أمي من قطن أزرق مطبوع بأزهار صغيرة جداً . ما زلت أذكر ذلك حتى الآن . كنت أبصر الهلال وأنا متكئة على حجر باب غرفتنا الصغيرة . في الغرفة رائحة دواء ودخان ، عبرات والدتي ومرض والدي . كنت وحيدة على الدرجات ، أشاهد الهلال . كانوا قلما يكترثون بي ولم يكن لديهم وقت لتهيئتي للعشاء . كنت أعي كل الشقاء المهيمن على غرفتنا ، لأن الجميع كانوا يقولون إن حالة أبي . . إلا أن ما كنت أزداد به شعوراً ، إنما هو شقائي أنا : كنت أبرد وأجوع ، دون أن يلتفت إليّ أحد . فأظل وحيدة أرافق الهلال حتى يغيب . عندما لا يبقى ثمة شيء ، لا أستطيع إمساك نفسي عن البكاء . مع ذلك فإن عبرات أمي تطغى على عبراتي . أما أبي فقد لزم الصمت وقد توارى وجهه تحت قماش أبيض . وددت لو أرفع القماش لأرى أبي مرة أخرى إلا أني لم أتجرأ . فالغرفة ليست كبيرة وكان والدي يشغلها كلها ، لبست أمي البياض[1] . وجللت سترتي الحمراء بثوب أبيض طويل ، لم تغبن أطرافه . ما زلت أذكر هذا ، لأني كنت أسحب الخيوط من أطرافه ، كان الجميع منشغلين ويحدثون كثيراً من الضوضاء ، والنواح يفتت الأكباد . ليس ثمة ما يستدعي الانشغال وكان يخيل إليّ أن ليس ما يستحق مثل هذا الضجيج . سحبي والدي في تابوت من رقيق الخشب ، مليء من كل جنباته بالشقوق . حمل التابوت خمسة أو ستة رجال . أما أنا وأمي فكنا نتبعه باكيتين . ما زلت أتذكر أبي وصندوق الخشبي . هذا الصندوق يرمز لنهاية كل شيء بالنسبة إليه . كلما فكرت في ولدي أقول لنفسي إني لن أراه إلا إذا فتحتُ هذا

الصندوق . إلا أنه دفن عميقاً في التراب . مع أني أعلم في أي مكان دفن بالضبط ، فإني أشعر أني لن أعثر عليه كما يستحيل العثور على قطرة مطر سقطت على الأرض .

- ٣ -

حين كنا أنا وأمي نرتدي البياض ، رأيت الهلال ثانية . كان ذلك في يوم جليدي . سارت بي أمي إلى خارج المدينة ، إلى قبر أبي وبيدنا قبضة من الأوراق ، في هذا اليوم عاملتني بحنان خاص . حين كانت تخونني قوتي في متابعة السير على الأقدام ، كانت أمي تحملني على ظهرها في بعض الطريق . عند باب المدينة ابتاعت لي كستناء مشوية ، كان كل شيء بارداً ما عدا الكستناء . كنت قد أبيْت أكلها بل احتفظت بها لتدفئة يدي ، كم من المسافة قطعنا ؟ لا أدري بالضبط . ولكن لا بد أننا ذهبنا بعيداً جداً . إن هذا المكان لم يبدُ لي على مثل هذا البعد ، يوم الدفن ، ربما لأن ثمة أناساً كثيرين معنا . أما في هذه المرة فما من أحد سوى أمي وأنا . بقيت أمي صامتة وكنت أنا تعبة ولم يكن لي من الشجاعة ما يمكنني من النطق بكلمة . كان كل شيء ساكناً . وكان الطريق يبدو في هذا السكون ، لا نهاية له . الأيام في هذا الفصل قصيرة . إني أتذكر هذا القبر ! هو كومة صغيرة من التراب . أما في الأبعاد ، فهناك بعض التلال لا تزال الشمس تلقي عليها أشعة مائلة . حطتني أمي على الأرض وارتمت على القبر منتحبة . لم تعد تهتم لي . لقيت عندئذ بالكستناء وأنا قاعدة قرب القبر . بعد أن انتحبت أمي بمرارة أحرقت عملتها القليلة الرمزية . فاستدار رماد الورق أمامي في الهواء ، كي يعود ليسقط برخاوة على الأرض . كان ثمة نسيم خفيف ، إلا أنه بارد جداً . راحت أمي تنتحب من جديد . كنت أفكر أيضاً بأبي ولكن لم أكن أنوي البكاء . رغم ذلك دمعت

عيناي إشفاقاً لرؤية أمي حزينة هكذا . فدنوت وأمسكت يدها قائلة : « كفي عن البكاء ، يا أمي ، كفي عن البكاء ! » فأخذتني بين ذراعيها وهي تضاعف عويلها المؤثر ، كانت الشمس على أهبة الغروب لم يبقَ أحد . لم يبق سوانا نحن الاثنتين . فبدا الخوف على أمي ، جرتني فجأة ، وحين ابتعدنا كثيراً التفتت وألقت نظرة . والتفت أنا أيضاً : لم يعد بالمستطاع رؤية قبر أبي . ثمة مسافة من أكوام التراب الصغيرة كانت تمتد إلى أسفل الآكام ، فزفرت أمي . لقد مشينا ومشينا . لم نبلغ باب المدينة حتى شاهدت الهلال . كانت العتمة والسكون يكتنفاننا . لا يُرى إلا هذا الهلال الذي ينفث شعاعاً من النور البارد . كنت متعبة ، حملتني أمي بين ذراعيها . كيف دخلنا المدينة ، لم أعد أدري ، إني أتذكر فقط ، بصورة غامضة هذا الهلال في السماء .

- ٤ -

ما كدت أبلغ الثامنة حتى تعلمت حمل حاجات إلى (هضبة التقى) : كنت أعلم أني إن لم أعد بشيء من المال ، فلن نتعشى مساء . لم تكن ترسلني إلا حين لا يكون أمامها من سبيل آخر . كان بوسعي التأكد أنها لا تعطيني رزمة صغيرة إلا والقدر خالية من أي أثر للحساء . تكون أحياناً قدرنا نظيفة وبراقة ، نظافة أرملة محترمة . كانت حمولتي في هذا اليوم مرآة . هي الحاجة الوحيدة التي يمكن القول أنها زائدة . مع أن أمي تستعملها كل يوم . كان هذا في الربيع . وكانت جميع ثيابنا الصوفية المبطنة قد وضعت في هضبة التقى حالما نزعناها . كنت أعرف الحيطة ، الواجب اتخاذها والمرآة بين يدي : فأمشي بحذر ولكن بسرعة ، لأن هضبة التقى تغلق أبوابها باكراً . كان باب هضبة التقى الكبير الأحمر مع منضدته العالية يُروّعني . ما إن رأيت هذا الباب حتى أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً . مع أنه عليّ أن أتخطاه ، متسلقة تقريباً ، لأن

درجـة البـاب كانت عالية جداً . فكـان يترتب عليّ أن أنـادي وأن ابذل كل جهودي ، كي أضع الأغراض على المنضدة . وحين أتلقى المال والإيصال ، كان يترتب علي أيضـاً أن أحفـظهـا باحـتراس وأعود بسرعة إلى البيت ، كي لا أكون سبباً في قلق أمي . إلا أن المرآة رُدت هذه المرة . قيل لي أن الواجب كان يقضي أن أضيفت إليها شيئاً آخر . فهمت ما معنى « شيء » . فهرعت إلى البيت ركضاً ، بسرعة كلية ، وأنا أشد المرآة إلى صدري . فبكت أمي . إذ لم يبق في البيت شيء ترهنـه . وبما أني قد اعتدت على غرفتنا الصغيرة ، فكنت دائماً أجدها مليئة جداً ، ولكن بعد أن بحثت مع أمي ، أدركت أنها في الواقع كانت تحوي قليلاً بل قليلاً جداً من الأشياء . لم تطلب إليّ بادىء الأمـر أن أجـدد مسعاي . « ولكن يا أماه ، ما عسانا نأكل ؟ » . تضايقت فمدت إليّ دبوس شعرها ـ وهو الغرض الفضي الوحيد الذي كانت تملكه ـ كنت أعلم أنها سحبته مرات عديدة من شعرها ، دون أن تصمم نهائياً على إعطائي إياه . إنها الحلية الـوحيدة التي كانت جدّتي قد أهدتها إياه عند زواجها . فما غتني عليه وطلبت مني أن أترك المرآة . بذلت كل جهودي كي أصل هضبة التقى في الوقت المناسب . إلا أن البوابة الهائلة كانت قد أغلقت بإحكام . فجلست على حجر الباب وأنا أشد على دبوس الشعر في يدي . لم أكن أجرؤ على البكاء الشديد ، وحـين رفعت عيني نحـو السماء . آه ! ها هو هذا الهلال الذي أقبل يداعب دمـوعي ! فبكيت طويلاً . أقبلت أمي في الـظلام . فأمسكت يدي . آه ! ما أشد حرارة يدها ! نسيت كل ما فيّ من آلام ، حتى الجوع . كان يكفي أن تمسكني أمي بيدها الحارة حتى يؤول كل شيء إلى ما يرام . « لنعد إلى البيت وننام يا أماه ، قلت ذلك وأنا أمسك بدمعتي ، سأعود غداً صباحاً ! » فلم تحرْ جواباً . بعد بضع خطوات ، أردفتُ قائلة : « انظري إلى الهلال يا أماه ! كان هكذا مائلاً ، يوم توفي أبي لماذا هو منحرف دوماً ؟ » لم تنبس أمي ببنت شفة ، بل ارتعشت يداها .

- ٥ -

كانت أمي تغسل للآخرين ، فكانت تشقى النهار بطوله . ما أكثر ما أحببت مساعدتها ولكن ليس لي ما أعمل . فلم يكن بوسعي إلا انتظارها . كنت لا أنام قبل فراغها . أحياناً كان يبدو الهلال وهي لا تزال تغسل بمشقة جوارب ، تقزز النفس ، قاسية كالجلد جوارب أولاد الحي التجاري . بعد أن تفرغ من غسل هذا الجلد . تفقد شهيتها للعشاء . فأجلس إلى جانبها وانظر إلى الهلال . كانت الخفافيش تقبل وتدبر في شعاع النور مثل بطات بحرية معلقات بخيط فضي وتسقط بمنتهى السرعة في الظل . كلما رثيت لحال أمي ، ازداد حبي للهلال ، إذ حين أراه يشعر قلبي بقليل من الهدوء . كان في الصيف أشد فتنة . كنت أخال لهاثه البارد ، قطعة ضخمة من الجليد . كنت أحب الظلال الخفيفة التي يشكلها على الأرض والتي سرعان ما تتبدد . كانت ظلالاً مبهمة ، مسحوقة ، وحين تتلاشى تماماً . يسود الأرض الظلام وعندئذ تبدو النجوم بصورة خاصة براقة والأزهار عطرة كان لجيراننا أزهار كثيرة وأشجار وفيرة . إن أزهار جيراننا من الأكاسيا للكبيرة تقع على باحتنا فتغطي الأرض كالثلج .

- ٦ -

لقد غدت يدا أمي خشنتين . فعندما أشعر بحكةٍ في ظهري كنت أسألها أن تدلكني وكان ذلك مريحاً جداً . ولكني من ناحية أخرى ، كنت أكره أن أتعبها . فقد نحلت : وبسبب رائحة هذه الجوارب الكريهة ، كانت غالباً ما تمتنع عن الطعام . كنت أعلم أنها عازمة على الإقدام على أمر ما . كنت أعلم ذلك . فكثيراً ما كانت ترد عنها الغسيل بهيئة متعبة وتظل حالمة . فتتكلم وحدها . ماذا تهيىء ؟ لا أستطيع أن أحزر .

- ٧ -

أوصتني أمي ألا أكون مزعجة وإن أتلطف وأناديه « بابا » . لقد عثرت لي على بابا ، على بابا آخر ، هذا ما كنت أعرفه ، ما دام أبي قد دفن منذ حين في القبر . كانت توجه إليّ توصياتها وهي تنظر إلى مكان آخر . قالت والدموع في عينيها : « ليس في مقدوري أن أدعك تموتين جوعاً » . آه ! إذن ، كي لا أموت جوعاً ، كانت قد وجدت لي أباً ! كنت لا أفهم جيداً وأشعر بقليل من الخوف وقليل من الأمل ـ في وسعي حقاً ألا أجوع بعد الآن ! يا للموافقة ! حين غادرنا غرفتنا الصغيرة ، مرة ثانية ، كان الهلال معلقاً في السماء . في هذه المرة ، كان أكثر وضوحاً وأكثر رهبة من كل مرة . كان عليّ أن أغادر غرفتنا الصغيرة التي ألفتها ، ركبت أمي في محفةٍ مفروشة بالجوخ الأحمر[1] في المقدمة ، يمشي بعض الموسيقيين وهم يعزفون بعض القطع التي لم تكن جميلة أبداً . وفي المؤخرة رجل وأنا . كان الرجل ممسكاً بيدي . وكان الهلال الرهيب كامداً . بل يُظَن أنه يرتعش في الريح . ما من أحدٍ في الشوارع تقريباً عدا بعض الكلاب الشاردة التي تنبح وراء الموسيقيين . كان الحَمَلة مسرعين جداً . إلى أين هم ذاهبون ؟ أيأخذون أمي إلى خارج المدينة ؟ إلى المقبرة ؟ كان الرجل يشدني من يدي . لم أفلح من شدة لهاثي حتى في البكاء . وكانت إبهام الرجل مبللة بالعرق . ولكنها باردة كسمكة . وددت لو أنادي : « ماما ! » ولكني لم أتجرأ . وغدا الهلال شقاً كبيراً لعين على أهبة الانطباق . . دخل الكرسي المحمول شارعاً صغيراً .

- ٨ -

يخيل إليّ أني ما رأيت الهلال خلال ثلاث أو أربع سنوات . فالأب الجديد كان معنا لطيفاً جداً . كان له غرفتان . في الغرفة الداخلية يقيم مع أمي

وأقيم أنا في المدخل على سرير من دفوف خشبية .

في بادىء الأمر ، أحببت النوم قرب أمي ، ولكن بعد بضعة أيام بدأت أحب غرفتي الصغـيرة الخـاصـة بي . فجـدرانها ناصعـة البياض . وفي هذه الغرفة ، منضدة طويلة وكرسي . كان يخيل إليّ أن هذا كله خاص بي . وكانت أغطيتي أشد دفئاً من أغطيتي السابقة . لقد سمنت والدتي قليلاً ، شيئاً فشيئاً وتلونت وجنتاها ولم تعد يداها خشنتين . انقطعتُ عن المضي إلى هضبة التقى منذ ردح طويل من الزمن . أرسلني أبي الجديد إلى المدرسة وأحياناً كان يلاعبني قليلاً . لا أعلم السبب الـذي يدفعني إلى الإحجـام عن منـاداته « بابا » مع العلم أنه كان على جانب كبير من الطيبة . وإنه يدرك مشاعري . كان ينظر إليّ أحيانـاً بإحـدى هذه الابتسـامـات الخـاصـة . فكـانت عينـاه جميلتـين حين يضحك . وكانت أمي تقول لي سراً أن أناديه : « بابا » فما أردت أن أسبب لها حرجاً . كنت واثقة أني إن كنت أنا وأمي ننعم بالشراب والطعام ، فما ذلك إلا بفضل هذا الأب . في الواقع لا أذكر أني شاهدت الهلال خلال هذه السنوات الثلاث أو الأربع . . لربما أبصرته ، ولكن لا أذكر ذلك . إن الهلال عند موت أبي والهلال الذي كان أمام محفة أمي ، لن أنساهما أبداً . فهذا البصيص من النـور وهـذه النفحة الباردة سيبقيان في ذهني إلى الأبد . إنه أكثر ضوءاً وأكثر برودة من كل شيء كقطعة من حجر اليَشْب . وحين أفكر فيهما ، يخيل إليّ أن في وسعي لمسهما .

- ٩ -

كنت أحب كثيراً المضي إلى المدرسة . فقد كان لدي انطباع دائم بأن المدرسة مليئة بالأزهار ، على حين أنها في الواقع خالية منها . لعل هذا الانطباع قد انبثق من أنني أجمع بين فكرة الأزهار والمدرسة كما أجمع بين قبر أبي والهلال -

المائل هناك في النسيم الخفيف فوق الأرض الخاوية . فأمي تحب الأزهار كثيراً . وهي لا تملك الوسائل لشرائها ، ولكن إذا قُدمت إليها زهرة تُسَرُّ كثيراً وتضعها في شعرها . فكنت أقتطف بعض الأزهار من أجلها ، إذا ما أتيحت لي الفرصة . إنها مع الأزهار في الشعر ، تبدو وهي تُرى من الخلف ، فتيّة جداً . فكانت هي تسر وأنا أيضاً . كنت كثيرة الانشراح في المدرسة . ولعل حبي المدرسة هو الذي جعلها تذكرني بالأزهار .

- ١٠ -

في الوقت الذي كدت فيه أن أنهي المدرسة الابتدائية ، أرسلتني أمي من جديد إلى هضبة التقى . لا أدري ما الذي دفع أبي الجديد إلى الرحيل فجأة . إلى أين ذهب ؟ يبدو لي أن أمي لا تعرف السبب . فقد ظلت ترسلني إلى المدرسة . كانت تعتقد أن الأب لا يلبث أن يعود ، ولكن أياماً كثيرة مرت دون أن يعود ، أو أن يَبدر منه ما يفيد ، أنه على قيد الحياة . فكرت أن أمي ستعاود غسل هذه الجوارب الكريهة ، وتألمت كثيراً . بيد أن أمي لم تراودها هذه الفكرة . كانت تعتني بنفسها وتحب دائماً أن تزين شعرها بأزهار . الغريب في الأمر ، أنها لا تبكي ، بل بالعكس كانت تحب الضحك دائماً ، لماذا ؟ لم أفهم ! مرات عديدة ، وأنا منصرفة من المدرسة ، كنت أراها واقفة أمام الباب . بعد قليل من الزمن ، راح البعض ينتهرني في الشارع قائلاً : « هيه ! قومي بقضاء حاجات أمك . . . » أو « هيه ! ألا تبيعين نفسك أنت أيضاً . . ؟ هذه فرخة صغيرة ! » فكنت أحمر وتلتهب خدّاي ، فأطأطىء رأسي . كنت أفهم إلا أني لا أستطيع سؤال أمي أبداً . كانت مليحة جداً معي . أحياناً كانت تقول لي في كثير من الجد : « ينبغي أن تحسني العمل في المدرسة ، إن تحسني العمل . . . » ، كانت أمي لا تعرف القراءة ، فلماذا

تحثني على حسن العمـل ، حرت في أمـري . كنت أحـدث نفسي قائلة ، أن ما تفعله أمي إنـما هو من أجـلي . كانت لا تجد ما هو أفضـل . . . حين كانت تزعجني هذه الأفكار كنت أهم أن أشتم أمي . ولكن بعد التفكير ، كنت أهم أن أقبلها وأتـوسـل إليهـا ألا تستمر . كنت ألوم نفسي لعجزي عن القيام بأمر أسـاعـد به أمي . فأتسـاءل أحيانـاً عن أي شيء يمكنني عمله بعد المدرسة الابتـدائيـة . طرحت السؤ ال على رفيقاتي في ا لصف . قال لي البعض : إن بين المتخـرجـات في السنة الماضية ، كثيرات ممن أصبحن سراري . وأخريات قلن لي : إن فلانـة وفـلانة تتسكعن على الرصيف . كنت لا أدرك هذه الأمور جيـداً ، ولكن حسب طريقتهن في الكـلام فهمت أن هذا ليس حسنـاً . يبـدو أنهـن يعـرفـن كل شيء ، فكـن يتكـلمـن خفيـةً ، عن أمـور يعلمن عدم صلاحيتهـا ـ كانت هذه الأمـور تستـدعي خجلهن ، ولكنهن كن منشرحـات الصـدر . كانت شكـوكي تتضخم . أكانت أمي تنتظر نهاية دروسي كي أغدو أنـا أيضـاً . . . كانت هذه الفكـرة تدب فيّ الـرعب مما يجعلني لا أتجرأ على الـرجـوع إلى البيت . كنت أخشى رؤ يـة أمي . كانت تعطيني مالاً لشراء الحلوى . فأبى إنفـاقـه . كنت أمضي إلى درس الـرياضة خاوية المعدة وغالباً ما أسقـط على الأرض خوراً . كنت أحسـد الآخرين الذين يأكلون الحلوى . أما أنا فيجب عليّ أن أقتصد . فإذا طلبت مني أمي مصادفة أن . . . فسيكون في وسعي بما أدخر من مالٍ ، أن ألوذ بالفرار . ولكن أعظم ما بيدي من ثروة كان بضـع عشـرات السنتيمات ! في هذه الفترة ، كثيراً ما كنت أرفع عيني إلى السماء حتى في رابعة النهار بحثاً عن هلالي . ولو وجب تجسيد عذابي بصورة ، لكانت حتماً هي هذا الهلال ، هلالاً معلقاً في سماء رمادية زرقاء ، دون مستندٍ ولا مرتكزٍ ، بضياء كابٍ لا يلبث أن يبتلعه الظلام .

- ١١ -

إن ما يسبب كثيراً من العناء ، هو الشعور بأني ماضية شيئاً فشيئاً إلى كراهية أمي . مع ذلك حين تخامرني هذه العاطفة ، أعود فأتمثل دائماً مشهد أمي وهي تحملني على ظهرها لزيارة قبر أبي . فأعجز إذ ذاك عن كراهيتها . مع هذا يجب علي ذلك . كان قلبي أشبه بهذا الهلال ، بضياء مؤقت ، في ظلمات لا نهاية لها . غالباً ما كان يفد إلى غرفة أمي رجال ، إذ لم تعد تخفي عني شيئاً . وكان هؤلاء الرجال ينظرون إليّ بعيون كلاب ، يسيل لعابها وتمتد ألسنتها . إذ أبدو لهم أشهى وألذ . اطلعت على كثير من الأمور في وقت قليل ، أدركت أن الواجب يقضي بالذود عن نفسي . أدركت أن فيّ شيئاً ثميناً وبعض الرائحة تدعو إلى الخجل والانزعاج . شعرت فيّ بنبضات في مقدورها إما أن تحميني أو تضيعني . كنت أحياناً صلبة جداً وأحياناً ضعيفة جداً . لست أدري ما العمل . تمنيت لو كان في إمكاني محبة أمي . في هذه الفترة كانت تراودني أسئلة كثيرة لطرحها عليها وكنت بحاجة إلى حنانها . وفي هذه اللحظة ذاتها كان علي أن أقرّ منها وأكرهها . وإلا لكانت نهايتي . ولكن حين أفكر بتؤدة في أوقات أرقي كنت أجد أمي جديرة بالغفران . فثمة إطعام فمين اثنين . وكانت الفكرة نفسها هي التي تجعلني أرفض الوقعات التي توفرها لي . . . هكذا كان قلبي متأججاً أحياناً وأحياناً جليدياً ، فهو أشبه بريح الشتاء التي بعد استراحتها تضاعف من عنفها . كنت أنتظر احتدام غيظي وأنا عاجزة عن أي عمل لتهدئته .

- ١٢ -

لم يتح لي وقت أجد فيه مخرجاً حتى تفاقمت الأمور . « إذاً ؟ » سألتني أمي . لو كنت أحبها لوجب علي مساعدتها وإلا فلن تتمكن من إعالتي بعد

الآن . ما كنت أفكر قط أن أمي جديرة بأن تخاطبني بهذه العبارات ، ولكنها رغم ذلك فعلت . فقد عبرت دون لف ودوران : « إني أجعل نفسي عجوزاً . بعد بضع سنوات لن يرضى بي أحد ولو دون مقابل ! » ذاك صحيح . فمنذ بعض الوقت راحت أمي تصبغ وجهها بكثير من المساحيق . فتجعد وجهها . أحبت أن تخطو خطوة جديدة فتخدم رجلاً واحداً . لم يبق في مقدورها أن تضع نفسها تحت إمرة بضعة رجال معاً . يجب لخيرها أن ترحل حالاً ، ما دام هناك رجل واحد يرغب فيها إنه صاحب حانوت لصنع الخبز على البخار . أما أنا فقد غدوت صبية ولم يعد بإمكاني أن أسير خلف محفة أمي كما فعلت في طفولتي . كان عليّ أن أعثر على وسيلة لاستقراري . لو وافقتُ على « مساعدة » أمي ، لكان في وسعها ألا ترحل ولكنت أنا التي أكسب المال عوضاً عنها . لكي أكسب المال عوضاً عنها كنت مستعدة ، بيد أن وسائلها كانت تجعلني أرتعش . ماذا كنت أعرف أنا ؟ هي تطلب مني أن أكسب المال كامرأة نصف عجوز ؟ ما كان أقسى أمي ! ولكن المال كان أشد قسوة . لم تمارس أمي أي ضغط علي ، بل تركت لي حرية الخيار - إما مساعدتها أو الفراق بيننا ، فتمضي كل منا في سبيلها . لم تذرف أية دمعة . فقد جفت دموعها منذ أمد طويل . أما أنا فماذا أفعل ؟

- ١٣ -

بحت بكل شيء لمديرة المدرسة ، وهي امرأة بدينة في الأربعين من عمرها ، ليست واسعة الحيلة بل طيبة القلب . كنت حقاً ثائرة ، ولو لم أكن كذلك فكيف كنت أتمكن من فتح فمي لأتكلم عن موقف أمي . . . ما كنت قبلاً قد تعاملت مع المديرة . فيما كنت أحدثها عن أمي ، كانت كل كلمة جمرة تلذع حلقي . توقفت فجأة ، وكنت أقضي وقتاً لا حد له كي أنطق

بالكلمة . . . كانت المديرة مستعدة لمساعدتي . لم يكن بإمكانها أن تعطيني مالاً ولكن في وسعها أن توفر لي وجبات الطعام ومسكناً ـ كان علي أن أشاطر خادمة المدرسة العجوز غرفتها . طلبت مني أن أساعد أمينة السر في النسخ ، وهو عمل كنت قد مارسته قبلاً . وجبتان في اليوم وسرير ، شيء فخم ، لم أعد بعد الآن عبئاً على أمي . في هذه المرة . لم تنل أمي حتى محفة ، فاستأجرت عربة جرٍّ نقلتها في ليلة سوداء . عندما آن أوان الرحيل ، فاضت الدموع في اضطرابها من أعماق قلبها ، رغم أنها بذلت كل جهدها كي تمسك نفسها عن البكاء . كانت تعرف أني لن أقدر على المضي لرؤيتها ، أنا ابنتها ، أما أنا ، فكنت لا أقدر على البكاء ، وكل ما استطعت فعله أني رحت أشهق ووجهي مغطى بالدموع . كنت ابنتها وصديقتها ومفرجة كربتها . رغم هذا كنت لا أستطيع مساعدتها إلا إذا فعلتُ ما كنت أرفض فعله رفضاً باتاً . حين أفكر في ذلك ، أرى أننا ، نحن الاثنان كنا كالكلاب المهجورة . كي يتمكن المرء من الحصول على الطعام يجب عليه أن يقاسي كل أنواع العذاب . كما لو لم نكن كل منا سوى فم للأكل ، ومن أجل هذا الفم كان يتحتم علينا أن نبيع كل ما بقي . لم أعد أمقت أمي فقد أدركت . لم تكن الخطيئة خطيئة أمي ولا خطيئة هذا الفم . إذ يجب أن يوجد ثمة فم . فالشر ينبع من الطعام . فبأي حق نُحرم من الطعام ؟ إن عناء الفراق كان قد فاق كل عناء . والهلال الذي كان نجيّ دموعي لم يرجع . ففي هذه المرة لا شيء سوى الليل المدلهم ، حتى ولا لمعان دودة براقة . في الظلمة رحلت أمي . إنها كشبحٍ حيٍّ لم يكن لها حتى خيال . فلو ماتت لما قُيِّض لها أن تدفن مع أبي ولما استطعت أن أعرف أبداً مكان قبرها . لم يكن لي سوى هذه الأم وهذه الصديقة . وها أنا الآن ثانية وحيدة في عالمي الخاص .

- ١٤ -

كنت أعتقد أني لن أرى أمي ثانية . لقد انطفأت شعلة الحب في قلبي ، كزهرة الربيع قضى عليها الصقيع . اعتنيت بتمارين الخط كي أساعد المديرة في نسخ أوراق لا أهمية لها . يجب أن أجعل نفسي مفيدة ، ما دمت أعيش على نفقة الغير . لست كرفيقاتي في الصف اللواتي لا ينشغلن إلا بالتطلع إلى الناس ومراقبة ما يأكل الآخرون وما يلبسون وينشغلن بما يمكن أن يقال . كنت أهتم بنفسي لا غير . وكان ظلي هو رفيقي الوحيد . لم يكن في قلبي إلا « أنا » . ليس ثمة من يحبني . فأحببت نفسي وشكوت إلى نفسي وأطريت نفسي وذممت . كنت أعرف نفسي كما لو كنت شخصاً آخر . إن أقل تغير فيّ ، كان يصعقني ويسرني ويثنيني عن طريقي . كنت كزهرة غضة أمسكتها بين يدي . كنت لا أقدر على الاهتمام إلا بالحاضر . فالمستقبل ليس موجوداً ولا أتجرأ حتى على مجرد التفكير فيه جدياً . كنت أعلم وقت الظهر أو العشاء من الوجبات التي تقدم لي . لولا هذا لما كنت قد عرفت الساعة التي أنا فيها . فالمرء دون أمل ، يفقد معرفة الزمن . كنت كأني مسمرة في مكان محروم من الشمس والقمر . إن ذكرى أمي تذكرني بأني كنت أعيش منذ عشرات السنين . أما المستقبل فما كنت كبقية التلميذات اللواتي كن ينتظرن بفارغ صبرٍ أيام العطل والأعياد ورأس السنة . هذا كله لا يخصني . . رغم هذا كنت أنمو ، هذا ما كنت أشعر به . كنت أكبر وهذا ما كان يقلقني ويزعجني . وكنت أشعر كذلك أنني أحلو وأنا أكبر فكان هذا تعزية لي . كان بوسعي بسبب جمالي أن أرقى مرتبة أعلى . ولكن بما أني لا أشغل أي مكان في المجتمع ، فالعزاء الحلو في بادىء الأمر ، يغدو مراً ثم أكتسب من المرارة فخراً : إني فقيرة ، أجل ولكني جميلة ! أخيراً يخيفني هذا ، فأمي لم تكن بشعة أيضاً !

- ١٥ -

منذ عهد بعيد ، لم أعد أنظر إلى الهلال ، لا أتجرأ رغم أني أتوق إلى ذلك كثيراً . أنهيت دروسي الابتدائية وإني وأعيش دوماً في المدرسة . لم يكن في المدرسة مساء ، سوى خادمين عجوزين ، رجل وامرأة . لم يعرفا كيف يعاملاني . فما أنا تلميذة ولا معلمة ولا خادمة ، مع أني قليلة الشبه بخادمة . فحين أتمشى مساء وحيدة في باحة المدرسة ، كنت مكرهة على العودة إلى غرفتي بسبب الهلال . فلا أجد فيّ القدرة على النظر إليه . مع ذلك في وسعي أن أتخيله وأنا في الغرفة ولا سيما إذا ما هب قليل من الريح . كأن النسيم يدفع ضياءه الضئيل إلى قلبي ، منعشاً فيّ ذكريات الماضي ومهيلاً على قلبي حزناً أشد إذا ما فكرت في الحاضر . كان قلبي كالخفاش في ضوء القمر ، إنه في النور ولكنه يظل أسود حملوه . إن ما هو أسود ، يظل كذلك حتى ولو كان يجيد الطيران . كنت بلا أمل ، إلا أني لا أبكي بل أقطب الحاجبين فقط .

- ١٦ -

كان لي شيء من الدَّخْل : كنت أحوك للتلميذات فيدفعن لي . قمت بهذا العمل بإذن من المديرة . إلا أنني لا أكسب شيئاً يذكر ، لأن التلميذات يُجِدْن الحياكة أيضاً . فلا يلجأن إليّ إلا عندما يكون عندهنّ حاجة عاجلة للحياكة ، أو عندما يبتغين إهداء أحد أفراد أسرتهن زوجاً من القفازات أو من الجوارب . رغم ذلك كنت أستعيد شجاعتي . وأفكر : « لو لم تقم أمي بهذه الخطوة الأخيرة ، لكان في إمكاني أن أنفق عليها » . ولكن حين أحسب دخلي الضئيل ، أدرك أن هذا لم يكن سوى وهم . بيد أن هذه الفكرة تريحني وتدخل الطمأنينة على نفسي . لقد اشتقت لرؤية أمي . لو تمكنت هي من رؤيتي

لأقبلت إليّ دون ريب . إذ لدينا ما نعيش به معاً . هكذا كنت أفكر ـ دون أن أثق بذلك ـ فكرت ملياً بأمي وكثيراً ما رأيتها في أحلامي . كنت ذات يوم في نزهة مع الطالبات . كانت الساعة الرابعة عند عودتي ولكي أسرع في الوصول ، سلكنا طريقاً مختصراً ، ورأيت أمي ! في شارع فرعي صغير حانوت بائع خبز . أمام الباب ، كانت اللافتة تمثل سلة على شكل سبيكة من فضة ومعها رغيف كبير من خشب أبيض مشكوك بطرف جذع طويل . كانت أمي جالسة قرب الجدار ، تنحني ثم تنتصب لتحرك منفاخاً . أبصرت الرغيف الكبير من بعيد جداً وأمي التي عرفتها من ظهرها . وددت لو أركض وأرتمي بين ذراعيها فلم أتجاسر ، لقد خشيت سخرية الطالبات مني . إذ ليس في وسعهن الافتراض أن لي مثل هذه الأم . كانت كل خطوة ونحن نتقدم تدنيني من أمي . فطأطأت رأسي وألقيت عليها نظرة خفية من خلال دموعي . لم ترني ، إذ كانت منهمكة بتشغيل منفاخها . بدا لي أنها لم تلحظ شيئاً حين مررنا بها . ولما ابتعدنا كثيراً ، التفتُّ لأراها . كانت لا تزال تشغّل المنفاخ . لم أميز وجهها كما يجب ، بل أبصرت شعراً مبعثراً على جبهتها . إلا أني حفظت اسم الشارع .

- ١٧ -

إن الرغبة في المضي لرؤية أمي أثقلت عليّ ، كانت أشبه بوحش ، كاد أن يقضم قلبي ، لم أعد أحظى بالهدوء . في هذا الوقت بدلت المدرسة مديرتها . كانت المديرة السمينة قد أعلمتني أنها ما دامت في مكانها فستظل وجباتي ومسكني مؤمنين ، لكنها لا تستطيع ضمان أن ينحو الآخرون منحاها . أحصيت ما عندي من مال ، فكانت ثروتي (ينان) اثنان وسبعة (ماو) وبعض (الغنات) . في مقدوري أن أتجنب الجوع مدة بضعة أيام . ولكن إلى

أين الذهاب ؟ ينبغي ألا أظل مراوحة في مكاني ، أعاني الآلام بل يجب اتخاذ قرار ما . كانت أول فكرة راودتني ، أن أمضي للقاء أمي . ولكن هل تتمكن من إيوائي ؟ في الحالة المعاكسة حتى وإن لم تسبب زيارتي أي خصام بينها وبين بائع الخبز ، فهي بالتأكيد سوف تلقى مشقة . ينبغي أن أضع نفسي مكانها : فهي أمي وليست أمي . لقد رفعت التعاسة جداراً يفصل بين الأم والابنة . بعد تفكير عميق قررت ألا أمضي إليها . فعليّ أن أجابه بنفسي كل ما في الحياة من مرارة . ولكن كيف التوصل إلى ذلك ؟ لا أدري . فالعالم يبدو لي ضيقاً ، حتى إني لا أقدر أن أجد موطئاً لي مع صرتي . إني لا أساوي حتى كلباً . لأن في وسع الكلب على الأقل أن ينام أينما كان ، أما أنا فلاحق لي أن أنام في الشارع . أجل أنا مخلوق بشري ، ولكن مخلوقاً بشرياً يمكن ألا يساوي كلباً . لو ألححت على البقاء لطردت طرداً . وإني لا أود الانتظار حتى أواجه الطرد . كان الفصل ربيعاً . وإني أرى الأزهار تتفتح والأوراق تخضّر ، ولكني لم أذق أية حلاوة . فالأزهار الحمراء لم تكن إلا أزهاراً حمراء والأوراق الخضراء لم تكن إلا أوراقاً خضراء . كنت لا أرى إلا ألواناً لا معنى لها . الربيع في قلبي ليس سوى جليد وموت . لا أريد أن أبكي ولكن دموعي جرت على الرغم مني .

- ١٨ -

بحثت عن عمل . لا أريد الذهاب إلى أمي ولا الاعتماد على أي كان ، بل أريد كسب رزقي بعرق جبيني ، مشيت يومين كاملين وأنا أخرج مفعمة بالأمل وأعود معفرة بالغبار والدموع . لا عمل لي . آنئذ فهمت أمي وغفرت لها كل شيء . كانت أمي على الأقل ، قد غسلت جوارب عتيقة ، أما أنا فليس في وسعي أن أفعل ذلك . فالطريق الذي سلكته أمي كان الطريق الوحيد الممكن سلوكه . فالمعلومات التي تلقنتها في المدرسة ، كالمعلومات الخلقية التي تدرس

فيها ، لم تكن سوى مزاحٍ في مزاح . كانت أشياء تصلح لأناس حسني التغذية وعاطلين عن العمل . فالطالبات لا يستطعن تصور أمٍ كأمي إذ أنهن يسخرن من العاهرات . بالطبع يستطعن سلوك هذا السبيل ، لأنهن لم يذقنَ الجوع . لقد قررت إن صح التعبير : أن أفعل أي شيء على أن أعثر على طعام . كانت أمي تستحق الإعجاب . كلا ، ينبغي ألا أذيق نفسي الموت رغم أني أريد أن أعيش . فإني فتية وجميلة ، وأريد أن أعيش فالعار لست أنا التي أوجدته .

- ١٩ -

هذه الفكرة بعثت فيّ شعوراً ، أني قد وجدت عملاً . فتجرأت منذئذ على السير في الباحة . في السماء هلال ربيعي معلق . في وسعي أن أقدر جماله . السماء زرقاء قاتمة لا أثر للغيم فيها . والهلال وضاء وديع ، يسكب بتؤدة ضياءه الحليبي على شجرات الصفصاف . في الباحة نسمة خفيفة تحمل عبير زهرات الجنوب . كانت أغصان الصفصاف تتأرجح في النور ثم تغيب في الظلال . كان الضياء ضعيفاً والظلال عميقة والنسيم لطيفاً . كل شيء عذب . كل شيء يهوّم في حركة فاترة . تحت الهلال وفوق شجرات الصفصاف نجمتان صغيرتان شبيهتان بعيني جنيّة تبتسمان للهلال وشجرات الصفصاف المتأرجحة . ثمة شجرة لا أعرف اسمها تنتصب في جهة الجدار الأخرى . كانت مغطاة بأزهار بيضاء . في ضوء القمر ، كانت صورة هذه الكرة الثلجية التي لها جزء أبيض براق وجزء آخر مغلف بظل خفيف رمادي ، ذات بياض خارق . هذا الهلال هو أملي كما فكرت .

- ٢٠ -

مضيت مرة أخرى لمقابلة المديرة البدينة . لم تكن في بيتها . أدخلني

شاب . كان جد أنيق وجـد لطيف . كنت عادة أخـاف الـرجـال ، أما هذا الشـاب فلم يبعث فيّ أيـة رهبـة . أجبتـه عن كل أسئلتـه . حين يبتسم كنت أحس أن قلبي يذوب . بينت له الغاية من زيارتي . وكان جذاباً جداً ، فوعد أن يمـد لي يد المسـاعـدة . في مسـاء اليوم ذاته جاءني (بينين) . فأبيت إلا أنه ألـح مدعيـاً أنهما من عمته ـ المديرة البدينة . قال أيضاً أن عمته عثرت لي على مسكن . وأن بإمكاني أن أنتقل إليه ، منذ نهار الغد . كان ينبغي أن تساورني بعض الظنـون ولكن لم أتجرأ . كانت ابتسـامتـه تخترق شغـاف قلبي . وكنت أشعر أن الحذر منه في غير محله . لقد كان فاتناً ولطيفاً للغاية .

- ٢١ -

وضـع شفتيـه الباسمتين على وجهي . فوق شعره أبصرت الهلال أيضاً يبتسم . النسيم الـربيعي يبـدو ثمـلاً . اخترق الغيوم الربيعية ، فظهر إذ ذاك الهلال وبعض نجوم من الفصل الجديد . تأرجحت أشجار الصفصاف على شاطىء النهـر ، حيث تنقّ الضفـادع ، وتنشد غرامها . إن عبير القصب يعطر جو الـربيـع الليـلي العـذب . كنت أنصت إلى خريـر الساقية التي تمد النبتات الصغيرة بالحيـاة . تصـورت سوقهـا التي تنـدفـع بفرح إلى العلاء . وهي في الأرض الـرطبـة الـوادعـة ، لا تنفـك عن سقاية أزهارها وأوراقها دون انقطاع بالنسغ الأبيض . إن اندفاع الربيع كان مطوياً في كل مكان حتى في أكثر المآوي سراً ، على أهبـة الانـدفاع ، ناشراً أريجه ، كما يدفع البستيل وريقات الزهر . لقـد سهـوت عن نفسي . مع أزهـار الأمـاكن المجـاورة وأعشـابها تلقيت ولوج الربيع . لم أعد موجودة ، لقد ذبت في النسيم الخفيف وفي الهلال الشاحب . على حين غرة غطت الهـلال غيمـة . فعـدت إلى نفسي . وأحسست بحرارته ترزح فوقي . كنت قد فقدت الهلال ، لقد ضعت ، وغدوت مثل أمي .

- ٢٢ -

ساورتني الندامة ، خففت عن نفسي ، وددت لو أبكي . كنت سعيدة . كنت مجنونة . أردت أن أهرب ولا أراه مطلقاً . فكرت فيه . أحسست أني وحيدة . كنت أعيش وحيدة في غرفتين صغيرتين . كان يأتي كل مساء . كان دائم الجمال دائم الحنان . يقدم لي الشراب والطعام بل ألبسني ثياباً جديدة ، كنت ألاحظ بعد ارتداء ثيابي كم كنت جميلة . مع ذلك كرهت هذه الثياب ، دون أن أستطيع فراقها . كنت لا أتجرأ على التفكير ، بل لا قدرة لي على التفكير . بقيت في حالة من التبلد وخداي مصبوغتان بالأحمر . وجدت العناية بنفسي متعبة ولكن ليس في وسعي أن أتخلى عنها ، وفي هذه الحالة من العطلة يتوجب علي أن أنشغل . كنت حين أتبهرج أحب نفسي وحين أنجز هذه البهرجة أكره نفسي . كانت دموعي تسيل بيسر . فأعمل أي شيء كي أمتنع عن البكاء . بيد أن عيني تظلان دوماً رطبتين وهذا ما يضفي عليهما مسحة من السحر . كنت أقبله أحياناً بتوتر أعصاب ، ثم أدفعه عني أو أشتمه . وكان في جميع الأحوال يضحك .

- ٢٣ -

كنت أعلم أن ذلك لا أمل فيه . إن سحابة قد غشت على الهلال . كان مستقبلي مظلماً . في الواقع حين حل الصيف محل الربيع ، انتهت أحلامي الربيعية . في ظهيرة ذات يوم ، قدمت علي امرأة في ميعة الصبا . كانت جميلة ، إلا أنها قليلة الابتذال . كان يخيل للناظر إليها أنها تمثال من رخام . ما كادت تجتاز العتبة حتى انهمرت دموعها . فهمت دون أن أسألها شيئاً . إنها لا تريد خصاماً ولا أنا أيضاً أحب أن أثير نزاعاً . بكل بساطة ، أمسكت بيدي

وهي باكيــة وقــالت : « لقـد خدعنـا نحن الاثنتـين ! » ظننتهـا أولاً إحـدى محظيـاتـه ، ولكن لا . كانت زوجتـه . دون ضجـة ، ما كان لها إلا أن تردد : « اتـركيـه ! » كنت في غاية الارتباك . أخذتني الشفقة فوافقت . فضحكت . أدركت وأنـا أنظـر إليهـا أنها عديمة الذكاء . إنها لا تستوعب من الحالة شيئاً . ولا تبحث إلا عن استعادة زوجها .

- ٢٤ -

مشيت طويلاً في الشارع ، من السهل أن أطمئن المرأة الصبية ، أما أنا فما مصيـر ي ؟ نويت أن أتخلص من كل ما قدمـه . وما دام الواجب يقضي أن أتـركـه ، فينبغي علي أن أقطـع كل صلة لي به . ولكن ما الـذي يتبقى لي دون هذه الأشيـاء الصغـيرة ؟ أين المفـر ؟ ما العمـل كي آكل في هذا النهار نفسه ؟ حسناً . بما أني لا أتمكن من التصرف بشكل آخر فمن الواجب أن أحتفظ بهذه الأشيـاء . بل استـولت علي الـوحـدة ، كسحابة عائمة لا سند لها ولا دعامة . سكنت غرفة صغيرة ونمت طول النهار .

- ٢٥ -

منذ الطفولة عرفت الاقتصاد وعلمت قيمة المال يجب علي أن أجد عملاً في التــوقبـل أن أغـدو على شفـا الإفـلاس التـام . لم أكن كثـيرة الأطـماع . بالحصول على عمل ، قد أغدو في مأمن من الخطر . لقد كبرت سنتين إلا أن العقور على مهنة ، لم يكن سهل المنال . كنت أقاوم بثبات ، إلا أن هذا لم يجدِ نفعـاً . بذلـك كل ما بوسعي . كم يشق على المـرأة أن تحصل على مال ! لقد كانت أمي على حق . فليس أمـام المـرأة ما تتبعـه سوى هذا الطـريق . كنت

لا أرغب في سلوكه في التوّ ، بل شعرت أني لن أنجو منه . وكلما حاولت أن أتملص منه ، ازداد فيّ الخوف . كان أملي أشبه بضوء هلال جديد ، لا يلبث أن يتوارى سريعاً . أسبوعان تقضيا وهو يزداد تضاؤلاً ، أخيراً تقدمت إلى مطعم صغير . وراء فتيات مرشحات ، لأعمل نادلة . كان مطعماً صغيراً ، وصاحبه ضخم الجثة . كانت المرشحات كلهن جميلات ، يحملن الشهادة الابتدائية . كل منهن تنتظر أن يقع عليها اختيار صاحب عمل شبيه بصنم متهدم كما لو كن ينتظرن نوال حظوة امبراطورية ! فاختارني . لم أشعر نحوه بأية منة ، إلا أني سررت . نظر إليّ الأخريات حاسدات . انصرف البعض باكيات والأخريات يُرددن (الشتائم !) . إن النساء ليس لهنّ قيمة كبيرة !

- ٢٦ -

غدوت النادلة رقم اثنان في المطعم الصغير ، كنت قليلة الخوف لأنني لا أعرف ترتيب الصحاف على المائدة ولا تقديم الطعام ولا الحساب والإعلام عن الطلب . ولكن (الرقم واحد) قالت لي ألا أقلق : فهي أيضاً لا تعرف وهذا كله منوط (بشن) الصغير الذي يهتم بهذا كله ، فنحن النادلات ، ما علينا إلا أن نقدم الشاي ونمد المناشف الساخنة للزبن ونقدم لهم الحساب . ما أغرب الأمر !! فإن رقم واحد كانت تشمر أكمامها عالياً جداً ، وبطانتها البيضاء خالية دوماً من البقع . كان على معصمها منديل من الحرير الأبيض حيك عليه : « يا صديقتي الصغيرة أحبك ! » . كانت تطلي وجهها طول النهار بالمساحيق وتكثر من الحمرة على شفتيها . حين تشعل للزبن سجائرهم ، كانت تسند ركبتها على سوقهم . وحين تصب لهم الخمر ، كانت تجرع منه جرعةً . كانت بنظر بعض الزبن رائعة جداً ، على حين أنها تتجاهل الآخرين متظاهرة بعدم رؤيتهم . كان عليّ أنا أن أهتم بالذين لا تتنازل

لخدمتهم . كنت أخشى الـرجـال . وقـد علمتني خبرتي الضئيلة ، إن الحب لا وجـود له ، وأن جميـع الـرجـال خطرون . ولا سيما الذين يؤمون المطاعم . إنهم مراؤ ون ، يتخـاصمـون ويـدعي كل منهم تقديم مكان الصدارة لغيره أو تسـديـد الحسـاب . يشـربـون كالمجـانين وهم يلعبون لعبة الحزازير أو يأكلون كالـوحـوش ، يتظاهرون بالعناد دون سبب ويتبادلون الشتائم . كنت أمد لهم المنـاشف الـدافئـة ، منكسـة رأسي ملتهبة الخدين . كانوا يوجهون إلي الكلام ويحاولون إضحاكي ، إلا أني لا أميل إلى الضحك . في نهاية يومي بعد انقضاء الساعة التاسعة ، أغدو مرهقة . عند عودتي إلى غرفتي الصغيرة ، كنت أرتمي على سريري دون أن أخلع ثيابي وأنام مطبقة اليدين حتى صباح اليوم الثاني . فأستيقـظ أكثر مرحـاً ؛ إنني منذ الآن أكسب قوتي بعرق جبيني . كنت أنهض باكراً جداً للمضي إلى العمل .

- ٢٧ -

لا تصـل النـادلـة (رقم واحـد) إلا في الساعة التاسعة ، على حين أني أكون هناك منذ أكثر من ساعتين . كانت تحقرني وتلقنني الدرس دون خبث : « لا فائـدة من القـدوم باكـراً جداً . فمن الـذي يؤم المطعم في السـاعة الثامنة صباحاً ؟ بعد ذلك أيتها الشقية الصغيرة لا تتصرفي هكذا ، فأنت نادلة هنا ، في مطعم ، لا في جنـازة . فلن تحصـلي على كثـير من الحـلاوين برأسـك المـنـكس . ماذا جئـت تفـعـلين هنـا ؟ من أجـل كسـب لقـمـتـك أليس كذلك ؟ علاوة على هذا فإن قبتك واطئة جداً . في مهنتنا يلبس الجميع قبات عالية ، ويلزمك منديل من حرير ، إنهم يحبون هذا ! » كنت أعلم أنها تسـدي إلي هذه النصـائـح عن نية طيبـة . وكنت أعلم أيضـاً أنني إن كنت

لا أبتسم فالعواقب الوخيمة تنعكس عليها ويقل ربحها لأن الحلاوين تقسم مناصفة بيننا . أما من جهتي ، فلا أحتقرها ، بل من بعض الجهات ، أعجب بها . إن ما تفعله لا غاية منه إلا كسب المال . هذا كل ما باستطاعة المرأة أن تفعله كسباً للعيش ولا خيار لهنّ . مع ذلك ما أردت أن أحذو حذوها ، كنت أتوقع أني سأضطر يوماً ، كي أعيش ، أن أذهب أيضاً إلى أبعد منها . إلا أني كنت أنتظر حتى أغدو خاوية الوفاض . هناك دائماً « خواء وفاض » يكمن للفتيات . ويترقبهنّ . فكل ما باستطاعتي فعله ، هو أن أكسب بضعة أيام أخرى . عند بلوغي هذه الفكرة ، كنت أصرّ بأسناني ويلذعني قلبي ، لكن مصير النساء لا يتعلق بهنّ . بعد ثلاثة أيام أنذرني صاحب العمل : منحني مهلة يومين . إن أردت الاحتفاظ بعملي ، فيجب عليّ أن أسير على نهج الرقم واحد . قالت هذه لي ، ذات مرة وهي تنصحني وتهزأ بي : « حصلنا على معلومات عنك . فلا تتظاهري بالبراءة . نحن هنا نعرف بعضنا . لا يندر أن نرى نادلات مطعم يتزوجن أصحاب مصارف . فمن تحسبيننا ؟ هيا إذن تحركي ! لنغتنم أصحاب مصارف . فمن تحسبيننا ؟ هيا إذن تحركي ! لنغتنم الفرصة كي نتنزه قليلاً في المركبة ، نحن أيضاً ! » فسألتها غاضبة : « متى تتنزهين أنت في المركبة ؟ » فكشرت بشفتيها الحمراوين : « مكانك ! سنرى . حين يولد المرء بإليات معطرة ، ففي وسعه أن يفعل ذلك ! » فقدمت استقالتي . عدت إلى بيتي بعد أن قبضت (ينا) وخمس (فنات) .

- ٢٨ -

ازدادت الظلمات الأخيرة قرباً مني . حاولت أن أتجنبها فازددت قرباً منها . لم يساورني أي أسف لهجري عملي ، بيد أن هذه الظلمات كانت تفزعني . كان بإمكاني بيع نفسي لرجل واحد . فمنذ المرة الماضية عرفت حق

المعرفة ما تنطوي عليه العلاقات بين الرجال والنساء . فما أن تتراخى الفتاة بعض التراخي حتى يستروح الرجل فيقبل . إن ما يريد وما يعطي ما هو إلا اللحم . فهو يعضك ويسحقك ويغرز فيك غرائزه الوحشية ، فتنال مؤقتاً ما يغذيك وما يكسوك . وبعد ذلك ينهال عليك بالضرب وربما بالشتائم ، أو يكف عن إعالتك . هكذا يبيع النساء أنفسهنّ وهنّ أحياناً مسرورات ، هذا ما حدث لي . في هذه اللحظات يتحدثن وكأنهن في الجنة . ولكن لا يلبثن أن يشعرن بالأسى واليأس . إن اللواتي يبعن أنفسهنّ لرجل واحد في وسعهنّ أن يأتين بحلو الحديث ، أما اللواتي يبعن أنفسهنّ للجميع فليس في قدرتهن أن يفعلن ذلك ، إن أمي ما تمكنت أن تتحدث بهذه الطريقة . إن الموقفين يوحيان إليّ بالرهبة ولكن بدرجات مختلفة . لئن كان يستحيل علي أن أقبل نصائح الرقم واحد الحميدة فلأن رجلاً واحداً يجر عليّ خوفاً أقل . بيد أني آبى أن أبيع نفسي ، إذ لست بحاجة إلى رجل . فلم أبلغ العشرين بعد . ظننت بادىء ذي بدء ، أن العيش مع رجل شيء سار . ولكن حين صادفت هذا الفتى وجدت أن كل ما كان يبغيه إن هو إلا ما كنت أخشاه . في الواقع لقد استسلمت إليه كأني أستسلم لنسيم ربيعي . حين أعاود التفكير أجد أنه أفرط في استغلال جهلي ، في سبيل لذته . فكلامه المعسول سحرني . وحين عدت إلى وعيي تحققت أني قد حلمت . فما أحسست إلا بالفراغ . كانت كل غنيمتي وجبتين في اليوم وبعض الثياب . ليس في نيتي أن أعاود كسب قوتي بهذه الطريقة . إن الوجبة شيء محسوس ويجب كسبها بوسائل محسوسة . مع ذلك ، حين لا يوجد حقاً أية طريقة لكسب العيش ، فيجب على النساء الاعتراف بأنهن نسوة ويجب عليهنّ بيع جسدهنّ ! انقضى أكثر من شهر وأنا لا أعثر على عمل .

- ٢٩ -

التقيت بعض رفيقات صفي . البعض منهنّ في المدرسة الثانوية والبعض الآخر في بيوتهن . كنت لا أتنازل إلى الاهتمام بهنّ . ولكن حين تحادثنا ألفيت نفسي أكثر خبثاً منهن في المدرسة كنت أشد غباء منهنّ ، أما الآن فهنّ اللواتي كن يظهرن لي غبيات . كنّ يظهرن أنهن يعشنَ جميعاً في الغيوم . كان يخيّل إليكَ وأنت تراهنَّ مرتديات بشكل معصوم عن العثار ، أنهن بضائع في أحد المخازن . فهن يغازلن الشباب وينظمن في أعماق نفوسهن قصائد في الحب . هزئت بهنّ . مع ذلك كان يجب فهمهنّ ، إن لديهنّ ما يقتتنَ به ولهن القدرة على أن يحلمن بالحب . فالرجال والنساء يحيكون شباكاً محاولين أن يوقع فيها بعضهم بعضاً . إن شباك الأغنياء أكبر ، وبإمكانهم التقاط بضعة أشخاص دفعة واحدة ، فينتقون منهم دون إسراع . أما أنا فلست ذات مال وليس لي مكان أحيك فيه شبكة . كان علي أن أصيد الناس أو أصاد مباشرة . كنت أذكى من رفيقاتي وأكثر واقعية أيضاً .

- ٣٠ -

في أحد الأيام صادفت المرأة الصغيرة ، تلك التي لها وجه كوجه لعبة من الجص . أمسكت بيدي بهيئة غير طبيعية قليلاً . كما لو كنت إحدى قريباتها . « أنت امرأة خيّرة ، أنت امرأة خيّرة ! خامرني الندم » قالت لي مخلصة : « نعم ، خامرني الندم على طلبي منك هجرانه . آه ! كان من الأفضل أن يبقى معك . لقد عثر على امرأة أخرى ، ومضى هذه المرة كي لا يعود أبداً ! » علمت آنئذ أنهما كانا قد عقدا زواج حب . فهي ما زالت على حبه . أما هو فقد رحل . يا للمرأة الصغيرة المسكينة ! إنها لا تزال تنسج في رأسها أوهاماً وتفكر

أن الحب عاطفة مقدسة . حين سألتها عما تنوي فعله ، قالت أنها جادة في البحث عنه وستظل مخلصة له حتى الموت . وإن لم تجده ؟ عضت على شفتيها ، إن لها أهل زوجها وأهلها ، فهي ليست طليقة ، حتى بلغ بها الأمر أن حسدتني ، لأن ما من أحد يهتم بي . ها أنذا أثير الحسد ، هذا ما دفعني إلى الضحك ! أنا حرة طليقة ، يا للمهزلة ! هي لها ما تقتات به ، أما أنا فحرة طليقة ، هي ليست حرة وليس لي ما أقتات به . نحن الاثنتان كنا من النساء .

- ٣١ -

بعد التقائي اللعبة الصغيرة من الجص ، هجرت فكرة بيع نفسي لرجل واحد . قررت أن ألهو . وبعبارات أخرى ، أردت أن أكسب عيشي حسب أهوائي . لقد اعتقت نفسي من كل تبعة أخلاقية نحو أيٍ كان . كنت جائعة . إن العيش حسب الأهواء ، قد يتيح لنا الأكل حين نجوع ويجب ألا نجوع كي نتمكن من العيش حسب الأهواء . فالشبك قد شبك وفي وسعي دخول الدائرة من أية نقطة . كان ثمة فرق كبير بين الطالبات الصبايا واللعبة الصغيرة وبيني . إذ أن لهنّ أكثر مني أوهاماً وكنت أكثر منهنّ استقامة . فالجوع هو أكثر الحقائق ضخامة . باشرت إذاً في البيع ، بعت كل ما أملك كي أحصل على ثوب خارجي جديد . والحق يقال ، إني هكذا لم أكن قبيحة . فاندفعت إلى السوق .

- ٣٢ -

أردت أن ألهو ، أن أعيش على هواي وكنت مخدوعة . ما زلت أجهل الحياة ، فاقتناص الرجال ، ليس على هذه الدرجة من السهولة كما كنت

أعتقد . كنت أود أن ألقى المثقفين منهم فأمنحهم قبلة أو قبلتين على الأكثر ، ولكن لا ! يا للعجب ! إنهم لا يؤخذون ، هكذا ، فمنذ اللقاء الأول يريدون أن يلمسوك . أما الآخرون فيكتفون بدعوتك إلى السينما ، أو التنزه وإياك في الشوارع أو تقديم كأس من البوظة . وتعود إلى منزلك خاوي البطن . إن الرجال المثقفين كما يدعون يسألونك عن المدرسة التي درست فيها وعن عمل والديك وغير ذلك . هذا ما يجعلك تدرك أنهم ، إن استولوا عليك ، فينبغي أن يكسبوا كل الكسب وإلا قدموا لك كأساً من البوظة مقابل قبلة . فهمت آنئذ أني إن شئت بيع نفسي فيجب أن يتم مقابل شيء ثمين : أعطني مالاً أنمْ معك . فهمت هذا وهو أمر لا تستطيع اللعب الصغيرة فهمه . لقد فهمته أنا وأمي . أخذت عندئذ أفكر كثيراً بأمي .

- ٣٣ -

يبدو أن بعض النساء قادرات على كسب قوتهن على هواهن ، أما أنا فليس لدي « الرأسمال » الضروري لبلوغ هذا . فأزحت عني هذه الفكرة . باشرت تجارتي ، إلا أن صاحب البيت تخلى عن تأجير الغرفة . فقد كان شخصية مرموقة . فرحلت دون أن أتنازل لإلقاء نظرة عليه . عدت إلى الغرفتين الصغيرتين حيث كنت مقيمة مع أمي وأبي الجديد . إن الناس هنا ليسوا مرموقين ، بل جذابون وأكثر صراحة . بعد انتقالي سارت الأعمال على ما يرام . كان يجيئني أيضاً أناس مثقفون . إنهم يجيئون الآن لأنهم يعلمون أني بائعة وهم مشترون . فلا يضيعون هكذا أموالهم ولا مقامهم . كنت بادىء ذي بدء ، أخاف جداً لأني لم أكن قد بلغت العشرين من العمر . ثم بعد بضعة أيام لم أعد خائفة . جميع أجزاء الجسم قادرة على التطور بالتمرين . ولكني كنت لا أهتم بذلك . كنت نشيطة بكل جسدي مع ما فيه ، يداي

وفمي . . . هذا ما يحبونه ، وأخيراً حين يقعون كخرق بالية ، يرون أن أموالهم لم تذهب سدى ، فيسرون ويشرعون في الدعاية لي مجاناً . خلال بضعة أشهر تعلمت الكثير الكثير . من أول نظرة إلى الشخص ، أستطيع أن أحزر من أي صنف هو . كان البعض من كبار الأثرياء ، فيشرعون بالمساومة ثم يجعلونني أدرك أنهم لا يبالون بذلك . أحياناً يغارون ويريدون احتكاري . يريدون حتى احتكار المومسات لأنهم يملكون مالاً ! هؤلاء الناس ، كنت لا أحب استقبالهم . وحين يغضبون كنت لا أجبن أمامهم ، كنت أهددهم بإعلام زوجاتهم . فالسنوات القليلة التي قضيتها في المدرسة الابتدائية لم تذهب سدى . ليس في وسعهم إرهابي . إن التربية تأتي ببعض الفائدة ، هذا ما آمنت به الآن . يقبل غيرهم وهم يشدون بيدهم على (ين) ، حريصين على ألا يُغرر بهم . لمثل هؤلاء أعينّ أسعاري : كذا من أجل هذا وكذا مِن أجل ذاك . فيرجعون ليأتوا بالمال الضروري . إنه لأمر مضحك جداً . وأسوأ الجميع هم الأشرار . لا يكفي أنهم لا يدفعون ، بل يحملون معهم وهم ذاهبون غرضاً ما . سواء لديهم نصف علبة من السجائر أو وعاء صغيراً من مواد التجميل . وينبغي ألاّ تغيظ هؤلاء . فهم معروفون تماماً من قبل أبناء الحي ، إنهم أهل ليبعثوا إليك بالشرطة . فلا أشاكسهم أبداً ، بل أشبعهم حتى التخمة بانتظار التعرف على ضابط في الشرطة ، فأنتقم منهم دون نسيان أحد . فالعالم مكان حيث الوحوش يفترسون فيه الضعفاء وشرهم دائماً الغالبون . إن أكثر من يستدر العطف هم الصبية من أبناء الثانويات الذين يأتون وليس في جيبهم سوى (ين) وبعض (الفنّات) كنت أشفق عليهم ولكني رغم ذلك أستقبلهم . ماذا أستطيع أن أفعل ؟ وكذلك الشيوخ . إنهم أناس طيبون لهم عدد عديد من الأولاد والأحفاد . لا أعرف كيف أتصرف معهم . كل ما كنت أعرفهم أن عندهم مالاً وأنهم يحبون أن يحظو ببعض المسرة قبل موتهم . فما عليّ إلا أن أمنحهم ما يرغبون . هذه التجارب كلها ، أتاحت لي معرفة « المال »

و « الإنسـان » . أما المال فهو أشد رهبةً من الاثنين . فالإنسان وحش ولكن المال هو الذي يكسبه القسوة .

- ٣٤ -

اكتشفت أني مريضة ، وأضحت متابعة العيش ليست مجدية . فرضت الراحة على نفسي ورحت أمشي في الشوارع شاردة . على غير هدى . وددت لو أمضي لرؤية أمي . لا ريب أن بإمكـانها التخفيف عني قليلاً . خلت نفسي قريبة من القبر . وبعد كثير من الدوران بلغت الشارع الصغير وأنا آمل أن أرى أمي . تذكرتها وهي تحرك المنفاخ . كان حانوت الخبز مغلقاً . سألت عنه فلم يرشدني أحد إلى عنوانه الجديد . هذا ما كان سبباً في تثبيت عزيمتي للعثور على أمي . بحثت عنها وأنا شاردة أياماً طوالاً دون أية نتيجة . بدأت أفكر أنها ماتت أو أن الحانوت قد انتقل إلى مكان آخر ، ربما على بعد ألف (لّي) من هنا . عندما ساورتني هذه الفكرة رحت أبكي . فلبست ثيابي وتجملت وتمددت على سريري أنتظر الموت . كنت واثقةً أني لن أعيش طويلاً . ولكني لم أمت . قُرِعَ بابي مرة أخـرى . هنـاك من يطلبني . حسنـاً . استقبلتـه ونقلت إليه قدر استطاعتي ما فيَّ من مرض . دون رادع من ضمير . إذ أني لست مسؤولة عن إصابتي بهذا المرض . أراحتني هذه الفكرة . فرحت أدخن وأشرب كما لو كنت في الثلاثين أو الأربعين من العمر . أحاطت عينيَّ هالة زرقاء وأصابت راحتي حرارة ، ولكني لم أبالِ . إني بالمال وحده أستطيع تخطي المخاطر . يجب علي أولاً أن أتغـذى ثم أهتم بالباقي . تغذيت حسناً جداً . علام أحرم نفسي ؟ يجب عليَّ أن أحسن الطعام واللباس كي أشعر أني أقل إجراماً بحق نفسي .

- ٣٥ -

حوالي الساعة العاشرة صباحاً ، كنت جالسة في غرفتي وعلى كتفي ثوب . حين ترامى إلى سمعي وقع خطوات في الباحة . كنت أنهض حوالي الساعة العاشرة ولا أفرغ من ارتداء ثيابي إلا عند الظهر . خلال هذا الوقت كله ، كنت أحس أني متعبة جداً . كان في وسعي أن أقضي ساعة أو ساعتين وأنا جالسة ، قبل ارتداء ثيابي . وكنت لا أفلح في التفكير في أي شيء . إني لا أجد القوة على التفكير ، كنت أبقى هكذا وحيدة ، بلا قوة . كانت الخطوات تقترب من بابي خفيفة جداً وبطيئة جداً . بعد ذلك ، رأيت عينين تنظران من لوح الزجاج الصغير في الباب . بعد لحظة توارت العينان . لم أجد جرأة في نفسي للتحرك وبقيت جالسة دائماً في المكان نفسه . بضع دقائق أخرى ، ثم عادت العينان من جديد . لم يعد في مقدوري البقاء جامدة بلا حراك ، فمضيت وفتحت الباب بهدوء ، فإذا هي : « أمي ! » .

- ٣٦ -

لم أعد أعلم كيف دخلنا الغرفة نحن الاثنتان ولم أعد أذكر كم من الوقت بكينا . لقد غدت أمي عجوزاً تثير الشفقة . فقد عاد زوجها إلى مسقط رأسه دون إنذار ودون قرش . فباعت كل ما ملكت وغادرت بيتها وسكنت في باحة كبيرة في كوخ . بحثت عني مدة أكثر من أسبوعين وأخيراً فكرت عَرَضاً أن تأتي إلى هنا . وأخيراً عثرت علي ولكنها لم تعرفني . لو لم أنادِها ، لكان من الممكن أن ترحل . بعد بكاء مرير رحت أضحك ضحكاً جنونياً . لقد عثرت على ابنتها وقد غدت ابنتها مومساً ! حين كنت على عهدتها كانت تمارس هذه المهنة ، أما الآن وهي على عهدتي فأنا التي أمارسها . إن مهنة النساء وراثية !

- ٣٧ -

كنت أنتظر من أمي عبارات مواسية . كنت أعرف أنها لن تكون إلا كلمات جوفاء ولكن كنت أحب سماعها من فمها . كل الأمهات في العالم يتقنَّ خداع أولادهن ونسمي هذه الأكاذيب مواساة . أما أمي أنا ، فقد نسيت حتى هذا . لقد أمضها الجوع . وليس في وسعي أن أحقد عليها . راحت تفتش كل ما عندي فسألتني عن وارداتي ونفقاتي ، مقدرة أن احترافي هذه المهنة ، أمر طبيعي . بحت لها بمرضي آملة أن تشير علي بالاستراحة بضعة أيام . ولكن لا . اكتفت بالقول إنها ماضية لشراء الأدوية . سألتها : « أنظل دائماً نمارس هذه المهنة ؟ » . فكان جوابها صمتاً . مع ذلك أرادت بصدق من جهة أخرى أن تذود عني ، أن تهدهدني . كانت تعد لي الوجبات وتسألني عن أخبار صحتي وهي تخالسني النظر كما تنظر الأم خفية إلى ولدها النائم . إلا أنها لا تقول لي مطلقاً أن أتوقف عن ممارسة هذه المهنة ، كنت في الواقع أفهمها ـ رغم أني أحقد عليها قليلاً ـ ، عدا أني لا أستطيع القيام بأي عمل آخر . كان علينا كلينا الأم والابنة ، أن نقتات ونلبس ـ هذا ما يقرر كل شيء ليست القضية قضية علاقات بين أم وابنتها ولا قضية كرامة ، فالمال لا يرحم .

- ٣٨ -

كانت أمي تريد العناية بي ولكن كان يجب عليها أن تدع الرجال يدوسونني بأقدامهم . وددت لو أكون لطيفة معها ، إلا أني كنت أجدها أحياناً لا تطاق . كانت تبتغي أن تتدخل بكل شيء ، لا سيما المال . فعيناها اللتان فقدتا ما كان لهما في صباها من بريق ، لا تتألقان قليلاً إلا أمام المال . كانت تتصرف كخادمة أمام الزبن ولكن ، إن لم يدفعوا كما يجب تشتمهم شتائم

فظة ، كثيراً ما كنت أضيق بها . حقاً ، أنا لا أفعل هذا إلا لكسب القوت ، إلا أن هذه المهنة لا تتطلب بالضرورة شتم الناس .

كنت أحياناً أعامل بعض الزبن ببرودة ، إلا أني كنت أعرف كيف أتصرف حتى لا يستاؤوا . أما أمي فهي من جهتها خرقاء ، تنجر إلى شتم الناس بسهولة . ينبغي ألا تشاكسهم من أجل المال . لعلي كنت لا أزال صبية وساذجة . أما هي فلا تهتم إلا بالدخل . كانت على صواب فهي أكبر مني سناً . ربما بعد بضع سنوات سأحذو حذوها . فالقلب يشيخ مع الإنسان ويغدو مع الشيخوخة أقسى حتى من المال نفسه . أمي لا تبالي في الواقع بالطرق السليمة . أحياناً تختطف المحفظة من بين أيدي الزبون أو تحتفظ بقبعته أو بشيء آخر ذي قيمة كقفازيه أو عكازه . كنت أخشى الفضيحة ولكن أمي كانت على صواب : « الاستيلاء على أي شيء ، هذا هو المكتسب دوماً . فإنما نحن نعيش في سنة واحدة ، عشر سنوات . عندما نغدو أنقاضاً هرمة فمن الذي يقربنا ؟ » إذا ما كان أحد الزبن ثملاً ، كانت تقوم بإخراجه متكئاً عليها ، ثم تجلسه في أي مكان . منزوٍ فتنتزع منه حتى أحذيته . الغريب في الأمر أن هؤلاء لا يرجعون أبداً لإزعاجنا . لا ريب أنهم ينسون كل شيء ، أو يصابون بمرض عضال ، أو إذا فكروا بالأمر ثانية ، فقد يؤثرون ، بعد هذه الضربة ألا يرجعوا . فنحن لا نخشى الفضيحة أما هم فيخشونها .

- ٣٩ -

كانت أمي مصيبة ، فنحن نعيش في سنة واحدة عشر سنوات . خلال سنتين أو ثلاث وجدتني متغيرة . فإن جلدي أضحى خشناً وشفتي جافتين دائماً وعيني كامدتين ومحتقنتين بالدم . أنهض من الفراش متأخرة ولكن دون قوة .

وإن كان لا مناص من الصدق ، فالزبن أيضاً ليسوا عمياناً ، إن زيارات المعارف القدامى غدت أندر . أما القادمون الجدد فكنت أبذل الجهد كي أرضيهم إلا أنهم أكثر إثارة للاشمئزاز من الآخرين ، أحياناً أعجز عن كبح جماحي فأغدو عنيفة ولا أعود كما أنا . كنت أعجز عن إمساك نفسي عن قول حماقات . كل هذا كان يؤدي إلى إبعاد المثقفين عني تقريباً . لقد فقدت شكل ورائحة « العصفور الصغير المدلل » ـ وهي الكلمات الشعرية الوحيدة التي وجدوها ليقولوها لي . ينبغي علي الآن أن أصنف نفسي في مدرسة المومسات من أحط مراتب المجتمع . كنت أتجمل بطريقة مرعبة ، هذا ما يجب صنعه لجذب الدهماء . كانت شفتاي بحمرة الدم وكنت أعض الزبن بكل ما لدي من قوة وكانوا راضين . يبدو لي أحياناً أني أبصر مصرعي المقبل . وكنت أشعر أني أزداد قرباً من الموت مع كل (ين) مقبوض . يستخدم المال لإطالة الحياة ، أما الوسيلة التي أكسبه بها ، فهي تؤدي إلى تأثير عكسي . كنت أراني أموت في بطء وأترقب نهايتي . هذه الفكرة كانت تجمد كل أفكاري الأخرى . وأصبح التفكير ضرباً من العبث وليس أمامي إلا العيش المؤقت . كانت أمي ظلاً لي وسأغدو في أحسن حال مما كانت هي عليه . فبعد أن باعت جسدها ، طول حياتها ، لم يبق منها في النهاية سوى شعر أبيض وإهاب أسود متغضن . تلك هي الحياة .

ـ ٤٠ ـ

حاولت أن أضحك أن أتظاهر بالجنون . فما من شيء يستحق البكاء . لا شيء يؤسف عليه في حياة كحياتي . مع ذلك ثابرت على العيش ، وما أردت ترك الحبل على الغارب . لا سيما وأني لست المسؤولة عما أفعل . إن المرء يخاف الموت حين تكون الحياة جميلة . أما أنا فلا أخاف آلام النزاع لأن آلامي تجاوزتها

بمراحل واسعة . كنت أحب الحياة ولكن كان من الواجب أن أحيا غير حياتي هذه . كنت أتصور حياة مثالية ، كنت أحلم . وكان هذا الحلم يتلاشى بسرعة وعندئذ وجدت الواقع أدهى وأمرّ . فالعالم ليس حلمًا . إنه جهنم حقيقي . إن أمي تعيش يأسي فقد أشارت علي أن أتزوج . وحين أتزوج يتوفر لي الطعام ولها الراتب . كنت أملها . ولكن أتزوج من ؟

- ٤١ -

عرفت الكثير من الرجال ونسيت تماماً ما هو الحب . فعكفت إذ ذاك على محبة نفسي . أما الآن فلم أعد قادرة . لماذا إذاً أحب شخصاً آخر ؟ ولكن ، كي أتزوج يجب علي أن أدعي الحب وأن أقول لأحد ما إني أحبه وإني مستعدة أن أقضي كل حياتي معه . قلت ذلك لبضعة أشخاص بل أقسمت لهم . ولكن دون جدوى . فحين يسيطر المال فالجميع يغدون مكارين . ومن الأجدى أن يقيم المرء علاقات محرمة مع امرأة ، على أن يتعامل مع المومسات . إذ أن هذا لا يكلف غالياً . لو لم أطلب مالاً ، لقال الكل ، دون ريب ، إنهم يحبونني .

- ٤٢ -

في ذلك الحين أوقفتني الشرطة . إن قادة مدينتنا الجدد يعلقون على الفضيلة أهمية كبرى ، وإنهم يبغون القضاء على الدعارة السرية . أما عواهر البيوت ففي وسعهن ممارسة تجارتهن ، فهنّ يدفعن ضرائب : حين تؤدى الضرائب فكل شيء قويم وخلقي . حين أوقفت ، أدخلت إصلاحية . هنالك علموني أن أعمل . فالغسيل والخياطة والطهي والحياكة ، هذا كله أعرفه . لو كانت هذه المعارف قمينة بأن تجعلني أعيش ، لما اخترت مثل هذه

المهنـة الشاقة . هذا ما قلته لهم فما أرادوا تصديقي وعاملوني معاملة الكسالى وعـديمي الأخـلاق . علمـوني عملاً وقالوا لي ينبغي أن أحب عملي ، ففي مقـدوري العيش من جهـدي ومن الممكن أن أتـزوج أيضـاً . كانـوا كثيري التفاؤل . أما أنا فلم تكن لي ما لهم من المناعة . إن جل نجاحهم ينحصر في أن عشر فتيات وجدن لهن زوجاً بفضل إصلاحيتهن . فمن قدم إلى هنا يطلب زوجة فما عليه إلا أن يدفع (ينين) عمولة ويقدم كفالة مالية . هذا عمل رابح برأي الرجال . أما أنا فقد فكرت أن هذا ليس سوى مزاح . فرفضت الإصلاح رفضاً جازماً . حين جاء أحد القادة الكبار ليستعرضنا بصقت في وجهه . فأبوا بعـد ذلـك إطـلاق سراحي . لقـد كنت عنصراً خطراً . ولم يلحـوا أبداً على إصلاحي . فنقلت إلى مكان آخر . إلى السجن .

- ٤٣ -

الـسجن مكـان مريح . يرسـخ فيك الاقتنـاع أن الجنس البشري لا يتقدم . إني ما رأيت قط أفظع منه حتى في كابوس . ولكني لا أتمنى أبداً أن أغـادره . فالعالم الخارجي حسب تجربتي ، ليس أفضل منه كثيراً . لن أتمنى الموت إذاً لو استـطعت العثور على مكان أفضل عند خروجي من السجن . ولكن بما أن الأمـر ليس كذلـك فسيان عندي إذا متُّ هنا أم في مكان آخر . هنا ، هنا عدت أبصر صديقي الحميم ، الهلال ! مضى علي زمن طويل لم أره فيه ! ماذا تعمل أمي ؟ تذكرت كل شيء من جديد .

الهـــــدف

• وانـغ أنـيي ترجمة: عبد الكريم ناصيف

الكاتبة في سطور :

ولـدت وانـغ أنيي عام ١٩٥٤ في فوجيان . وبعد أن أكملت دراستها الإعدادية في شانغهاي عام ١٩٦٩ ، أرسلت إلى العمل في الريف في آنهوي . التحقت سنـة ١٩٧٢ بفـرقـة جيانغسـو المسرحية وانتقلت عام ١٩٧٨ إلى شانغهاي بصفة محررة في مجلة « الطفولة » . وكتبت في السنوات الأخيرة عدداً من القصص وقـد فازت كل من قصصهـا (حفيف المطر) ، (الهـدف) و (مرور الزمن) بجوائز في مسابقات القصة القصيرة الوطنية . كذلك نشرت قصتاها « الحياة في ساحة صغيرة » و « المسرح ، عالم مصغر » في مجلة « الأدب الصيني » عام ١٩٨١ و ١٩٨٣ على التسلسل أما قصة « الهدف » التي ننشرها في هذا العدد فقد ظهرت في مجلة « آداب شانغهاي » العدد رقم ١٠ ، ١٩٨١ .

« الآن يدخـل القـطار محطة شانغهـاي . . . » جاء الإعلان عبر مكبر الصـوت ففتح المسافرون الغافون أعينهم : « وصلنا شانغهاي » « إننا نقترب من موقف القطار » . وفي الحال خلع فارغو الصبر منهم أحذيتهم وقفزوا على مقـاعـدهم يبحثـون عن متاعهم على الرفوف ، فيما بدأت مجموعة من رجال

متوسطي السن قادمة من زينيجيانغ تعد الخطط . « سنأخذ حماماً حالما نصل الفندق » . بعدئذ نتصل بمعمل الآلات الثقيلة ثم نخرج إلى مطعم غربي - الطراز » .

« صحيح ، وسوف نتناول طعاماً غربياً » . وارتفعت معنوياتهم ، إذ كانوا قد التحقوا بالعمل في زينجيانغ بعد دراستهم الجامعية في بيجينغ ، فوجو ، وجيانغسو . وعلى الرغم من أنهم احتفظوا بلهجاتهم إلا أن مظهرهم ومزاجهم كانا قد اصطبغا بالصبغة الزينجيانغية ، فقد سفعتهم الشمس وتبلد إحساسهم ، وحينما سألهم شين زين بصورة عرضية عن زينجيانغ ، بعد أن ركب القطار في نانجينغ ، قدموا له تقريراً مفصلاً مفعمًا بالحماسة عن المنطقة روح الدعابة والذكاء الفطري لدى الأقليات العرقية المختلفة في زينجيانغ الأغاني الجميلة التي يغنونها ، الرقصات الساحرة ، الفتيات الحيويات . إلخ . كذلك قدموا له وصفاً مفصلاً عن حياتهم هناك ، كيف يصطادون السمك ، كيف يمارسون الصيد والقنص . وبقدرة بالغة على التعبير وفصاحة عظيمة رسموا صورة ساحرة لذلك كله .

« كم ستبقى في شانغهاي ؟ » سأل أحد أفراد المجموعة ، وهو من بيجينغ ، شين زين وهو يربت على كتفه .

فاستدار الرجل بعد أن كان ينظر إلى النافذة وهو يبتسم :

« إنني أعود نهائياً » .

« انتقلت ؟ » .

« أجل » .

« وجئت بزوجتك وأولادك ؟ » .

فأجاب وقد احمر خجلاً :

« ليس لدي زوجة أو أولاد . وما كنت لأعود لو أنني متزوج » . « يا إلهي إذن لا بد من أنك ذو إرادة قوية » . وتلقت كتف شين زين تربيتة أكثر ودية » . أنتم أبناء شانغهاي لا تستطيعون العيش خارج شانغهاي » . فرد شين زين بضرب من تبرير النفس :

« إنها مسقط رأسي » .

« لكن العالم كبير وواسع خارجها » . فابتسم شين زين . « على المرء أن يكون قادراً على اكتشاف الأشياء المثيرة للاهتمام حيثما وجد . فأنت يمكنك أن تتزلج في هاربين ، تسبح في غوانغجو ، تلتهم القطع الكبيرة من لحم الضأن بيدك في زينجيانغ والطعام الغربي في شانغهاي . . . لذلك حيثما يضعك القدر ابحث عن شيء ممتع واستمتع به أكبر قدر ممكن . فلعل هذا ما يجعل الحياة مثيرة ممتعة .

واكتفى شين زين بالابتسام ، مسمراً عينيه ، وهو شارد الذهن تماماً ، على الحقول المارة بنافذته مروراً سريعاً ، إنها حقول مقسمة بعناية إلى قطع صغيرة مزروعة تشبه كثيراً مربعات الوشي والزخرفة ـ فهناك رقعة صفراء فخضراء فاتحة فغامقة فمثلثات أرجوانية بجانب النهر . الانطباع الوحيد الذي تتركه مثل هذه الأرض المقسمة بعناية بالغة والمستخدمة بكل شبر فيها على إنسان اعتاد أن يرى أمامه دائماً تربة الشمال الخصبة وسهوله الواسعة . هو أنها ضيقة مضغوطة . لكن عليه أن يعترف أن كل شيء كان يبدو نظيفاً نضراً كما لو أنه مغسول بالماء . فهذا هو الجنوب ، أطراف شانغهاي ، أوه ، يا لشانغهاي !

كان القطار يندفع مسرعاً عبر الحقول والحيطان الواطئة وهو يدخل الضواحي . فرأى شين زين المعامل ، الأبنية ، الشوارع ، الباصات ،

المشـاة . . . لقـد غدت شانغهـاي أقـرب منـالاً ، حقيقـة ملمـوسة . عيناه تغرورقان ، قلبه يدق . فمنذ عشر سنوات ، حينما رحل هو وزملاؤه الآخرون المنفصلون عن المدرسة إلى الريف ، حينما طوت الآفاق شانغهاي وهم يرحلون عنهـا ، لم يكن يتـوقع العودة إليها قط . في الريف حرث الأرض ، زرعها ، حصـد القمـح ، نظف الأنهار من الـطمي ، وحاول الحصول على وظيفة أو الـدخـول إلى إحـدى الجـامعـات . . . أخـيراً أدرج اسمـه في معهد لإعداد المعلمـين . بعد التخرج عُيِّنَ معلمًا في مدرسة إعدادية في بلدة صغيرة . وكان ينبغي أن يتـوقف عن الكفـاح بعـد أن بات قادراً على تأمـين معيشته . كان باستـطاعتـه أن يبدأ حياة جديدة ، لكنه شعر أنه لم يحقق هدفه . لا ، ليس بعـد . إذ كان ما يزال قلقـاً ، مترقبـاً ، ينتظر شيئاً ما . ولم يدرك ماهية ذلك الشيء الذي ينتظره . ماهية هدفه حقاً إلا بعد أن عادت إلى شانغهاي أعداد كبيرة ممن انفصلوا عن مدارسهم ، وذلك بعد سقوط « عصابة الأربعة » .

خلال العقد الماضي ، كان شين زين يأتي إلى شانغهاي لقضاء عطلة أو عمل . ومع كل زيارة كان يشعر أن المسافة بينه وبين شانغهاي تكبر وتكبر . لقد بات غريباً ، ينظر إليه أهل شانغهاي من علٍ لكأنه أجنبي ، وكان يرى في تعـاليهم وعجـرفتهم شيئـاً لا يحتمـل . كذلك كانت شفقة أصدقائه ومعارفه وعطفهم عليه شيئاً لا يحتمل أيضاً ، إذ كان يكمن خلف ذلك كله كبرياؤهم وعجرفتهم . مع ذلك كان ما يزال مضطراً لأن يعجب بتقدم شانغهاي وتفوقها على سواها . فمخازن الأحياء ملأى بالسلع من كافة الأنواع ، والناس يرتدون أحـدث الأزياء . كذلـك ، هناك مطاعم نظيفة فاخرة وفي دور السينما أفلام جديدة . فشـانغهـاي تمثـل الجديد في الصين . وفوق ذلك كله هناك بيته ، أمه ، إخوته ، ورماد أبيه المتوفى .

. . . ابتسم شين زين وعيناه مغرورقتان بالدموع . فلكي يعود ، كان

مستعـداً لتقديم أية تضحية . ولقد تحرك حالما علم أن أمه تنوي التقاعد وأن باستطاعة أحد أولادها أن يحل محلها . لقد ذهب هنا وهناك قصد كل مكان ، لكي يوقع على أوراقه وكانت مهمة مزعجة ومعقدة . أجل لقد خاض معركة ضارية لكنه انتصر .

القطار يبطىء من سرعته داخل المحطة . فتح شين زين النافذة فاندفع إلى الـداخل نسيم عليل ، نسيم شانغهاي ، ووقع ناظراه على أخيه الأصغر الـذي بات رجـلاً ناضجـاً الآن ، طويلاً ووسيمًا . شاهده الفتى فجرى إلى جانب القطار وهو ينادي : « أخي الثاني ! » فانكمش قلبه أسى وحسرة لكنه هدأ واستكـان وهو يتذكر كيف كان أخوه الأكبر ، قبل عشر سنوات ، يجري بحذاء القطار أيضاً لدى رحيله .

أخيراً توقف القطار تماماً . فوصل إليه أخوه الأصغر وهو يلهث . بعدئذ شغـل شين زين كثيراً بالكلام معه وتسليمه متاعه إلى درجه لم يلحظ معها أن تلك المجموعة المبتهجة من الرجال متوسطي ـ السن كانت تودعه .

« الأخ الأكبر وزوجته ونانان هنا أيضاً . إنهم في الخارج . لقد حصلنا على بطاقة رصيف واحدة بفضل برقيتك التي تقول إنك قادم ، هل لديك متاع كثير ؟ » .

« يمكنني تدبر الأمر . كيف الماما ؟ » .

« بخـير . إنها تعـد طعـام الغـداء . لقد استيقظت في الثالثة من هذا الصباح كي تشتري الطعام لك »..

وشعر شين بغصة في حلقه . فطأطأ رأسه صامتاً ، كذلك فعل أخوه . بعـدئذ تحركا بهدوء وهما يخرجان من المحطة الطويلة . عند المخرج أخذ أخوه الأكـبر وزوجتـه وابنه ناتان حقائبه منه . ولخطوات عدة ساروا مترنحين تحت

ثقلها . بعدئذ عادوا إليه ثانية . وكان الجميع يضحكون ، أخوه الأكبر يطوق كتفيه والأصغر يتأبط ذراعه . أما زوجة أخيه فقد تبعتهم وهي تحمل نانان .

« هل أتيت بكافة الأوراق المطلوبة ؟ » سأله أخوه الأكبر : « غداً سأطلب إجازة وأرافقك إلى مكتب العمل » . لكن أخاه الأصغر تدخل :

« يمكنني أنا أن أرافقه ، فليس لدي ما أفعله » .

وارتعش قلب شين زين ثانية ، ثم التفت إليه وهو يبتسم :

« حسناً رقم ٣ يمكنه أن يرافقني » .

كان عليهم أن يستقلوا ثلاثة باصات كي يصلوا المنزل . حيته أمه وهي تخفض رأسها كي تمسح دموعها ، ثم أعيا الأبناء الثلاثة الكلام . فقد كانوا خجلين ، عاجزين عن معرفة الكيفية التي يعبرون بها عن مشاعرهم .

وهكذا كان كل ما استطاعوا قوله هو : « لماذا تبكين ؟ » لكن زوجة أخيه هي التي تمكنت من إيقافها عن البكاء ، إذ قالت : « الأمر يتطلب احتفالاً يا ماما وعليك أن تفرحي لا أن تبكي » .

فزال التوتر : « دعونا نأكل » قال بعضهم للبعض الآخر . وهكذا نقلت طاولة الطعام من غرفة أمه ذات الستة أمتار ـ بستة أمتار إلى الغرفة الكبيرة التي يشغلها الأخ الكبير وزوجته . تطلع شين زين حواليه في الغرفة التي كان يشغلها ذات يوم هو وأخواه فرأى أن مظهرها قد تغير . كان ورق الجدران ذو اللون الأخضر الفاتح تزينه لوحات زيتية ونور جداري . وكان هناك أثاث جديد رائع مصنوع بحيث يلائم الغرفة . فقد كان لونه خاصاً أيضاً .

« ما هذا اللون ؟ » سأل شين زين ، فأجابه الأخ الأصغر بهيئة الخبير :

« بني مائل للحمرة ، إنه الزي الدارج » .

بعدئذ نقل نانان كرسياً إلى جانب خزانة الأواني ثم صعد عليه ووضع شريطاً في المسجلة ، وسرعان ما رفع إيقاع الموسيقى الشديد من معنويات الجميع .

« حياتكم رائعة » قال شين زين بصوت طغت عليه الإثارة . فابتسم الأخ الأكبر ابتسامة من يعتذر ، ثم قال بعد لأي :

« يسرني أنك عدت أخيراً » .

بعدئذ علّقت زوجة أخيه وهي تسكب الطعام :

« الآن وقد عدت ، عليك أن تجد حبيبة القلب وتتزوج » .

« ومن تتزوجني أنا الكهل القبيح ؟ » .

فضحك الجميع .

أكثر من عشرة أطباق مختلفة وضعت على الطاولة : قطع من لحم الخنزير مع الفول ، أضلاع خنزير مدمّسة ، حساء سمك الشبوط . . . . وكان الجميع يكدسون الطعام على طبق شين زين ، حتى نانان فعل مثلهم . لقد ظلوا يكدّسون الطعام حتى بات طبقة أشبه بالتل ، وكأنهم بذلك يعوضون السنوات العشر العجاف التي قضاها بعيداً عن الأسرة . أما أخوه الكبير فقد أفرغ في طبقة كل سمك الانقليس المقلي تقريباً ، لعلمه أنه طبقه المفضل . كان شين زين أصغر بثلاث سنوات من أخيه شين فانغ إلا أنه كان دائماً حاميه والمدافع عنه . فشين فانغ الطويل النحيل ، كانوا بلقبونه بـ « قرن اللوبياء » وكانت علاماته في المدرسة عالية تماماً لكنه خارج المدرسة كان ضعيفاً ، مقصراً في شؤون الرياضية ، بطيء الاستجابة والبديهة . دائماً تتعثر ساقاه بالحبل حين

يأتي دوره في الوثب ، وحينما يشترك في لعبة (الشرطة والحرامية) يخسر على الدوام . وكان شين زين يقاتل من أجله حين لا يرغب أحد به . « إذا رفضتم أخي ، لن ألعب أنا الآخر ، وإذا امتنعت عن اللعب ، لن يكون هناك لعب بالتأكيد » . وكان يعني ما يقول عند ذاك كان الأولاد يخضعون لتهديده خشية الدمار الذي قد يلحقه بلعبهم من جهة ، وكرهاً منهم لأن يفقدوا زميل لعب رائعاً وذا شعبية كبيرة من جهة أخرى . فيما بعد ، حينما اضطر شين فانغ لأن يستخدم نظارات طبية بدا مظهره أشبه بمظهر العالم الباحث إلى درجة تغير معها لقبه فغدا (دودة الكتب) . ولسبب ما كان شين زين ينظر إلى هذا اللقب باعتباره أكثر إهانة من اللقب السابق . لذلك حرم على الجميع استخدامه من خلال بطشه بكل من يتجرأ على التلفظ به . عندما أوقفت الدراسة خلال (الثورة الثقافية) كان شين زين قد أنهى الصف الأول الإعدادي أما أخوه فكان قد أنهى دراسته الإعدادية . وكانت سياسة الحكومة واضحة ـ ابن واحد من الأسرة يمكنه أن يعمل في شانغهاي ، أما الآخر فيجب أن يذهب إلى الريف . حينذاك غمغمت أمه محطمة القلب منهمرة الدموع : « راحة يدي وقفاها . . كلاهما لحمي ودمي » . وهكذا تطوع شين زين وهو يشعر بالأسى الشديد عليها : « أنا من سيذهب إلى الريف . أخي رقيق ناعم . ولسوف يجد من يناكده . فليبقَ هنا في شانغهاي ، أما أنا فسأذهب . . . » . حين رحل شين زين رافقه شين فانغ إلى المحطة ، حيث وقف كالخشبة خلف مجموعة من الأصدقاء ، دون أن يجرؤ على النظر إليه . لكن حين أقلع القطار اندفع شين فانغ إلى أخيه محاولاً أن يمسك بيده وهو يجري بحذاء القطار حتى بعد أن أجبرتهما القاطرة المتسارعة على الانفصال .

أخيراً عاد شين زين . ورغم أن كافة أنواع المشاعر كانت تطغى عليهم ، إلا أنهم عجزوا جميعاً عن التعبير عنها على نحو مناسب ، وهكذا

حولوها جميعاً إلى عمل . فبعد العشاء قدم أخوه الكبير الشاي فيما كانت زوجته تعدُّ له فراشه في الكوخ الذي أقاموه في باحة المنزل . أما أخوه الصغير فقد اتخذ مكانه في الرتل المصطف أمام الحمام العام كي يأخذ دوراً لشين زين . وعندما ملأ هذا بطنه من أطايب الطعام واستحم ، استلقى على السرير المزدوج الذي كان سيشارك فيه أخاه الصغير ، يملؤه إحساس بالاسترخاء وكأنه نشوان ثمل . فالفراش الدافىء النظيف كان ذا رائحة خاصة تدخل البهجة إلى القلوب ، والمصباح المشع بجانب السرير يضفي على الكوخ البسيط ألقاً بهيجاً ، وكان أحدهم قد وضع بجانب وسادته كدرسة من المجلات . فقد كانت الأسرة تعلم ، تتذكر أنه يقرأ دائماً قبل أن ينام . أوه ، البيت ! هذا هو البيت ! لقد عاد إلى بيته بعد عشر سنوات ، مفعماً بشعور من السلام والأمن ، لم يكن يشعر به قطّ حين كان يغمض عينيه ويغفو دون أن يقرأ . مع غبشة الفجر أفاق ، فقد دخل أحدهم غرفته وأطفأ النور وللحظة من الزمن فتح شين زين عينيه في الظلمة ثم عاد وأغفى بسلام .

- ٢ -

في الصباح الباكر توجه شين زين وأخوه الصغير إلى مكتب العمل للبدء بالإجراءات الشكلية . كانت الفسحة ذات الشكل المثلثي والواقعة بجانب موقف الباص مليئة بأكشاك الخياطين وآلات الخياطة . « هل تود أن تصنع شيئاً ؟ » سأله شاب يلف شريط قياس حول عنقه ، فهز شين رأسه بالنفي ثم مضى مع أخيه . لكنه التفت ، يملؤه الفضول ، ثم نظر إلى الشاب الذي كان يبدو في ملابسه أشبه « بالموديل » وهو يغري الزبائن .

لكن أخاه شده من كمه « جاء الباص » هؤلاء جميعاً ممن تركوا مدارسهم

بانتظار الوظيفة ، وشانغهاي مليئة بأمثالهم ، » ، فتملكت شين زين الدهشة . أما أخوه فقد أسرع يشق طريقه إلى الباص ، لكنه توقف عند الباب هاتفاً به : « هيا ، تعال ، أيها الأخ الثاني » .

« دعنا ننتظر الباص التالي » فقد كان الباص غاصاً بالركاب وكان ثمة حشد كبير عند الموقف جعل شين زين يتردد :

« مزيد من النـاس سيأتون ، هيا ، أسرع » . وبدا صوت أخيه وكأنه آتٍ من مكان بعيد .

كان شين زين قوياً وكان باستطاعته أن يشق طريقه . وهكذا شرع قدفع من حوله يضغط ويضغط إلى أن بلغ مقبض الباب فوضع قدمه على السلم . حينذاك استجمع قواه كلها ثم رفع نفسه ، بين الصراخ والشتائم ، إلى عمق الباص حيث وقف بجوار إحدى النوافذ وتمكن من الإمساك بظه رالمقعد . غير أن الـزحـام كان شديداً مقلقـاً للراحـة مما جعله يصـطدم برؤوس الآخـرين وظهـورهم ، مواجهاً فترة عصيبة لم يستطع ضبط نفسه فيها ، فطفق كل من حوله يهمهمون :

« انظر كيف يقف ! » .
« مثل لوح الباب تماماً » .
« الغرباء مزعجون دائماً في الباصات » .

« عمن تقول أنه غريب ؟ » قال الأخ رقم ٣ ساخطاً بعد أن شق طريقه إلى شين زين ، وهو على أهبة الاستعداد لفتح معركة ، لكن شين زين شده من ثيابه » لا عليك . الباص شديد الزحام ، لا تقاتل » .

بلطف بالـغ ، نقـر الأخ رقم ٣ على كتفـه : « استـدر إلى هذه الجهة

يميناً ، أمسك المقعد بيسراك . هذا أفضل ، أليس كذلك ؟ » .

وكان ذلك صحيحاً ، فأطلق شين زين زفرة طويلة . لقد استطاع أخيراً أن يتخذ وضعاً مناسباً وهو يضغط بصدره على ظهر من الظهور فيما يضغط ظهره صدر شخص آخر . على الأقل ، كانت قدماه على الأرض ، أدار شين زين رأسه ، متطلعاً حوله فلاحظ تفهماً صامتاً يطغى على سيماء الركاب . لقد كان الجميع يقفون في خط مستقيم ، الواحد خلف الآخر وكلهم في الاتجاه نفسه . بهذه الطريقة ، يمكن للباص أن يستوعب أكبر عدد . وسرحت أفكاره إلى البلدة النائية حيث كان يقطن تلك البلدة التي يحشر الركاب فيها أنفسهم كيفما اتفق وبطريقة لا علمية على الإطلاق . لقد كان الباص يحمل عدداً أقل من الناس أما الازدحام والضيق فقد كانا الشيء ذاته ، أجل ، إن باستطاعة الشانغهاويين أن يكيفوا أنفسهم مع ضيق المكان على نحو أفضل .

عبر المكبر جاء صوت الجابية بلهجة بيجينغ ثم بلهجة شانغهاي : « الموقف التالي هو شارع زيزانغ زونغ ، يرجى ممن سيغادرون التأهب للنزول » . جابيات شانغهاي بهيئتهن الملكية ، يبدين متكبرات متعاليات أشبه برجال انضباط صارمين . لكن هذه الإعلانات تساعد الركاب وتذكر مرة ثانية الباصات والجابيات في تلك البلدة الصغيرة . باصات مغبرة مهشمة تنطلق قبل أن تغلق أبوابها ، وجابيات خاملات لا يرتفع لهن صوت معلناً عن المواقف بل يغلقن الأبواب على الركاب لتمسك بثيابهم . هناك لا وجود للقواعد على الإطلاق أما في شانغهاي فكل شيء بحسبان ، وفي هذا الجو من الترتيب والنظام عليك أن تتصرف بما هو لائق .

حين غادرا الباص ، قاد الأخ رقم ٣ شين زين في الشارع إلى واحدة من أسواق المدينة الحرة ، حيث رأى هناك الخضار ، السمك ، الدجاج ،

الكنـزات الصـوفية ، الصنادل ، الحقائب ، ملاقط الشعر ، كما مر بأكشاك ملأى بالأطعمة المقلية وزلابية اللحمة . وتحت إعلان يتحدث عن دمى بشرية كانت هناك مصابيح ورقية ودمى غضارية . لم يستطع شين زين منع نفسه من الضحك وهو يشاهد سوقاً كهذه . أي تناقض صارخ تشكله هذه السوق مع شارع نانجينغ الحديث الباذخ في شانغهاي !!

« ثمـة أسـواق كثيرة مشـابهة في شانغهاي » بدأ الأخ رقم ٣ مفسراً : « فالحكومة تشجع من يتركون مدارسهم على ممارسة العمل الحر » .

غير أن ذكر الشبان العاطلين عن العمل جعل شين زين يتجهم ، ثم يسأل أخاه بعد وقفة قصيرة : « ما مشكلتك ، رقم ٣ ؟ لماذا أخفقت في اجتياز امتحان القبول في الجامعة مرة أخرى ؟ » .

طأطأ رقم ٣ رأسه وهو يجيب : « لا أدري ، أظن أنني غبي » .
« هل ستعيده في العام القادم ؟ » .

فأجـاب رقم ٣ ، بعـد صمت طويل وبشيء من الـتردد : « قد أخفق للمرة الثالثة ، فغضب شين زين : « أنت لا تثق بنفسك » . غير أن رقم ٣ اكتفى بأن ابتسم ابتسامة صادقة » ، أنا لم أخلق للدرس إنني أنسى ما أتعلمه » .

« أنـا وأخوك الأكبر لم تتح لنا الفرصة لمتابعة دراستنا . أنت الوحيد في الأسرة الذي يمكنه الالتحاق بالجامعة ، مع ذلك أنت تفتقد للطموح » .

فلم ينبس رقم ٣ ببنت شفة :

« ما هي خططك إذن ؟ » .

عند ذاك كشر رقم ٣ ضاحكاً لكنه لم يحر جواباً . في تلك اللحظة تماماً

انطلق صوت من خلفهما ينادي : « شين زين ! » فاستدارا ليجدا نفسيهما وجهاً لوجه أمام امرأة تقود صبياً صغيراً جميلاً . إنها في الثلاثين ، شعرها منسدل طويل ، ثيابها وفق آخر طراز . لكن شين زين لم يستطع التعرف إليها .

« هل كبرت في السن إلى درجة تمنعك من التعرف إلي ؟ » .

« أوه ! أنت ، يوان زياو زين ! أنت لا تبدين أكبر سناً بل أكثر جمالاً » ، رد شين زين ضاحكاً ، فشاركته يوان ضحكة : « دعك من هذا الكلام . سنتين كاملتين قضيناهما معاً في الزمرة نفسها يوم ذهبنا إلى الريف ومع ذلك تعجز عن تذكري . فأية ذاكرة بائسة لديك !! » .

« لا ، لا ، المسألة كلها أنني فوجئت برؤيتك ، ترى ألم تكوني ضمن الدفعة الأولى التي حصلت على عمل ؟ أما تزالين في هوبيي كوليري ؟ » .

« لا ، بل عدت إلى شانغهاي العام الماضي » .

« كيف ؟ » .

« إنها قصة طويلة ، لكن ماذا عنك ؟ » .

« لقد عدت بالأمس » .

« أوه ! » قالت دون أن يبدو عليها أثر من دهشة : « زانغ زينهو وفانغ فانغ عادا أيضاً » .

« عظيم » ، رد شين زين بصوت خالجة الكثير من التأثر : « إذن ، نصف أفراد زمرتنا قد عادوا ، وعلينا أن نجمع الشمل ذات يوم ، فقد انقضت أخيراً أيامنا الصعبة » .

ابتسمت يوان ابتسامة باهتة كشفت عن بداية تجعدات تتشكل قرب عينيها .

« عمي ، عمي » زقــزق الصبي الصغـير : « لك شعـر أبيض مثـل جدي » . فضحـك شين زين وهو ينحني كي يمسك بيد الصغير ثم خاطب يوان : « هل هذا ابنك ؟ » .

« بل ابن أختي » ردت وقد احمرت خجلاً : « أنا غير متزوجة ، ولو كنت كذلك لما عدت » .

« أوه » قال شين زين وقد بدت على محياه الدهشة . فهي التي تخرجت في العام نفسه الذي تخرج فيه أخوه الكبير ، ينبغي أن تكون في الثالثة أو الرابعة والثلاثين . « لكن لماذا لم تتزوجي بعد عودتك ؟ » .

« حسن ، كيف أفسر الأمر ؟ ربما كان على الإنسان أن ينتظر فرصة » .

لم يجد شين زين ما يقوله ، فاستمر يداعب شعر الطفل الأزغب أما هي فقد تابعت بصوت رقيق : « أحياناً أشعر أن التضحيات التي قدمتها من أجل العودة إلى شانغهاي ذهبت سدى ، فالعودة لا تستحق مثل هذه التضحيات » .

« لا تقولي ذلك » رد شين زين محاولاً مواساتها : « فخير ما فعلت أنك عدت » .

« سنتأخر عن موعد السينما يا خالة » صرخ الصبي . « صحيح علينا أن نذهب » قالت وهي تتطلع إلى الأعلى ثم ابتسمت لشين زين : « آسفة أنني سببت لك شيئاً من الاكتئاب ، لكن وضعك مختلف ، فأنت رجل وشاب ، ولسوف تحظى بالسعادة » .

شعر شين زين بالغم وهو يراها تختفي ضمن الزحام ، أما رقم ٣ فقد علق : « إنها سرطان ميت » .

« ماذا تقصد ؟ » .

« هي فوق الثلاثين وليس لديها صديق . إنها سرطان ميت . لا أمل فيها » .

« القضية ليست في أنها لا تستطيع أن تجد صديقاً بل في أنها تنتظر رجلاً يأتيها من تلقاء نفسه . ألا ترى ذلك ؟ » .

وسواء فهم رقم ٣ المقصود أم لا فقد أجاب بنوع من الاستهجان :

« مهما تقل ، فهي تعاني من مشكلة كبيرة ، الرجال في الثلاثين يتزوجون إلا إذا كانوا معوقين أو غير صالحين للزواج . أما الصالحون المقبولون فمن الصعب أن يعجبوا أو يميلوا إلا للفتيات الصغيرات الجميلات . وهناك أكداس منهن ، أكداس من بنات العشرين لمن يرغب » . حينذاك خطر لشين زين أن يقول إن هناك أناساً ينتظرون الحب ، غير أن أفكاراً أخرى راودته ، أفكاراً تتجاوز مدارك الأخ رقم ٣ ، فالشبان مثله يختلفون كثيراً عن أبناء جيله ، لذا ، رمق أخاه الصغير بنظرة جانبية ثم قال : « بالحقيقة ، أنت تعرف الكثير » .

فبدا رقم ٣ مفعماً بالزهو ، لقد مرت عليه السخرية . وانطلاقاً من إحساسه بالشفقة عليه أضاف شين زين بنغمة أكثر رقة : « ماذا تفعل طوال يومك ؟ » .

« لا شيء سوى مشاهدة التلفزيون والاستماع إلى الراديو والنوم »
« وما هي خططك ؟ » .

فلم يحر جواباً ، لكن حينما بدآ يصعدان الدرج المؤدي إلى مكتب العمل أسر له الأخ رقم ٣ هامساً : « بودي أن أحصل على عمل » .

فتوقف شين زين ، حينذاك التفت إليه رقم ٣ حاثاً إياه : « هلم » ورغم أن عينيه كانتا مفعمتين بالطيبة والإخلاص إلا أن شين زين تحاشى النظر إليهما .

- ٣ -

بدأ شين زين العمل في المصنع الذي كانت تعمل فيه أمه ، والذي كانت تفصله عن منزله مسافة طويلة ، تستغرق منه كل يوم ساعة وعشرين دقيقة علاوة على تغيير ثلاثة باصات . وبما أنهم عهدوا إليه العمل على مخرطة ، فقد تعين عليه أن يبدأ التعلم من الصغر ، الأمر الذي دعاه لأن يسمي نفسه وبكل سخرية « التلميذ الثلاثيني » . لم يكن العمل على المخرطة هو الصعب بل التكيف مع الحياة الجديدة وإيقاع العمل السريع . فقد كان عليه أن يجري من باص إلى باص دون أن يضيع لحظة واحدة . . . أو كان معنى ذلك حرمانه من التدخين وأحلام اليقظة . كذلك وجد أن من العسير عليه أن يتكيف مع نوبات العمل الثلاث التي تدور باستمرار . فبعد أسبوع من العمل في نوبة الليل كان يظل أكثر من أسبوعين قبل أن تعاوده قدرته على النوم . ونتيجة لذلك فقد
كان يبدو مرهقاً دائماً . وهكذا لم يمض شهران حتى غدا وجهه أصفر ناحلاً لكن الناس قالوا إن مظهره بات أفضل على هذا النحو نظراً لأن الوزن الذي كان قد اكتسبه قبل أن يعود إلى المنزل لم يكن دليل صحة ، بل نتيجة التخمة وخبز الدقيق الذي كان يتناوله في الشمال ، في حين أن الناس في شانغهاي يأكلون الأرز .

مع ذلك كان ما يزال مسروراً لأنه عاد إلى شانغهاي رغم أن سروره ذاك

كان يخالطه شيء من الشعور بالفراغ . إنه يفتقد شيئاً ما . حنين السنوات العشر الماضية ، الألم الذي كان يشوب نومه وشهيته ، كل ذلك انتهى . لكن ذلك الحنين والألم كانا يقدمان له هدفاً يكافح من أجله . أما الآن فقد انتهى كل شيء وها هو ذا ضائع يعاني من مرارة الفراغ . ربما كان سعيداً كل السعادة لأنه عاد ؟ إن عليه أن يبدأ حياة جديدة رغم أنه لم يفكر كثيراً بالشكل الذي ستكون عليه هذه الحياة . فكل شيء كان ما يزال في بدايته .

أنهى شين زين نوبته الصباحية ، ثم جرر قدميه ، وقد تخدرتا من جراء الوقوف ثماني ساعات ، إلى الحمام ، هناك استحم ، بدَّل ملابسه ثم غادر المصنع . عند موقف الباص ، كان الركاب يتناثرون على الأرصفة وحتى وسط الشارع . فهناك ثلاثة باصات على الأقل قد تأخرت عن مواعيدها ، انتظر عشر دقائق ، عشرين ، لكن دون أثر لباص . وكان الركاب يتذمرون يفترضون أنه ينبغي أن يكون هناك حادث . فنفد صبره ، وحينها بدأ السير ، عازماً على قطع المواقف القليلة على رجليه عسى أن يلحق بالباص الثاني ، خاصة وأن « لي » ، وهو عامل أصغر منه بسنة واحدة ، كان قد شرح له ذات مرة كيف يختصر الطريق . وهكذا سار شين زين ، معتمداً على ذاكرته ، في زقاق يفضي إلى شارع ضيق مرصوف بالحجارة حيث الناس يقومون على كلا جانبيه بغسل سطول العسل ، بالطهي ، شغل الإبرة ، المطالعة، كتابة الوظائف المنزلية ، لعب الشطرنج أو البنغ بونغ أو النوم عند عتبات الأبواب مما جعل الشارع أضيق وأضيق . كانت المنازل المصطفة على جانبي الشارع أشبه بأعشاش الحمام أو مربعات الهرمونيكا[1] ، وعبر النوافذ الصغيرة الواطئة لم يكن شين زين يرى إلا أسرَّة فقط ، أسرة كبيرة وصغيرة ، مقاعد ، وأسرة ميدانية ، معنى ذلك أنه ينبغي أن يجري كل شيء خارج المنزل : الاستحمام ، العمل ، الأنشطة الأخرى ، كل شيء ، كل شيء . لكن ما تراه يحدث حين يعود إلى

المنـازل كل أولئـك الـذين يعملون ؟ ماذا يحدث في الأيام المـاطـرة المثلجة ؟ لنفـترض أن أحد الأبناء الراشدين وجد زوجة له ؟ لنفترض . . . إذن خلف واجهات المحلات ذات الألوان المبهرجة ، خلف لوحات الإعلانات المتلألئة والثياب الـبراقـة والملصقات التي تعلن عن أحدث الأفلام ثمة شوارع ضيقة وغرف مكتظة وأناس يحيون حياة بائسة . لا ، ليست شانغهاي رائعة كما تصور .

استغرق الطريق نصف ساعة منه قبل أن يصل موقف الباص الثاني . فاندفع حاشراً جسمه ، بطوله البالغ ١٨٠ سنتمتراً ، في أصغر حيز ممكن كما تعلم أن يفعل كيلا ينظر إليه الآخرون نظرتهم إلى الغرباء . ولم يبلغ المنزل إلا وقـد أوشكت السـاعة على السادسة ، جائعاً متعباً كان كله أمل . في أن يجد طعـامـاً حاراً متصـاعد البخار بانتظاره . غير أن العشاء لم يكن جاهزاً . لقد كانت والدته تتبضع في شارع هوايهي ولم تصل إلى المنزل إلا متأخرة ، إذ كان من المستحيل أن تشق طريقها عبر الحشود المزدحمة في الشوارع أو في المخازن أو في البـاصات . كانت زوجة أخيه قد بدأت تطبخ حينما عادت من عملها إلى المنزل ، وكانت والدته تساعدها في غسل الخضار وتقطيعها . « رقم ٣ لا يفعل شيئـاً سوى النـوم والإصغـاء لمذياعـه الـترانزستور » قالت أمه مبدية شيئاً من ضيقها ، « بإمكانك أن تشرّح لي اللحمة ، أيها المتعطل عن العمل » .

وبشعـور كامل بالإحباط ، مضى شين زين إلى كوخه المعتم . هناك وجـد الـترانـزيستور يطن بكلام غير مفهوم ، نصفه حديث ونصفه غناء وقد وضعت إبرته بين محطتين . وبكثير من الخوف وثب عن الأرض حين تعثر بساق في طريقه وهو يتلمس الطريق إلى فراشه . لكن أخاه انتصب جالساً ثم قال : « عدت إذن ، أيها الأخ ا لثاني ؟ » .

أشعـل شين زين مصباح الطاولة ثم بدأ يعنف أخاه : « أنت في غاية

الكسل يا رقم ٣ ، لماذا لا تمد يد العون لأمك طالما لا تعمل شيئاً ؟ » .

فأجاب رقم ٣ مبرراً نفسه : « لقد جلبت لها الأرز ومسحت الأرض عصر هذا اليوم » .

« ماذا ؟ حين كنت في سنك كنت أحرث الأرض وأحصد الزرع في الريف » .

ولم ينبس رقم ٣ ببنت شفة .

« هذا العام تبلغ العشرين ، إذن عليك أن تستخدم دماغك وتفعل شيئاً ينفع الناس . انهض . كيف يمكنك أن تضيع وقتك هكذا سدى ؟ لملم نفسك وتصرف تصرف الرجال » .

فخرج رقم ٣ من الكوخ دون أن ينطق بحرف واحد . غير أن شين فانغ ، الذي كان قد عاد لتوه من العمل ، تابع عملية التقريع : « لقد بلغت سن الرشد يا رقم ٣ وعليك أن تتصرف تصرف البالغين . كلنا نكون بأمس الحاجة إلى الراحة حين نعود من العمل ، وعليك أن تقدم المساعدة » .

فأضاف شين زين من مكانه في الكوخ : « لو كنت تدرس استعداداً لامتحان القبول في الجامعة لما لمناك ، لكن لديك من الوقت أكثر بكثير مما تحتاج . . . » .

وظل رقم ٣ صامتاً . فتدخلت أمه لإحلال السلام : « كل ذلك نتيجة خطئي أنا . ذلك أنني لم أقل له ما ينبغي أن يفعله قبل أن أغادر المنزل . العشاء سيكون جاهزاً حالاً . كلوا الآن بعض البسكويت . رقم ٣ اذهب واشتر لي بعض الخل » . وحين غادر رقم ٣ المنزل ، قالت لابنيها الكبيرين » إنني أفضل أن يمكث في المنزل على أن يخرج إلى الشوارع ويتورط في مشكلة

ما . فهو من بين جميع أولئك الشبان العاطلين عن العمل ، يظل الأحسن والألطف » .

أخيراً ، وفي السابعة والنصف أمسى العشاء جاهزاً ، فتناولوه في غرفة أمهم الصغيرة ، دون أن يشعر أحد بالميل للكلام بعد الفصل الذي جرى مع الأخ رقم ٣ ، وهكذا لم يستمتع أحد بالوجبة التي مرت دون ثرثرة وهذر كلام . لكن في محاولة منها لتلطيف الجو ، قالت الكنة محطمة جليد الصمت : « يقيم مكتبي نادياً لمساعدة العازبين الذين يرغبون في الزواج . هل أجيء لك باستمارة تملؤها يا شين زين ؟ » .

فاغتصب شين زين ابتسامة : « بالتأكيد لا ، فأنا لا أرغب في الزواج » .

« هراء » شرعت أمه في الكلام : « الجميع يتزوجون ، وأنا على ثقة من أنك بشكلك ومظهرك هذا ، ستجد زوجة » .

« الرجال طوال القامة مثلك مرغوبون كثيراً هذه الأيام » قال رقم ٣ مبتسماً وقد نسي كل ما تلقاه من توبيخ ، فهو ما يزال صغير السن . « الزواج ليس مزحة » أضافت زوجة أخيه : « فلكي تتزوج لا بد لك من ألف يوان على الأقل » .

« سنقدم له المساعدة حتى ولو كنا على حافة الإفلاس . أليس كذلك يا شين فانغ ؟ » تساءلت أمه ، لكن أخاه الأكبر اكتفى بأن غمغم بغباء :

« هـ . . م . . م . . . . » . فتدخلت زوجته :

« لكن حتى لو كان لديك المال ، فليس هنالك غرفة له ، إذن ما يزال الأمر ميؤوساً منه » .

« إذا لم نستطع إيجاد مكان له سأخرج وأنام في الشارع إذا ما تزوج . أليس كذلك يا شين فانغ ؟ » سألت أمه مرة ثانية . « بالتأكيد » وافق أخوه الأكبر .

« ماما ، هل تعنين ما تقولين ؟ » سألت الكنة مبتسمة فضحكت أمه قائلة : « ألم أكن أعني دائماً ما أقول ؟ » .

« أي مزاح هذا ؟ » قال شين زين وهو يضع زبدية حسائه على الطاولة . ورغم أن ثلاثتهم ابتسموا فقد أحس بأنهم كانوا جادين كل الجد وأن سيماءهم ملأى بالتلميحات فشعر بانقباض شديد .

شاهد شين زين التلفزيون في غرفة أخيه . . . لكنه سرعان ما شعر بالنعاس حتى بات من المتعذر عليه أن يفتح عينيه . كان عليه أن ينهض باكراً إلى العمل . وهكذا نهض ثم توجه إلى كوخه حيث كان رقم ٣ قد استلقى في سريره من قبل ، يصغي إلى المذياع الصغير ضاحكاً على عرض كوميدي ، سعيداً هانىء البال .

« جئت إلى سريرك باكراً ؟ » سأله شين زين فأجابه رقم ٣ :

« برامج التلفزيون فظيعة » غير أن إجابته هذه جاءت بعد انتهاء البرنامج الإذاعي الذي كان يصغي إليه بوصلة من الهتاف والتصفيق . ثم أقفل المذياع بشيء من الامتعاض وكالعادة ، فتح شين زين كتاباً قرأ فيه مدة عشر دقائق ثم أطفأ النور . وفي العتمة سمع أخاه يقول : « كم أود لو أن أبي ما يزال حياً . إذ ذاك ستتمكن من أن تأخذ مكانه بينما آخذ أنا مكان الماما . فقد كان لأبينا مركز أفضل . أجل ، كان يعمل في مكتب » .

أحس شين زين بوخز اهتياج في أنفه ، وملأته رغبة في أن يضم أخاه بين

ذراعيه ، لكنه اكتفى بأن التفت ثم قال بشيء من الخشونة : « عليك أن تحاول الدخول إلى الجامعة » .

بدأ رقم ٣ بعد حين من الزمن بالشخير وقد استغرق في النوم أما شين زين فقد خمدت لديه كله رغبة فيه .

كان بإمكان رقم ٣ أن يحصل على العمل الذي تركته أمه لولاه . . . فقد اتصل بالهاتف من بلدته النائية ليقول : « رقم ٣ يعيش في شانغهاي ولسوف يشق طريقه بشكل من الأشكال ، أما أنا فهذه فرصتي الوحيدة . . . » حينها صمتت أمه على الطرف الآخر من الخط فكرر القول : « لقد غادرت المنزل وأنا في الثامنة عشرة يا أمي ، ولقد عشت وحيداً عشر سنوات . منذ الثامنة عشرة وأنـا أعيش وحيداً . . عشر سنـوات وأنا وحيد يا أماه ! » واستمر الصمت . كان يعلم أن أمـه ، تبكي ولا بد ، وأنها تكرر لنفسها ذلك القول : « راحة يذي وقفاها . . . أوه ، راحة يدي وقفاها . . . » لكن في النهاية أعطاه رقم ٣ الفـرصـة التي كانت طبيعية تماماً . فقبل عشر سنوات ، فعل هو الشيء ذاته لأخيه الكبير . وكما كان شأنه هو ، فإن أخاه الصغير لم يشكُ ولم يتذمر ، بل كان في غاية اللطف معه . وهكذا حين انقلب رقم ٣ في نومه ، ماداً إحدى ساقيه فوقه مرة ثانية ، لم يحركها شين زين قيد أنملة .

كان أخوه كسولاً للغاية . ترى ألن يكون كل شيء على ما يرام ، ألن يكون الجميع سعداء إذا ما تمكن من دخول الجامعة ؟ لكن ليس باستطاعة كل إنسـان أن ينتسب إلى الجامعة أو يدخل معهداً تقنياً . ولخجله من إخفاقه في اجتياز امتحان القبول ، كان رقم ٣ ودوداً مع الجميع ، أنيساً لا يدافع حتى عن نفسه حين يتعرض للنقد .

وانطلقت آهة من شين زين . فالحياة في شانغهاي ليست سهلة قط .

- ٤ -

ذات مساء كانت العمة شين ، التي تعمل في مصنع أمه ، ستأتي بفتاة لمقابلة شين زين . وبما أن أمه هي التي رتبت الأمر كله ، لم يستطع أن يبدي أي اعتراض رغم أنه وجد الوضع كله محرجاً وسخيفاً .

« عليك أن تبدأ ببناء حياة جديدة » قال أخوه الأكبر فأدهشته تقريرية أخيه . وحينما باتت حياته الجديدة ملموسة تماماً وجد نفسه غير مهيأ لها ، كما اكتشف أن من الصعب تقبلها . لكنه ، بسبب أفكار ثانية ، لم يستطع تصور حياة جديدة أكثر أهمية ودلالة . ربما هي لا تعني إلا الزواج وإنجاب الأطفال ؟ مع ذلك فقد هز رأسه مبتسماً ابتسامة ساخرة فقد كان يملؤه إحساس بالخواء . كانت السنوات العشر من الحنين إلى شانغهاي رغم شدة إيلامها ، قد امتزجت بنوع من العذوبة . فهو أشبه بالحلم ، ذلك الحنين المخضب بالخيال . أجل لعل الأمل بالشيء خير من الحصول عليه . فهو يتذكر يوم كان طفلاً ، حينها كان يوم السبت لديه خيراً دائماً من يوم الأحد . جميع أفراد الأسرة يملؤهم الحماس اليوم . لقد بدأت الاستعدادات منذ الغداء ، إذ مسحت زوجة أخيه غرفتها ونظفتها ، في حين أحضر أخوه الكبير الكعك والفواكه . كما خططوا لأن يأخذوا نانان إلى سريره باكراً كيلا يرتكب أية زلة . فقد حدث ذات مرة ، حين كانت جدته تقوم بترتيب زيجة من الزيجات وكان الشاب والفتاة يلتقيان في بيتها ، أن أشار الطفل ، الذي كان يحضر دائماً حين يكون الفتى والفتاة غارقين في الحديث دون أن يفقه شيئاً مما يدور حوله ، أشار إلى الشاب والفتاة ثم سأل أمه : « هل ستتزوجان يا أماه ؟ » وكان ذلك مزعجاً كل الإزعاج .

كان رقم ٣ أكثر أفراد الأسرة انشغالاً . فقد اقترح أن تطهو أمه لهم حساء العدس كما قدم لشين زين أفضل ثيابه كي يلبسها . هذه الحماسة الشديدة

أصابت شين زين بالضيق رغم أنه لم يكن هنالك من سبب لها سوى عدم وجود شيء آخر يفعله . ورغم أن حماسته فترت قليلاً إلا أن رقم ٣ كان ما يزال يساعد في طهو قدر كبير من حساء العدس كما جعل شين زين يرتدي أفضل بنطال لديه .

وصلت الفتاة في السابعة والنصف ، تختفي خجلاً خلف العمة شين ، ثم أسرعت إلى كرسي في الزاوية حيث التقطت كتاباً وبدأت تقرأ . وهكذا لم يستطع أحد رؤية سيمائها بوضوح هي التي كانت تخفي وجهها خلف الكتاب .

« شين زين شاب واعد تماماً . العمال في المصنع معجبون كثيراً به . فالسنوات العشر التي قضاها في الريف أكسبته قدراً كبيراً من الخبرة . إنه ليس كأولاد الغلمان الذين لا يشعرون بالمسؤولية » . هكذا بدأت العمة شين . فأعقبت أمه وعيناها تتفحصان الفتاة في الزاوية : « أجل . لقد كان صعباً كثيراً أن يبقى بعيداً عنا طوال تلك المدة » .

« هيه . . كيف الحال معك ، هل تحب العمل على المخرطة يا شين زين ؟ » التفتت العمة شين مخاطبة إياه : « فالوقوف ثماني ساعات على رجليك أمر متعب تماماً » .

« لا ، لا بأس ، فقد قمت بكل أنواع العمل في الريف » . أجاب شين زين وقد تسمرت عيناه على الزاوية ، إذ لم يكن باستطاعته أن يرى سوى الصورة الجانبية لوجه الفتاة وشعرها القصير وكتفيها العريضتين .

« أين ابنك ، يا شين فانغ ؟ لا بد أنه ولد كثير الحيوية »

« إنه نائم ، وهو ولد لطيف » . أجاب شين فانغ شارد اللب . فردت زوجته معترضة : « لا ، ليس هو باللطيف ، بل هو شيطان صغير ، أنا لا أحبه » .

« لا تقولي ذلك ، فما من أحد يستطيع أخذه من بين أحضانك ، على كل حال الصبية الصخابون يكونون أذكياء عادة » .

« هذا صحيح . . . . » ثم انتقلت الكنـــة إلى الـــزاوية قائلة : « هيا نتناول شيئاً من حساء العدس » .

غير أن شخصـاً آخـر كان أسرع منهـا في الوصول إلى الزاوية وإشعال المصبـاح هنـاك وهو يقول : « أنت بحاجة إلى بعض الضوء لكي تقرئي » . وكان ذلك هو الأخ رقم ٣ الذي تسلل دون أن يلحظه أحد . ورغم أن شين زين كان على استعـداد لأن يلقي به خارجـاً ، إلا أنـه كان ممتناً كل الامتنان لتدخله الذكي .

فقد غرقت الفتاة في بركة من النور ، الأمر الذي دفع بالجميع للتوقف عن الحديث والالتفات نحوها . بعدئذ عاد الجميع والتفتوا بعضهم إلى البعض الآخر وعلى سيمائهم تعابير من خيبة الأمل . بعد حين ، تماسكت زوجة الأخ ، ثم قالت : « دعك من القراءة الآن . لنتناول شيئاً من حساء العدس » .

أنهت الفتـاة زبدية حسائها بكثير من الضيق ثم مسحت فمها بمنديل معلنة أنها ستغادر . لم يحاول أحد إبقاءها ، وبعد التلفظ ببعض الملاحظات المؤدبـة مثل : « عودي ثانية من فضلك » ، و « اعتني بنفسك » نهضوا جميعاً لوداعها حتى الباب ، في حين رافقتها العمة شين إلى الشارع . تلك هي العادة وقد ساروا جميعاً وفق العادة تماماً . وحده شين زين ، العائد حديثاً من الريف النائي ، لم يكن يعرف العادة وقواعد السلوك ، غير أن رقم ٣ وقف إلى جانبه كي يوضح له ما ينبغي عليه أن يفعل .

« كيف ؟ هل أعجبتـك يا شين زين ؟ » سألتـه أمه فاكتفى بالضحك جواباً غير أن رقم ٣ قال :

« لا ، ليست جيدة ، عظام وجنتيها شديدة البروز وهي علامة على أن زوجها لن يعمر طويلاً » .

بعدئذ علق الأخ الكبير قائلاً :

« إنها قصيرة القامة قليلاً » أما أمه فأعقبت بقولها :

« فتاة ليست جميلة . إنني أتساءل أي نوع من الفتيات هي » .

بيد أن جميع التعليقات توقفت حينما عادت العمة شين التي توجهت مباشرة إلى شين زين ثم قالت وهي تبتسم : « يبدو أنها أحبتك ، إذن الأمر كله يتوقف عليك الآن » .

فظل شين زين صامتاً إنما مبتسماً .

أدركت العمة أن ثمة خطأ ما فأضافت : « إنها فتاة لطيفة وشريفة وبسيطة ، في الثامنة والعشرين ، والداها موسران لا يباليان ما إذا كان الشاب غنياً أم فقيراً ، شريطة أن يكون حسن الأخلاق قريباً إلى النفس ، وإذا لم يكن لديه مسكن فإن بإمكانه أن يقطن معهم ، إذ أن لديهم غرفة احتياطية . . . من الأفضل أن تتداولوا الأمر ثم تجيبوني بأسرع ما يمكن . . . لكن عليك أن تثق بي ، يا شين زين ، فأنا لا أرضى بالإساءة إليك إنني أعرفك مذ كنت طفلاً صغيراً » .

بعدئذ ودعها أفراد الأسرة جميعاً إلى الباب الخارجي .

وحينما عادوا سأله الأخ الكبير : « ما هو انطباعك عنها ؟ » غير أن زوجة الأخ تدخلت على الفور : « مظهرها ليس بذي أهمية . بإمكانك أن تضرب معها مواعيد لفترة من الزمن » .

« المظهر ذو أهمية بالغة ، وإلا ما كان أخي قد تزوجك » شاكسها شين زين مثيراً عاصفة من الضحك . إذ ذاك قرصته زوجة أخيه من كتفه وهي بين الغضب والضحك ، ثم أعقب أخوه الكبير :

« أنا أيضاً أفكر بأن من المستحسن أن تواعدها يا شين زين . إذ ينبغي ألا تحكم عليها من خلال مظهرها وحده » .

« المظهر هام للغاية حين يتعرف الشاب والفتاة واحدهما إلى الآخر ، ترى ما الذي يغريني بها إن لم يكن مظهرها ؟ » قال شين زين موضحاً أسبابه فأضاف رقم ٣ معبراً عن رأيه :

« ليس من الضروري أن تكون فائقة الجمال بل أن تكون مقبولة على الأقل » .

فالتفتت الكنة إلى حماتها قائلة : « أظن أنها على ما يرام يا ماما . ثم إن لديها غرفة ، وهذا أمر في غاية الأهمية هنا في شانغهاي » .

فرد شين زين » أنا أتزوج فتاة وليس غرفة » .

« لكنها نقطة هامة . ثم إنها ليست بشعة ، بل كل ما في الأمر أن وجهها عريض قليلاً . أما عيناها وحاجباها فلا غبار عليها فقط » .

« دعك من العينين والحاجبين ، المهم أنها لم تجذبني البتة » .

فضحك رقم ٣ ، إذ كان الأمر جديداً عليه بشكل من الأشكال . هنا قالت زوجة أخيه :

« الأمر كله لصالحك ، وأنت ، بالنهاية ، لا يمكنك أن تعيش على الجاذبية » .

فأضاف أخوه الكبير : « أنا موافق » غير أن أمه تدخلت قائلة :

« دعوه يقرر بنفسه » . فثنى الأخ الكبير قائلاً : « أجل ، أجل » .

« حسناً دعونا نترك المسألة عند هذا الحد » . صرخ شين زين . فقد كان النقاش كله بلا جدوى . « لكن أرجو ألا تزعجي نفسك بالمسألة أكثر من ذلك ، يا أماه . فأنا سأجد زوجة بنفسي ، وإذا لم أستطع إيجاد زوجة مناسبة ، سأبقى عازباً طوال حياتي » . قال ذلك ثم توجه إلى كوخه في الحال .

في أحلامه ، رأى شين زين عينين تبتسمان له ، عينين من الجاد الأسود ، شكلهما كشكل الهلال الوليد ، عينين تبتسمان بكل رقة وعذوبة ، فاستيقظ ثم نهض ، ومن نافذته التي لا تزيد مساحتها عن قدم مربعة واحدة رأى الهلال في السماء :

« آه ، عينان كالهلال ! أين هي صاحبة هاتين العينين ؟ من هي يا ترى ؟ في المدرسة ، حيث كان يعلّم ، كان ، كل صباح وهو في طريقه لتناول الإفطار في الندوة ، يرى فتاة على متن دراجة عتيقة الطراز تقطع الطريق المختصرة الممتدة بين البوابة الخلفية والبوابة الأمامية . أنيقة رقيقة كانت ، وكانت دائماً تلتفت لتنظر إليه بتينك العينين . . . . وكان على ثقة تامة من أنها ستجيبه لو سألها : « إلى أين تذهبين ؟ » . لكنه لم يسألها قط ، ولم يعرف يوماً من أين كانت تأتي أو إلى أين تذهب . كان كثير من الناس يسلكون تلك الطريق المختصرة عبر مدرسته . فالبوابة الأمامية تفضي إلى مستشفى ، مركز ثقافي ، فرقة ثقافية ومصنع آلات . وبعد البوابة الخلفية كان هنالك مخزن الحي ، ملعب ومعمل لحلج القطن ، مئات ، أو آلاف المرات مرت به وكان يدعها تفعل ذلك رغم أنه أعجب بها ورغم أن رؤيته لها كانت تبعث في قلبه السرور . لكن ذهنه كان مركزاً على شانغهاي ، هدفه الوحيد . وها هو ذا قد عاد أخيراً إلى شانغهاي ، في حين باتت تلك الفتاة شيئاً من ماضيه ، شيئاً لن يعود قط ، مجرد ذكرى جميلة . يومها شعر شين زين ببعض لسعات الحسرة لأن

لشانغهاي وزناً أكبر من وزن تلك الفتاة . وكان ما يزال يشعر ببعض ذلك الأسى والحسرة حتى اليوم .

مرة أخرى عادت إلى ذاكرته مدرسته بحديقتها الكبيرة ، تلك التي تضاهي أكبر مدرسة في شانغهاي ، فساحتها كانت تضم ملعباً رملياً وطريقاً عريضاً . وفي الصيف كان يبرِّد البطيخ في البئر الواقعة أمام غرفته . وكان عدة طلاب يحضرون له الطعام عادة ، مع ذلك فقد هجر أولئك الطلاب الأوفياء دون كلمة وداع ، خشية تعقيد أموره ، إنه يفتقد تلك المدرسة الآن ، فذلك الشطر من حياته يمس شغاف قلبه .

- ٥ -

ذات صباح ، فاجأهم أخوه الكبير حين قال لأمه أنه هو وامرأته طالبا ببطاقة سكن خاصة ، ثم أضاف متلعثماً : « حينذاك . . . سنحصل على تعيينين من البيض . . . تعيينين من كل شيء » وتحاشى النظر إلى أمه حين حدقت إليه دون أن تتكلم . بيد أن شين زين تساءل لماذا تلعثم أخوه وكأنه يأتي أمراً منكراً . فهي بعد كل شيء ، فكرة رائعة أن يحصلوا على تعيينات إضافية تعطى لهم حسب بطاقات السكن . ضحك شين زين ثم قال : « فكرة بارعة ترى كيف خطرت ببالك ؟ »

غير أن مزحته جعلت أخاه يبتعد خجلاً ، أما أمه فقد حدجته بنظرة قاسية دون أن تقول شيئاً .

بعد ذاك انطلق شين زين متوجهاً إلى عمله ، لكن قبل أن يغادر لحق به رقم ٣ ثم همس في أذنه وكأنما الأمر سر خطير : « هل تعلم لماذا طلب الأخ الكبير بطاقة سكن خاصة بأسرته ؟ » .

« يريد مزيداً من البيض . . . » .

« لا ، بالطبع . . . » قاطعه رقم ٣ « ما يريده هو الغرفة » فتوقف شين زين مذهولاً : « الغرفة ؟؟ » .

« بالضبط » أكد رقم ٣ كلامه : « فالغرفة ذات الاثنين والعشرين متراً تغدو من حقه هو بمجرد حصوله على بطاقة السكن . لا بد أنها فكرة زوجته » فأجاب شين زين وهو يعاود السير : « ليأخذها . أما أنت فإنك لا تستخدم دماغك في ما يفيد . رغم أنه لا ينقصك الذكاء في مسائل كهذه » .

ذلك النهار ظل ذهن شين زين مشغولاً ، لا يفارقه اقتراح أخيه . فقد شعر أن في الاقتراح أشياء خرى ، إذ كانت كلمات أخيه الصغير تطن في أذنيه : « ما يريده هو الغرفة » كما تذكر أيضاً كيف كانت زوجة أخيه تنقر كثيراً على وتر زواجه من فتاة لديها غرفة . هل ذلك هو المقصود حقاً ؟ » « لا ، لا يمكن » أجاب نفسه بصوت عال أخافه تقريباً ، وهو يطرد الفكرة بيده على نحو غريزي ، ثم وجد نفسه يضحك .

حين عاد من عمله إلى المنزل ، سمع أمه تقول لأخيه الكبير : « ليس باستطاعتك أن تنفصل عنا . فشين زين له الحق أيضاً في تلك الغرفة ، لقد أمضى عشر سنوات في الريف ، وإذا ما تزوج ، يتعين عليك أن تقتسمها معه . أليس ذلك صحيحاً ؟ » .

لكن حين امتنع أخوه الكبير عن الجواب ، عادت الأم إلى السؤال مرة ثانية : « أليس ذلك صحيحاً ؟ » وحينذاك فقط جاء جوابه أشبه بترداد الصدى ، « صحيح » في تلك اللحظة كانت زوجته تدخل ، وفي يدها صحن ، فوضعته بقوة على الطاولة مصدرة بذلك صوتاً عالياً ، أهي مصادفة يا ترى ؟ خيمت على طاولة العشاء غمامة صمت كثيفة . فأخوه الكبير وزوجته

كانا متجهمين حين كانت أمه تكدس الطعام في طبقيهما وكأنها تعتذر عما بدر منهـا . أمـا رقم ٣ فقـد ظل يرمقه بنظرات ذات معنى لكأنها تقـول : « أرأيت ؟ » . في حين شعر شين زين بالاشمئزاز ، الأمر الذي جعله يشيح بوجهه غير ناظر إلى أحد . لكن لحسن الحظ أن نانان بعث الحياة في الجو بوقوفه وجلوسه على كرسي طالباً هذا الشيء أو ذاك . لقد ألقى بملعقته بعيداً وبدأ يمسك الطعام بأصابعه ، فأمسكت جدته بيده وضربته ضربة خفيفة على راحته . قطب رقم ٣ جبينه ثم هتف مبتهجاً « هو راه ! » في حين أعلن نانان بكثير من الفخر : « لكنها لم توجعني قط » .

ضحك الجميع ، غير أن أم نانان أنزلته من كرسيه وشرعت توبخه : « أنت ولد فظ ، لا تقدر المعروف . عليك أن تحمد الله على أنهم لم يرفسوك خارجاً » . وللتو توقفت الضحكات على الشفاه إذ احتار الجميع هل يتابعون الضحك أم يتجهمون . وحده رقم ٣ هتف « أوه ، أيها الصبي » في محاولة منه لتلطيف الجو .

غير أن وجه أم شين زين كان قد أربد فقالت : « ماذا تقصدين ؟ » فردت كنتها مجابهة إياها : « لا أقصد شيئاً » .

« لا ، أنا أعلم ما تهدفين إليه » . بدأت الأم وفي نيتها أن تتكلم على المكشوف ، « إنها الغرفة » .

« لا ، أنا لا أهتم بالغرفة قيد شعرة . لكن حين يكبر ابني ، لن أدعه يتزوج فتاة إن لم يكن لديه غرفة » .

« لا تتأكدي . فأنا قد أكون فقيرة لكنني أحب جميع أبنائي وأعاملهم على قدم المساواة . باطن يدي وظهرها ، هكذا هم جميعاً . . . فلذات كبدي لقد اضطر شين زين لأن يرحل عن هذا البيت بسبب شين فانغ ، إذن عليكم

ألا تنكروا الجميل » . وانخرطت العجوز في بكاء مرير .

« نكـران الجميل ؟ حين تتزوج الفتيات الأخريات ، تحصل كل منهن على جنـاح مؤثث خير أثـاث . لكن حين تروجت أنـا شين فانغ ، ماذا كان لديه ؟ مع ذلـك هل شكوت يوماً أو تذمرت ؟؟ ألم نكن عاجزين عن إرسال هدية لشـين زين في الأعياد ؟ ألم نكن عاجـزين عن إرسال النقود ؟ ما الذي يمكنك قوله عن كنة كهذه » وانخرطت هي الأخرى في بكاء مماثل .

أما شين فانغ فقد تملكته الحيرة . من تراه يواسي منهما ؟ في حين جرى رقم ٣ خارجاً . إذ لا فائدة ترجى منه ، وهو سرعان ما يختفي حين تنشب أزمة حقيقية

كفـى بكـاء » قال شين زين وهـو ينـتصب واقفـاً ، نهبـة للقلق والاضطراب « أنا لا أريد الغرفة يا أمي ، كما أنني لن أتزوج . فأنا سعيد كل السعـادة لأنني عدت إلى شانغهاي . . ولا شيء آخر : « لكن أمه بدت أكثر حزنـاً من ذي قبل ، أما زوجة أخيه فقد استمرت تنشج ، بعد أن اختلست نظرة إليه .

في تلك الليلة ، وبعد أن هجع الجميع ، دخل أخوه الكبير إلى الكوخ وهو يدخن سيجارة ، « لا تلقِ بالاً إلى زوجة أخيك » بدأ كلامه « فهي ليست سيئة رغم أنها تميل للمناكدة أحياناً . حين تزوجنا لم يكن لدي مال ، ولم يكن لدينا سوى السرير الذي ننام عليه مع ذلك لم تتذمر قط . في السنوات الأخيرة هذه ، وبعـد التقتير والتوفير ، استطعنا أن نشتري بعض الأثاث وأن نزخرف الغرفة . لقد قنعت بالتحسين الذي أدخلناه وتريد الحفاظ عليه . هي ليست سيئة كما أنها تعلم أن علينا أن نقسم الغرفة إلى اثنتين من أجلك لكنها تجد الأمر شاقاً عليها ، صعباً أن تتقبله ، لكنني سأقنعها بصورة تدريجية » .

« انس الأمر كله يا أخي » قاطعه شين زين « فأنا أعني ما قلته تماماً ، أقسم إنني لا أريد الغرفة ، فطمئنها من فضلك . فقط لا تنفصلوا عنا . فأمنا العجوز تود أن تبقى أسرتها كلها مجتمعة » .

حينذاك انكب عليه أخوه ملقياً بذراعيه حول كتفيه . ورغم أن شين زين كان يود أن يحضنه بين ذراعيه ، إلا أنه أبعده عنه ساحباً اللحاف فوق رأسه . فالسنوات العشر كانت قد صلّبته .

وليس باليسير أن تعيش في شانغهاي .

- ٦ -

كان شين زين في غاية القلق والغم ، هو الذي اعتاد أن يعيش حياة خالية من الهموم . وهكذا نهض في الصباح التالي ، يوم عطلته ، مع الفجر ثم غادر المنزل دون أن يعلم أحداً . كان يريد أن يتمشى . فهو الذي ألف الأماكن الفسيحة في الشمال وجد شانغهاي كالكلكل على صدره . أبنيتها العالية تحجب النسيم والجماهير الغفيرة تفسد الهواء ، فأين يذهب ؟ سيذهب إلى السد .

غادر شين زين الباص وانطلق إلى الأمام . كان بإمكانه أن يرى السفن الراسية في نهر هوانجبو على الجانب الآخر من الطريق . وعلى الشاطىء كانت ثمة أشجار خضراء وأزهار حمراء : أناس كبار في السن يؤدون تمارين (التيجيكوان) ، أطفال يلهون ويمرحون ، وشبان يتمشون ويلتقطون الصور ، فسرى شيء من الراحة إلى نفسه . كان قد اجتاز الطريق إلى النهر ، رمز شانغهاي . لكن النهر لم يكن بتلك الزرقة التي يتذكرها . بل كان موحلاً آسناً . ربما ، ينبغي رؤية الأشياء من بعيد ، وربما أن تسمع بالمعيدي خير من

أن تراه » .

أخيراً وصل إلى حديقة السد ، فاشترى بطاقة ودخل . هناك كان نبع ينسكب كالشلال من صخرة عالية إلى بركة يتموج فيها الماء . فتذكر أن الماء ، في الماضي ، لم يكن يسقط مباشرة على البركة بل على مظلة تحتمي بها أم باسمة وطفلاها . كم أعجب بذلك التمثال حين رآه أول مرة وهو طفل صغير ، فقد ظل يحملق فيه حينذاك زمناً طويلاً رافضاً أن يبعده أحد عنه . لقد كان أشبه برمز حياته . ذلك أن والده توفي في سن مبكرة تاركاً للأم مهمة تربية أبنائها الثلاثة والتغلب على الكثير من الصعوبات . من خلال تلاحمهم في الأيام العصيبة كانوا يدفئون بعضهم بعضاً ، فعندما ضرب أحد الإعصارات شانغهاي كانوا هم الأربعة يحضنون بعضهم بعضاً في الفراش . وهم يرتعدون خوفاً وهلعاً من البرق والرعد وعويل الريح . في تلك الليلة لشد ما صرخ أخوه الأصغر وارتعد ولشد ما أنزلت أمه لوماً على السماء في حين كان هو نفسه ، شين زين حامي الحمى دائماً ، يجلس بجانب مفتاح النور الذي كان أخوه الأكبر ، وقد تعلم شيئاً عن الكهرباء ، يخشاه كل الخشية . كانت العاصفة شديدة تبعث الرعدة في الأوصال ، لكن كان ثمة دفء ، وذلك بالذات ما كان يجذبه دائماً إلى الأهل والبيت .

كان الماء المتساقط على البركة يحدث تموجات رتيبة خاوية . وحين سقطت قطرة على يده ، أدرك فجأة أنها قطرة دمع . ما دهاه يا ترى ؟ فحين فارق أهله قبل عشر سنوات ، تمطره أمه بوابل الدموع ، لم يذرف دمعة واحدة . أما اليوم . . . فإنه يعيش خيبة أمل مريرة لكأن شيئاً فائق القيمة لديه قد تهشم فجأة . ودون أن يدري استدار ثم غادر الحديقة .

كانت المخازن قد فتحت أبوابها ، وكان الباعة فيها يرفعون المصاريع عن الواجهات التي عرضت فيها مجموعات من السلع تخلب الألباب . وفي الشوارع

كان المشاة يرتدون أبهى الحلل حتى لكأنهم نماذج عرض ، الأمر الذي جعل رأسه يدور ، وبصورة لا شعورية وجد نفسه يقف أمام واجهة من الواجهات : دمى مكتنزة ذات رؤوس ضخمة تبرز من أحد الرفوف ، اثنتان أخريان تحضن واحدتهما الأخرى ، وعلى خلفية الواجهة كان عدة طلائعيين صغار يطيِّرون طائرات ورقية تحوم في السماء الزرقاء .

وتسمرت رجلاه ، كان كل شيء يذكره بطفولته ، بصباه ، بالذكريات الذهبية التي حملها معه عن شانغهاي . لقد خدعته تلك الذكريات المرتبطة بشانغهاي ، تلك التي كافح طويلاً كي يعود إليها ، إذ اكتشف حين عاد إلى بيته ، أنه عاجز عن استعادة الماضي .

كان المشاة قد تكاثروا حتى فاضوا عن الرصيف إلى الشارع . كما بدوا له وكأنهم يمشون أرتالاً أرتالاً ، يصعب معها على المرء أن يسرع . ما أصعب الحياة في عالم مضغوط إلى هذا الحد . في الباصات عليه أن يصارع كي يفوز بمكان ، في المطاعم عليه أن ينتظر مقعداً يفرغ كي يجلس . ثم ينتظره آخرون ، وهو يأكل طعامه ، مترقبين لحظة مغادرته لمقعده . في الحدائق يجلس ثلاثة أزواج من الرجال والنساء على مقعد واحد وفي حديقة يويوان يصطف الناس بالرتل كي يتسنى لهم التقاط صورة على المرتفع الصخري . فالبشر لا يثيرون التساؤلات والعجب وحسب بل يثيرون المشكلات أيضاً . لكن ، لماذا يحشر نفسه في هذا الزحام ؟ لماذا ؟

أكتاف الناس تصطدم بالأكتاف ، رؤوس الأقداح تدق بالأعقاب ، ورغم قربهم الشديد هذا ، فإنهم جميعاً غرباء ، لا يعرفون بعضهم بعضاً ، لا يفهمون بعضهم بعضاً ، متعجرفين متغطرسين . وفي الحال عادت إلى ذاكرته أغنية كان أخوه قد سجلها قبل بضعة أيام يحتشد الناس في الأرض كما تحتشد النجوم في السماء ، ومثلما النجوم نائية متباعدة كذلك الناس في

الأرض » .

تلك البلدة الصغيرة لم تكن كذلك . لقد كانت هادئة بل ربما خاوية قليلاً . فالمرء فيها يستطيع أن يجري ، أن يتمشى بكل راحة ، أن يتنفس بحرية . وفي بلدة صغيرة كتلك البلدة ، يلتقي الناس ذاتهم باستمرار ، يعرفون بعضهم بعضاً بالوجه ، يحيون معارفهم ، يهزون لهم رؤوسهم مستثيرين بذلك المشاعر الودية الدافئة . إذن ، للمدينة الكبيرة عيوبها الفظيعة ! في حين أن للبلدة الصغيرة مزاياها الجميلة .

كان شين زين يتحرك مع تيار الناس المتدفق ، غير مبال بالوجهة التي يدفعه فيها ذلك التيار ، مصاباً بما يشبه بالدوار . فالحنين العذب المرير ذاك الذي كان يسكنه طوال السنين العشر الماضيات ولّى الآن وولى معه ذلك الامتلاء الذي كان يشعر به طوال تلك السنين .

لقد بلغ هدفه ، فماذا بعد ؟ على المرء أن يعيش ونصب عينيه هدف ما . هل ينبغي أن يساير التيار الجديد فيجهز نفسه بالملابس أوروبية الطراز والأحذية الجلدية والبنطلونات المشدودة على الجسم ومسجلات الكاسيت . . . ثم يبحث عن حبيبة القلب ويتزوج ؟ . . . . أجل ، وبإمكانه أن يبدأ ذلك ، رغم أنه يتطلب جهداً ودأباً . لكن ، هل يحظى بالسعادة إن كانت الملابس الفاخرة تخفي قلباً بائساً مثقلاً بالهموم ؟ إذا تزوج من أجل الزواج فقط ، وكانت الزوجة التي اصطفاها غير واعية ، ألن يزيد حياته عبئاً على عبء ؟ ومرة ثانية شعر أنه يفتقد العينين الهلاليتين والفرص التي أضاعها في التعرف إلى صاحبتها . فعلى الإنسان أن يضع نصب عينيه السعادة لا الشقاء . وفجأة شعر أن الهدف الذي يسعى إليه شيء أكبر ولا بد . أجل ، أكبر ، أكبر .

مع ارتفاع معنوياته ، أحس شين زين بأن الغيوم المدلهمة تنفرج قليلاً

وأن قبساً من ضوء يتسرب عبرها . إذن رغم الغبشة والعتمة ما يزال ثمة ضوء .

« شين زين » .

ناداه أحدهم فتوقف .

« شين زين » تكرر النداء ثانية فاستدار ليرى باصاً يشق طريقه بصعوبة بالغة عبر زحام الشارع . في الباص كان أخوه الكبير يمد جسمه من النافذة محاولاً الوصول إليه ، وكانت زوجته خلفه وقد بدا عليهما الاضطراب .

صدمة ما دفعته لأن يجري خلف الباص . وحين وصل إلى أخيه أمسك هذا بيديه ثم حدق إلى عينيه متخشباً لا يحسن النطق ، تماماً كما فعل قبل عشر سنوات حين جرى وراء القطار ، فشعر شين زين وكأن قلبه يذوب . كذلك أمسكت زوجة أخيه بيده ثم صاحت :

« شين زين ، عليك ألا ترتكب خطأ » .

« أي هراء ! » قال شين زين ضاحكاً وقد بللت وجهه الدموع ، فقال أخوه : « عد إلى البيت » .

« أجل سأعود إلى البيت » .

إن البيت بالنتيجة هو البيت والقلة تورث الشجار ولقد جعلتكم تعانون أيها الأحباء، وعلى حين غرة شعر شين زين بالخجل لاستخدامه سنوات ريفه العشر كورقة (طرنيب) يلعب بها. لقد عانت أمه كما عانى ، عانى أخواه . . زوجة أخيه . . الكل تحمل تلك السنوات الصعبة. علاوة على ذلك فقد عرف في حياته الفرح، المرح، السرور. مثال على ذلك، الشارع العريض، أجمات الشجر، البئر، التلاميذ الأبرياء، العيون التي تشبه الأهلة . . مع ذلك فقد تجاوزها كلها، لكن ثمة أمامه عشر سنوات أخر، عشرون،

ثلاثون . . . زمن طويل طويل . . وعليه أن يفكر بمستقبله بقدر أكبر من الجد .

قطار آخر كان يغادر المحطة ، ترى أي كانت وجهته ؟ لم يكن شين زين يعلم ، فكل ما كان يعلمه أن وجهته ستكون أبعد ، هدفه أكبر ، وأنه سيمضي أكثر من عقد ، ربما عقدين أو ثلاثة ، وربما العمر كله وهو في تجواله . . . ربما لن يستقر قط ، لكنه يعتقد أنه ما إن يبلغ هدفه الحقيقي حتى يتخلص من شكوكه ، مشكلاته ، إحساسه ، بأنه بلا جذور . . .

جبال ورجال وكلب

بينغ جيا نمنغ

• ترجمة: حليمة سعد الدين • مراجعة: د. حسام الخطيب

ولد بينغ جيا نمنغ عام ١٩٥٤ وتخرج في المدرسة المتوسطة في مقاطعة بنغيانغ، هونان ١٩٧٠ . وفي السنة نفسها انضم إلى فرقة مسرحية . وفي عام ١٩٨٣ نقل إلى المكتب الثقافي للمقاطعة .

بدأ بنشر أعماله الأدبيّة عام ١٩٨١ . وهذه القصة منشورة في مجلة (سيروتس) ع ٥ ، لعام ١٩٨٣ ، وهي مجلة شهرية تصدر في شنغهاي . ترجمها إلى الأنكليزية يوقانجين ، وترجمت إلى العربية من مجلة (الأدب الصيني) Chinese literature ، كانون الأول ١٩٨٣ .

قال الأب لابنه : دعنا نذهب ، « لقد حان الوقت لنبدأ » . . . كان الظلام لا يزال مخيماً ، والجبال ، والبيوت ، والجداول ، والحقول قد كُفنت بالضباب . الطيور كانت نائمة ، والديوك قد بدأت تزقزق لتوها . ما زال الوقت مبكراً جداً ، لكن الأب قال لابنه : « لقد حان الوقت لنبدأ » . . .

تفحص الأب وجه ابنه بامعان ، وقال لنفسه : « ألا تشعر بشيء من الأسف ليس لأجل هذين اليومين فحسب ، بل لأنك يجب أن تستيقظ باكراً على مدار السنة . » .

كيسان باليان منتفخان من أكياس البريد استلقيا على الطاولة ، لقد غسلهما الأب ونشفهما ، وبقدسية ناولهما لابنه . علمه كيف يفرغ البريد ، ويلفه بقماش مشمع . كانت الجبال مثقله بالضباب ، وكان من السهل أن يبتل البريد .

التقط الأب بحرص عموداً ملتوياً قصيراً للكتف ، وربط الكيس من طرفيه بمهارة . هذا العمود الذي استراح على كتفي الأب لعشرات السنين ، قد تحول الآن إلى كتفين أقوى وأكثر اتساعاً ، كقوة كتفي الأب عندما كان في ذاك العمر . كان الأب قانعاً بهذه الأكتاف . ارتجفت يداه عندما انسحبتا ، بدا الأثاث في الغرفة معتماً عندما اخضلت عيناه بالدموع ، وخيال ابنه الطويل قد تمايل على الجدار المقابل ، استحثه قائلاً : « دعنا نذهب ، لقد حان الوقت لنبدأ » .

شيء مغطى بالفرو ، اندفع باتجاه يدي الرجل وابنه معاً . لقد كان كلباً كبيراً بني اللون . كان الكلب قد استيقظ باكراً ، وأنهى طعامه الذي صنعه له الرجل العجوز ، جثم قباله سيده ، تسمّرت عيناه على الفتى ، كان يتساءل لماذا غيرت أكياس البريد الأكتاف ؟ لماذا بدا سيده شاحباً هكذا ؟ ماالذي يجري ؟

على أية حال ، كان عليهم أن يبدأوا كالمعتاد ، ففي مكان ناء كان هناك أشخاص ينتظرون بأمل وأمامهم امتدَّ طريق لا نهاية له ، بعيد ، ممل ، مضن . كان عليهم أن يواجهوا مشاق الطريق بقدر ما سيواجهون من محاسنها . أطفأوا المصباح ، وأغلقوا باب مكتب البريد الأخضر الصغير بهدوء ، بهدوء كبير ، حتى لا يزعجوا الأرض الهاجعة ، والقرويين الحالمين . وبقيادة الكلب للطريق ، تسلق الأب وابنه الدرج الحجري القديم ، درجة تلو أخرى ، صاعدين خلال الضباب أعلى فأعلى وبعيداً بعيداً .

وفي الأوقات الغابرة ، كان الرجل العجوز والكلب وحدهما يتحركان عبر السكون . الآن أجد هناك شخصان ، الرجل العجوز وابنه .

لقد غير العمود وأكياس البريد الأكتاف ، لقد كان هذا حقيقة . وقد حدثت أبكر مما كان يتوقعها أحد .

وفي أحد الأيام ، صعد رئيس البريد الجبل وقال له : « إنك في تقدم مستمر » .

ماذا يعني ذلك ، لم يفهم قصده . وشاهد هو وكلبه رئيس البريد منصرفاً ، وبعدها استمرا في طريقهما المعتاد .

عندئذ ، وبعد زمن غير طويل ، دعاه رئيس البريد مرة أخرى بعد شرب كأس من الشاي ، لقد أخذه من كتفيه وقاده أمام مرآة طويلة جداً . « انظر إلى شعرك » . قفز قلبه واهياً لدى رؤية شعره الأشهب . حقاً لقد تقدم في السن . وكان عليه أن يعترف بذلك . رفع رئيس البريد بنطال الرجل العجوز عن ساقية . « انظر إلى ساقيك » .

حسناً كان لديه بعض المشكله في ساقيه . عندما يتقدم الناس في السن ، يصابون عادة بنوع من المرض المزمن .

تثبتت عيناه على وجه الرجل العجوز ، قال رئيس البريد : « يجب عليك أن تتقاعد » .

ـ « لكنني مازلت أستطيع . . . . »
ـ « كفاك مجادلة ، إنك تتألم قليلاً من ساقيك » .

كان القرار قد اتخذ ، وكان رئيس البريد قبل ذلك قد أجرى الترتيبات اللازمة بشأن ابنه ، ليذهب وفق الشكليات وليتدرب خلال نصف شهر قبل

هذه المحادثة .

لم تضغط عليه مشاعر الحزن أو العناد ، كانت قوته تتبدد ، كالشمس الغارقه توازنت عند قمة الجبل ، ولم تعد قادرة على البقاء مدة أطول .

هل كان بإمكانه أن يترك ابنه يتولى الأمر ؟ لم تكن المسألة ببساطة مسألة توزيع البريد أو تسلق الجبال بأقدام فتية ، لم يكن ذلك بسيطاً . يجب عليه أن يدربه ، أن يريه طريقه ، أن يخبره كيف يتحمل مسؤولياته وأشياء كثيرة . . . .

كانوا في طريقهم الآن ، كان الفتى قد قام ببداية مهيبه . كانت الرحلة الأخيره بالنسبة للرجل العجوز قبل أن يتقاعد . وكان الضباب ينقشع مسرعاً بهدوء ، إلى أن بقيت علامة ضوء من البخار المتبقي . في تلك الأثناء ، بدأت تتحدد ملامح الجبال والبيوت والحقول المنحدرة عندما بزغ الفجر . الطيور القريبة كانت تزقزق ، وفي الأخاديد البعيدة كان يمكن سماع صياح الديكة المبهج . كانت الجبال بديعة بالنسبة له . وقف الفتى في السهل ينظر حواليه بنشوة .

أراد الأب أن يحذر ابنه ،راقب خطواتك ، الممرات الجبلية ضيقة ، الطريق الحجري زلق ، لكنه أمسك لسانه ، « دعه يمتع عينيه بهذه الجبال إلى أن يقع في حبها ، فإذا كان عليه أن يعمل في جوها طوال حياته ، فمن الأفضل له أن يحبها » .

قال لابنه : يبلغ طول الطريق الرئيسي أكثر من مئتي ميل ، ويحتاج اجتيازه ثلاثة أيام .

في اليوم الأول كان عليه أن يمشي أكثر من تسعين ميلاً . لقد كان ذلك

اليوم أكثر الأيام تعباً ومشقة . كان هناك العديد من المنحدرات ليعبروها ، لذا كان عليهم أن ينهضوا مبكرين جداً ، ويمشوا بسرعة ، لكي يصلوا إلى (واتان تيراس) مع حلول الظلام .

- « ألا نستطيع التوقف في أي مكان آخر ؟» .

- « لا ، يتوجب علينا أن نفكر في اليومين القادمين » .

مشى الكلب ببطء إلى الأمام . متتبعاً طريق ساعي البريد العجوز المطروق كثيراً . في الماضي ، عندما كانوا ينطلقون ، كان الرجل يتولى القيادة لكلب بني قوي ، كان عليه أن يشدّ سيده إلى أعلى المنحدرات .

جثم الكلب بجانب سيده كالمعتاد بانتظار تسلمه القيادة . مسح الرجل العجوز رأسه بحزن وتمتم : « نحن لم نعد نحتاج لذلك اليوم » . نظر الكلب إلى سيده غير مصدق ، ونهض ببطء . لاحظ بأن أكياس البريد كانت على أكتاف أخرى .

لتسعة أعوام مضت ، كان السيد يتحدث اليه عند كل انطلاقة . لماذا هو اليوم صامت جدا ؟ هل كان هناك شيء يتوجب عمله مع هذا الفتى الشاب ؟ ربما ! رمى الكلب الغريب بنظرة (ارتياب) .

دفع الابن الكلب بركبته دفعة ليحثه على المسير . قال والده : « أنت لاتحتاج لأن تسير مسرعاً في البداية ، فقط تحرك بثبات . لدينا طريق طويل علينا أن نجتازه . ازدراد الذئب للطعام بقلب معدته ، والمشي سريعاً في البداية يتعبك كثيراً . » . .

استدار الكلب لينظر للرجل العجوز الذي لم يعطه أية إشارة ليسرع .

لقد تجاهل حث الفتى ، وتابع السير وفق خطواته المعتادة . لقد وجد

الرجل العجوز أنه من الصعب أن يماشي الكلب في خطواته دون حمله المعتاد .

ماأغــرب أن يمشي دون شيء على كتفيــه ! ماذا كان سيحـدث لو أن رئيس الـبريـد لم يحثه على التقاعد ، واستمر يحمل الحمل ! هل ساهم انتقال هذا الحمل بافقاده رباطة جأشه ؟ وجعله أكثر إحساساً باعتلال جسده ؟ .

ذاك مايجب أن يكـون . النـاس كانوا كذلك . استوقف صوت التنفس المتسـارع للأب الابن الـذي نقـل حمله لكتفـه الآخـر ، ورمى الرجل العجوز بنظـرة قلقـه ، فعلى وجـه أبيـه الشـاحب الذابل كقشرة برتقالة جافة استقرت حبيبات من العرق .

- « أنت تعبٌ ياأبي » .
- « المشي يجعلني أشعر بالحرارة » . مسح الأب وجهه بكمه .
- لا . الأمر ليس كذلك . عد واسترح .
- « لايهم . عمري كاشف » .
- « أنت تذهب للبيت . أنـا أستطيـع أن أجد طريقي بفمي كما يقولون » . اكفهر وجه الأب من الغضب . تابعوا مسيرتهم .

ويـدت الجبـال وكأنهـا تطفـو فوق سطـح المـاء بينما كانت الشمس تتوج القمم بأشعتها الذهبية . كانت السفوح قد التفت بالضباب . المشاهد الجميلة كانت تذكر الأب دوماً بالأساطير التي سمعها . لاعجب ! فالآلهة كلها تعيش في الجبال . كان مستغرقاً استغراقاً خاصاً ، ربما سينساب من خلف الجبال فوق الغيوم المتعددة الألوان (بود ستافا جينيان) أو الجنرال الأسطوري لي .

رحلة طويلة في هذه الجبـال المهجـورة ، وفوق هذه الجزيرة داخل الغيوم استيقظت خيالات المرء كالمعتاد . هذه الرؤ ى والخيالات والمشاعر ، ساعدت في اقصـاء وحـدة الـرجل وتعبه . مرة أخرى استغرق في التفكير وفي الذكريات

وضحـك في سره . وأطفـرت خطواته تتسارع بل شعر برغبة في الصغير . لكن عقـل الابن الـوحيـد البسيـط لهذا الـرجل العجوز كان قد سرح بعيداً عن هذا المشهد العظيم .

وكانت خطواته أكثر تناقلاً . توقف الكلب عن النباح عند أعلى صخرة على القمة الذهبية ، واهتز الصوت عبر الوادي ، وبدا أكثر أصوات العالم إثارة وإطراباً .

يالهـذا الصـوت الـرنـان الـذي يملكـه هذا الكلب الصموت الخنوع ! انتصبت أذناه ، ارتفع رأسه وذيله ، وبدا مهيباً ومزهواً .

قال الأب بأنـه يعلن وصـولهم عنـد القـرويـين في الوادي ، مخبراً إياهم بأنهم سيحصلون على أخبار وبريد من العالم الخارجي .

الوقت يجري ببطء عندما تكون في حالة انتظار وتوقع . والاشعار المسبق الذي أعلنه الكلب وضع نهاية للشوق الجارف .
عند قمة الجبل تحت ضوء الشمس الضعيف الذهبي ، وقف الرجلان والكلب بجانب سياج عريض ضخم ، مشيرين إلى الجانب الآخر من الجبل . أعطى الأب ابنـه فكـرة اجمـاليـة حول المكـان ، سكـانـه ، عدد ألـويتـه ، والانتـاج الجـماعي ، وأين وكيف يجب أن توزع عدة أوراق ومجـلات ، وهـذه التفـاصيل والحسابات الدقيقة بدت كما لو أنها قد نقشت في عقله وغطيت بطبقة عازله من الشعر الأشيب .

ـ « إذا كانت هنـاك رسـالـة للسيـد (رونجـرون) في بيت (كاسيـا) سيكـون عليـك أن تقـوم برحلة خاصـة لمدة ثلاثـة أميـال سيراً على الأقـدام لتسلمها له ،علاقته ليست خشنة بسكرتارية اللواء وهم لن يقدموا الرسائل له » .

- « أين يقع بيت كاسيا » .
- هناك . أشار الأب .

- « إن (وانغ وو) عند (موغونفيو) أعمى ، عندما تُحَوَّل له نقود من ابنه الأكبر الذي يعمل في الخارج ، يجب عليك أن تسلمها له ، وتضعها في يديه . ابنه الأصغر ليس صالحاً ومرة أخذ نقوداً دون أن يخبر أباه بشيء . هل تستطيع أن تتذكر هذا ؟» .

- « نعم » .
- « القرويون في (لوكسنغوان) كانوا يربون الأرانب في السنتين الأخيرتين . عندما تُسلّم رسائلهم يجب عليك أن توقف (براوني) عن مطاردتهم كالقطعان .

كان هناك المزيد إذ كان الأب واقفاً على قمة الجبل ، يتطلع إلى الأخاديد البعيدة والمنعرجات ، وأخبر ابنه أن يقف بجانبه ، وزوده بالتفاصيل التي يجب عليه أن يقوم بها ، وما الذي يجب عليه أن ينتبه إليه ، وكان يقرن كل نصيحة بقوله : « أباستطاعتك أن تتذكر ذلك ؟ » وكان ينتظر أن يقر ابنه بايماءة قبل المتابعة . وعندما كان يتلو أسماء المسؤولين في اللواء ، وأعضاءِ الحزب ، المعلمين ، وأشخاص آخرين مهمين كان يوليهم عناية خاصه ، كفّ عن مُلاحظة ابنه والتأكيد من أنه يومىء برأسه ويتذكر كل ما قاله .

كان يركّز على إخبار خليفته بكل شيء عرفه .

كان الابن شديد الشبه بأبيه ، بالكيفيه التي يبتسم بها ، حديثه ، بملامحه ، وبطريقته الحريصة التي عمل بها ، كان الأب مسروراً وكذلك كان القرويون أكثر ، لقد أخبرهم الأب بأن ابنه سيسلم البريد منذ الآن ، وعلى أثر ذلك أطراه قائد اللواء ورحب به .

عندما سأله عن مشروعاته الخاصه ، لم يذكر الرجل العجوز شيئاً عن تقاعده ، وكذب بقوله بأنه سيدير العمل هو وابنه . وبينما كان يتكلم شعر بأن عينيه تتوهجان ، وسرعان ما سحب منديله من جيبه لينظف أنفه ويخبىء هيجانه .

بعد أن أفرغ الكيسان سَرعان ما امتلأ ثانيه بالطرود والرسائل والشيكات التي تركها القرويون مع معلم المنطقة . وبينما كان الرجل العجوز يسلم البريد ، كان في الوقت نفسه يجمعه ثانية . وفي أثناء عودته المتعثرة كان لديه حمل أثقل مما بدأ به . وبمجرد ثلاثة أيام من الغياب فقط ، بدت للرجل العجوز وكأنها سته شهور عندما سأل عما كان يحدث ، سأل عن الأبقار والخنازير ، وسأل عن الذين خطبوا أو تزوجوا ، وكل الأحداث اليومية . لكنه لم يستطع أن يستمر في استفساراته . فالفتى والكلب قد انطلقا لتوهما . وبينما هبط الظلام سريعاً ، توجه الكلب مسرعاً نابحاً بسعادة ، وبعدئذٍ عاد محركاً ذيله . وهكذا فكر الابن : يجب أن تكون (راتان تيراس) .

وبجانب جدول رأى مجموعة من الأسقف الشهباء والسوداء غير المنتظمة . في هذا الجانب من الجدول ، في حديقة الخضراوات كان أحدهم يغرق في الضوء الباهت .

عدا الكلب مسرعاً نحو فتاة في لباسٍ أحمر ، دائراً بسعادة حول ساقيها . نهضت ، ونظرت حولها باتجاه نحو ساعي البريد المألوف ، منادية باسم الرجل العجوز ، ثم رأت الفتى فأسرعت نحوه لتأخذ عنه الحمل ، وقد تورد وجهها خجلاً . قدم الرجل العجوز ابنه كساعي بريد جديد وأنبأها بعمره . لماذا كان يقول كل هذا ؟ حملق الابن في وجه ابيه ، لكنهما قد استقبلا بترحيب خاص . أعطيا الماء ليغتسلا به ، ووجبة عشاء جيدة ، أفضل فراش ، ووجبة خفيفة في منتصف الليل . أدرك الأب خطأه . لماذا تكلم كثيراً ؟ لماذا

توقف عند بيت الفتاة ذات اللباس الأحمر ، شعر بشيء من عدم الارتياح .

تذكر شبابه كساعي بريد في السهل ، كيف ؟ لأنه كان يتوقف دائماً عند بيت كبير من أجل الطعام والراحه . لقد أثار اهتمام فتاة شابة . تلك الفتاة نفسها ، اعتادت أن تنتظره تحت شجرة القيقب عندما كان في جولاته . واعتادت أيضاً أن تودّعه بسرية تامة . أخيراً نسجت زوجاً من الأحذية القطنية صنعتها لأجله ، وزوجاً من النعال المطرزة بزهرتي لوتس « نيلوفر » على كل ساق ، كعلامة حب في كيس بريده الأخضر . تلك الفتاة أصبحت فيما بعد زوجته ، وأماً لابنه . كان يكنّ لها تقديراً كبيراً ، طيلة حياته كان يوزع البريد في حين كانت تتأقلم مع كل أنواع المشقات . كان الأزواج الأخرون كالأشجار الكبيرة يظللون زوجاتهم . كان زوجاً بالاسم فقط ، كالضيف كان يقضي ليلة أو ليلتين في البيت قبل أن يغادر مرة أخرى ، تاركاً إياها وحيدة في أغلب الليالي . هل سيتكرر ماضي الأب نفسه مع الأبن ؟ ربما ! كم كانت الفتاة مسرورة ! لقد تحسر الرجل العجوز لعدم مبالاته بزوجته . كان عليه أن يتوقف في مكان آخر . كان كارهاً أن يرى ابنه يصل إلى الحالة نفسها . أثمة مشكلة حول الفتاة ؟ ليس حقاً لقد راقبها الرجل العجوز تنو ، وأحبها ، وأحب إخوتها . كان والدها عاملاً متمكناً ، فأمها كانت امرأة جيدة . في الماضي أقام الرجل العجوز قليلاً في ذلك المكان . الفراش السميك في الشتاء ، والحصير البارد في الصيف قد نقش في ذاكرته . عندما كانت الفتاة صغيرة غالباً ما كان يمازحها قائلاً : عندما تكبرين سوف آخذك لبيتي في السهول ، واجعل منك زوجة لابني .

حسناً ؟ كانت الفتاة تخجل وتلكزه وتشد شعره ، سألته مرة بجدية تامة : « هل ابنك بهي الطلعة ؟ هل هوطويل ؟ هل يشبهك ؟ » لقد تذكر الفضول يعلو وجهها ، وهكذا وصف ابنه الوحيد مازحاً كما لو كان إلهاً .

وكما يقول المثل ، إن للطفل ذاكرة كالفيل ، لماذا لم يتذكر كل هذا عندما أحضر ابنه ها هنا ؟ قد يتحول المزاح إلى حقيقة . هذا ما حصل في المسرحيات ، لقد أحب هذه الفتاة ، لقد كانت أجمل وأكثر حيوية من الفتاة التي كانت ستصبح أماً لابنه ، كانت أيضاً فتاة عصرية . وماكان هذا يحتاج إلى دليل . ماذا كانت الفتيات تعرف في تلك الأيام ؟ لاأكثر من تطريز زهرتين من اللوتس . كن يخفن حتى النظر إلى الناس ، وكن يحنين رؤوسهن عندما كان عليهن أن يتكلمن . لكن الفتيات اليوم ، حتى . . . لماذا ؟ لقد حدقت في وجه ابنه غير مهتمة فيما إذا كان مضطرباً أم لا . وأمطرته بوابل من الأسئلة حول السهل ، الجرارات ، المضخات ، قوارب العبور ، الدراجات ، . . . كانت شديدة الانتباه ، شديدة الاستغراق .

يدها تسند ذقنها ، عيناها تلتمعان كالماء ، لاأثر للخجل فيهما . الفتى الشاب في هذا الطريق البريدي سيجد أن من الصعب عليه أن ينجو من حبال هذه الفتاة . إنه جيد بالطبع . لكن فتاة تتزوج من ساعي بريد ستكون حياتها قاسية . هل هذا يعني أن ساعي البريد عليه ألا يتزوج ! حسناً . يجب عليه أن لايزعج نفسه بذلك . . ذاك الأبن المحظوظ . . .

في اليوم التالي أصرت الفتاة على رؤية الأب وابنه معاً ، وظهرت في ثوب حريري جميل أحمر .

بدا الرجل الشاب وكأن لديه شيئاً أراد أن يقوله ، وهكذا تخلف الأب عنه تاركاً مسافةً قليلة بينهما .

تلا الأب أسماء الجداول التسعة التي كان عليهم اجتيازها في ذاك اليوم . السبعون ميلاً التي كان من الواجب عليهم قطعها لم تكن شديدة النعومة ولاشديدة الانحدار ، لكن الجداول كانت هي المشكلة . في الربيع والصيف

تكـون ممتلئـة بالمـاء ، وتـرتفـع ثلاثـة أقـدام بعـد الأمطار الكثيفة ، وتمتد على الشـارع عشـرة أقـدام من المياه المندفعة ، وكانت تغطيتها بالجسور مستحيلة . وفي الخريف والشتاء كانت الضفاف الجافة تفرش بالحصى . وبالنسبة لساعي الـبر يـد ، كان هذا التغير المستمر في الجداول أكثر خطراً من المسافات الطويلة وعوامل الطبيعة . طالما أنه يجب قطعها مهما كان الطقس بارداً أو الماء سريعاً ، كان لايستطيـع الانتظـار لأيـام قليلة ، أو أن يسلك طريقـاً آخـر كما يفعـل القـرويـون . وأحيـانـاً كان يتـوجب عليـه أن يرفع ساقي بنطاله ويحمل أكياس الـبر يـد على رأسـه . قد يكـون هذا الـذي أدى إلى إصـابـه الـرجل العجوز بالـرومـاتيـزم . كان رئيس الـبر يـد قد رافقه في أحدى رحلاته ووجد كم كانت مهمتــه صعبــة . ونـوى أن ينقله إلى طريق آخـر ، ويعـين رجـلاً أيفـع لهذا الطـريق . لكن الـرجـل العجوز لم يسمع بنيته . أي قادم جديد ما كان ليعرف شيئاً عن هذه الجـداول . كان الابن سبـاحـا ماهـرا ، ترعرع بجانب النهر في السهل . لكن هذا لم يعني بأنه يستطيع أن يعبر هذه الجداول ، أو يوازن نفسه فوق هذه الصخـور المنحـدرة ، المغطـاة بالطحـالب ، لقـد أراد أن يريه أفضل الأمـاكن ليعـبر ، وكيف يختلف عمق الميـاه بالنسبة للمواقع . لقد تولى الفتى حمل عبء ثقيـل . وهـذه الأشيـاء لم تكن أحداثاً تافهة . إن قدم الابن الصلبة القوية كانت ثابتة . عطل أولئك الناس الذين يغير ون وجه الأرض . لقد عبر الجـداول بثقـة ، ألقى أكياس البر يد أرضاً على بقعة معشوشبة ، وعاد أدراجه ليمسـك أبـاه . ماكـان ليرغب في أن يخوض الـرجـل العجوز في الماء البارد مرة أخـرى . رفض الكلب أن يعـبر ، لقـد اعتـاد أن يرافق الرجل العجوز دومـاً ، معـاكسـاً التيـار بجسـده ليحـد من قوته باتجاه أقدام ساعي البر يد الضعيفة . تساءل الكلب لماذا بقي الرجل العجوز مرتدياً حذاءه وجواربه ؟ راقب الغريب يفـرغ أكيـاس الـبر يـد ويعـود . قدمـاه القـويتـان اليافعتان قد احمرتا من شدة الـبرد ، وطئتـا بحزمٍ المياه الضحلة وهو منحنٍ ويداه خلف ظهره . لف الأب

ذراعيه حول عنق ابنه وأصبح محمولاً على ظهره الواسع الدافىء ، بينما كان الفتى الشاب قد دلك ركبتي الرجل العجوز . نبح الكلب وسبح بجانبهما إلى الأمام . أغمض الأب عينيه ، وقد أخذته نوبة خفيفة من الدوار . لقد وجد أن كل ذلك شيء من الصعب تصديقه . عندما فتح عينيه وشاهد الضفة أمامه ، والكلب يسبح ، أدرك بأنه قد عبر الجدول بأقدام دافئة غير مبللة . وهكذا اختلف الأمر عن الماضي الذي أصبح الآن مجرد ذكرى . سقطت دمعة فوق عنق الابن الذي أحنى كتفيه ، وأدار رأسه وتمتم بشيء ما . . تذكر الأب أنه حمل ابنه مرة على ظهره . كان ذلك عندما كان رئيس البريد قد أمره أن يقضي ثلاثة أيام في بيته مع أسرته بمناسبة رأس السنة الجديدة .

لقد ولدت له زوجته بنتين وولداً . لم يكن موجوداً عند ولادة ابنه ، وقد أرسلت له زوجته بيضاً مصبوغاً باللون الأحمر ، كما لو كان صديقاً للأسرة ، كانت العادة أن يقدم البيض الأحمر للأصدقاء والأقارب بعد أن يولد الطفل ، ولأربعة أجيال في أسرته لم يكن هناك إلا ولد وحيد . لهذا أقاموا احتفالاً كبيراً في أول عيد ميلاد لابنه . قالوا بأن عشرات من الناس قد قدموا للنساء بينما كان وكلبه يجبان فوق الجبال . وعندما عاد الى مكتب البريد على سفح التلة ، أخبر بأن زوجته قد أرسلت له لحماً وخمراً . وهكذا أقام احتفالاً بولادة ابنه مع أصدقائه . لكنه في هذا الوقت ما كان يستطيع حتى أن يقبل ابنه . لقد اشترى مفرقعات نارية ، ومصابيح ، وصنع بندقية من الخيزران . . . والآن لقد أصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليلعب بأشياء كهذه .

في ذلك الوقت لم يستقلّ الباص ، فانتظار أحد الباصات يستغرق وقتاً طويلاً . لقد سار وكلبه مشياً على الأقدام . في تلك العطلة كان قد ترك ابنه يقضي طوال يومه على ظهره ، وكان يحتفظ به على ظهره حتى لو رغب بالنزول ، في محاولة للتعويض عن اهماله . كان ذلك الوقت الوحيد الذي قد

حمله فيه . الآن . . صار ابنه يحمل ، يحمل جسده الشائخ تقريباً . .

لقد غمرته مشاعر من الأمان والدفء ، لقد غمرته سعادة فائقة لكونه أباً فقط . هذه السعادة محت كل المرارة من غربة السنين التي قضاها في الجبال وعبور الجداول ، حياته مع الكلب وأكياس البريد ، الوحدة والحياة القاسية . وحالما وصلوا إلى الضفة ، نبح الكلب ليذكر الرجل العجوز ماذا عليه أن يفعل ؟ نعم ، لقد نسي تقريباً . لقد أسرع هووكلبه الى بستان من الأشجار . عاد الكلب بشيء من القش ، ثم انطلق بسرعة البرق داخل الأشجار مرة أخرى ، وجد الابن علبة ثقاب أبيه وأشعل ناراً بينما أحضر الكلب أخشاباً أكثر .

أشعل الأب النار ليدفىء قدمي ابنه المتجمدتين ، بعدها ، نفض الكلب الماء عن جسمه ثم استلقى أرضاً بجانب النار ، وولعق يد الفتى الشاب . ماعاد غريباً الآن ، إنه رجل جيد حمل سيده العجوز عبر الجدول . وكان الكلب ممتناً له .

ولاح جمع من الناس . ركض الكلب باتجاه القرية المحاطة بالجبال ، والمغطاة بغيوم الماء . استطاع الأب والأبن أن يشتما تقريباً رائحة عشاء شهي ، ونكهة كومة من القش تحت الفراش . كان ساعي بريد القرية يعطل أيام الآحاد . وكان اليوم الذي تلا رحلتهم الأولى يوم أحد . جلس الأب وابنه في حديقة الخضروات المشمّسة ، بينما رقد الكلب بجانبهم يزعج الفراشات بمخالبه . كانوا قد تكلموا لمدة ثلاثة أيام . . .

بدا الأب وكأنه أفضى بكل ماأراد أن يقوله ، ولكنه استمر . ربما كان يعيد نفسه . . . بينما كان الابن يستمع اليه بصبر . عندما توقف أخيرا ، بدأ الابن . . بما أنه كان جديداً في العمل في الجبال ، لم يكن في الحقيقة مؤهلاً

ليقول الكثير لكن الأب كان عليه أن يعود إلى القرية مكانه . لقد عمل بعيداً لعدة سنوات . ستكون القرية الآن أرضاً غريبة بالنسبة إليه كان عليه أن ينطلق من البداية . ولم يكن الأمر سهلاً ليّناً بالنسبة للحياة هناك .

ـ « لدى رجوعك للقرية ، أول ما يجب عليك أن تفعله ، أن تزور العم الكبير (جينو) الذي اعتنى بنا خلال السنين الثلاث السيئة . لقد أقرضنا زيتاً وقمحاً عدة مرات ، حتى أنني لم أعد أذكر الكمية ، لم يعد يريدني أن أردها .

قال الأب : إنه رجل طيب ، وعلي أن أقصده وأشكره إن ذلك غير ضروري ، وفي نفسه شيء من الكبرياء ، ولقد شكا من أنك مترفع عن زيارته .

ـ « ذاك ليس صحيحاً . أنا لم أكن أملك الوقت فحسب » .
ـ أنا أعلم ، لكن يجب عليك أن تكون أكثر حرصاً في المستقبل .

أضاف الابن : لكنك يجب ألا تتجاهل قائد اللواء يا أبي . إياك أن تؤذيه . فقط تجاهل كل شيء لاتحبه . بامكانه أن يثير الصعوبات في وجهك إذا شاء .

ـ « لقد سمعت عنه ، هو ليس طيباً ، هل نعني بأنه مثل نمر » .
ـ « نمر أو لا ، هذا ليس عملنا » .
ـ «حسناً ، يقول الناس عليك ألا تلمس عرين النمر ، لكنني موظف في الحكومة أيضاً ، يجب عليّ أن أحاول فحسب » .

أصبح الابن قلقاً . « لكن علينا أن نحصل على البذور ، والسماد الطبيعي ، والمبيدات الحشرية من اللواء . سيكون أمراً سيئاً أن تقع في شجار معه » .

ـ « لاأظن أنه لدينا عدة خدمات لنطلب تأييده ، وعندما لايكون هناك

خدمات ، فالناس يكونون على قدم وساق » .

عناد الأب وضع حداً لمناقشة الابن . حاول الأب أن يسترضي ابنه لدى رؤية نظراته المتوسلة : « أنا لست ذاك المتهور إلى درجة حب السيطرة » .

أخبره الابن بأنه وأمه وأختية قد وقعوا عقداً لحقل أرز . وكانوا قد اتفقوا للتوّمع أصدقائهم ليساعدوهم في أعمال الحقل . الأب يجب عليه أن لا يخطو في الماء بسبب الروماتيزم . « عدني بألا تفعل » ناشده الابن .

- « حسناً » .

- « سعلت أمي دماً في إحدى المرات ، وكان الربو يأتيها في الشتاء ، لكنها ترفض أن ترى طبيباً ، أو تأخذ دواء . هل ستأخذها إلى المدينة لترى طبيباً ؟ أنت تعرف كثيراً من الناس هناك » .

أومأ الأب برأسه .

العودة للبيت كانت عملاً معقداً ، هكذا خطر للأب لقد نظر إلى هذا الفتى الذي كان عليه أن يتحمل مسؤوليات الأسرة الثقيلة ، ويعمل كالثور من أجل أن يريح والده وأمه العاملة فوق طاقتها . كان عليه أن يترك المدرسة في عمر مبكر جداً ، ولم يحظ بالدلال كما يكون الابن الوحيد عادة . وكل ذلك بسببه . أراد أن يعانق ابنه ويقبله لكنه أصبح الآن رجلاً ناضجاً . أراد أن يعبر عن امتنانه ، لكنه لم يقل شيئاً . لم يكن من عادته أبداً أن يمدح الناس .

أخيراً . ملأ الأب كيسي البريد الأخضرين لابنه ، أخذ ذلك منه وقتاً طويلاً بما أن يديه أصبحتا غير رشيقتين .

نام الأب والابن في السرير نفسه . إرهاق رحلتهما، وحرارة جسد الابن

كانا من الممكن أن تجعلهما يناممان جيداً . لكنه لم يفعل ، ولوقت طويل بقيت عيناه مفتوحتين بينما كانت الرياح تضرب إطار النافذة برفق ، والحشرات كانت تزحف في الخارج بشكل متواصل ولو أن الكلب لم يشدّ شبكه الناموسية ولم ينبح ، لكان الرجل العجوز نام حتى وقت متأخر من الصباح . نهض من فراشه ، ارتدى ملابسه ، وهز ابنه النائم .

وبهدوء ، طبخ بعض الأرز وأطعم الكلب . عندما تجهزوا للمغادرة ، وضع العمود على كتف ابنه ، أطفأ المصباح وأغلق الباب . وبعدئذ تبعه خارجاً بينما لا تزال نجوم تتلألأ فوق رأسه . وبينما كانوا ينزلون الدرج الحجري ، تعثر الأب ، لم يعرف كيف حدث ذلك ؟ وبسرعة وضع يده على كتف ابنه وأسند نفسه .

بجانب جدول متقلب متدفق ، عند جسر حجري نديم صرخ الابن ورفض أن يخوض في الماء إلا إذا عاد والده إلى مكتب البريد . كان عليه أن يقف هناك في الضباب مهما طال الوقت .

رأى الأب في الجدول انعكاس تعابير عناد ابنه . قرر أن يعود ، وقال : ستذهب إذاً . لكن راقب خطواتك . أطرق الابن بصمت . حكه أنفه قليلاً لكنه لم يتحرك . استدار الأب لينظر خلفه . والكلب ؟ كان يقف على الجسر ينبح بقلق .

صعد الرجل العجوز ، قعد القرفصاء ، ووضع ذراعيه حول عنقه :

« رافقه . سيكون طيباً معك ، سيحتاجك ، سيحتاج لمساعدتك سوف تريه الطريق عبر الجدول ، وتساعده في مقاتلة الأفاعي ، القرويون يريدونك أيضاً . أتفهم ؟ » .

هَوْهَوْهَوْ . . نبح الكلب ممازحاً .

« أنت تذهب معه . اذهب » أمره الرجل العجوز .

استدعاه الابن : « تعال » .

استدار الأب بشكل مفاجىء وانطلق ، تردد الكلب وتبعه نابحاً بضعف .

التقط الرجل العجوز قطعة من الخيزران ، ولكز الكلب في وركه . نبح الكلب وزكض باتجاه الجسر . ألقى الرجل العجوز الخيزرانة في جدولٍ صافٍ كالكريستال ، وهو يقاوم عضه في حنجرته . أحس هواء حاراً فوق ركبته . والتفت ثانية ليرى الكلب وقد عاد مرة أخرى . انحنى ثانية وتمتم : « اذهب من هنا » .

واندفع الكلب البني كالسهم إلى الأمام .

منطقة المستنقع العظيم
بقلم: ماو تون

● ترجمة: حكمت لميا ● مراجعة: د. حسام الخطيب
عن الانكليزية

استمر المطر الخريفي يهطل سبعة أيام بكاملها دون توقف. الليلة الفائتة هبت ريح قوية استمرت عنيفة حتى أوشكت أن تقتلع الخيام. وبينما كانت خامدة تئن مثل مزمار حزين رفع المطر الذي كان في خوف مؤقت رأسه مذعوراً وعاد يهطل كأنه طبول حرب مدوية.

وهنا وهناك انتشرت أصوات أخرى، أصوات غريبة ورهيبة، أصوات حادة تعلو وتنخفض كما لو أنها أصوات بشر. كانت قد بدأت في منتصف العاصفة منذ يومين، وقال البعض أنها كانت عواء ثعالب.

كان معسكر قد نقل لتوه إلى مرتفع حيث يتاح للمجندين التسعمائة أن يناموا على فرش من قش الأرز. كان ذلك هو الحل الوحيد الذي توصل إليه الضابطان اللذان يقودان الرجال لأداء الواجب في موقع بعيد متقدم. كان الضابطان يغرقان في الشراب طيلة النهار.

لم يكونا بليدين على هذا النحو دوماً. وبالرغم من أنه لم يكن في وسعهما أن يتفاخرا بمعارك كثيرة فقد كان آباؤهما وأجدادهما قادة شجعاناً في سلاح الفرسان الحديدي الذي ظل يغتصب الأراضي عشر سنوات وهزم كلاً من ممالك: وي، وتشاو، وهان، ووتشو، وين، وتشي، ووحدوها تحت ظل الإمبراطور الأول تشين.

كانا قد سمعا قرع طبول الحرب وهما لايزالان في رحمي أمهما و تربيا على ظهور الخيول المفعمة بالحيوية ، كانا من أخلاف الجنرالات وملاك الأرض الميسورين ، الذين كان ارتداء درع الجندي امتيازاً خاصاً بهم ، وكان الجنود الذين يقودونهم على الغالب ملاكاً مثلهم ، شباناً من قريتهم تشدهم بعضهم إلى بعض الولاءات الطبقية .

بيد أن المجندين الذين يأمرهم هذان الضابطان هم مجرد مجندين عبيد محتقرين لم يكن لهم الحق أن يخدموا بوصفهم جنوداً من قبل أبداً ، وهم من الغوغاء الذين لا يحملون أية مشاعر نحو طبقة ضباطهم قطعاً .

في هذه الرفقة الجديدة و العدائية ، وفي اللقاء العرضي تحت مطر خريفي موحش ينهمر بلا انقطاع كان الضابطان يغطان متثاقلين في سبات عميق تحت وطأة السكر الشديد . كانا معفَّرين كقطط غمست في الوحل ، لكنهما كانا قططَين من النوع الذي لم تعد تخشاه الفئران .

حين كان الضابطان يستيقظان في منتصف الليل كانا يسمعان صوت الريح المزماري وقرع المطر كقرع الطبول ويشعران وكأن الريح الخريفية تقضقض عظامهما قطعة قطعة ، ويتملكهما شعور غامض بأنهما وصلا إلى الرمال التي لا نهاية لها من الموقع الشمالي المتقدم . كانت يويانغ هي الهدف . لكن هذا الشعور لا يلبث أن يتبدد . يويانغ ، يالها من كلمة سهلة على اللسان هل هي يويانغ نفسها التي قاد القائد العظيم ثلاثمائة ألف رجل لم يعودوا أبداً بل أصبحت عظامهم سماداً للأعشاب البرية ؟

ابتعدي أيتها الأفكار الملعونة ، بعد الشراب يظلم العقل ويكتئب . كان يتوجب على جماعتيهما أن تصل إلى مركز الحدود قبل الثامن من الشهر القمري ، وبالرغم من أن الشهر كان قد أوشك على نهايته عندما وصلوا إلى

منطقـة المستنقـع الكبـير فإن المطـر الجهنمي كان يؤخـرهـم الآن . إن القوانين العسكرية لا ترحم أولئك الذين يخفقون في تنفيذ الأوامر ضمن الوقت المحدد .

وكـانت قد انتشـرت شائعـة مفادهـا أنـه منـذ يومين تم اصطياد سمكة وجـدت في بطنهـا قطعـة قماش بيضـاء كتب عليهـا بلون قرمـزي ثلاث كلمات هي : الإمبراطور تشين شينغ .

تشـين شينـغ ؟ كان اسم أحـد الضـابطين اللذين يقودان المعسكر تشين شينـغ كان رجـلاً ضخماً ، وكفلاح فقد كان وسيماً بشكل استثنائي ، لكن ماذا يعني كل هذا بالنسبة « للإمبراطور » .

وفجأة دوّت صرخـة حادة من مرتفـع بعيد كانت من القوة بحيث أخفت صخب الـريـح والمطـر وبوجهين شاحبين نظر الضابطان كل منهما إلى الآخر في ضوء القنـديـل الخـافت . كـانت الصـرخـة تقطـع الأنفاس وتوقف القلب عن النبض ، لقد جمد الدم في العروق .

كانت الثعالب قد اعتادت أن تعوي كل ليلة ، لكن هذه المرة كان عواء ثعلب عفـريتي ، عواء يتفطـر له القلب ، واستمرت الولولة والشتم والتهديد ، وكان يمكن تمييز الكلمات بوضوح :

« تعيش مملكة تشاو »

« تشين شينغ امبراطورنا »

ردد الضـابطـان النـدائـين بألسنـة خائفـة مشلولة ، وكان في وسعهما أن يشـاهـدا تشـين شينـغ ـ وهما في كامـل قواهما العقليـة وبأعين ألهبها الشراب ، ويشـاهـد وجهـه الفـلاحي البـائس داكناً مجعداً قليلاً وقد لوحته الشششمس ونظـراً لمنـزلتـه فقـد اختاره المجندون من بينهم ليكون زعيم المعسكر . وماذا إذا

كان له ذراعان من حديد ؟ إنه لم يكن يعرف شيئاً في العلم العسكري .

لم يكن الخطر الأكبر في تشين شينغ بل في المطر . لقد منعهم المطر من متابعة السير وقطع عنهم الإمداد ، وتكفي سبعة أيام أخرى لتقضي عليهم جميعاً بالموت جوعاً وحتى قبل ذلك هل ثمة شيء لن يجرؤ عليه المجندون عندما يجدون أنفسهم مهددين بالموت جوعاً ؟

كان المطر لا يزال ينهمر في اليوم التالي . كان الضابطان مترددين فيما يتعلق بمغادرة خيمتهما لمواجهة نظرات الكراهية ، فقد بات الرجال يعيشون على لحوم السمك والقريدس . وبالرغم من أنها كانت تملأ بطونهم فإن هذه الحمية جعلت منهم أشخاصاً أشبه بالمحار الصدىء ، كما أن الجنود لم يعودوا مطيعين سهلي القياد وملأ أنفسهم التذمر الساخط .

- « ماذا عسانا أن نفعل ؟ لا نستطيع السير ، لكن إذا مكثنا هنا فسنغرق جميعاً » .

- « سوف نصاب بالمرض إذا تابعنا تناول السمك فقط ؟ » .

- انتهى حطب النار . يمكننا أن نحرق فرشنا اليوم ، ولكن كيف نطبخ غداً ؟ .

- هل سيكون علينا أن نتناول سمكاً نيئاً ؟ نحن لسنا حيوانات مائية .

- يقولون إننا على مسافة حوالي ألف ميل عن يويانغ .

- إذا وصلنا إلى هناك فسنموت بشكل أو بآخر .

جحظت عيونهم خوفاً من الموت . لماذا عليهم أن يموتوا في يويانغ ؟ لأن القانون العسكري يحكم بالإعدام على كل من يعصي الأوامر . لم يكن

القانون من صنعهم ، لكن عليهم أن يموتوا ، وحتى إذا لم تكن ثمة قوانين من هذا القبيل فماذا سيجنون بعد وصولهم إلى يويانغ و انتصارهم على رجال قبائل هسيونغ نو ؟ لقد كان المجندون التسعمائة في الأصل فلاحين في الممالك الست التي فتحتها ولاية تشاين . ومع أن بلدانهم لم تقدم لهم سوى الحروب والعمل الإجباري وليس لها عليهم منة فإنهم كانوا على الأقل « مواطنين أحراراً » . لقد ندموا ندماً عميقاً لأنهم لم يذودوا عن بلدانهم عندما غزتها قوات تشاين .

لقد أمسوا الآن عبيداً ، مجندين ما عليهم إلا كسب الغنائم لصالح ملاك الأرض الأغنياء ، « المواطنين الأحرار » لولاية تشاين القوية . أليسوا في طريقهم إلى يويانغ لحماية هؤلاء « المواطنين الأحرار » الذين وضعوهم في هذه المذلة لتحقيق الغنائم للإقطاعيين الأغنياء من أمثال ضباطهم ؟ أليسوا بصدد سحق عظام الرجال البائسين في معركة رهيبة ضد رجال الهسيونغ نو ـ البدو الذين يمموا شمالاً بحثاً عن الكلأ ـ لكي يحولوهم إلى عبيد مثلهم .

لم يكن الجنود قد فكروا بواقعهم من قبل أبداً . بيد أن إعاقة المطر لهم ، ولأنه كان عليهم أن يقتاتوا على السمك يومياً ولا حطب للنار لديهم وأصوات الثعالب الغريبة في الليل ، كل ذلك جعل هذه الأفكار تتسرب إلى أذهانهم بشكل سديمي .

الكتابة على قطعة القماش التي وجدت في بطن السمكة ، الثعلب الذي كان عواؤه كصوت إنسان وسط الليل . هذه الأمور اعتبرها الجنود التسعمائة غريبة لكن ذلك كان كل ما ذهبت إليه أفكارهم . لقد ساهموا بأكثر مما ينبغي لأن هذا أو ذاك أراد أن يكون ملكاً . كانت رغبتهم الوحيدة أن يعودوا أحراراً من جديد . وكان لديهم من الأفكار ما يكفي للإعتقاد أن يوم خلاصهم صار قاب قوسين أو أدنى . ألم يسقط حجر من السماء منذ عامين وقد كتب عليه :

« سوف توزع الأرض عندما يموت الإمبراطور الأول ؟ » والعراف الذي يسكن شرق جبال هواشان ويسوق عربة يجرها حصان أبيض ألم يتنبأ بأن الإمبراطور التنين سيموت العام القادم ؟ حسناً لقد مات إمبراطور تشاين الأول وخلفه الثاني . حان الآن الوقت لمعرفة الجانب المتعلق بتوزيع الأرض من النبوءة ، وأصبح جلياً للمجندين التسعمائة أن الشيء الوحيد الذي يعادل المغامرة بأرواحهم من أجله هومتعة زراعة أرضهم . لم يكونوا مهتمين ب « تشين شينغ » الإمبراطور ، وإذا كان لابد لهم من أباطرة ، فإنهم يريدون واحداً يختلف عن الإمبراطور القديم امبراطوراً يعطيهم أرضاً لهم ليحرثوها .

* * *

استمرت الريح تعصف ، وظل المطر ينهمر لكن صيحات المجندين التسعمائة كانت أعنفف من العاصفة ، وموجة إثر موجة كانت أصوات الشغب تقتحم خيمة الضابطين ، وبدأت الأمور تفلت من أيديهما . مشى الضابطان بخطوات واسعة وبطيئة خارج الخيمة ، كانا يريدان أن يضعا هيبتهما موضع الاختبار .

سارا كما لو أنهما يقومان بجولة روتينية في المعسكر . أعطى ظهورهما المفاجىء شعوراً مفاجئاً . صحيح أن تذمر الرجال بدأ ينحسر شيئاً فشيئاً ، لكن بدلاً من أن يستخدم الجنود أفواههم ظهر الإحتجاج في عيونهم فلم يرحبوا بالضابطين بتحية ولا حتى « برفة عين » . كان الحقد والسخر يملآن عيونهم ونظرات تقول :

ماذا أنتما فاعلان ؟ كان الضابطان قد استعدا للرد على تساؤلات ، والنظر في الشكاوي . وسعيا وراء إنهاء عزلتهما فقد كانا على استعداد لتقبل حتى « الإهانة » وخلافاً لذلك فقد قابلهما المجندون ببرود جعلهم يشعران

بعزلة أشد . كانا كما لو أنهما في بلد أجنبي ، في معسكر معاد ، في برية شاسعة تتقد فيها العيون حقداً . كان يفصلهما عن الرجال نهر من الكراهية مثل النهر الأصفر . لم يكن يجمعهم بهم شيء إطلاقاً . كان المجندون يذوقون الأمرين ، كانت لهم مطاليبهم ، لكنهم لن يفضوا برغباتهم لهذين الضابطين . وأخيراً وقف الضابطان على رابية خارج المعسكر وتظاهرا بأنهما يستطلعان التضاريس .

أصبح المستنقع العظيم شديد الاتساع ، وبدت أكواخ القش قابعة خلف السديم الأبيض ، وارتفع الماء عالياً حتى أن إثنين أو ثلاثة من القرويين رموا بشباكهم أمام الأبواب تقريباً . أما أشجار الصفصاف الباكية فقد نشرت أغصانها المتدلية في الأمواج بينما انغمرت القصبات حتى شرّاباتها التي كانت ترتجف فوق الماء في حركة لا مبالية . كانت السماء رصاصية اللون والمطر ينهمر حبات كبيرة . كان المنظر مثل لوحة نموذجية لنهر قرية في الضباب والمطر . وبينما كان الضابطان يراقبان الأمور باستياء استحوذ عليهما إحساس غريب ، إحساس بالعزلة والغم . لقد اقنعتهما الجولة في المعسكر أنهما في وضع لا يمكن الدفاع عنه ولم تكن هذه القناعة حماقة بالضرورة . كان للخوف تأثيره عليهما كما لو كان إبرة ذكرتهما وخزتها بطبيعة الطبقة التي ينتميان إليها والتي تسري في عروقهم مع دم أجدادهم .

لم يكن في وسعهما أن يقفا مكتوفي الأيدي على رابية هذه الجزيرة المهجورة ينتظران تفجر حقد العبيد وإغراقهم في السيل . عليهما أن يقامرا بكل شيء بضربة واحدة .

- أنت ترى أليس كذلك ؟ إما هم أونحن .

- هل نقتل زعيمي المعسكر أولاً ؟

- إذا كان ضرورياً فسنبيد التسعمائة عن بكرة أبيهم .

لوح الضابط الأول يدهَ اليمنى بحركة قوية مصممة : « سوف نقبرهم أحياء »

ـ من سيحفر لنا الحفرة ؟ لم يكن في نبرة الآخر أي دهشة . كان يناقش العملية فقط . كان في نبراته المتوحشة ما يكفي للتذكير بالموت .

ـ لِمَ لا يكون هذا الامتداد السديمي من الماء قبراً لهم ؟

ابتسم الضابط الأول ابتسامة تنم عن الرضا بينما كان ينظر إلى المدى المائي الواسع من تحته ، وسرعان ماخفتت الإبتسامة واسود وجهه أكثر من أي وقت مضى ، وراح يعض على شفته وبصوت خفيض سأل صاحبه :

ـ ما هو عدد المخلصين لنا بينهم ؟

ها . . . . مخلصين ؟ لا أحد . لم يكن هؤلاء خاصتهم من الرجال . لم يكن ثمة أبداً ما يكفي من الجنود من طبقة الإقطاعيين الأغنياء حتى حين كانت تشاين تفتح بقية الممالك إضافة إلى أن عدداً كبيراً من خيرة المحاربين قد فقدوا مع الجنرال مينغ تاين ، وحتى بالنسبة لزعيمي المعسكر كان من الضروري أن يستخدموا عبيداً . كان خطر الموقف الذي يواجه الضابطين ماثلاً لهما تماماً .

* * *

قال الضابط الثاني غاضباً : ماكان ينبغي للإمبراطور أن يجند عبيداً ليكونوا جنوداً . وأدرك فجأة أن العصر الذهبي لأجداده قد ولى ، ولى بلا رجعة . حقاً ما كان ينبغي أن يحدث ذلك . منذ أيام أصلاً مات الإله شانغ دافع أجدادنا عن بلادنا بالترس والرمح . العسكرية مهنة سامية . كيف يمكننا أن ندع هؤلاء العبيد يلطخونها . منذ أن صعد الإمبراطور الأول إلى السماء لم يبق لدينا نظام . إعطاء الأسلحة للعبيد هي فكرة ذلك الوزير المخادع

تشاوكاو . والداه كانا من العبيد .

- امبراطورنا الجديد يقبض على السيف من نصله ويترك الآخرين يمسكونه من المقبض .

كان لدى الضابطين الجرأة على التحدث بصراحة لمجرد أنهما على رابية صغيرة بعيدة عن البلاط الإمبراطوري ، لكن بينما كانا يتحدثان كانت جرأتهما تتلاشى . ومرة أخرى راحت الريح تعصف بقسوة . كان الدرع المصنوع من جلد البقر بارداً على الدوام والآن وبسبب الريح فقد وخز البرد عظامهما . بعد أن نظر كل منهما إلى الآخر في هذا الصمت المطبق رفعا وجهيهما أملاً في أن يخفف المطر البارد من حزنهما . كم كانا بعيدين عن البيت ؟ لم يكونا يشاهدان سوى غيوم لا نهاية لها وجبال تمتد في الأفق البعيد . وبعيداً إلى الغرب كانت هسينيانغ ، العاصمة ، ما الموقف هناك يا ترى ؟ إن حراس الإمبراطور كانوا قد برهنوا على أنهم مقاتلون منذ عهد الإمبراطور السابق . لكن سيل العبيد كان هائلاً ، ربما غمرت هسينيانغ تماماً مثلما غمر المستنقع الأكبر .

* * *

عاد الضابطان إلى خيمتهما وهما على ماكانا عليه من غم عندما خرجا . وبدأ ظل سقوط طبقتهما الوشيك يغطي وجهيهما مثل حجاب قاتم . ولم يكن في ذلك من ريب ولكن كان لابد أن يخوضا المعركة حتى الموت . والسؤال الوحيد هو كيف يضربان قبل أن يكون العدو مستعداً ليضرب ضربته القاتلة .

- أنقتل زعيمي المعسكر أولاً ؟

- وماذا عن التسعمائة الآخرين ؟

- لعل في وسعنا أن نرهب بالصياح أو نشتري نصفهم بالمال .

ـ يمكننا أن نجمع نصف اسلحتهم ونضعها في النار .

كانت هذه الأفكـار تنتقـل بين الضـابطين عبر نظراتهما المتبادلة ، وفجأة سمعا صوتاً مدوياً يصرخ :

ـ إذا بقينـا هنـا فسنمـوت ، إذا وصلنا إلى يويانغ ، متأخرين فسنموت أيضـاً ، لكن إذا عملنـا معـاً فسنحيـا جميعـاً ، أمـا بالنسبة للضابطين فدعهم يحتسيـا المـوت . وانطلق هديـر من الضحـك تبعـه أصـوات عديـدة . شحب الضـابطان وبدأت شفاههما ترتجف . وتغيرت ملامحهما مرة أخرى . وبينما كانا يعضان على شفاههما ويرفعان حواجبهما كانا يمتلآن حنقاً قاتلاً . لكن قبل أن يتخـذا قراراً بأي إجـراء هبت ريـاح عاصفـة وفتحت أبـواب الخيمـة على مصـراعيهـا وأصبحـا تحت رحمـة الجمهـور الهـائـج . ولم يكن بالإمكـان تأخير الصدام ولو للحظة واحدة . كان ذلك واضحاً للمجندين الذين كانوا يتشظون غضبـاً عنـدمـا شاهدوا الضابطين في الخيمة . وقف الضابطان يحدقان وقد احمر وجهاهما غيظاً . لكن برغم كل شيء فإنهما إثنان فقط .

« الصراخ ممنوع في المعسكر ، على القادة إلقاء القبض على المشاغبين » .

جأر أحدهما واستل سيفه واندفع نحو واوكوانغ أحد زعماء المعسكر . ورد المجنـدون بعـاصفـة من الغضب هزت أركـان الخيمة . اليوم لن يتلقى العبيد المسلحـون أيـة أوامـر . ومثـل دب كبيـر انتزع واوكوانغ سيف الضابط وغزه في خاصرته ، واندفع المجندون المسعورون إلى الضابط الآخر وطرحوه أرضاً قبل أن تخرج من فمه المللوي أنة واحدة .

وكحـريق هائـل بدأت أصـوات تحطيم سلاسـل العبيد من معسكر إلى معسكـر . كل قريـة ، كل مقـاطعـة في المملكة حكمها امبراطور تشاين الأول

هزهـا انفجار المستنقع الكبير . ونهض الفلاحون المضطهدون في طول الأرض وعرضها كالمياه الجارفة يجرفون معهم الموظفين الفاسدين والقوانين القمعية الوحشية .

كانت الـريـح أنشودة النصـر ودق المطـر طبول الحرب للهجوم ، كانت سيـول الخـريف في المستنقـع الكبير بياناً للثورة ، ثورة الفلاحين المستعبدين . من قريـة إلى قريـة ، من مقاطعة إلى مقاطعة راح المجندون التسعمائة ينفذون حكم التارخ ويضرمون النار الغاضبة في كل كوخ من قش .

مات الإمبراطور وستوزع الأرض .

السادس من تشرين الأول ١٩٣٠

نبذة عن الكاتب :

ماوتـون Maoton هو الإسم الأدبي للكاتب . واسمه الحقيقي هو شين ين بنغ . ولد عام ١٨٩٦ في محافظة تيوغسيانغ من مقاطعة تشيكيانغ . أسس مع مجمـوعـة من الكتـاب جمعيـة البحث الأدبي عام ١٩٢٠ ، إحـدى أولى المنظمات التي تأسست في الصـين للدفـاع عن نظرة جديدة إلى الأدب وفي عام ١٩٢١ أصبح رئيس تحرير مجلة Fiction . وقد كرسها كلياً لشن هجوم عنيف على تأثيرات الإقطاع والكومبرادور التي كانت سائدة في الأدب .

كتـب « الآفـة » Canker عام ١٩٢٧ وقـوس قزح Raimbow عام ١٩٣٠ والـرفـاق Companions عام ١٩٣١ ومنتصف الليـل Midnigt عام ١٩٣٣ بالإضافة إلى عدد كبير من القصص القصيرة والمقالات والموضوعات .

خلال حرب المقـاومـة ضد اليابان (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ثابر ماوتون على

نشـاطـاتـه الأدبيـة من خلال نشـرة دوريـة أخـرى « الجبهة الأدبية » Litetary Front وكتب الروايات التالية :

التـآكـل Corrosion عام ١٩٤١ والأوراق المتجمدة والأزهار الحمر عام ١٩٤٢ ومسـرحيـة قبـل وبعـد من جان تشنغ منغ ١٩٤٤ ، بالإضافة إلى عدد آخر كثير من القصص القصيرة والموضوعات .

ترجمت القصة التالية من كتاب :

Spring Silkworms
and other Stories

by

Maotun

Foreign languages press Beijine

المسرح

شو - يان

تمثيلية من أدب الصين الحديث

تأليف الكاتب الصيني الكبير «كيو موجو»

ترجمة : د. عبد الرزاق جعفر من الفرنسية

شو - يان
تمثيليّة من أدب الصّين الحديث
تأليف الكاتب الصيني الكبير «كيوموجو»

ترجمة : د. عبد الرزاق جعفر - عن الفرنسية

* إنها إحدى روائع الكاتب الصيني «كيوموجو» . وهي مسرحية ذات خمسة فصول . يدور موضوعها حول حياة «شو - يان» الشاعر ورجل الدولة الذي احتفل في عام ١٩٥٤ ، إجابة لرغبة «مجلس السلم العالمي» ، في جميع بقاع العالم ، بذكرى مرور ٢٢٣٠ عاماً على وفاته .

* نذكر القراء أن «شو - يان» كان وزير الميسرة في مملكة «شو» إحدى الدول الثماني التي كانت تتألف منها الصين القديمة . كانت دولة «شو» هذه تحلم دائماً بتكوين حلف دفاعي ضد دولة «شين» التي كانت تهدد أمن الدول الباقية السبع كلها . أصغى ملك «شو» ، في بداية الأمر ، لنصائح وزيره «شو - يان» . إلا أن الملكة ظلت تسعى جاهدة لاحباط سياسته التي كانت - كما ستظهر لنا في هذه المسرحية - تهدد مركزها .

* إن هذا المشهد الذي ننشره بالعربية هو جزء من الفصل الثاني ، الذي تجري حوادثه في الوقت ذاته الذي عزمت فيه الملكة على الحطّ من شأن «شو - يان» . وسوف نرى ذلك .

* كتبت هذه المسرحية في عام ١٩٤٢ تحت عنوان « شو - يان » ، ومثلت في « بكين » في ربيع عام ١٩٥٣ . ونالت نجاحاً منقطع النظير . وهذه أول ترجمة لها باللغة العربية أخذت عن آخر طبعة لها بالفرنسية .

(في قصر ملك « شو » . .)

شو - يان : أين صاحبة الجلالة الملكة الآن . . ياترى ؟

تزي - لان : قالت لي والدتي إنها ستكون في فناء القصر . . تفضل معي . .

(يخرج الاثنان من الممر . ويقفان حين يقع نظرهما على الملكة)

تزي - لان : والدتي . لقد أتيت بالفارس شو - يان . .

الملكة (تبدو عليها الغبطة ، تتقدم نحو شو - يان) : آه . . أيها الفارس . كم هو جميل منك أن تأتي !! لقد كنت في انتظارك . .

شو - يان : (ينحني) أرجو أن تكون صاحبة الجلالة متمتعة بصحة جيدة ، ماذا تريد صاحبة الجلالة مني ؟

الملكة : إنني بحاجة ماسة الى معونتك . لقد استمع الملك الى نصحك ، ولم يقطع العلاقات مع حكومة « شي » ، كما قرّر « شانغ - بي » الذهاب الى حكومة « وي » . والملك يقيم له الآن حفلة وداع . وأنا ماضية في تحضير الأغاني والرقصات التي ستقدم في هذه الحفلة .

وإنني بحاجة الى معونتك في هذا الشأن . وأريد أن نبحث الأمر بحثاً مفصلاً منذ الآن . . (تلتفت الملكة نحو « شين - شانغ ») أيها السيد . . ان واجباتك تدعوك .

اذهب وانظر فيما إذا كان الطباخون على رأس عملهم . وقد يحتاج الملك الى الآنية المقدسة رغبة منه في تمجيد هذا الأمر .

شيغ - شانغ : (ينحني) نعم . سوف أسهر على جعل كل شيء في مكانه . سوف أذهب الى هناك في التو (ينحني ثانية أمام الملكة . ويشير برأسه الى « شو - يان ») أيها السيد شو - يان . . لقد عدت في هذا التوّمن دارك .

شو - يان : انني في غاية الأسف حقاً لعدم قدرتي على رؤ يتك

شين - شانغ : هل أعطاك خادمك رسالتي ؟

شو - يان : نعم . . وانني لشاكر لك . .

الملكة : (الى « تزي - لان ») تزي - لان . . اذهب ، وأبلغ الراقصين العشرة ان يكونوا على أتم الاستعداد لتقديم « الأناشيد التسعة » وانتبه كي يكونوا في ألبستهم الكاملة .

تزي - لان : أمرك ياوالدتي (ينحني أمام أمه الملكة ويخرج مع « شين - شانغ ») .

الملكة : (إلى « شو - يان ») أصغ اليّ أيها السيد . إن حال ابني تقلقني . فهو يظلع من رجله اليمنى . وصحته سيئة ، وما إن نهمل العناية به قليلاً حتى يقع في المرض . لقد عاوده المرض مرة أخرى ، منذ أيام ، فانقطع عن متابعة دروسه معك .

شو - يان : ليس لهذا أية أهمية . الأمير ذكي جداً . وسوف يتعلم شيئاً فشيئاً حين يستعيد صحته .

الملكة : انك تعرف ان الامهات يفرطن في التفكير بأبنائهن . فهن يرغبن رغبة صادقة أن يكون أبناؤهن في صحة جيدة ، وان يتفوقوا في دراستهم . لكن . . مع الأسف الشديد . . لايمكن تحقيق هاتين الأمنيتين دفعة واحدة . وهكذا يمكن ان

يظنّ ظانٌ أنني أفسدت ولدي . لكن لنا الأمل الوطيد فيك لكونك مؤدبه . وانني اعتقد اعتقاداً راسخاً ان هذا الولد سوف يتقدم تقدماً عظيماً بفضلك . .

شو - يان : إنني لأشكر لجلالتك هذا الاطراء . وأرجو أن تعلمي بأنني أعامل الأمير كما لو كان أخي الصغير . لذا فأنا لاأريد له إلا أن يتمتع بصحة متينة وذهن متوقد ، لكي يتمكن من متابعة التعليم متابعة لا انقطاع فيها . وسوف أعمل كل مافي مقدوري لمساعدته .

الملكة : ألف شكر لك أيها السيد الفارس . ان للصغير حظاً دون ريب لوجود مؤدب فاضل ومثقف ولا مع مثلك بالقرب منه . الحقيقة انني ، أنا أمه ، أشكر السماء على هذا الحظ السعيد . .

شو - يان : أشكر لك هذا المديح كثيراً .

الملكة : كما أن والده أيضاً يكرر القول دائماً ان أرواح أجداده الساهرة هي التي أرسلتك الى هذه البلاد .

شو - يان : (بأدب جمّ) إنك تبالغين في إطرائي . . ونعم . . انك تبالغين . .

الملكة : شو - يان . . لاتكن جمّ الأدب . أين كنا سنستطيع العثور على رجل مثلك ؟ في الجنوب . . كما في الشمال . في الشرق . . كما في الغرب . . لايوجد في فيا في تلك البلاد إلا فراغ لن تملأه إلا معرفتك الواسعة وخصالك المحببة . وفضلاً عن ذلك انك لتملك عبقرية فذة . وشرفك عظيم يجعل الملوك جميعاً . . ملوك العالم جميعاً يرغبون رغبة أكيدة ان تكون احد

رعـاياهم ، كما يجعل الشبان كلهم يتمنون ان تكون مُرَبِّيهم ، والفتيات . . كل الفتيات يحلمن في أن تكون بعلاً لهن . .

شو - يان : (مستـاءً) ياصـاحبة الجلالة . . انني متعقل فعلاً . فهل لي أن أسأل جلالتك عما تريدين مني . . فلقد أرسلت في طلبي . . !

الملكة : آه . . ! لقـد ذهبت بعيـداً . سوف تظن أنني ثرثـارة جداً . لقد أرسلنا في طلبك من أجل تهيئة العرض ، كما ذكرت لك تواً . وقـد أصـدرت الأوامر بأن تُنشدَ أناشيدك إذ أن هذه الأناشيد ، التي نظمتهـا ، جميلة فعـلاً ، لكن . . قل لي رأيـك في تربيتي (تشـير بيدهـا) . . في القـاعـات التي على يمـين المقصورة الـداخليـة ، والتي على يسـارها ، سأضع الآلات الموسيقية . سيعـزف المـوسيقيـون هنـاك . وسيظهـر المغنـون من القـاعـة الغربية ، والراقصون من القاعة الشرقية . سيرقص هؤلاء في أول العـرض ، منفـردين في الغـرفـة الـوسطى ، عشر دورات كاملة ، ويعـودون الى الـرقص على شكل حلقة في الساحة ، ويغنـون الأنشـودة الأخـيرة ، ثم يعيدونها عدة مرات ، حتى نهاية العرض . . مارأيك في هذا البرنامج ؟

شو - يان : لايـمـكـن ان يكـون هنـاك برنـامـج أكمـل منـه . .

((وبينـما كانت الملكة تتحدث الى « شو - يان » كان « تزي - لان » يدخـل الـراقصين العشرة من الدهليز الأيمن . كان أولئـك الـراقصون يرتدون ألبسة غريبة الشكـل ، ويضعـون أقنعة عجيبة ، فالراقص الأول يمثـل دور « امـبراطـور الشـرق » وهوعبارة عن رجل

يضع على وجهه قناعاً أخضر ويمسك ، بيده اليمنى ، سيفاً طويلاً . أما الثاني فيمثل « سيدة الغيوم » وهي امرأة ، وجهها فضي رمادي ، وعيناها كالنجمتين ، ترتدي ثياباً من ألوان مختلفة ، وتمسك شمساً بيدها اليسرى وقمراً بيدها اليمنى ، ويمثل الراقص الثالث « أميرة نهر هيزيانغ » وهي امرأة أيضاً ، وجهها أبيض ، وعيناها بلون اللوز ، زُيِّن لباسها بالزهور والأعشاب ، وتحمل ناياً صغيراً . ويمثل الرابع « سيدة نهر هيزيانغ » . وهي أنثى ايضاً . وجهها أخضر . ولباسها يشبه لباس الممثل السابق تقريباً ، لكنها تحمل نايين بدلاً من ناي واحد . ويمثل الخامس « الحظ الأكبر » . وهو رجل . وجهه أسود . ويُزيِّنُ رأسه بقرون . ويحمل مرآة من البرونز . ويمثل السادس « الحظ الأصغر » . وهو أنثى . وجهها وردي . تحمل مكنسة . وهي آلهة الحب . ويمثل السابع « رب الشرق وإله الشمس » . وهو ذكر . وجهه أحمر . يحمل قوساً وأسهماً . ويلبس سترة طويلة زرقاء وثوباً أبيض . ويمثل الثامن « إله النهر الأصفر » وهو ذكر . وجهه أصفر . ويحمل بيده سمكة . ويمثل التاسع « روح الجبل » .

وهو أنثى . وجهها أزرق . وتحمل غصناً . والعاشر يمثل « المحارب الشهيد » . وهو ذكر . وجهه أحمر يحمل ترساً ورمحاً . ويلبس درعاً حديدياً .

تقدم الراقصون العشرة نحو المقصورة. ووقفوا في خط مستقيم ، أمام المشاهدين . .)

تزي- لان : (بعد ان انتهت الملكة من حديثها مع « شو - يان » لقد جئت بالراقصين العشرة ياأماه . .

الملكة : حسن جداً (تفكر) . أظن أننا نحسن صنعاً لو طلبنا الى المغنين والموسيقيين أن يراجعوا أدوارهم . ماهو رأيك أيها الفارس ؟

شو - يان : أنها فكرة حسنة جداً . سأرسل الخدم في طلبهم .

الملكة : (توقفه بسرعة) لا . . لاتذهب أنت . تزي - لان . . تفعل خيراً لو تذهب أنت اليهم . كذلك أرجو أن تخبر الخادمات اللواتي لاشغل لديهن ألا يخرجن . وانت ايضا . . لاتخرج .

شو - يان : ان تزي - لان يمشي بصعوبة فائقة (لكن « تزي - لان » كان قد غاب عن الانظار ، وهو يعرج في الممر الأيمن ، قبل أن يفرغ « شو - يان » من عبارته)

الملكة : يجب ان يقوم الشبان ببعض التمرينات . أليست هذه نصائحك الدائمة ؟ (تلقي نظرة خاطفة على الراقصين العشرة) هل تحبون أن تجلسوا ؟ ان الوقوف يرهقكم . كنت أريد ، في بادىء الأمر ، ان تظهروا من الغرفة اليمنى ، تلك التي في الشرق ، ولكن . .نظراً لخروجكم الآن فاجلسوا هناك (يجلس الراقصون العشرة) . وكان من الواجب أن تكون كل رقصة فردية مجربة في الداخل . ولما كان وقتنا ضيقاً فانه لمن الخير أن نبدأ رأساً بالرقصة الأخيرة المشتركة (تستدير نحو

« شو - يان ») . .

ماهو رأيك أيها السيد الفارس ؟

شو - يان : معك الحق كله . . فليس لدينا الوقت الكافي . . !

الملكة : نعم . سوف يأتي الملك قريباً . إن يزور المستشار « تزي - شاو » . هل تعرف طبيعة الملك ؟ انه لايُسر الا بالمفاجىء من الأمور . قد تهيء له ، في غالب الأحيان ، شيئاً من الأشياء ، لكنه يعزف عنه في آخر لحظة . كما أنك قد لاتهيء له شيئاً ، فيطلب اليك فجأة ان تقوم بهذا العمل اوذاك . ثم إنه يلحّ الحاحاً شديداً على ان يُنَفَّذَ مطلبه في التو . إن خطأه - فيما أرى - ناجم عن أنه لايفكر إلا في نفسه وحدها . أما الآخرون . . فيُهملهم . . ! خذ مثلاً لذلك حفلة هذا اليوم . لم ينبئنا رغبته باقامتها الا أمسِ مساءً . ان مايطلبه يجب ان يحصل عليه . ولايمكن لأي شيء ان يرضيه . فكر في التي يسببها هذا الطبع ! . .

شو - يان : لقد عانيتِ - ياصاحبة الجلالة - كثيراً من المشاكل والصعوبات ، بكل تأكيد . وإنني لا أعرف شيئاً عن احتفال هذا اليوم . وقد سمعت عنه للمرة الأولى حينما جاءني « شينغ - شانغ » في بيتي . وإنني لشديد الأسف لعدم قدرتي على تقديم أية معونة لجلالتك .

الملكة : أيها السيد الفارس لاتكن شديد التهذيب . فقد كنت أفكر ببحث الأمر معك بأسرع وقت ممكن كي استفيد من نصائحك . إلا أنني عدت فقلت لنفسي إنه ليس من اللائق

أن أزعجـك بأمـر بسيط كهذا الأمر ، لأنكم - أنتم الشعراء - تحبـون الهـدوء قبـل كل شيء ، هذا اذا فرضنا أنني تمكنت من فهمكم . أليس كذلك ؟

شو - يان : أحيـانـاً . . (كان « شو - يان » يريـد أن يقـول : أحياناً يكون الأمر على هذا النحو . لكنه لم يتمّ كلامه)

الملكة : لذا فقـد قررت عدم تعكـير صفـوك وهنـاءتك . لكن . . لنعد الى أنـاشيـدك . ان جرسهـا لذيـذ حلو . كم هي خفيفـة ولطيفـة ! كلماتهـا معطرة وجميلة وحية ومدهشة ! وإنني لأتصور ان سعـادتـك تكون كبيرة جداً حين تفرغ من نظم أشعار جميلة كهذه الأشعار .

آه . . ! إنـك لتبعث في نفـوسنـا السعـادة جميعـاً ياأيهـا السيد الفارس . . ومن واجبنا ان نضاعف من سعادتك مقابل ذلك . لذا قـررت ان أسهر ، أنا نفسي ، على تهيئة الرقصات لكي تعرف أية سعادة قدمت لنا . .

شو - يان : ياصـاحبـة الجـلالـة . . أنا مدين لك بأشياء كثيرة حقاً . وإنني لأجـرؤ الآن على القـول ان جزءاً كبـيراً من أشعـاري كان مستلهـماً منـك . ان لجلالتـك كثيراً من الخصـال التي تفرض علينا الاعجاب بك . . انها تجعل الرجال يخجلون اذا ماوازنوا انفسهم بك .

هذا هوماشعر به دائماً . . وقد صُغْتُهُ في أشعاري . فإن كان لأشعـاري بعض القيمـة . . ولتغفـر لي صاحبـة الجـلالـة جرأتي . . فما ذلك إلا لأنك أنت التي ألهمتني إياها . .

الملكة : (تتظاهر بالسعادة) حقاً ؟ ماأسعدني !! كم أنا مسرورة ! أي حظ لي ؟ كم أنا شاكرة لك ! وإنني لأتنبأ ، مع ذلك ، أنك لن تكون مسروراً مني كلَّ السرور . . إذ يجب ان تأخذ في الحسبان ان انسانـاً مثلي لن يكون بريئاً جداً ، أو بسيطاً جداً ، أو هادئاً جداً . . أليس الحق في جانبي ؟

(يتردد « شو - يان » دون ان يحير جواباً . .)

الملكة : إنني أعـرف بماذا تفكـر على الـرغم من أنـك لاتقـول شيئـاً . ولكن . . هذه هي طبيعتي . ولا أستطيـع لطبيعتي تحويـلاً أو تبديلاً . فأنا أحب الأُبَّهة ، وأحب الجلبة والضجيج . ورغبتي في قهـر خصـومي عنيفـة جداً . أستطيـع ان أكـون غيوراً الى درجة الجنون . هل تعرف ذلك ؟ وإذا حاول أحد الأشخاص يومـاً ان يكـدر عليّ صفـو سعـادتي وهنـائي فإنني سوف أظـل أحـاربـه ، وإن كان المـوت دون ذلـك . هذا هو طبعي على ماأظـن . . (سكـوت) . ويجب أن تعـلم - أيهـا السيـد الفارس - أنني محبة لذاتي ، بصورة لايمكن ان يتصورها عقل إنسان ، أليس كذلك .

(« شو - يان » مضطـرب دائماً ولايعرف بماذا يجيب)

الملكة : من العبث أن أنتظر منك جواباً ، سكوتك يكفيني ، ولكي أقول الحق صرفاً أعلن أمامك بأن طبيعتك تشبه طبيعتي تمام الشبه . فأنت لاتـريـد أن تقـوم بتمثيـل دور ثانـوي . هل أنـا محقـة ؟

(سكوت) ليست أشعارك سهلة كأشعار غيرك من الشعراء . وماذلك إلا لأنك من طبقة أعلى من طبقتهم ، ولأن فكرك أعمق من فكرهم . إنك بحيرة (تونغ - تينغ) . أنت نهر « يانغ - تزي » . أنت المحيط الشمالي ، لست جدولاً صغيراً منحدراً من جبل . كما أنك لست بحيرة صناعية . قل لي . . هل ينطبق وصفي عليك ؟!

شو - يان : (مستاء جداً) لا أعرف بماذا أجيب ياصاحبة الجلالة . ان لي عيوباً عديدة أعرفها الا انني اسعى في اصلاحها .

الملكة : قد تجعلك الوحدة سعيداً . أما أنا فلا . أريد أن أتفتح وأزهر . أريد مكانة رفيعة قريبة من الشمس . وإذا ذوت . تحت قدمي ، أعشاب صغيرة أوزهور فلن أعيرها لفتة أو شفقة . بذا تختلف طباعنا كما يبدو ! . .

(وبينما كان الاثنان غارقين في الحديث احتل الموسيقيون والمغنون أمكنتهم في مختلف القاعات ، بحيث تمكن رؤ يتهم من خلف الستائر . تذكرت الملكة عملها في هذه الأثناء . .)

أوه . . ! لقد تكلمت كثيراً . ها هم الموسيقيون والمغنون على أهبة الاستعداد أيها السيد الفارس . مارأيك لو طلبنا إليهم أن يبدؤ وا الرقص ؟

شو - يان : حسن جداً . لتكن مشيئتك . وليرقصوا -إذن - رقصة « القربان الأخير » .

الملكة : (تتجه الى الراقصين) تستطيعون أن تنهضوا . انتبهوا الى

ماسوف أقوله : عندما أكون واقفة على درجات المقصورة ، وترون مني إشارة بيدي ، يجب أن تبدؤوا فوراً بالغناء والموسيقى والرقص . أما إشارة التوقف فهي أن أرفع يدي للمرة الثانية (تخاطب « شو-يان ») لنصعد هذه الدرجات الآن يأيها السيد الفارس (تصعد الملكة الدرجات من الجهة اليمنى بينما يصعد « شو - يان » من الجهة اليسرى . يصلان الى أعلى السلم . يتقدم الراقصون العشرة حتى طرف المسرح ، ويديرون ظهورهم نحو المشاهدين . يستعد الموسيقيون والمغنّون . ويتجهون بأنظارهم نحو الملكة التي ترفع يدها اليسرى فيبدأ الغناء والرقص والموسيقى جميعاً . يشكل الراقصون حلقة في الساحة متقدمين كلهم سوية ثم متباعدين بينما ينشد المغنون أنشودة « القربان الأخير ») :

المغنون : « حين انتهت التراتيل طرق السحرة
« كؤوسهم المقدسة .
« ورقصوا ، كل حسب دوره ، بينما
« كان العشب المقدس ينتقل من يد إلى يد
« وكانت الفتيات الجميلات يرقصن
« وينشدن برشاقة
« أيتها الملكة . يازهرة الأقحوان
« في الخريف ، وزهرة السحلب في الربيع
« سنضحي ، لهذا القربان ، بكل ما نملك
« حتى نهاية الزمن . . »

(وفي أثناء الرقص والغناء يفتح باب من اقصى اليسار

وتـدخـل خادمتـان ، فتسـدلان الستـائر على الجانبين ، ثم تربطانها على الأعمدة . ودون أن تنتبها إلى الموسيقى والرقص تختفيـان في البـاب البعيـد . ترفع الملكة يدها اليسرى بالاشارة من جديد . فينقطع الغناء والموسيقى والرقص جميعاً في وقت واحد)

الملكة : آه . . انـني لسـت على مايـرام . سوف أقـع على الأرض (تترنح) . أسرع أيها السيد الفارس . أسرع (ثم تسقط بين ذراعيه).

شو - يان : مأخـوذاً بهذا الظـرف الطـارىء ، يسند الملكة بذراعيه اذ لم يجد شخصـاً على مقربـة منـه . يدخـل ، في هذه الأثناء ، ملك « شو » من اليسار ، وبرفقته « شانغ - يي » و« تزي - ثسياو » و« شينـغ - شانـغ » فيرون « شو - يان » وهـو يحيط الملكـة بذراعيـه ، دون أن يراهم « شو - يان » الـذي كان يحاول نقل الملكة الى أحد المقاعد .

الملكة : (في اللهجـة عينهـا) أسـرع أيهـا السيـد الفـارس . أسـرع . (وحـين تـتحقق من أن الملك قد رآهما وهما على تلك الحـال تنتفض فجأة ، وتبعـد « شو - يان ») أيهـا السيـد الفـارس ، دعني وشأني . إن أمرك ليدهشني . لم أكن أظن قط أنك تجرؤ على القيـام بمثـل هذا العمـل ! (تركض نحو الملك ، شو - يان مرتبـك لايعـرف ماذا يعمل ! ينزل الملك وحاشيته ، على درجـات السلم ، على عجـل ، للقاء الملكة التي تسرع فتلقي بنفسها بين ذراعي الملك) إنني مبهوتة . . مبهوتة . . !

الملك : هدئي من روعك يا « شينغ - هسيو » ولاتخافي شيئاً .

الملكة : آه . . لحسن الحظ انك وصلت في الوقت الملائم . لا أجرؤ على التفكير أبداً بما كان سيجري بعد ذلك . أخشى ان يكون الفارس « شو - يان » قد أصيب بلوثة في عقله دفعته الى التصرف بهذا الشكل الشائن في البلاط .

شو - يان : (وقد فهم انه خدع ، يصيح غاضباً) ماذا تريدين جلالتك ان تقولي ؟ وماذا يعني هذا كله ؟

الملك :(هائجاً) أيها المعتوه . . أمنعك من الكلام .

(شو - يان خارج من جلده من شدة الغضب . لكنه يضطر الى السكوت)

الملكة : (بخفة وهدوء أعصاب) : لم اكن اتوقع هذا . . هنا ؟ وفي مكان عام ؟ ومن الفارس الذي كنت معجبة بأخلاقه الرفيعة دائماً ؟

الملك : (يقبل الملكة) اهدئي ياعزيزتي . فليس هناك اي داع للغضب . . نعم . . ليس هناك أي داع !

(يساعد الملك وصحبه الملكة على صعود السلم)

شو - يان : (ينحني عند وصول الملك الى قربه) هل يسمح لي صاحب الجلالة ان أقول كلمة ؟

الملك :(آمراً) لن اسمح لك بحماقة أخرى أبداً . حقاً انك لتبعث في نفسي الدهشة !! كنت أعدُّك رجلاً عظيماً شريفاً دائماً . لكن . . يبدو أنه ليس لديك سوى المظهر فقط . وليس المظهر

كالمخبر . سمعت انك توزع تعليقاتك ، في كل مكان ، زاعماً أنني متقلب الأهواء ، وأنني لا أستقرّ على رأي . في وسعي أن أغفر لك ذلك .

وسمعت أيضاً أنـك تدّعي ان السياسـة ، التي أسير عليهـا ، والمـراسيم والقـوانين التي أسنّها جميعاً ، هي من وحيـك . بامكـاني ان أغفر لك ذلك ايضاً . كما انك تؤكد ان جميع من يحيطون بي هم مخادعون كاذبون . وأنك أنت ، أنت وحـدك ، الصـادق النصـوح . وهـذا أيضـاً استطيع ان أغفره لك ، مع بعض التـحفظـات . أمـا أن تجرؤ على ملأ من النـاس ، وأمـامي أنا ، وأمام ضيوفي هؤلاء ، على ان تسلك هذا السلوك الشائن مع الملكة ، فذلك أمر لن أغفره لك قط . . !!

شو - يان : محتداً ياجلالة الملك . انها مؤامرة . .

الملك : (صائحـاً) مؤامـرة ؟؟ وهـل آتـامـر أنـا ضدك ؟ ام تأتمر الملكة ضدك ؟ أظن انك لاتستطيع ان تكذب مارأته عيناي هاتان ؟ ! لولم أرَذلـك ، انـا نفسـي ، الآن . . لما صدقتـه ! انـك لمجنـون . . ما في ذلـك شك !! مجنـون ! . . وقد كنت ، فيما مضى ، أثق فيك ، واستشيرك . لحسن حظي انني اكتشفتك قبـل ان يستفحـل خطـرك . لذا فاني امنعـك . . منـذ هذه اللحظة . . ان تضع قدمك في هذا القصر . . أو ان تريني وجهك . . !

شو - يان : (منفعـلا) أمـرك يامـولاي . لن آتي الى قصـرك . ولن ترى

وجهي . لكنك على ضلال حين تمنعني من الكلام . من الواجب عليك أن تفكر طويلاً بشعبنا ، وبالشعب الصيني بأكمله . ان الناس كافة يرغبون في أن يعيشوا كائناتٍ حيةً شاعرة . . وليس كما تعيش البهائم . ان الناس كافة يعملون على ردّ الطغيان ، ويمقتون العدوان والظلم . سوف يدوم هذا الوضع مادامت الصين مجزأة الى دول متعادية ، ومادامت حكوماتها لاترغب في الوحدة والأمن .

لم تكن مخطئاً أبداً حين كنت تصغي الى نصائحي في السهر على راحة الشعب وسعادته ، وفي ضرورة الاتفاق مع الدول الشرقية ضد ملكة « شين » . ولو تابعت هذه السياسة لقمت بخير عمل في سبيل وحدة الصين .

(كان الملك يحاول مقاطعته إلا انه رضخ لرغبة الملكة التي منعته بإصغائها الى « شو - يان » هي و « شانغ - يي » والآخرون)

شو - يان : (ثائراً ثورة مسعورة) اما اذا تركت نفسك تخدعك بأباطيل مملكة « شين » وأصغيت الى افتراءات الآخرين ، ونقضت « ميثاق الدول الست » فانك سوف تسمح بذلك لمملكة « شين » ان تتفوق عليك وتذبح شعبك . وحينئذ سوف تكون هادماً لمملكتك ، هادماً للصين كلها ، هادماً لشعبك . .

الملك : (غير قادر على ضبط أعصابه) حماقة . . كل ماقلته حماقة !

الملكة : دعه يفرغ جعبة حماسته . .

شو - يان : اذا تركت نفسك تخدع بأباطيل مملكة « شين » فانك سوف تعيش لترى نكتبك بأم عينك ، وسوف يصبح قصرك هذا وكراً

للعـدو ، وسـوف يوضع تاجك على رأس جواد عدوّ ، وسوف يُقَتَّـلُ شعبـك تقتيلاً حتى تسيل الأنهار حمراً من الدماء . وأنت أيضـاً . . وكـذلـك الملكـة . . سوف تبكيـان لما ينـالكـما من السباب المقذع والاهانة المؤلمة . . ومما لم تكونا تتصوران . .

الملك : (وقد بلغ غيظه ذروته) ماذا ؟ . . ماذا ؟ . .

الملكة : (باستهزاء) ياحكيم بلادنا . ان الحكم عليك بالطرد قد أخـذك بعيـداً (تلتفت نحـو « تزي - شيـاو » و « شين - شانـغ ») خذاه فَغُـلَّاهُ ، كيـلا يحدث فضيحـة أخـرى في القصر . إنه مجنون يجب ان يُقَيَّدَ . لذا فنحن لانريد ان نعاقبه بقسـوة . ومن خطـل الـرأي معاملته بالغلظة والخشونة . انزعا عنه فقط هذه الشارة التي تزين صدره كيلا يسيء الى طبقته .

تزي - شياو : (منحنياً) امرك يامولاتي

شين - شانغ : (في الوقت نفسه) سنقوم بتنفيذ أمر جلالتك على الفور

(يقترب الاثنان من « شو - يان » ويضعان أيديهما عليه)

شو - يان : (باشمئـزاز) ياصاحبـة الجلالـة . لم اكن اتصـور ابـداً أن في امكانك أن تدبري مؤامرة ضدي على هذا النحو ! !
لتشهـد على ذلـك السماء التي فوقنـا . والأرض التي تحت أقـدامنـا ، وأرواح أسـلافنـا جميعاً . . انت لم تدبري مكيدتك هذه ضدي ، أنا وحدي . . ولكن ضد مملكتنا جميعاً !

(يجرّه الـرجـلان نحو الدرج الأيسر باتجاه المخرج بينما يتابع هو صياحه)

لما أتِمَّ كلامي بعـد . ان وجهي ليحمـرّ خجـلاً من فعلتـك . واعلمي انني قادر على تحمل المـوت دون خورَ أو ضعف . وستحكم الأجيـال الـلاحقة من منا كان على حق ومن كان على باطل . . من كان مخلصاً ومن كان خائنـاً . . إنـك لم تأتمري ضدي أنا « شو - يان » بل ضد نفسـك ، وضـد مملكتنـا ، مملكـة « شو » . إنك ائتمرت ضد الشعب الصيني بأسره . . . !

المرصد الادبي

حركة الاستعراب في يوغسلافيا

عيسى فتوح

حركة الاستعراب في يوغسلافيا

عيسى فتوح

بدعوة من اتحاد الكتاب العرب ووزارة الثقافة زار سورية مؤخراً وفد يتألف من أربعة مستعربين يوغسلافيين هم :

١ - د . سليمان غروزانيتش ، وهو استاذ في معهد الاستشراق بجامعة سيراجيفو ، نال الدكتوراه من جامعة القاهرة .

٢ - د . رادي بوجوفيتش ، وهو استاذ في معهد الاستشراق بجامعة بلغراد . نال الدكتوراه من جامعة بغداد .

٣ - د . أسعد دوراكوفيتش ، وهو أستاذ في معهد الاستشراق بجامعة بريشتينا (كوسوفا) نال الدكتوراه من جامعة القاهرة .

٤ - السيدة ليلى غازافيتش المسؤولة عن المخطوطات العربية والتركية والفارسية في جامعة سيراجيفو .

وفي الساعة السادسة من مساء يوم الاربعاء ١٣ / ٢ / ١٩٨٥ جرى لقاء في مقر اتحاد الكتاب العرب بين الوفد الضيف وعدد من الكتاب والمهتمين بشؤون الاستعراب خاصة والاستشراق عامة . وقد تبادل الطرفان الأحاديث الودية . تحدث الدكتور سليمان غروزانيتش - رئيس الوفد - عن العلاقات التاريخية بين سورية ويوغسلافيا وقال ان كثيرين من ابناء يوغسلافيا زاروا البلاد العربية فأقام بعضهم فيها ، وعاد البعض الآخر حاملاً ماشاء له من المخطوطات القيمة .

لقد تعلّم اليوغسلاف اللغة العربية وأصبحوا فيها كتاباً وشعراء ومفكرين ومفسرين وشارحين ، كما اهتموا بالتاريخ العربي . صحيح أننا اهتممنا بجميع الثقافات العالمية ، لكن اهتمامنا كان اكثر تركيزاً على الأدب العربي والتاريخ العربي قديماً وحديثاً ، لأن العلاقات اليوغسلافية العربية تطورت بشكل ملحوظ خلال السنوات الثلاثين الأخيرة على جميع المستويات .

في يوغسلافيا الآن أربعة مراكز للاستشراق ثلاثة منها للغات الشرقية ، وتأتي اللغة العربية في الطليعة ، وبعدها التركية والفارسية . . أول مركز تأسس عام ١٩٢٥ ، أما مركز سيراجيفو فقد تأسس عام ١٩٥٠ وبعده مركز برشتينا في كوسوفا الذي تأسس عام ١٩٧٥ .

يتراوح عدد الطلاب الذين يتعلمون اللغة العربية في هذه المراكز الثلاثة (سيراجيفو وبلغراد وبرشتينا) بخمس مئة طالب ٩٠ ٪ منهم يدرسون العربية و ١٠ ٪ التركية والفارسية . ويعمل هؤلاء الطلاب بعد تخرجهم في مجالات مختلفة ، اما في الأدب والصحافة ، واما في السلك الديبلوماسي أو الشركات التجارية والاقتصادية التي لها علاقة مع البلدان العربية . . ولايسعني في هذه المناسبة إلا أن أشيد بجهود ثلاثة من الاساتذة الكبار الذين أسسوا هذه المراكز وهم : فهيم بباقد رافيتش في بلغراد ، وشاكر سيكافيتش في سيراجيفو ، وحسن قاليشي في بريشتينا بمقاطعة كوسوفا . . ويقدم في كل سنة عدد من اطروحات الماجستير والدكتوراه في ميدان الاستعراب . .

أما في مجال الترجمة الى اللغة اليوغوسلافية فقد ترجمنا قبل ثلاثين عاماً كتاب « يوميات نائب في الأرياف » لتوفيق الحكيم ، كما ترجمنا روايات محمد ديب ، وكاتب ياسين ، وبعض قصص محمود تيمور ، بالاضافة الى العديد من القصص والقصائد المتفرقة ، .

ان أول عمل ترجم الى اليوغسلافية ونال استحسان القراء كان كتاب « ألف ليلة وليلة » ولكنه مع الأسف ترجم عن اللغات الالمانية والفرنسية والروسية ، وأخيراً عن العربية !

***

ثم تحدث الدكتور رادي بوجوفيتش الذي نال الدكتوراه باطروحته حول « البطل العربي القديم في الملاحم اليوغسلافية الشعبية » . وترجم ديوان « أشعار في المنفى » لبعد الوهاب البياتي وديوان « برق الليل » للبشير خريف (تونس) ، ومجموعتين من القصائد المختارة الاولى من أقطار المغرب العربي ، والثانية من أقطار المشرق العربي . بالاضافة الى عدد من الدراسات التي نشرت في مختلف الصحف والمجلات وكلها تعرف بالأدب اليوغسلافي .

قال الدكتور بوجوفيتش : صحيح ان الاستشراق بدأ في يوغوسلافيا منذ ستين عاماً . لكنه قد وجد بالفعل قبل هذا التاريخ ، لأن ربع السكان في يوغسلافيا من المسلمين . ولهم ثقافتهم الخاصة التي اصبحت اليوم تراثاً مشتركاً بين جميع القوميات التي تتشكل منها يوغسلافيا ، بغض النظر عن اختلافنا في بعض الأمور الثقافية . . ولاتستغربوا اذا قلت لكم ان قسم اللغة الانكليزية عندنا تأسس بعد عشر سنوات من تأسيس أول معهد للاستشراق .

ومع ان الاستشراق في يوغوسلافيا بدأ رسمياً قبل ستين عاماً . إلا أننا لم نشهد حتى الستينات من هذا القرن دراسات وترجمات تتناسب مع هذا التاريخ ، وسبب ذلك يعود الى قلة عدد المستشرقين القادرين على القيام بدورهم العلمي . ولكن بعد هذا الوقت برز الاهتمام فجأة لأسباب مختلفة ،

منها ظهور العرب بشكل واضح على خشبة المسرح العالمي . والانفتاح الواسع من يوغسلافيا على العالم العربي ، وهكذا اصبحنا اكثر تفاهماً واحتكاكاً وتقارباً من ذي قبل . . وأدى هذا الى اقبال الطلاب على الاستعراب بمعدل ٤٠ - ٦٠ طالباً في كل جامعة من جامعاتنا ، وتبع ذلك اقبال ايضاً على الترجمة من العربية الى اليوغسلافية حتى لاتكاد تخلو صحيفة او مجلة يوغسلافية من هذه الترجمات . . وظهر في السبعينات « ديوان الشعر العربي » الذي يضم مختارات من الشعر منذ الجاهلية حتى العصر الحديث ، وقام بترجمته المستعرب داركو تناسكوفيتش ، ثم « ديوان الشعر العربي القديم » الذي صدر بعد السابق بسنتين وقد اختاره وترجمه المستعرب سليمان غروزانيتش .

وفي الثمانينات ظهرت دواوين جديدة منها « ديوان الشعر العربي المعاصر في المغرب » ثم « ديوان الشعر العربي المعاصر في المشرق » وصدر قبلهما « ديوان الشعر الفلسطيني » بمساعدة الدكتور أسعد دوراكوفييتش ابتداء من ابراهيم طوقان الى احمد دحبور ، ومعين بسيسو ، ومحمود درويش . كما صدر منذ سنتين أيضاً ديوان الشعر السوري من اختيار وتقديم محمد موفاكو وترجمة الدكتور أسعد دوراكوفيتش . كما صدر ديوان الشعر الكويتي ، وديوان الشعر الاردني . . وكل ذلك بفضل دار نشر صغيرة مجتهدة في جمهورية صربيا اخذت على عاتقها مهمة نشر الآداب في دول العالم الثالث . . وان دلّ هذا النشاط على شيء فانما يدل على احترام اليوغسلاف للشعر العربي الذي عُرّف قديماً بأنه ديوان العرب .

أول ماتعرفنا على كتاب كليلة ودمنة عن طريق اللغة اليونانية ، وبعد ذلك نقل عن لغتنا الى سائر لغات الشعوب السلافية .

نشطت حركة الترجمة في الثمانيات بشكل ملحوظ ، فقام الدكتور

سليمان غروزانيتش بترجمة بعض الأعمال لمحمود تيمور وتوفيق الحكيم ، ثم صدرت مجموعة قصصية ليوسف ادريس ، واخرى للأديب العراقي فؤاد التكرلي بعنوان « الوجه الآخر » كما قام الدكتور غروزانيتش بترجمة أهم عمل أدبي ألا وهو « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري . . وظهرت في كوسوفا عدة دواوين شعرية ومجموعات قصصية . منها مختارات من القصة السورية المعاصرة يضم خمس عشرة قصة لثلاثة وثلاثين قصاصاً قام بترجمتها محمد موفاكو . . ولا يسعني إلا أن أثني على جهود مستعربين اثنين هما اسماعيل أحمدي الذي درس في العراق وتتلمذ على الشاعرة نازك الملائكة وترجم كتاب « القصة العربية المعاصرة » وفتحي مهديو . . وآخر ماصدر كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الذي ترجمه الدكتور أسعد دوراكوفيتش . .

كذلك نقوم باصدار سلسلة عن تاريخ الأدب العالمي في ثمانية مجلدات يشارك فيها علماء وأدباء ومفكرون يوغسلافيون ، خصص باب منها في المجلد الأول للأدب العربي منذ فجره حتى العصر الحاضر . . والواقع ان جميع مانترجمه من أعمال يقوم على مجهودات فردية . .

المخطوطات العربية في يوغسلافيا

ثم تحدث الدكتور سليمان غروزانيتش عن المخطوطات العربية في يوغسلافيا فقال ان في سيراجيفو (البوسنة والهرسك) حوالي عشرين ألف مخطوط ، يضم معهد الاستشراق منها حوالي سبعة آلاف . وفي مكتبة غازي خسروبك التي أسست قبل ٥٠٠ عام حوالي ١٢ ألف مخطوط ، ويقدر عدد المخطوطات العربية في كل من زغرب ودوبرفنيك بثلاثة آلاف مخطوط من أصل ثمانية آلاف . .

والمخطوطات العربية في يوغسلافيا نوعان : النوع الأول قديم أتى به أبناء يوغسلافيا الذين قصدوا البلاد العربية للدراسة خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، والنوع الثاني عبارة عن شروح وتفاسير تعتمد على الكتب الأم وهي في الفلسفة والحديث والطب . . وحتى الآن لم تفهرس هذه المخطوطات بشكل جيد ، لأنها تحتاج الى الوصف ، والتعليق لمعرفة تاريخ كتابتها ومكانه ، والمضمون الذي تدور حوله .

ب - أخبار أدبية من العالم

شعر جاهلي للروسية

ترجمت مؤخراً الى الروسية مجموعة قصائد من الشعر الجاهلي تضمنت مقاطع من أيام العرب ، ومختارات من شعر عنترة بن شداد ، وامرىء القيس ، والخنساء ، وزهير بن أبي سلمى ، وعمرو بن كلثوم .

الاحتفال بمرور ١٢ قرناً على اقامة مسجد قرطبة

افتتح ملك اسبانيا خوان كارلوس والملكة صوفيا يوم ٤ شباط ١٩٨٥ الاحتفالات التي اقيمت بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على اقامة مسجد قرطبة ، وقد حضر الاحتفالات كل من فيليب غونزاليس رئيس الحكومة الاسبانية وخافيير سولانا وزير الثقافة ، واسقف المدينة اغناتي فلوريدو . . وينتظر أن تقام عدة احتفالات في جميع انحاء اسبانيا خلال العامين القادمين بهذه المناسبة التاريخية العظيمة .

سيرة جين أوستن

صدر في الولايات المتحدة الامريكية كتاب عن سيرة الروائية البر يطانية جين اوستن للكاتب جون هاليبر ين ، وقد واجه الكاتب عدة عقبات في كتابة سيرتها الذاتية لأنها لم تترك اي مذكرات شخصية ، إلا بعض الرسائل المتبادلة بينها وبين اختها وخالها ، وقد استخلص المؤلف ملامح شخصيتها عن طريق معالجتها لشخصيات رواياتها .

تعتبر جين اوستن من أعظم كتاب الرواية في الأدب الانكليزي ، وتصور رواياتها مجتمعاً محدوداً ، ومع ذلك تعد نماذج كاملة للحياة الاجتماعية لما تتميز به من قدرة على المشاهدة وخلق الشخصيات الحية ، واشاعة روح الدعابة والسخرية الخفيفة .

سيرة ت . س . اليوت

تعد هذه السيرة أحدث ماكتب عن معاناة الشاعر ت . س . اليوت الذي ولد في اميركا . وعاش معظم حياته في انكلترا ، ونال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٨ . يأتي الكتاب في ٤٠٠ صفحة وقداصدرته دار سيمون للنشر . أما مؤلفه فهوبيتر اكرويد الذي يكتب اكثر مايكتب للسينما والتلفزيون ، وما يميز هذا الكتاب عن غيره من الكتب التي كتبت عن اليوت انه يتناول حياته ومأساة زوجته التي ادخلت مصحة للأمراض العقلية . ويقال ان اليوت ساهم الى حد بعيد في وصولها الى هذه الحالة من واقع بعض المسرحيات التي الفها ونالت رواجا كبيراً مثل(جريمة قتل في الكاتدرائية) ، و (حفلة الكوكتيل) ، و(الموظف المؤتمن) ، التي زادته شهرة على

شهـرة . . وينقـل الكاتب حواراً من هذه المسرحيات ينطبق عل مارواه الناس الذين عاشوا حول اليوت عن احداث حياته .

وفاة المؤرخ البر يطاني برايانت

توفي في سالـزبـوري بانكلترا المؤ رخ الـبر يطاني آرثر برايانت عن عمر يناهز الخمسة والثمانين عاماً . .

اشتهر برايانت بكتابه الملحمي المؤلف من ثلاثة مجلدات حول الحروب التي قام بها نابليـون بدءاً من أعـوام المحنة ومروراً بأعوام الانتصار . . وتشمل أعـمالـه الـواسعـة « الانتصـار » على ثلاثيـة حول الحرب العالمية الثانية وسير تشـارلـز الثـاني والأمـير ال نيلسـون ودوق ولينغتـون وكاتب اليوميات صموئيل بيبيس ، وكان قد نشر كتابه الأخير روح انكلترا عام ٩٨٣ .

٣٠٠ كتاب عن قضايا الاستشراق

أعلنت ادارة تحريـر الأدب الشـرقي في دار العلم بمـوسكـو أنها ستصدر خلال العام الجاري مايزيد عن مئتي كتاب يعالج مختلف قضايا الاستشراق .

يُكـرّس قسم كبـير من هذه الكتب لقضـايـا الوطن العربي من مختلف الجـوانب السيـاسيـة والاقتصـاديـة والاجتـماعيـة ، بينها كتاب عن العلاقات الاقتصادية بين البلدان العربية ، وآخر عن تاريخ شبه الجزيرة العربية في بداية القرون الوسطى ، وكتاب عن الاصلاح الزراعي والصراع الطبقي في مصر في الفترة بين أواخر الاربعينات وأوائل الثمانيات ، اضافة الى كتب أخرى تلقي الأضواء على جوانب مجهولة من تاريخ المغرب العربي .

قاموس للغة السومرية

صدر في الأسواق الاميركية أول قاموس في العصر الحديث للغة السومرية ، والجدير بالذكر ان اللغة السومرية لم تستعمل منذ أربعة آلاف سنة ، وقد ظهرت حضارتها في العراق فيما بين النهرين منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، ويرجع الى السومريين الفضل في اختراع نظام الكتابة بالخط المسماري الذي يلائم الألواح التي صنعوها من الطين ، وهم أول من سن قانوناً مدنياً مكتوباً، وما زالت طريقتهم الستينية في العد مستعملة في تقسيم اليوم الى اربع وعشرين ساعة .

« العقل البشري » كتاب لريتشارد ستاك

صدر في نيويورك كتاب جديد بعنوان « العقل البشري » للطبيب ريتشارد ستاك . يقول الكاتب ان السنوات الأخيرة من القرن العشرين شهدت تطوراً كبيراً في علم النفس والأعصاب مما ساعد العلماء كثيراً في معرفة الكثير عن عقل الانسان .

وتناول المؤلف بالشرح المبسط كيف ان عقل الانسان مقسم الى جزءين كل جزء مختص بوظيفة محددة ، كذلك تعرض الكاتب للذاكرة ، وكيف ان هناك نوعين من الذاكرة القريبة المدى والبعيدة المدى .

جوائز لارنست همنغواي

حصل الروائي الاميركي ارنست همنغواي خلال هذا العام على عدة جوائز أدبية بلغت قيمتها مئة وخمسين الف دولار .

وقد صرح المشرفون على الجوائز في باريس ان هذه الجوائز منحت له تقديراً لتميزه الأدبي عالمياً ، ولأن أعماله لاقت نجاحاً عظيماً وترجمت الى معظم لغات العالم ، وتخصص هذه الجوائز لأفضل الأعمال والدراسات عن حياة وأعمال المؤلف .

مخلفات المشاهير في باريس

شهدت باريس معرضاً ضم عدة مخطوطات نادرة وتوقيعات لكبار المشاهير في الفن والموسيقى والأدب مثل اندريه جيد وأناتول فرانس ومارلين مونرو والفيس بريسلي . . كما ضم صوراً لشارلي شابلن مرسومة بيده وبأسلوب الكاريكاتور ، وتوقيعاً للمخرج هيتشكوك ، وبين المخطوطات النادرة أيضاً رسالة من الملك هنري الرابع الى معشوقته . . وكانت المكتبة قد باعت في الشهر الماضي كراسة التجارب للعالمة الفرنسية ماري كوري بمبلغ ٣٦٠ الف فرنك ، كما باعت سنة ١٩٦١ رسالة بخط يد جان دارك بمبلغ ١٧٠ الف مارك الماني .

ترجمة رسالة الغفران الى الفرنسية

صدرت في باريس مؤخراً الترجمة الفرنسية الأولى لرسالة الغفران للشاعر أبي العلاء المعري عن دار غاليمار الفرنسية بالتعاون مع منظمة اليونسكو ، وقام المستشرق الفرنسي فينسان مونتيه بالترجمة من العربية الى الفرنسية .

ترجمة (ألف ليلة وليلة) الى البلغارية

تقوم دار النشر « نارودنا كولتورا » الرسمية في بلغاريا بترجمة كتاب ألف ليلة وليلة بنصه الكامل الى اللغة البلغارية . وسيصدر في ستة مجلدات مزينة بالرسوم . وكانت الدار ذاتها قد ترجمت من قبل كتاب . « سبعون » لميخائيل نعيمة . وبعض الأعمال المختارة لجبران خليل جبران .

الاحتفال بذكرى مرور ١٥٠ عاماً على ولادة مارك توين

تحتفل الاوساط الأدبية والفنية في الولايات المتحدة بذكرى مرور ١٥٠ عاماً على ولادة الكاتب الاميركي الشهير مارك توين الذي توفي عام ١٩١٠ . ويقام بهذه المناسبة في مدينة هانيبال مسقط رأس الكاتب مهرجانات فنية وأدبية يشارك فيها كتاب وفنانون من جميع أنحاء العالم في مسابقات خاصة بأبحاث وأشعار عن حياة مارك توين وأعماله .

وقد ولد مارك توين الذي يعتبر رائد الأدب الاميركي الحديث في مدينة هانيبال عام ١٨٣٥ التي جعلها مسرحاً لأحداث أشهر رواياته مغامرات « توم سوير » عام ١٨٧٦ ومغامرات « هكليري فين » عام ١٨٨٤ التي يروي فيها ذكريات طفولته .